جامعة عين شمس
كلية البنات
قسم التاريخ

أبيلار ومكانته في الثقافة الأوروبية الوسيطة (١٠٧٩-١١٤٢م)

رسالة مقدمة من الباحث
ياسر عبد المعبود عبد الله
لنيل درجة الدكتوراه في الآداب
قسم التاريخ - فرع تاريخ العصور الوسطى

تحت إشراف

أ.د/علية عبد السميع الجنزورى	أ.د/إسحق تاوضروس عبيد
العصور الوسطى بكلية	أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية
جامعة عين شمس	الآداب جامعة عين شمس

٢٠٠٧م



تاريخ موافقة مجلس الكلية

في ٢ / ٧ / ٢٠٠٧ بالتفويض

بعد تشكيل لجنة الحكم من :

١- أ.د/ علية عبد السميع الجنزوري أستاذ تاريخ العصور الوسطى بالكلية

٢- أ.د/ سعيد تاوضروس حبيب " " " آداب عين شمس

٣- أ.د/ فايزة نجيب إسكندر " بآداب [illegible]

٤- أ.د/ عفاف السيد صبره " بكلية الدراسات الإنسانية جامعة الأزهر.

تاريخ موافقة مجلس الجامعة على التوصية بمنح الطالب

م

[illegible] ٤/٩/٢٠٠٧ [illegible] ٤/٩

[illegible]

T. 1914

أ.د
أ.د
جامعة عين شمس
كلية البنات
قسم التاريخ

أبيلار ومكانته في الثقافة الأوروبية الوسيطة (١٠٧٩-١١٤٢م)

رسالة مقدمة من الباحث

ياسر عبد المعبود عبد الله

لنيل درجة الدكتوراه في الآداب
قسم التاريخ - فرع تاريخ العصور الوسطى

تحت إشراف

أ.د/علية عبد السميع الجنزورى
أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية
البنات جامعة عين شمس

أ.د/إسحق تاوضروس عبيد
أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية
الآداب جامعة عين شمس

٢٠٠٧م

جامعة عين شمس
كليـــة البنـــات
قســـم التاريـــخ

أبيـــــلار ومكانته في الثقافـــــة الأوروبيـــة الوسيطـــة (١٠٧٩-١١٤٢م)

رسالـــة مقدمة من الباحـــث
ياســـر عبـــد المعبـــود عبد الله
لنيـــــل درجـــــة الدكتـــوراه في الآداب
قســـم التاريخ - فـــرع تاريخ العصـــور الوسطـــى

تحت إشراف

أ.د/علية عبد السميع الجنزورى
أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية
البنات جامعة عين شمس

أ.د/إسحـــق تاوضروس عبيـــد
أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية
الآداب جامعة عين شمس

٢٠٠٧م

جامعة عين شمس
الكلية: البنات
الدراسات العليا

اسم الطالب: ياسر عبد المعبود عبدالله

الدرجة العلمية : دكتوراه

القسم التابع له : قسم التاريخ

اسم الكلية : البنات

الجامعة : عين شمس

سنة التخرج : ١٩٩٦م

سنة المنح :

شروط عامة :

جامعة عين شمس

الكلية : البنات

إدارة الدراسات العليا

رسالــــــةدكتــــــوراه

اســـم الطالــــب : ياسر عبد المعبود عبدالله

عنوان الرسالــــــة : أبيلار ومكانته فى الثقافة الأوروبية الوسيطة (١٠٧٩-١١٤٢م)

اســـــم الدرجــــة : دكتوراه

لجنــــةالإشـــــــراف

١- الاســــــم : أ.د/ عليــــة عبــــد السميـــع الجـــــــنزورى

الوظيفــــــة: أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية البنات جامعة عين شمس.

٢- الاســــــم : أ.د/ اسحــــــق تاوضــــروس عبيــــد

الوظيفــــة : أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب جامعة عين شمس.

تاريخ البحث / / ٢٠٠٧م

الدراسات العليا

ختم الإجازة

أجيزت الرسالة بتاريخ

/ /

موافقة مجلس الكلية

/ /

موافقة مجلس الجامعة

/ /

شكر وتقدير

أتوجـــه بكل الشكر والعرفــان والتقدير إلى العالمة الجليلـــة ، والأم الحانية ، والأستـــاذة الكريمة الفاضلـــة ، الأستاذة الدكتورة **علية عبد السميع الجنزورى** أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية البنـــات جامعة عين شمس ، على رعايتها الكبيرة ، وملاحظاتهـــا وتوجيهاتهـــا السديدة التى أمدت بها الباحث طوال فترة الدراسة ، والتى لم تبخل بوقت أو جهد أو مشورة ، وهو ما ينعكس على كل سطر في هـــذه الدراســـة ، فأدعو الله تعالى أن يُمتعهـــا بالصحة والعافية ، وأن يمنحها عنى وعن كل الدارسين خير الجزاء .

كمـا أتقـدم بكـل الشكـــر والعرفـان والتقديــر إلى العــالم الجليــل ، والأستـــاذ الكريـم ، الأستاذ الدكتور **إسحـــق عبيـــد** ، أستاذ التاريخ الوسيط بكلية الآداب جامعة عين شمس ، والـــذى كان لى شرف التتلمذ على يديه منـــذ مرحلة إعداد رسالة الماجستير ، إضافة لنصائحه وتوجيهاته التـــى لها دائما أكبر الأثر على كل دراسة ، فله منى خالص الإعزاز والتقديــر ، وجزاه الله عنى خير الجزاء .

الباحث


المحتويات

رقم الصفحة



المقدمة

يعد القرن الثاني عشر الميلادي من أهم الفترات التى شهدها الغرب الأوربـــي فـــى العصــر الوسيط وخاصة فى الناحية الفكرية. فاعتباراً من القرن الحادي عشر ، بدأت أوربا تدخل فـــى فــترة استقرار جديدة فى النواحى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وذلك بعد أن خفت غزوات الجرمـــان وبعد أن استرد المجتمع أنفاسه اللاهثة ، مما أثر بالضرورة على ذلك الانتعاش التدريجي الذى أصـــاب النهضة الفكرية.

كذلك لم يكن النمو الثقافي محدوداً بحدود بلدٍ واحد كما كان الحال فى نهضة القرنين الرابـــع عشر والخامس عشر ، وعلى الرغم من أن الزعامة كانت لفرنسا ، فقد ساهمت كـــل مـــن إنجلــترا وإيطاليا وألمانيا – وإن كانت مساهمتها أقل – فى الإنجازات الفكرية التى جرت فى القـــرن الثـــاني عشر. على سبيل المثال، فقد ولد حنا السالزبورى الذى كان واحداً من أبرز الشخصيات فـــى القـــرن الثاني عشر في إنجلترا ، وتعلم فى فرنسا ، وعمل فى إيطاليا ، ثم عاد إلى إنجلـــترا مـــرة أخـــرى ، واختتم حياته العملية فى فرنسا حيث شغل منصب أسقف شارتر . لقد كانت حركة الإبداع الثقافي فـــى القرن الثاني عشر حركة أوربية كما أن الشعور القومي فيها كان ضئيلاً ، فلم يكن هناك إحساس علـــى الإطلاق بالتقسيمات التى تصنعها الحدود السياسية على القادة الثقافيين مثلما حـــدث بعـــد ذلـــك مـــن القرون.

هذا وتتجلى آثار تلك النهضة الثقافية واضحة فى فرنسا على وجه الخصوص ، وهـــى التـــى تزعمت الثقافة الأوروبية بدءاً من القرن الثاني عشر ، وما كان يصدر عنها كان ينعكس بــــالضرورة على بقية بلدان أوروبا . لقد ظهرت فى هذا القرن مجموعة عظيمة من قادة الفكر تلاقى كل منهم مـــع الآخر على ضفاف نهر السين ، وكانوا يمثلون كافة الجوانب الهامة فى التغير الثقافي فى تلك الفـترة ، كما كانوا هم سادة هذا التغير. ومن الممكن أن نعتبر أن تاريخ الفكر فى العصور الوسطى فيمـــا بعـــد كان نتاجاً لما خلفوه من تراث ثقافي واسع الثراء .

وعلى الرغم من المكانة الفائقة الأهمية التى كان يحتلها هؤلاء القـــادة ، فإنـــهم لـــم يكونـــوا شخصيات محورية فى حركة النمو الثقافي التى عاشتها أوروبا القرن الثاني عشر ، فقد احتـــل هـــذا المركز الفيلسوف الفرنسي "بيير أبيلار " Abelard (١٠٧٩ – ١١٤٢م) وهو أهم شخصية فلســـفية فى القرن الثاني عشر ، نظراً لما امتاز به من كفاية نادرة ومواهب عقلية ممتازة وجرأة فى الابتكـــار والتجديد حتى أنه يمكننا وضعه بين أعلام فلاسفة العصور الوسطى قاطبة .

لقد كان أبيلار أحد أولئك الرجال الذين ظلوا ما عاشوا ، يثيرون إمـــا أعمـــق الإعجـــاب أو أعنف الكراهية ، فهو من أولئك النفر الذين لا يستطيع المرء أن يقف إزاءه جامداً غير مبال. أتيح لـــه

أن يكون منبهاً ومثيراً للأذهان بفضل ما أوتى عقله من نصاعة ، وما أوتى ذكاؤه من حدة ، وبفضـــل تعدد جوانبه ومزاياه وما اجتمع فى شخصيته من متباينات حادة .

لقد دعا هذا المفكر الى حرية الفكر ومناهضة الكنيســة وهيمنتــها علــى التعليــم والحركــة التعليمية فى أوروبا ، وهو أيضا صاحب فلسفة الشك والتشكك الشهيرة فى كل شيء حتى فى طبيعـــة المسيح نفسه ، وقد عاش فى باريس مدينة الفكر والعلم ، وكان من أعظم أساتذتها ويعد بحـــق زعيـــم نهضة تحرير الفكر فى القرن الثاني عشر الميلادي .

تتلمذ أبيلار على يد القديس أنسليم St. Anslem الذى كان من أعظم مفكري القرن الحــادي عشر الميلادي ، وقد تلقى أبيلار علومه على يد هذا العالم وغيره من مشاهير المنطــق فــى مدرســة باريس وحذق كثيراً من مسائل المناظرة والجدل ، وتفوق على مناظريه ومجادليه حيثما حل باعتبـــاره أستاذاً للفلسفة وباعتباره صاحب مدرسة خرجت أجيالاً من الطلاب الذين أثاروا حركة علميـــة بالغـــة وثورة جدلية وفكرية حرة كان أبيلار أول من أجج نارها ، والذى مكن لبـــاريس أن تصبـــح مركـــزاً للتفكير الحر والبحث العلمي المتقدم فى هذه الفترة من العصر الوسيط.

لقد أسس أبيلار مدرسة بباريس كانت محط أنظار الطلاب والدارسين حتى اكتظـــت بـــهم ، اهتم فيها بتلقين تلاميذه فلسفته الشهيرة فى الشك ، حيث اعتبر الشك الأساس الذى يقوم عليه اليقيـــن ، فقد دعا الى استخدام العقل وإعماله فى كل الأمور ، ونادى بتطبيق هذا المبدأ على الدين نفسه . غـــير أن ظروفاً خاصة ألزمت أبيلار أن يعكف فى أحد الأديرة حيث ظل يتابع مناقشاته ومجادلاته العلميـــة التى أفزعت رجال الدين ، لاسيما وأنه دعا الى التقليل من سلطة الكنيسة ورجال الدين ، فاضطهدتـــه الكنيسة، وعقد مجمع سواسون "Soison" الديني من أجله عام ١١٢٢م ، حيث حكم عليه بالإلحـــاد. وقد استعاد أبيلار سطوته بعد ذلك حيث اضطرت السلطات الدينية إلى العفو عنه. وما لبث أن التقـــى فى هذه الأونة بالقديس برنار "St. Bernard" المتحفظ الداعي إلى التقليدية فى الشئون الدينيـــة ، ولهذا جرى الجدل عنيفاً بين الرجلين ، حتى اعتبر النقاش والجدل بينهما ملحمة فريدة أمام المؤرخيـــن والكتاب ، وكل من اهتم بهذه القضية ، قضية الدفاع عن العقيدة أمام حرية الفكر المستمدة من الفلســفة والمؤيدة بالمنطق والجدل.

وما لبث أن استهوى أبيلار قلوب الناس بقوة بيانه وبراعة منطقه مما ضايق رجـــال الديـــن وأفزع البابا إنوسنت الثاني "Innocent II" الذى سارع بالحكم عليه من جديد بالإلحاد ، ففر أبيـــلار هذه المرة إلى دير كلوني "Cluny" وأثر الخلود إلى الوحدة والتعبد بقية حياته عاكفاً على الدراســـة والتحصيل والتأليف إلى أن وافته المنية فى عام ١١٤٢م ، وذلك بعد أن دفعت فلسفته بعجلـــة التقـــدم إلى الأمام وحررت الفكر الإنساني من القيود البالية ومهدت لظهور عصر النهضة فيما بعد .

ويعد أهم جانبين فى فكر أبيلار هما اكتشافه المتجدد للشخصية الفردية ، وأراؤه فى مشـــكلة الكليات "Universals" . فالترجمة الذاتية التى كتبها أبيلار بعنوان " تاريخ المصائب " "H istoria Calaitatum" هى نقطة تحول حرجة فى اكتشاف القرن الثاني عشر للشخصية الفردية من جديـــد. فهذه الترجمة تقف على النقيض تماماً من النمطية التى ميزت العصور الباكرة . ذلك أن أبيلار يتلـــذذ بعرض خصاله ويبتهج وهو يكشف للعالم عن حقائق حياته ، حتى ما لم يكن يحظى برضاء المجتمـــع وقبوله من هذه الحقائق. وهكذا يعد كتابه هذا هجوماً على الأفلاطونية "P latonism" التـــى جعلـــت الكلي يبتلع الفردي ، وهو نفس الاتجاه أيضاً المعادي للأفلاطونية فيما يتعلق بمشكلة الكليات ، والتـــى جلبت على أبيلار العداء والبغضاء خاصة من رجال الدين .

لقد مرت شهرة أبيلار بكثير من التقلبات بين المؤرخين. ففى القرن التاسع عشر كـــان يُعـــد سابقة وتمهيداً للحركة البروتستانتية . وفى النصف الأول من القرن العشـــرين ســـرت موجـــة مـــن التجاهل والتقليل من شأن أعماله. وفى الدراسات الجديدة للفكر الوسيط بدأت أهميته تتضـــح ، ولكـــن الحاجة مازالت قائمة إلى دراسة أعماله دراسة عميقة متأنية. على أية حال ، فـــإن الفكـــر الأوروبـــي توسع فى قبول مؤلفات أرسطو إبان السنوات الخمسين التى أعقبت وفاة أبيلار متأثراً بالحريـــة التـــى أججها هذا الفيلسوف ، بيد أن فلسفة أبيلار لم يوقفها أو يقلل من تأثيرها فيما بعد سوى الفلسفة العربيـــة الإسلامية ، إلا أن هذه الحقيقة لا تقلل من أهمية مذهب أبيلار فى الثقافة الراقية فى العصـــر الوســـيط بأوروبا .

فى ضوء ما سبق كان منهج البحث وخطته ، حيث أن الموضوع على أهميته ، لـــم تتناولـــه الأبحاث العلمية بالدراسة وذلك لتشعب عناصره وتعددها ،كما أن المراجع الحديثة لم تتنـــاول ســـوى جوانب محددة مع كثرة ما يشوبها من أخطاء : فمعظم المؤرخين الذين قاموا بدراسة سيرة أبيلار ،لـــم يتناولوا سوى جانب علاقته مع رفيقة دربه إيلويز ، كما أن البعض الآخر تناول هذه السيرة من جـــانب حياة الدين وما تعرض له أبيلار من مضايقات من رجال الكنيسة بسبب خروجه على تعاليم الكنيســـة من وجهة نظرهم ، على أن كثيراً من المؤرخين حاولوا الكشف عن بعض أســـرار جوانـــب حياتـــه الأخرى سواء الجانب الإنساني أو تأثيره وتأثره بالمجتمع الذى عاش فيه ، غير أنهم لم يحققوا تقدمـــاً في هذا الاتجاه ولم يخرجوا إلا بشذرات بسيطة ، وذلـــك لصعوبـــة الموضـــوع والتشـــعب الشـــديد لعناصره. فبالرغم من تعدد مصادر الدراسة اللاتينية وصعوبة مادتها، والتى هـــى أولـــى مشـــكلات الدراسة فى هذا الجانب من الدراسات التاريخية ، تأتى المشكلة الثانية متمثلة فى اتساع جوانـــب هـــذه الشخصية ، فالبعض ينظر لأبيلار على أنه فيلسوف القرن الثانى عشر ، كما ينظر له البعـــض علـــى أنه صاحب أفضل سيرة ذاتية فى ذلك الوقت ، كما أنهم يعدون مراسلاته مع إيلويز على أنها أبلغ مـــا كتب فى العاطفة واللغة والنصائح والإرشادات ، فى حين يعتبره البعض من أفضل رهبـــان العصـــر الوسيط ، كما أن مؤلفاته اللاهوتية مازالت تحظى بنفس الاهتمام فى المجتمعات الأوروبية حتـــى الآن

.إضافة لما سبق ، فقد حار الكثيرون فى تعاليمه وأشعاره وجوانب فروسيته وأساليبه اللغوية التى يصعب فهمها والإلمام بها ، وهو ما كان سبباً فى إدانته والحكم عليه بالهرطقة. لهذا فسوف يتبع الباحث فى دراسته منهج العرض الوصفي فيما يتعلق بالمشكلات التى تحتاج إلى تأسيس أولى مع استخدام المنهج التحليلي فى قراءة النصوص واستخلاص المادة التاريخية منها ، وذلك فى محاولة ليس للغوص فى لاهوت أبيلار وفلسفته ، بل لتحديد مركزه ومكانته فى ثقافة ذلك العصر، مع بيان أثره وتأثره بما كان يجري حوله من أحداث باعتباره شخصية محورية فرضت سلطانها على العقل والثقافة والمجتمع الأوروبي فى ذلك الوقت.

وقد وضع الباحث تصوراً للبحث يتضمن أربعة فصول، يسبقها فصل تمهيدى وعرض لأهم المصادر والمراجع وذيله بخاتمة ، ثم قائمة بالمصادر والمراجع التى تم الاعتماد عليها . يتناول الفصل التمهيدى طبيعة المناخ الثقافى وازدهاره فى القرن الثانى عشر الميلادى ،خاصة حياة المدارس والاتجاه الفكرى الجديد الخاص بدراسة الجدل ، مع التعريف بأبيلار من خلال موجز تاريخى لحياته، مع عرض وتعريف بأهم الشخصيات المحورية خاصة سان برنار وإيلويز .

أما الفصل الأول فيتناول ظهور أبيلار واكتساب المعرفة فى عصره : من خلال طبيعة العلم فى ذلك الوقت واختلاط العلم بالسحر أحياناً ،وكذلك اكتساب المعرفة والتفكير المدرسى ،إضافة إلى كيفية تعلم القراءة والكتابة وأهم الأعمال الكلاسيكية اللاتينية التى كانت سائدة فى عصر أبيلار .

ويتناول الفصل الثانى: أبيلار الأستاذ عالم المنطق ، حيث يبحث فى طبيعة لقب الأستاذ وبدايات أبيلار كأستاذ والأسس التى كانت تقوم عليها سلطة الأستاذ وكتابات أساتذة أبيلار ، كذلك طريقة التدريس وما كان يلزمها من معاجم أو قواميس ، ويختتم هذا الفصل بأبيلار داخل الفصل وما كان يقوم به من أعمال وبرنامجه الدراسى . أما أبيلار عالم المنطق ، فيتناول أبيلار وكتابات أرسطو والهدف من دراسة المنطق وأسلوب دراسة المنطق ،وكذلك العلاقة مع روسلان وتعريف بالحقيقة المنطقية والحقيقة الإلهية ، إضافة إلى التعريف بمنطق الثالوث وطبيعة علم المنطق مع العقيدة المسيحية .

ثم تناول الباحث فى الفصل الثالث أبيلار والجوانب الانسانية ممثلة فى فروسية أبيلار وما كان يدور حوله من صراعات ،كذلك صورة الفارس لدى أبيلار وموقفه تجاه الحرب ، على أن الشيء الذى برع فيه أبيلار كان الحرب المدرسية التى كان يعشقها رغم ما تجلبه عليه من مشاكل .
أما أبيلار العاشق ، فيتناول حبه لإيلويز ، وطبيعة الحب بينهما رغم ما كان يعترى العلاقة بينهما من تقلبات ،والفرق من وجهة نظرهم بين الحب الإلهي والحب الإنساني ، كذلك ما كان يدين به أبيلار لإيلويز وتأثير إيلويز على كتابات أبيلار.

أما أبيلار الإنسان ،فيتحدث عن الشباب والهيئة وصورة آدم وحـــواء فـــى كتابـــات أبيـــلار وإيلويز فى تلك الفترة ورواية أبيلار لزواجه وما حدث بعد ذلك من مشكلات أدت إلى الانفصال ومـــا عانى منه أبيلار واعتبره أعظم المصائب فى حياته وكيف تعامل مع الوضع الجديد له .

وجاء **الفصل الرابع** ليتناول أبيلار وحياة الدين ، وهى الحياة التى اختتم بها أبيـــلار مشـــواره الدنيوى بداية من دخوله سلك الرهبانية وما كان يعتري حياته الرهبانية من متناقضـــات كبـــيرة مـــع الإشارة لدور الرهبان كمعلمين وطبيعة التعليم الرهبانى ، ثم تنقل أبيلار بين الأديرة من سان دينيـــس إلى دير الباراكليت الذى أنشأه بنفسه ،ثم دير سان جيلداس وما صنعه فى تلك الفترة مـــن مشـــكلات ، كذلك طبيعة العلاقة بين أبيلار وإيلويز فى الحياة الرهبانية ،وختاماً بإنجازات أبيلار كراهب .

فى تلك الفترة كان أبيلار قد كتب كثيراً فى علم اللاهوت ، فتم تسليط الضوء علـــى طبيعـــة تلك الكتابات مع الإشارة لتطور لاهوت أبيلار واختياره للثالوث موضوعاً للاهوت ، ونهايـــة بمعنـــى الخلاص الذى ركز عليه أبيلار فى كتاباته وكتابات معاصريه أيضاً . أما فى نهاية حياة أبيلار وبعـــد أن تم الحكم عليه بالهرطقة ، فقد تناول البحث أيضاً بالدراسة البدعة التى تعرض لها أبيـــلار وكيفيـــة محاربة الهرطقات فى ذلك العصر ،مع الإشارة إلى الهجوم الذى تعرض له أبيـــلار مـــن روســـلان أستاذه ، ومحاكمات أبيلار فى مجالس سواسون وسنس ، مع الإشارة إلى الدور الذى قـــام بـــه ســـان برنار من هجوم شديد على أبيلار وكذلك الدور الإيجابي الذى قام به بطرس الموقر من وقوفه بجانبـــه حتى نهاية حياته .

ثم بعد ذلك يختتم الباحث دراسته بوضع خاتمة تتناول أهم ما اشتمل عليه البحث مـــن دلالات ونتائج ، إضافة إلى قائمة المصادر والمراجع ، وملخص للبحث باللغات العربية والإنجليزية .

وبعد، أتوجه بكل الشكر والعرفان والتقدير إلى العالمة الجليلـــة ، والأم الحانيـــة ، والأســـتاذة الكريمة الفاضلة ، الأستاذة الدكتورة علية عبد السميع الجنزورى ،أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكليـــة البنات جامعة عين شمس ، على رعايتها الكبيرة ، وملاحظاتها وتوجيهاتها السديدة التى أمـــدت بـــها الباحث طوال فترة الدراسة ، والتى لم تبخل بوقت أو جهد أو مشورة ، وهو ما ينعكـــس علـــى كـــل سطر فى هذه الدراسة ، فأدعو الله تعالى أن يمتعها بالصحة والعافية ، وأن يمنحها عنى وعـــن كـــل الدارسين خير الجزاء .

كما أتقدم بكل الشكر والعرفان والتقدير إلى العالم الجليل ، والأستاذ الكريم ، الأســـتاذ الدكتـــور إسحق عبيد ، أستاذ التاريخ الوسيط بكلية الآداب جامعة عين شمس ، والذى كان لى شـــرف التتلمـــذ على يديه منذ مرحلة إعداد رسالة الماجستير ، إضافة لنصائحه وتوجيهاته التى لها دائماً أكبر الأثـــر على كل دراسة ، فله منى خالص الإعزاز والتقدير ، وجزاه الله عنى خير الجزاء .

كما يسعدني أن أتقدم بخالص الشكر والتقدير للأستاذ الدكتور فايز نجيب إسكندر ،أستاذ تـاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب جامعة بنها ،والأستاذة الدكتورة عفاف سـيد صـبره ، أسـتاذ تـاريخ العصور الوسطى بكلية الدراسات الإنسانية بجامعة الأزهر ، على تفضل سـيادتهما بالموافقـة علـى مناقشة هذه الرسالة بالرغم من مشاغلهما الجمة ، فلهما منى كل الشكر والإعزاز والتقدير ،مـع وعـد منى بأن أخذ كل ما سيوجهانه إلى من ملاحظات ،وأن أضعها نصب عيني سواء عنـد تقديـم نسـخ الرسالة للكلية أو عند طبع الرسالة فى كتاب .

كما أتقدم بكل الشكر والتقدير إلى كل من مد لى يد المساعدة سواء بالمصـادر أوبـالمراجع أو بالنصح والإرشاد والتوجيه وأخص بالذكر الأستاذ الدكتور محمد مؤنس عوض الأستاذ بـآداب عيـن شمس ، والأستاذ الدكتور حاتم الطحاوى الأستاذ المساعد بآداب الزقازيق ، والدكتـورة زينـب عبـد المجيد المدرس بآداب الزقازيق ،والدكتور الأمين أبو سعده الأستاذ المساعد بآداب طنطا ، والدكتـور عبد العزيز رمضان المدرس بآداب عين شمس ، والأخ الأستاذ محمد فـوزي ،بالجامعـة الأمريكيـة بالقاهرة ، والدكتور سمير سيد، الأستاذ المساعد بجامعة مونبلييه الفرنسية .
كما أتقدم بكل الشكر والعرفان إلى السادة : الأب جان ميرجو ، والأب رينيه فانسون ، بديـر الآبـاء الدومنيكان بالقاهرة على المساعدات القيمة التى قدموهـا للبـاحث ، والأب منصـور بديـر الآبـاء الفرنسسكان ، والسيدة مارسيل جالابير مدير مكتبة المركز الثقافى الفرنسى بالقاهرة ، وإلـى السـادة أمناء مكتبات ، المكتبة المركزية بجامعة عين شمس ، المكتبة المركزية بجامعـة القـاهرة ، مكتبـة المركز الثقافى الفرنسى بالقاهرة ، مكتبة كلية اللاهوت الإنجيلي بالقاهرة .

وأخيراً، فهذا ما أعانني الله عليه ، فإن أصبت فمن الله ، وإن كانت الأخرى فمـن نفسـي ، وحسبي محاولة الاجتهاد ، والله ولى التوفيق .

****


عرض وتحليل
لمصادر البحث

تعالج هذه الدراسة موضوع النشاط الفكري بباريس في القرن الثاني عشر الميلادى، وذلك من خلال حياة وسيرة أبيلار وأعماله (١٠٧٩- ١١٤٢م). وهى فترة زاخرة بالكثير من الأحداث الهامة سواء على المستوى الفكري، أو المستوى الاجتماعي والديني وكذلك السياسي، والذى أثر بالضرورة على الحالة الثقافية بباريس في تلك الأونة. فالقرن الثاني عشر الميلادي يتميز دون غيره بالنهضة الشاملة التى بدأت بدايتها في فرنسا، ثم امتدت بعد ذلك وأثرت في بقية القارة الأوروبية، وكان على رأس تلك النهضة الازدهار الثقافي الذى ميزها. لهذا كان لزاماً على الباحث الاعتماد على مصادر وكتابات أبيلار أولاً، وكذلك المصادر التعليمية الأخرى التى كانت سائدة بباريس، إضافة لبعض المصادر الخاصة بالأدب والتاريخ ومحاضر جلسات بعض المجامع وقوانينها، إضافة لبعض المصادر السياسية التى تعكس بعضاً من أجزاء وجوانب الحياة الثقافية، إضافة أيضاً للمصادر الدينية والكنسية الخاصة بجانب كبير من هذه الدراسة. ويلى هذه المصادر بعض المراجع الحديثة الهامة التى أوردت الكثير من الأحداث الثقافية الخاصة بتلك الفترة مترجمة عن اللغة اللاتينية.

أولا: المصادر اللاتينية.

تعددت المصادر اللاتينية الخاصة بتلك الفترة موضوع البحث تبعا لتنوع الأحداث وتعدد المجالات أيضاً. فبداية من نهاية القرن الحادي عشر وبداية الثاني عشر الميلادي، وهى الفترة الخاصة ببدايات أبيلار، يأتي على رأس المصادر مؤلفات هذا الفيلسوف والتى تلقى الضوء على الكثير من فكرة وحياته وعلى رأسها كتابه تاريخ المصائب[1] الذى يحكى فيه بالتفصيل عن مجريات حياته وتنقله بين المدارس المختلفة بباريس، وصراعاته العديدة في الأديرة التى تنقل بينها، ومحاربته للنظم والتقاليد القديمة، وهو الصراع الذى كان سبباً في رمية بالهرطقة واستبعاده من باريس.

كذلك يأتى مؤلفه "أعمال غير منشورة"[2] الذى جمعة المؤرخ فيكتور كوزان، ليضيف لنا الكثير من المعلومات عن بعض مؤلفات هذا الفيلسوف التى فقدت وما كانت تحويه من أفكار. إضافة لعرض ملخصات عن باقى مؤلفاته الموجودة: فالكتاب يجمع بين دفتيه كتابين لأبيلار، إضافه لبعض التعليقات والملخصات. **فالكتابين هما**: نعم ولا sic et non، والجدل Dialectic. أما الملخصات والشروح فعن تعليقاته على بورفيرى وبؤثيوس وأراؤه عن أستاذة وليلم دو شامبو.

---

(١) Historia Calamitatum , éd. J. Monfrin, paris. 1999

(٢) Abelard, Ouvrages inédits, ed. V. Cousin, paris, 1836

والكتاب بهذا يعرض بشكل مفصل وكامل كتابين من أهم كتب أبيلار مع عرض النص اللاتيني وترجمته الفرنسية مما سهل على الباحث الرجوع لبعض الآراء والتعليقات حول بعض القضايا التى تناولتها الدراسة.

كذلك كتابه "أعمال مختارة"[١] الذى يلقى الضوء هو الآخر على بعض مؤلفات أبيلار مثل" حوار بين فيلسوف ويهودى ومسيحى"، وفى الجدل،ومدخل لعلم اللاهوت، والكتاب الأخير هو الذى تم إحراقه في سواسون وأعاد أبيلار كتابته من جديد، ويبدو أن هذه النسخة التى جمعها المؤرخ Gandillac هى إحدى النسخ التى نجت من المحرقة وتم تهريبها عن طريق بعض الأصدقاء أو الطلاب المخلصين.

أيضا مجموعةPatrologia Latina [٢] والتى تحوى مجلداً كاملا برقم (١٧٨) عن أبيلار، حيث تضم النص اللاتينى لمجموعة رسائل أبيلار وإيلويز، إضافة إلى كتاب اللاهوت، وكذلك بعض أشعار أبيلار التى كان يتغنى بها الطلاب في طرقات باريس. وقد أعقب المؤرخ Migne فى نهاية الكتاب حركات الهرطقة في باريس وما كان يخص أبيلار منها، إضافة إلى بعض الملاحظات عن موقف أبيلار من سان برنار.

لعل أهم ما يخدم الدراسة أيضاً هو تلك الرسائل[٣] المتبادلة بيت أبيلار وإيلويز، إضافة لرسائل بطرس الموقر إلى إيلويز بعد وفاة أبيلار، والتى تلقى الضوء على أدق التفاصيل فى حياة هذين العاشقين، كما أنها توضح كثيراً من الأمور التى حار فيها المؤرخون بشأن نية أبيلار تجاه إيلويز وكذلك قولهم في كراهيته للحياة الرهبانية. فالرسائل تكشف بشكل تام ما كان يدور بخلد كل من أبيلار وإيلويز منذ أن كان معلماً لها،وما كان من شبه قطع للعلاقات، وذلك بعد الأزمة التى تعرض لها أبيلار ودخوله هو وإيلويز حياة الرهبنة. وعلى الرغم من أن البعض قد شكك في صحة هذه الرسائل أو أنها قد تعرضت للطمس أو للتزوير، إلا أن بعض المؤرخين المحدثين المتخصصين قد أثبتوا بما لا يدع مجالاً للشك صحة هذه الرسائل وانطباق أسلوبها تماماً مع مؤلفات أبيلار وأسلوبه.

أما أهم المؤلفات التى أثارت الأزمات والمعارك ضد أبيلار منذ محاكمته فى سواسون ثم محاكمة سنس، فكانت مؤلفاته اللاهوتية التى بدأها بأكثر من إصدارة كان أولها مدخل اللاهوت، ثم توالت بعد ذلك أعماله اللاهوتية التى قسمها إلى اللاهوت المسيحي[٤] واللاهوت المدرسي[٥] وعلى

---

(١) Abelard, Ouvres Choisies, éd. M. de Gandillac, Paris, 1945

(٢) -----------, PL. Vol (178), Paris, 1855

(٣) The Letters of Abelard and Heloise, ed. Betty Radice, Penguim Book,1974

(٤) Abelard, Theologia Christiana, éd. E.M. Buytaert, CCCM (12), Paris, 1969

(٥) Abelard, Thologia Scholarium, éd. Buytaert, CCCM (13), Paris, 1987

الرغم من إدراج كتب اللاهوت في مجلد PL، إلا أن المؤرخ Buytaert قام بجمعة وترجمة أجـزاء كبيرة منه إلى اللغة الفرنسية مع التعليق علية، وهو بذلك قد أسدى خدمة كبيرة إلى الباحثين في هـــذا المجال،لما لهذا الكتاب من نسخ عديدة واختلاف في ترتيب فصول الكتاب بما لا يتناسب مـــع ترتيــب سنوات حياة أبيلار.

وبجانب النص اللاتيني وما يعتريه من صعوبة في فهم محتواه وكذلــك ترتيبــه، فقـد نشــر R.Thomas كتاب أبيلار حوار بين فيلسوف ويهودي ومسيحي[1] وذلك لكى يسهل البحث فيه، مـــع ترتيب عناصر الكتاب بشكل مقبول. غير أن المؤرخ Gandillac قد قام هو الآخر بجمع كتاب أبيلار وأسماه "Le Dialogue" [2] الذى قام بترجمته إلى اللغة الفرنسية مع التعليق علـيـــة بشــكل يســهل كثيراً على الباحثين قراءته وفهم محتوياته. وقد أوضح المؤرخ في هذا الكتـــاب اسـتحالة أن يكـــون المقصود بالفيلســـوف فـــي الحـــوار (الشخص المسلـم)، وهو الرأي الذى كان يسيطر علـــى عقـل بعض المؤرخيــن. وذكر أن الفيلسوف هو شخص يجرد عقلة تماماً من أيه أهـــواء ويتنـــاول بـــالنقد والتحليل تعاليم الديانتين اليهودية والمسيحية، ومع نقده لتسليم اليهودي والمسيحي بالمعتقدات اليهوديـــة والمسيحيـــة تسليماً غيبياً دون مناقشـــة.

وكذلك فقد قـــام كلا من Boyer,B.,& Mckeon,R., بجمع كتاب أبيلار "نعم ولا" [3] مـــع ترجمته إلى الإنجليزيـــة، وهو يحوى ما يقرب من مائة وثمانية وخمسين مسألة في العقيـــدة ،حيــث يعرض أبيلار بعـــض الآيات من الكتاب المقدس وكذلك بعض أقوال أباء الكنيسة والتـــى يبـــدو فـــي ظاهرهـــا التناقـــض، ثم يحاول أن يوفـــق بينهما باستخدام الجدل والمنطق دون أن يعـــرض أحكامـــاً نهائية، وهـــى الطريقة المدرسية التى اتبعها من بعدة بطرس اللمباردى وجراشـــيان وكذلـــك القديـــس توما الأكوينـــي.

وأخيرا تأتى آخر مؤلفات أبيلار الهامة والتى تتناول أخلاقيـــات العلـــم والتعلـــم والصفـــات الواجب توافرها في الدارسين وما إلى ذلك من نصائح وقد وضع لها أبيلار عنـــوان "الأخلاقيـــات" Ethicaأو "اعرف نفسك" "Scito te ipsum" وقد قام المؤرخ D.E. Luscombe [4]بترجمة هـذا الكتاب إلى اللغة الإنجليزية، مع التحليل والتعليق عليه.

---

(1) Abelard, Dialogus inter philosophum, Iudaeum et Christianum, éd. R. Thomas, Paris,1970

(2) Abelard, "Le Dialogue", ed. Jolivet et M.de Gandillac, Loussanne, 1981

(3) Abelard, Sic et Non, ed. Boyer, B. &Mckeon,R., London, 1977

(4) Abelrd, Ethics, ed. D.E. Luscombe, Oxford, 1971

أما عن مصادر تلك الفترة الهامة أيضاً، والتى تعكس الصورة الأخرى أو وجهه النظر الأخرى، فلعل ما كتبة القديس برنار هو خير شاهد على ذلك. فهو أكبر ممثل للفكر الديني الوسيط، ومن الشخصيات البارزة التى أخرجتها جماعة الأخوان السسترشيان المتحمسين للنظام البندكتى بعد الإصلاحات التى أدخلت عليه. كان القديس برنار يتمتع بنفوذ ديني كبير ونشاط فائق في حسم الكثير من القضايا من ناحية،والحماسة التى قادها لإنفاذ الحملة الصليبية الثانية وما تولاة من مناصب كنسية من ناحية أخرى. كذلك فقد وجه عناية فائقة للدرس والكتابة والتأليف وهو في فلسفته وتفكيره يقوم بالدفاع عن تعاليم الكنيسة مع ضرورة القضاء على أية بادرة تنم عن الهرطقة أو الخروج على التعاليم المسيحية. وكان هذا أحد الأسباب التى أدت إلى قيام صراع فكرى عنيف بينة باعتباره ممثلا للفكرة الدينية القديمة، وبين أبيلار زعيم الفكر الحر في القرن الثاني عشر.

ولعل "أعمال مختارة" له [١] يوضح الكثير من الآراء والمواقف التى كان برنار يعنف بها أبيلار ويهاجمه من خلالها ، كما تلقى الضوء على طبيعة فكر برنار وبعضاً من مراسلاته وعظاته.

كذلك يوجد مجلد كامل ضمن مجموعة PL يتناول سيرة وحياة ومؤلفات سان برنار[٢] وبه بعض مراسلات سان برنار مع البابا انوسنت الثاني بشأن أبيلار، غير أن الكتاب يغوص في مؤلفات برنار وعظاته وتأملاته العقائدية أو ما يسمى بالنزعة الزهدية لبرنار ومذهبه، ومن حسن الحظ أن قام الراهب J. Leclercq بإصدار مجموعات رسائل برنار في ثماني مجلدات[٣] اختص المجلد الثامن فقط بما يخص أبيلار سواء في آراء برنار عنه في سواسون وحتى مجلس محاكمته في سنس. وهذه الرسائل جميعاً تعكس وجهه نظر برنار ليس في أبيلار وحده, وإنما في كل محاولات الهرطقة أو أية تعاليم خارجة عن المسيحية من وجهه نظره بالطبع.

أما فيما يتعلق بالمصادر الخاصة بالمحيطين بأبيلار أو الذين ذكروا أشياء عنه فلعل كثيراً من الكتابات تغطى هذا الجانب. يأتى على رأس تلك المصادر ما يخص أساتذة أبيلار وكذلك أصدقاؤه المقربون وأيضاً بعض تلامذته الذين ساروا على نهجه وتشبعوا بآرائه، ناهيك عن المعارضين له أيضاً بما فيهم من أشعلوا ثورة محاكمته.

---

(١) Bernard, (St.), Oeuvres Choisies, traducion par M.M. Davy, 2tomes, Paris, 1946

(٢) Bernrard, (St.) Pl., Vol. 182 (1854)

(٣) Bernard, (St.), Letters, eds.J. Leclercq; H. Rochais, in Sancti Bernardi Opera, VIII, Rome, 1977

نذكر من أصدقائه بطرس الموقر، والذى قام G. Constable [1]بجمع كل رسائله في مجلدين،ويظهر فيهما الرسائل التى أرسلها بطرس لإيلويز وآرائه في حياة وتعاليم وكتابات أبيلار. وتعد نظرة بطرس الموقر تلك هى نظرة رجل الدين المستنير الذى يخالف كثيراً من رجال الكنيسة في الرأى الخاص بالحكم على أبيلار.

كذلك يطالعنا كتاب أشد المؤيدين لأبيلار Berngar [2] الذى كان تلميذاً لأبيلار ومن السائرين على منهجه وكان يسمى أبيلار في خطاباته ومراسلاته ب"أستاذي"، وقد وجه رسالة لسان برنار يهاجمه فيها لمحاكمته أبيلار في سنس وأنه أساء فهم كتب أبيلار.

أيضا رسائل فولك دو دويل [3] التى ناشد فيها أبيلار بالهدوء والصبر على ما ألم به من أزمات، وهى توضح كثيراً من الأمور خاصة على الجانب النفسي لأبيلار تجاه المحيطين به.

كذلك كتابات حنا السازبورى [4] الذى كان تلميذاً لأبيلار ومن أشد المعجبين به ووصف أبيلار بأنه معلم رائع ذائع الصيت. بالإضافة إلى هؤلاء ينضم إليهم أوتو الفريزى[5] الذى علق على حياة أبيلار. بل وذكر الكثير في كتابة عن أعمال الإمبراطور فردريك بارباروسا، ومن المفترض أيضا أنه كان تلميذاً لأبيلار في باريس عام ١١٣٣م.

على الجانب الأخر سواء المعادى لأبيلار الذى أخذ جانب الخصومه، بل وساعد على محاكمات أبيلار، أو الذين وجهوا اللوم فقط دون الدخول في معارك كلامية، يأتي روسلان[6] أستاذ أبيلار ومعلمه، والذى وجه رسالة لأبيلار يهاجمه فيها باعتباره تلميذاً مارقاً. ويتضح أهمية تلك الرسالة من أن روسلان الذى تعرض من قبل ذلك للحكم بالهرطقة ، يطلب من أبيلار ألا يكون مندفعاً على هذا النحو، كما أنه غير راض عن أسلوب أبيلار التعليمي.

---

(١) Peter the Venerable, The Letters, ed.G. Constable, 2Vols, Harfard, 1967

(٢) Berengar of Poitiers, Apologia, ed. M. Thomas, In Medieval Studies 42 (1980)

(٣) Fulk de Deuil, Letters, in PL (178) (1855)

(٤) John of Salisbury, PL.Vol. 199 (1955)
John of Salisbury, Historia Pontificalis, ed . and Trans. M. Chibnall, London, 1956.

(٥) Otto of Freising, Gesta Frederici, ed. F.J. Schmale, Paris, 1965

(٦) Roscelin, Letter to Abelard, ed.J. Reiners, in Der Nominalismus inder Frühscholastik, Stuttgart, 1996.

كذلك استفاد البحث من كتابات ورسائل الأستاذ الثاني لأبيلار وليام دو شـــامبو، الـذى كـــان معلماً وخصماً لأبيلار وادعى أن أبيلار تحداه على الملأ. وتكشف كتاباته عن نغمـــة الكراهيـــة تجـــاه أبيلار، وهى الكتابات التى ضمها أيضا مجلد أبيلار سلسلة. PL

أما جوسوين[1] فهو الذى احتجز أبيلار في منزله بعد محاكمة سواسون عـــام ١١٢١م، وقـــد وصفت السيرة الذاتية أبيلار بأنه مثل وحيد القرن الباريسي الذى لا يمكن إخضاعه. وكان جوســـــوين كثيراً ما يتحدى أبيلار وينافسه في مدارس باريس.

أما سوجيه رئيس دير دينيس[2] فكان على خلاف مع أبيلار منذ عشـــــرينات القـــرن الثـــاني عشر، غير أنة تفاوض مع ستيفن دوجارلاند بشأن تسوية مكان لأبيلار كراهب في دير دينيس، كمـــــا أنه لم يسئ معاملة أبيلار. ومن بين المذكرات التى ذكرت أشياء عن أبيلار في ضـــوء ســـيرة حيـــاه الأشخاص، يأتى كتاب جيوبرت دو نوجنت [3] الذى علق فيه على أبيلار في ضوء صراعه مع ســـان برنار. ومن مزايا هذا الكتاب أنه ذكر صراحة أقوال أبيلار وبرنار والرد عليها فـــــي ذلـــك الوقـــت، ومدى الشحناء التى كانت تميز حياة أبيلار وأقواله وكيفية مواجهته للمواقف المختلفة.

كذلك تبرز أهمية كتابات أبيلار من ذكرها في مصادر أعظم أساتذة ذلك العصر ممثلين فـــــي هيو دو سان فيكتور[4]، إيفو دو شارتر[5] أعظم قانوني ومحامى في باريس في القرن الثاني عشـــــر، وهو الذى هدد روسلان بالرجم في باريس إذا دخلها، وقد سمي كواحد من الأساتذة المحدثين بجـــــانب أبيلار ووليام وأنسيلم. ويأتي مصدر هام وهو وليم دوسان تيرى[6] الذى أخذ بزمام مبـــادرة محاكمـــة أبيلار في سنس، حيث أرسل لجيفرى أسقف شارتر وبرنار قائمة بكلام أبيلار البدعى. ومن المحتمـــل أيضا أنه كان حاضراً في محاكمة سواسون. ويعد كتابه عن النزاعات ضد أبيـــلار وخطابـــة لســـان برنار خير صورة لذلك الموقف المعارض للاتجاه الفكري المستنير في باريس القرن الثاني عشر.

---

(١) Goswin, (St.) Vita Goswini, extracts by m. Bonqueted, Recueil des Historien de la France (14), Paris, 1860

(٢) Suger (St.), Vie de Louis VI le Gros, ed. H. Waquet, Paris, 1929

(٣) Gubirt de Nogent, Autobiographie, ed. E.R. Labande, Paris, 1981

(٤) Hugues de St. Victor, PL. Vol. 175 (1886); Hugh of St. Victor, Diclascalicon , ed. Buttimer, Washington, 1939

(٥) IVO of Chartes, PL. 161 (1884)
IVO of Chartes, Les Correspondance, ed. Leclercq, Paris, 1949

(٦) William de St. Thierry, ed. Leclercq, in Revue Benedictine 79 (1969), Paris

أيضا استفـــاد البحث من مجموعة قوانين دير الباركليت الذى نشرته وادل[1] والـــــذى يلقـــى الضوء على بعض القوانين التى سنها أبيلار لدير الباراكليت بناء على طلب إيلويز ، إضافة للتعريـــف بالنظام الذى اتبعه كلاً من أبيلار وإيلويز في إدارة ذلك الدير ونظامه الرباني.

ولا ننسى أهمية القصيدة التى كتبها هيلارى[2] أحد طلاب أبيلار المتحمسين له والـــذى كـــان يتغنى بأشعار أبيلار في طرقات باريس، كما أن تلك القصيدة توضح المكانة التى احتلها أبيـــلار فـــي قلوب طلابه.

وأخيرا يأتى ذكر أبيلار في مصادر تعليمية هامة، وإن كانت تحدثت عنـــة بصـــورة عامـــة وليست مفصلة،إلا أن أهميتها تنبع من أنها إما عاصرت تلك الفترة أو فترة لاحقة عنـــها فيـــه ، مثـــل مجموعة سجلات جامعة باريس[3] التى تحدثت في جزءها الأول عن اهمية تعليـــم أبيـــلار ، وكذلـــك مجموعة Recueil الخاصة بمؤرخى فرنسا في العصر الوسيط ، والتى تضم مادة مصدريـــة هامـــة وإن كانت بصورة عامة[4].

****

ثانيا: المراجـــع الأجنبيـــــة:

لعل كل ما سبق كان يتحدث عن المصادر اللاتينية والمترجمة التى اعتمـــدت عليـــها الدراســـة بصورة أساسية ، غير أن هناك العديد من المراجع الأوربية التى تقوم هى الأخرى فى الأساس علـــى المادة المصدرية ، كما أنها لا تعتمد بأى صورة من الصور على كتابات أى مؤلفين آخرين . من هـــذه المراجع كتاب Remusat [5]الذى يعد من أول المراجع التى تحدثت عن أبيلار بصورة أقـــرب إلـــى الحقيقة مع الاعتماد الكامل على المصادر الأصلية فى ذكر الأحداث ، وهـــو مـــا أشـــاد بـــه معظـــم المؤرخين عند تناولهم لحياة أبيلار وأوصافه وانفعالاته على وجه الخصوص.كما أن كتـــاب Poole[6] يعد هو الآخر من أقدم وأقيم الكتب التى تناولت الحياة الثقافية فى أوروبا العصـــور الوسـطى ، وإن كان الكتاب صغير الحجم ويتناول الأحداث بصورة موجزة جداً ، إلا أنه اعتمد فـــى الأســـاس علـــى المادة المصدرية اللاتينية مباشرة .

---

(١) Waddle, C., The Paraclete Statues, Gethsemani Abbey, 1987

(٢) Hilrii Aureliansis, Epistolae, ed. W. Blust, Paris, 1989

(٣) Chartularium Universitatis parisensis, eds. Denifle, H.& chatelain, A., Tome I, Paris, 1959

(٤) Recueil des Hitorien de la France, (14), Paris, 1860

(٥) Rémusat, ch., vie d'Abélard, Paris, 1845

(٦) Poole , R.I. , Illustration of The History of Medieval Thought and Learning , London,1920

أما كتاب Sikes [1] ، فهو أول كتاب صريح عن أبيلار من الناحية الفلسفية ، فـــهو يتنـــاول أفكار أبيلار المنطقية ومناقشاته ومحاوراته عن الثالوث والعقيدة المسيحية ، كمـــا يتنـــاول المواقـــف الفكرية والمعارك المدرسية التى خاضها أبيلار من أجل نشر أفكاره وعدم تخليه عـــن حريـــة الفكـــر رغم قيود رجال الدين والكنيسة . أيضا يأتى كتاب Robertson [2]، ليتناول حياة أبيلار وإيلويـــز مع الإشارة السريعة لحياته قبل إيلويز وبعدها ، غير أن الموضوع الرئيسي هو مرحلة العلاقـــة مـــع إيلويز حتى دخولهما الرهبنة ،وهو من الكتب الهامة فى هذا الجانب . كذلك فإن كتـــاب Gilson [3]، يعد من أفضل الكتب التى تناولت حياة أبيلار وإيلويز ، غير أنه يركز فقط على فـــترة العلاقـــة بيـــن الاثنين ، مع استثناء حياة كل منهما بعيداً عن الآخر مما يجعله ناقصاً فى جوانب أخرى .

أما الكتب الهامة التى تحدثت عن سان برنـــار ، فلعـــل أهـــم مـــا يخـــدم الدراســـة كتـــاب Leclerc[4]، الذى يتحدث عن مراسلات سان برنار ، وما يهمنا هى تلك الرسائل التى أرســـلها إلـــى البابا انوسنت الثانى محاولاً حضه على محاكمة أبيلار واستئصال شأفته . كذلك فإن من أهـــم الكتـــب الخاصة بسان برنار والتى تركز على علاقته بأبيلار كتاب كل من Verger – Jolivet [5]، الـــذى يتحدث فيه المؤلفان عن طبيعة فكر كل منهما ،وطبيعة وسمات شخصياتهما . وذلك منـــذ المراحـــل التعليمية الأولى لهما وحتى اصطدامهما ببعضهما البعض والتحدى السافر بينـــهما الـــذى أســـفر فـــى النهاية عن محاكمة أبيلار فى سنس.

وفى نفس الموضوع يأتى كتاب Lasserre [6] عن الصراع بين سان برنار وأبيلار ، وهـــو يعكس الرؤية الدينية فى الحكم على أبيلار باعتباره خارجاً عن التعاليم المسيحية أحيانـــاً ، وباعتبـــاره أيضاً تائباً فى نواحٍ أخرى وأن على الكنيسة أن تقبل توبته وبالرغم من أن الكتاب صغير الحجـــم ، إلا أنه عرض المواقف والصراعات جميعها بصورة مركزة مع عدم الدخول فى التفصيـــلات الدقيقـــة . والكتب السابقة تسد فراغاً كبيراً فى رسم صورة أقرب إلى الحقيقة لأصحابها مع محاولـــة الاعتمـــاد على الوثائق والمراسلات الأصلية قدر الإمكان .

---

(١) Sikes, J.G., Peter Abailard, Cambridge, 1932

(٢) Robertson , D.W., Abelard And Heloise , London,1972

(٣) Gilson , E., Heloise et Abelard , Paris , 1964

(٤) Leclercqe , J., Les Form Successives de la lettre –traité de St.Bernard contre Abélard, Revue Bénédictine 78(1968) .

(٥) Verger,J.-Jolivet,J., Bernard- Abelard, Paris , 1982

(٦) Pierre Lasserre, Un conflit Religieux au XII siècle , Abelard contre St.Bernard, Paris, 1930

ومن أحسن كتب السير التى كتبت عن إيلويز كتاب **Mcleod** [1] ، الذى يتناول سيرة حياة إيلويز مع عرض كامل لمواقف حياتها الصعبة وما كان يدور بخلدها أثناء محاكمات أبيلار وكذلك الأدوار التى لعبتها إيلويز سواء فى حياة أبيلار أو حياة الرهبنة بعد ذلك . والكتاب يتميز أيضاً باعتماده على المادة الأصلية ممثلة في مراسلات أبيلار وإيلويز ومع بطرس الموقر مع التحليل والتعليق الذى يميز هذا الكتاب .

وقد استفاد البحث أيضاً فى نفس هذا الإطار بالكتاب الذى نشرته **Charrier** [2]، وهو عبارة عن رسالة دكتوراه عن إيلويز والكتاب يعتمد تماماً على الوثائق المصدرية فى صورة المراسلات الأصلية مع النسخ العديدة لتلك المراسلات . وقد تبنت الباحثة الرأى القائل بتزوير تلك المراسلات وأنها غير صحيحة أو أن كاتبها ليس أبيلار او إيلويز ، غير أن كثيراً من المؤرخين رفضوا هذا الرأى وأثبتوا بالأدلة القاطعة صحة تلك المراسلات وعلى رأس هؤلاء **Jolivet** [3]، الذى ألف أكثر من كتاب وبحث عن جوانب عديدة فى فكر أبيلار ، خاصة فقه اللغة وأسلوب لغة أبيلار ، ومذاهب اللغويين فى فكر أبيلار ، ومقارنة محاورات أبيلار مع معارضيه من ناحية اللغة وتعبيراتها ، إلا أن كتابه عن جوانب من الفكر الوسيط هو أهمها وأشملها .
يأتى بعد ذلك بعض الكتب الهامة والتى تتعلق بأقوال المؤرخين وشهادات الأوائل على أبيلار مثل كتاب **Dronke** [4]، الذى لا يخلو كتاب من الإشارة إليه ، بالرغم من قصور الكتاب ونقص معلوماته ، حيث يعرض المعلومة غير كاملة كما قرأها فى النص اللاتيني أى فى رسالة واحدة مع عدم تتبع مشكلة ما أو حدث ما وما آل إليه فى النهاية.

ومن الكتب المتخصصة أيضاً كتابى كل من Marinbon [5] – Clanchy [6] ، حيث يعرض الأول الجوانب الفلسفية فقط فى حياة أبيلار والجوانب المنطقية مع بعض إشارات عابرة إلى لاهوت أبيلار ، ولا يشير نهائياً إلى أى جانب آخر من حياته سوى عرض الفلسفات السائدة فى ذلك الوقت ونظرة أبيلار لها . أما الكتاب الثانى فيتناول طبيعة الأدوار التى لعبها أبيلار وتعدد جوانب شخصيته فى محاولة لرسم صورة أقرب ما تكون للشخصية مع تجنب الوقوع فى كاريزما الشخصية، بالرغم من عجزه عن مداراة إعجابه بين الحين والآخر ، والكتاب لا يعتمد على المادة الأصلية بصورة كبيرة وإن كان يعرض أراء معظم المؤرخين وحيرتهم فى شخصية أبيلار.

---

(١) Mcleod , E., Heloise : A Biography , London, 1971

(٢) Charrier , Ch., Heloise dans l'Histoire et dans la Legende , Paris , 1933

(٣) Jolivet, J., Aspects de la pensé médiéval, Abélard : doctrines du langage , Paris, 1987

(٤) Dronke , P., Abelard And Heloise In Medieval Testimonies , Glasgow,1976

(٥) Marenbon ,J., The Philosophy of Peter Abelard , Cambridge , 1997

(٦) Clanchy , M.T., Abelard , A Medieval Life , Oxford , 1999


تمهيد
طبيعة المناخ الثقافى
وازدهاره فى القرن الثانى
عشر الميلادى

- حياة المدارس في فرنسا في القرن الثاني عشر
- الاتجاه الفكري الجديد والجدل ودوره.
- من هو أبيلار؟ (موجز تاريخي)
- أهم الشخصيات المحورية (سان برنار - إيلويز)

إن ثقافة أي زمان ومكان ما هي إلا نتاج انتقال الأفكار المتوارثة واسترداد لشكل من أشـــكال الفكر المغمور أو المهمل وإحيائه في صورة فكر جديد, ومثل تلك الجذور عادة ما تزدهر فـــي ظـــل الرخاء، ويّعتني بها في ظل الترف، وتتم حمايتها في ظل السلام، فتبرز علي نحـــو غـــير متوقـــع أو بدرجة تثير الدهشة، وبشكل عام فإن فترة الازدهار تلك غالباً ما تكون قصيرة الأمد(١)

أما إذا أردنا أن نَحدد العصر الذي اتشحت فيه الحضارة المسيحية الغربية بشكلها القـــاطع أي صورتها الماثلة أمامنا حتى وقت قريب، كان علينا أن نتخذ من القرن الثاني عشر الميلادي خير مثـــال علي ذلك، لأن القرن الثاني عشر الميلادي يّعد قرناً خلاقاً وتشكيلي لا نظير له فقد حدث فيه قدر مـــن اليقظة وكشف اللثام عن الحقائق أعظم كثيراً مما حدث في العصر التاريخي الذي يّطلق عليه عصـــر النهضة، فإن مجموعة من الأشكال الجديدة للنشاط العقلي والحياة الاجتماعية أخذت تتطور وتنمو فـــي أثناء القرن الثاني عشر الميلادي في صورة أشكال وأسس لا تزال بمثابة دعائم يّرتكـــز إليـــها حتـــى يومنا هذا(٢)

أصبح هناك شكل جديد للاتصال الاجتماعي الأكثر نشاطاً، والذي تطور فـــي المـــدن التـــي غطت أجزاءً كبيرة من الغرب، منها القديم الذي عاد إلي الازدهار ثانية، ومنها المدن المنشأة حديثـــاً، وقد قامت هيئات ديريه جديدة إلي جوار أديرة القديس بندكت الموفورة العدد العتيقة العهد كان أحدثـــها السسترشيان "Cistercians"، كما اجتمعت كل من الفروسية والزهد ليؤلفا المثل الأعلـــى للـــهيئات الفروسية الدينية، أما الدين نفسه فقد اتجه نحو أشكال جديدة للتعبير: فظهرت حركـــة دينيـــة صوفيـــة باطنية هي مذهب القديس برنار بما اجتمع فيها من تعبير مزدهر مشرق عن النشوة والوجد بما لفضـــل الله من المعجزات والعجائب، أما المدارس التي كانت لا تزال قليلة العدد صغيرة الحجـــم فـــي نهايـــة القرن الحادي عشر وأوائل الثاني عشر الميلاديين، فإنها أصبحت المراكز البؤرية التي تـــتركز فيـــها حياة مستفيضة متعمقة مدارها التأملات والمنازعات الفلسفية، وقد اتخذ ذلـــك الشـــكل المحكـــم اســـم الجامعة والذي قدر له أن يتحدى تتابع القرون(٣)

والحقيقة أنه لم يحدث قط أن اجتمعت في عصر واحد عملية خلق وتكوين وتشكيل في مثـــل ذلك العدد الضخم المتنوع من العناصر الثقافية مثلما احتشد في القرن الثاني عشر الميلادي، وذلك مـــع

---

(١) موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطي، ت/ علي السيد علي، القاهرة، ٢٠٠٥، ص٢٧٥

(٢) Balard, M., Des Barbares à la renaissance, Paris, 1983, p.183

(٣) Previté-orton, c., The shorter cambridge medieval history, vol.i, cambridge,1952,p.552

-مؤسس جماعه السسترشيان راهب فرنسي يدعي روبرت، وقد أسس جماعته حوالي عام ١٠٩٨م وغرضها هـــو العودة للتعاليم البندكتيه الأولي مع إدخال نوع من التصوف وكان أبرز من أخرجتهم القديس برنار، انظر، كولتـــون، عالم العصور الوسطي في النظم والحضارة، ت/د. جوزيف نسيم يوسف، الإسكندرية، ١٩٨٩، ص١٧٣

مراعاة أن ذلك القرن قد تولد عن الحادي عشر الميلادي الذي له الفضل في إنتـــاج الحركـــة الدينيـــة الكبيرة التي تمثلت في الهدنة الإلهية، وجريجوري السابع، والحروب الصليبية، والذي شهد النورمـــان بما لديهم من قدرة هائلة كبناة للدول، وهو القرن الذي تماسك فيه النظام الإقطاعي فأصبح النظام الــذي يقوم عليه كيان الغرب الاقتصادي والاجتماعي ولكن الدهر اختص القرن الثاني عشر الميلادي بمـــيزة كبري: فإن كل ما تكونت براعمه في الغرب إبان السنوات الثلاثمائة السابقة، ازدهر فجأة وأخذ يثمـــر ثماراً ناضجة(١)

لم يظهر في الحضارة الغربية عصر آخر بلغ مثل تلك الدرجة من الشمول والروعة، وكـــانت فرنسا هي أهم البلاد التي أسهمت بأعظم قسط يفوق كل ما اصطنعته غيرها في تشـــكيل ثقافـــة تلـــك الأيام وخلقها، فالسيطرة على القرن الثانى عشر الميلادى كانت سيطرة فرنسية، ، غير أن الثنـــاء لـــم يعلو في الآفاق حتى ذلك الوقت بالقوة الكافية ، فباريس كانت هي المركز الفعلي لفرنسا و كانت تعـــد قطب التطور الفكري كما جاء علي لسان حنا السالزبوري:"اعتبرت شـــجرة الحيـــاة المغروســـة فـــي الفردوس الأرضي، ونبراس بيت الله، ومنهل كل حكمة، وتابوت عهد الـــرب، ومليكـــه الأمـــم ودرة الأمراء" وعندما عاد حنا السالزبوري إلي باريس عام ١١٦٤م وشاهد وفرة ما فيها من السـلع ويّســـر حالة الأهالي واحترام رجال الدين وروعة الكنيسة وفخامتها والأنشطة الفعالة للفلاسفة الذيـــن انجـــذب إليهم قلبه، فاقتبس كلمة الكتاب المقدس:"لا شك أن الله موجود بهذا المكان دون أن أدري ذلـــك"، كمـــا اقتبس قول الشاعر"ما أسعد من مّنح هذا المكان منفي"(٢)

والواقع أنه لكي يتسنى لنا فهم القرن الثاني عشر الميلادي فهماً صحيحـــاً، ينبغـــي علينـــا أن نتصور مجتمعاً ندرت فيه الكتب، وندر فيه كذلك من يستطيعون قراءتها، فى حين أن من يســـتطيعون تفسيرها كانوا أكثر ندرة ,مثال ذلك أن هيودوسان فيكتور "Hugues de St.Victor" يفسر استخدام كلمة Lego (إني أقرأ) في لغة المدرسة بعبارة "Lego Librum" أي إني أقرأ الكتاب بنفسي، أمـــا عبارة "Lego Librum Ili" فمعناها عنده أني أفسره لشخص آخر، أي أعطي دروساً فيه، فى حيـــن أن "Lego Librum Ab illo" معناها أني أسمعه وهو يفسره، أي أتابع محاضرتـــه(٣) ولا شـــك أن

---

(١) Ferruolo, S., The Origins of The University, stanford university press,1985,p.16

- للوقـوف علـــي سمات هذه النهضة انظر، سعيد عاشور، أوربا العصـــور الوســـطي،ج٢، القـــاهرة، ١٩٩١م، ص٢٦٣ وما بعدها

(٢) Mign, PL, Vol.199(1855): Joannis Sarasberiensis,p.ix

وعن حنا السالزبوري وسيرته وأعماله راجع، نورمان كانتور، التاريخ الوسيط، ج٢، ت/قاسم عبده قاسم، القـــاهرة، ١٩٨٦، ص٤٣٨ وما بعدها

(٣) Longére, J.de., L'abbaye Parisienne de St.Victor au moyen âge, Paris, 1991,p.16

- وعن هيودوسان فيكتور انظر، يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط القاهرة، ١٩٥٧م، ص١٠٠

ندرة الكتب والمضطلعين بفن القراءة أضفت علي الكلمة التي يتفوه بها الأستاذ قوة تأثير خارقة، ففـــي المجتمعات التي يغمر أهلها طوفان من الكلمات التي يقرأها ويسمعها الناس مطبوعة ومترددة، أخــذت الكلمة تفقد لديهم ما كان لها من أثر سحري شيئاً فشيئاً ، أما المجتمعات الأكثر بدائية، فالكلمـــة فيــها كانت تهبط علي أرض بكر متعطشة إلي الخصب، فتقنع وتأمر، وتقصـــي وتَبعـد وتعتقـل، وهـــي باختصار تؤتي ثمارها وتفعل الأفاعيل، وغني عن البيان أن سلطان القلـــة مـــن الأســـاتذة المتملكيـن ناصية الكلمة كان عظيماً عظماً خارقاً فكل أستاذ كان أعجوبة بدرجات متفاوتة، فهو يعـــرف ويعلـم ولدية أسرار كثيرة يتعطش الجميع لبوحه بها[١]

هنا نتساءل أين يتم العثور علي أولئك الأساتذة؟ هل نجدهم في المدارس؟ إن المدارس أيضـــاً كانت نادرة في القرن الثاني عشر الميلادي، وكل واحدة منها كانت منارة تشع بالمعرفة وفي الوقـــت الذي تقل فيه الكتب أو علي الأقل لا تستطيع الجموع الوصول إليها، كانت المدرســـة بمثابـــة مركـــز ثقافي من الطراز الأول وكما كان الحال في القرن الثاني عشر، ومهما قيل عن ندرة المدارس آنـــذاك، فإن معدل الزيادة في عددها بالنسبة إلي القرون السابقة كانت رائعة ولم تكن المدرســـة تحتـــاج فـــي تجهيزها إلي الشيء الكثير: فيكفيها قاعة ومقرأة لحمل الكتاب ومعلماً، وذلك كل ما في الأمر[٢] وعلـــي الرغم من ذلك، فإن القرن الثاني عشر يمتاز بزيادة عدد المدارس وعدد الطلبة بسرعة عظيمة، فضـــلاً عن التغير الذي حدث آنذاك بحوافز المعرفة من حيث اتجاها وشكل أنشطتها، فبـــدلاً مـــن النشـــاط الفردي المتفاوت في درجات انعزاله والصادر عن أوائل رجال اللاهوت والأدبـــاء، ظـــهرت آنـــذاك وبطريقة مفاجئة فيما يبدو حاجه إلي التبادل الجدلي علناً أو الوصول إلي التفاهم علي ملأ من النـــاس، حاجة إلي خوض حلبة الخصومة رغبة في إظهار الناس جميعاً علي صحة حجة أو مفهوم أو منـــهج، وعلي أنها تفوق سواها، ذلك أن علنية التعلم أخذت تبحث لها عن مدخل تلج منه وهنا تقدمت طريقتـــا سلسله المحاضرات والجدل بوصفهما الشكلين الخارجين، متخذتين من المنطق الوسيلة، وكـــان كبـــار أساتذة الجدل يكتسبون الأموال الطائلة، وكان الناس يتعقبون المعلمين الكبار ويفخرون بأنـــهم رأوهـــم واتبعوهم[٣]

---

(١) Ferruolo, Op.Cit., p.18

(٢) Riché,p., Les écoles et l'enseignement dans l'occident chrétien de la fin du V siécle au milieux du XII siécle, paris,1979, p.218

(٣) Rashdall,H.,The Universities of Europe in the Middle Ages, vol. I, Oxford 1942,p.43

للوقوف علي طبيعة التعليم في باريس القرن الثاني عشر راجع للباحث، جامعة باريس ودورها في النهضة الفكرية بأوربا في العصر الوسيط، رسالة ماجستير غير منشورة آداب عين شمس، القاهرة،٢٠٠٣، ص١٩٠ وما بعدها

ويصور روسلان ، أحد أساتذة أبيلار"Roscellinus" أبيلار فى صورة أقرب إلـي الـذم قائلاً:"أنه يعد كل ليله النقود التي اجتلبها عليه تعليمه الزائف قبل إنفاقها في اللهو والخلاعة"[١]

والواقع أن حياة المدارس في القرن الثاني عشر الميلادى قامت علي المنافســة والخصومـة المحتدمة وعلي التحاسد والوقاحة والتشهير، يقول حنا السالزبوري:"كم من فخاخ مـن الكلمـات قـد نَصبت وكم من شباك من مقاطع الحروف قد أُلقيت لتأجج معارك طاحنة[٢]

أما الاتجاه الفكري الجدلى الجديد فقد جر مفكروا القرن الثاني عشر إلي المنحدرات الوعـرة الخطرة، وجعل أكثر من واحد منهم منشقاً علي الكنيسة بل ربما مهرطقاً مارقاً ، ذلك أن المهارة فـي استخدام طريقة المحاجة الجدلية، أفضت بهم إلي منهج للبحث لم يتهيأ له عصرهم بعد، بما هو عليـه من افتقار إلي المعرفة الطبيعية معرفة سليمة وذلك بأن أية حجة كانت تعـد لـدي هـؤلاء الأسـاتذة الجدليين سليمة وحاسمة متى كانت في عرف المنطق غير قابلة للتفنيد، فلما طبقوا علم الجدل على مـا تحويه الديانة من صنوف الصدق، اكتشفوا ثغرات لم يتوقعوها.[٣]

إن القوة التى نالت النصر في القرن الثانى عشر هى قوة الكنيسة. إذ أنه لا ينبغى أن يغيـب عن الأذهان أن الذى حدث إبان تلك الفترة أن الكنيسة فضلاً عن كونها جهاز الدين وأداته، كانت أهـم وسائل الثقافة على الإطلاق، كما أنها كانت الأداة الوحيدة القادرة على ضم شتات العناصر الجوهريـة اللازمة للثقافة والمجتمع وصهرها مع بعضها البعض. فلئن نجحت العقول المستحكمة بالروح السـلفية – كالقديس برنار والقديس دومنيك – في إحداث أثر قوى ودائم في الثقافة الأوربية من أثـر أبيـلار، فليس ذلك حتماً بسبب نقاء عقيدتهما أو تفوقها في المواهب، وإنما بسبب حقيقة أنها كانا يعمـلان فـي الكنيسة ويتخذان منها الوسيلة، ومن ثم فقد أثرا في ملايين من الناس على حين أن صوت المخـالفين للكنيسة لم يبلغ إلا آذان الآلاف.[٤]

وقد بدا أبيلار مزاولة نشاطه واضطرابات مطلع القرن الثانى عشر في عنفوانها، فقـد ولـد أبيلار لأسرة نبيلة: فوالده لورد إقطاعية لوباليه "Le pallet" في إقليم بريتانى الواقع جنـوب نـهر اللوار بفرنسا، وقد تلقى أبيلار الصبى تعليمه في بلده لوش "Loches" حيث درس المنطق ما بيـن

---

(١) يوسف كرم، المرجع السابق، ص٧٤، انظر أيضاً، Patrologia Latia, Op.Cit, p. X11

(٢) Riché, Op. Cit, p. 219

(٣) Knowles, D., The Evolution of Medieval Thought, London, 1970, P. 116

(٤) Rashdall, Op. Cit, P. 45

عامي (١٠٩٤ – ١١٠٦) ثم انتقل إلى باريس حيث تتلمذ على يد كل من روسلان، ووليـم دوشـامبو "Guillaumede Champeaux" ولكنه سرعان ما تمرد ضد أساتذته في مسألة الكليات.[١]

ويمكن قياس مدى التأثير الاجتماعي الهائل لحركة التعليم الجديدة من خلال جاذبيتـها التـي شدت مثل ذلك الرجل الغامض إليها. فقد شق طريقه صوب مدرستى الفلسفة واللاهوت الجديدتين فـي شارتر وباريس. ومنذ البداية اعترف الجميع بأنه طالب ذكى ونادر المثال، وما لبث أن امتلك ناصيـة المناهج الجدلية الجديدة. بيد أنه كان أيضاً شخصاً صعب المراس، متغطرساً، لا يتصرف إلا بوحـي من داخله، كما أنه كان مغالياً في تصيد الأخطاء وانتقادها، وكان يفتقر إلى الذوق واللياقة. كذلك كـان من عادته بعد أن ينهى دراسة موضوع ما، أن يجعل من نفسه محاضراً في الموضوع لكـى ينـافس بذلك أستاذه السابق، ولم يكن من ذلك النوع من الباحثين الذى يكون صحبه أكاديمية طيبة، بـل كـان يخلق المتاعب حيثما يحل.[٢]

بعد ذلك اضطلع أبيلار بالتعليم في مدرسة سانت جنيفيف "Ste. Geneviève" ، ثم ما لبث أن التحق بمدرسة المعلم أنسيلم دو لاون "Laon" أستاذ اللاهوت المرموق، غير أن أبيلار سـرعان ما هاجم آراء أستاذه الكبير، وعاد مرة أخرى إلى باريس ليّعلم المنطق واللاهوت في نوتردام. لم يكـن أبيلار يعرف الاستقرار في مكان واحد، فهو يطلب العلم والمعرفة أينما وجدهمـا. وليـس أدل علـى طبيعة مزاجه من أنه كان قد تمرد أول ما تمرد ضد هرم عائلته الإقطاعيـة، وضـد تقـاليد فرنسـا والنَبالة، فنجده يتنازل طواعية لأخيه الأصغر عن حقه في الإقطاع، وكذا عن تقلد زخرف الفروسـية. وعلى حد تعبير الدكتور إسحق عبيد، " سعى ذلك العاشق وراء نبع المعرفة ينهل منـها، وهـو بعـد ظمآن حتى إذا ما ارتوت تلك النبتة الأصيلة، أثمرت فأذهلت أروقة بـاريس ومحافلـها وصالوناتـها الأدبية ".[٣]

بشر أبيلار بالخلاص وذلك بتحرير العقل وملكاته من أغلال الكلمة المّملاة ورق المكتـوب، فحرر بذلك النداء عقليه العصر الوسيط من طغيان الكنهوت ومن صلف العلمانية المجهولة، وسـنرى من تاريخ مأساته أنه المصلح الأول للكنيسة ، والرائد لمنهج الدياكلتيك (الجدل) ، والإلقاء في الحركـة الرومانسية.[٤]

---

[١] إسحق عبيد، "أبيلار اللاهوتي الحر" ، مقال في المجلة التاريخية المصريـة، العـدد (٢٠)، القـاهرة، ١٩٧٣ ، ص٣٨، انظر كذلك،

Poole, R.L., Illustrations of the History of Medieval Thought and learning, London, 1920, P. 118

[٢] نورمان كانتور، المرجع السابق ، ص ٤٤٥

[٣] إسحق عبيد ، المرجع السابق ، ص ٣٨

[٤] إسحق عبيد، نفس.المرجع، ص ٣٨

ألف أبيلار كتاباً يضم سيرته الذاتية أسماه "تاريخ المصائب" "Historia Calamitatum" ، وهو يُعد واحداً من أعظم الأعمال الأدبية في العصور الوسطى، والذي أعطاه ذلك الاهتمـــام الكبـير والتحمس الشديد من جانب عدد كبير من المؤرخين، هو الأسلوب الذي اتبعـــه أبيــلار فــي كتابتــه كشخص يظهر أقوى ما لديه من محبة، في الوقت الذي يُبدى فيه أشد وأعنف ما لديه مـــن كراهيـــة, وتتوالى الأحداث في رواية أبيلار لمحنه وشدائده، حيث كانت تتعقبه ثورات الغضب الشديد التي كـان يجرها على حياته بلا هوادة، "ولم يكن يتحاشى بها سوى أن يُعدم بلا محاكمة على أنه مارق عن دينـه أو يتم سجنه على أنه خائن".(١)

تفاقمت محنة وأزمات أبيلا فى الفترة التي أعقبت كتابته لسيرته الذاتية، وذلك عندما تجـــددت الاتهامات الموجه إليه بالهرطقة والخيانة، والتي شنها ضده تلك المرة القديـــس برنـــار رئيـس ديـر كليرفوه "St. Bernard de clairvaux"، وأصبح أبيلار في ذلك الحين في مواجهة مع أقوى صوت في العالم المسيحي. فقد كان القديس برنار صريحاً وجريئاً في مواجهته لكل مـــا يتصـــوره فســاداً أو تحللاً أخلاقياً في المواقع رفيعة المستوى، حتى أنه كان يوجـــه انتقـــادات لاذعـــة لبعـض الأمـراء والأساقفة، وحتى للبابا نفسه. و"عندما حذر برنار من أن أبيلار يَعتبر سنداً لأعداء المسيح، انتبه إليـــه الكرادلة في روما، وأُدين أبيلار على أنه مهرطق زنديق".(٢)

غير أن أبيلار استطاع أن يجذب إليه أيضاً مؤيدين مخلصين وأصحاب نفـــوذ كبـير، كمـــا انجذب إليه كذلك معارضين متعصبين، وكانت لديه المقدرة على الصعود مـــرة أخـــرى حتـــى بعـــد تعرضه لنكسات وهزائم خطيرة, لدرجة أن بطرس الموقـــر "Peter The Venerable" تصـــدى للدفاع عنه أمام القديس برنار، وهو رئيس دير كان على نفس القدر من الهيبة وفصاحة البيان، والـــذي كان يرأس دير كلوني "Cluny" في بيرجاندى الأكبر من دير القديس بطرس في روما، وكان النقـــاد الاجتماعيون يطلقون على رئيس دير كلونى لقب "الملك" ، وذلك لأنه كان صاحب الـــرأي المســـيطر على المئات من الأديرة التي تمتد من أسبانيا حتى ألمانيا.(٣)

وعندما كان برنار يستحضر صورة أنبياء العهد القديم كما كان يفعل دائماً، كان يشـــبه نفـــوذ بطرس الموقر بنفوذ كَّهان الإله "بعل" عند الفينيقيين، ولكن هيهات للقديس برنـــار أن ينســف أســـوار

---

(١) Abélard,P., Historia Calamitatum , éd. J.Monfrin, Paris, 1959

اعتمدت على الترجمة الإنجليزية

Abélard, P., The story of my misfortunes, America, 1958, P. VI

(٢) Pierre Lasserre, Un Conflit religieux au XIIe siècle, Abélalard contre St.Bernard . Paris, 1930, P. 6

(٣) Poole, Op. Cit, P. 120

كلونى وما أن دخلها أبيلار وأصبح آمناً بداخلها، فلن يستطيع البابا ولا الملك نفسه أن يمســه بســوء دون إذن من بطرس الموقر نفسه (١). لقد كتب أبيلار وهو متفهماً تماماً لزمن نصرته وظفــره قــائلاً: "كدت أظن أنني أصبحت الفيلسوف الوحيد في هذا العالم أجمع".(٢)

أما أوتوالفريزى "Otto of Freising" فكان يرى أن أبيلار شـخصية ذات أهميـة بالغـة فأدرج رواية عن مسيرته العلمية في الفصل الافتتاحي لكتابه عن تاريخ فردريك بربروسا الامـبراطور الألمانى، على الرغم من أن أبيلار لم يكن يمّت للامبراطورية بصلة سوى تعليمه لطلاب من ألمانيـا وإيطاليا، متبعاً في ذلك أسلوب ودأب أفضل مؤرخي العصور الوسطى برسمه صورة وصفية أدبيـة موجزة لشخصية أبيلار. لقد كان أبيلار في رأى أوتو : "شخصاً يتسم بالغباء الشديد في كل شئ غـير أكاديمي، وأنه شخص متعجرف وواثقاً أشد الثقة من نبوغه وذكائه حتى أنه قلمـا كـان يـهبط مـن مستوى عقله السامي ليّصغي إلى مّعلميه".(٣)

ويواصل أوتو وصفه لأبيلار بمعارضته لمّعلميه الأرفع قدراً أمثال أنسـيلم دو لاون وكذلـك وليم دو شامبو، وهما رجلان يتمتعان بقدر وافر من الرزانة والوقار الذي لم يقدر أبيلار على احتمالـه نظراً لطبيعته المحبة للمزاح. وبهذا وصلت رواية أوتو إلى زمن انتصار ورفعة أبيلار عندما أصبـح المعلم الأول لمدرسة كاتدرائية نوتردم "Notre Dame" في باريس حوالى عام ١١١٤م عندما كـان في الخامسة والثلاثين من عمره. "غير أنه حدثت حينئذ واقعة معروفة بعينها للجميع لم يعـامل فيـها أبيلار بالشكل اللائق". بهذا التلميح يشير أوتو بصورة ضمنية إلى حدث شهير "عندما نصـب كميـن لأبيلار ليتم إخصائه".(٤)

وتفسير تلك الواقعة يعود إلى عام أو أكثر عندما رحب أبيلار ووافق علـى ضيافـة فولبـير "Folbert" له في منزله، عندما كان شماساً مثله في نتردام وخالاً ووصياً على ابنـة أختـه إيلويـز "Heloise" ، وقد اتخذ أبيلار منزل فولبير محل سكن له قريب من مدرسته فـي مقـابل أن يعطـى إيلويز درساً شخصياً. ثم حدث أن فر أبيلار هارباً بإيلويز وأنجب منها ابناً في منزله فـي بريتـانى، وبعد إصرار فولبير أعاد أبيلار إيلويز ثانياً إلى باريس وتزوجها سراً(٥). غير أنه سرعان ما تصـور فولبير وأسرته أن أبيلار قد تنصل من هذا الزواج الذى أنكرت إيلويز حدوثه أساساً، فكـان أن رحـل

---

(١) Rashdall, Op. Cit., P. 46

(٢) Abélard, Historia, P. 32

(٣) Otto of Freising, Gesta Frederici, ed. F.J. Schmale, Paris, 1965, P. 224

(٤) Otto of Freising, Op. Cit , P. 226

(٥) Abélard, P., Oeuvres Choisies, éd. M. Gandillac, Paris, 1945, P.26

بها أبيلار مرة أخرى ولكن هذه المرة إلى دير الراهبات الذى تربت فيه وهى طفلة. فلقد كان إلحـــاق زوجة إلى دير راهبات بمثابة تطليقها، كما اعترف أبيلار أنه أمر بصنع ملبساً دينياً لها فضـــلاً عــن الحجاب الذى يدل على أن يمينها باتاً لا رجعة فيه، وأنه ألبسها هذا الحجاب بنفسه. أما ذلك فإنه يعـــد من وجه نظر أسرتها" أنه قد سلب منهم عفاف إيلويز في منزل فولبير نفسه، ووقاحته المتناهية فـي أن يجعل منها راهبة كما لو كانت لم تزل عذراء وليست مسئولة منه ". وكانت وظيفة الأســرة وواجبــها هو إقرار المعاقبة في المنازعات الشخصية وكانت القاعدة والعرف آنذاك يقضيان بالقصاص والثـــأر بين الأسرتين، "وفى النهاية استطاع فولبير إقناع أقاربه بفـــرض العقوبــة الرادعــة وهـــى إخصـــاء أبيلار ".[1]

وقف أبيلار مرة أخرى على قدميه بعد فترة القهر التى تعرض لها ، وذلك لأن الديـــر الـــذى آواه كان كنيسة دير القديس دينيس "St. Denise" البيت الأم للمملكة الفرنسية. وكان ذلك الدير هـــو الملاذ الملائم لرجل مشرد ومعذب مثله ، غير أن دير الراهبات لم يكن المأوى نفســه لإيلويـــز التـــى أُجبرت أولاً على التخلى عن ابنها ثم عن زوجها، ولكنها كانت دائماً تؤكد لأبيلار أنها ســـوف تظـــل على الدوام تحبه روحاً وجسداً من دون استثناء ، وأنها لم يعد لديها حباً للرب، وأنها أصبحت راهبـــة فقط لأنه أمرها بذلك حيث قالت: "لم يكن عندى أدنى تردد أن أتبعك حتى إلى الجحيم إذا كـــان هـــذا أمراً منك، بل سأكون أنا حقاً سائرة أمامك".[2]

أما أوتو الفريزى فقد رحب بفكرة إخصاء أبيلار قائلاً: " أن هذا الأمر قد جعل مـــن أبيـــلار شخصاً رزيناً وجاداً". ففى دير سان دينيس، كرس أبيلار نفسه ليل نهار للقراءة والتفكير وتحول مـــن شخص ماهر وفطن إلى شخص أكثر مهارة وفطنه. بمعنى أن كونه راهباً جعله يوجه طاقاته الهائلـــة إلى الدين واستطاع في غضون ثلاثة أعوام أن يصدر واحداً من أحدث الكتب الموجودة فـــي عصـــره أسماه مقدمه في علم اللاهوت "Introductio ad Thiologiam".[3]

أصبح أبيلار أول عالم لاهوت حديث، كأول معلم يروج لمصطلـــح "Theology" اللاهـــوت، وأنه استخدمه للدلالة على التوفيق بين العقل الإنساني والتنزيل المسيحي. وبذلك أصبح علم اللاهـــوت هو دعوة ورسالة وولع أبيلار الجديد. "وكما اكتسب شهرته وهو شاب كمعلم للمنطق ومفسراً وشـارحاً لأرسطو وعلوم اللغة، فهو الآن كراهب ورجل دين يشرح ويفسر منطق الرب وبنية وتكوين الثـــالوث الأقدس".[4]

---

(1) من أحسن الدراسات التى تناولت إيلويز، رسالة الدكتوراه التى وضعتها الأستاذة شاربيه بجامعة السربون انظر،
Charrier, Ch., Heloise dans l'historia, Paris, 1933, P. 96

(2) Charrier, Ch., Op. Cit, P. 99

(3) Otto of Freising, Op. Cit, P. 228

(4) Ghellinck, J.de, Le mouvement théologique du XIIe siècle, Paris, 1946, P. 23

كان أبيلار مقتنعاً بأن المسيحية هى أكثر الأديان توافقاً مع المنطق والعقل، وأن حقائقها يمكن إثباتها وإقامة الدلائل عليها بالمنطق. وأن المسيح هو كلمة الرب "Logos" أو خلاصة المنطق. وأنه ما أن تقام الدلائل بواسطة القضايا المنطقية على الديانة المسيحية، فإن الجميع سوف يسلمون بصحتها. ولأن أبيلار هو "فيلسوف السيد المسيح"، فهو يعتبر أيضاً مخلصاً للبشرية حالما يجد إجابات شافيه على الأسئلة جميعها.(١)

لكن على الرغم من ذلك، ومع أن منهج أبيلار لم يكن مستحدثاً، فإنه كان يعطى الانطباع على أنه مستحدث. فالقديس أنسيلم كان يسير على نهج مشابه له في الجيل السابق لأبيلار معتمداً على برهانه الوجودى على وجود الله.(٢) ولكن أبيلار الذى يعد "الفيلسوف الأوحد في العالم" على حد تعبيره، "وأن المنطق هو مهنته التى عمل بها طوال خمسة وعشرون عاماً"، لذلك ظن أنه يمكنه بكل سهولة أن يصبح أفضل من القديس أنسيلم حتى أن معجبيه كانوا يشاركونه تلك الثقة، في الوقت الذى أسماه بطرس الموقر "أرسطو عصرنا"(٣)

أما سان برنار، فإن دوره في الصراع مع أبيلار تمثل بقوة عند محاكمه أبيلار مرتين الأولى في سواسون "Soisson" في عام ١١٢١م، والثانية في سنس "Sens" عام ١١٤٠م، وذلك حيث اتخذ القديس برنار اسم "Theologia" الذى كان يفخر به أبيلار بأنه قدمه إلى الخطاب العلمى، اتخذه موضعاً للسخرية في محاولة لبيان غرور وزيف أبيلار قائلاً: "أفصح لنا عما تكشف لك من دون غيرك ... إننى استمعت لكل الأنبياء والرسل، وأطعت أوامر الإنجيل، ولكن ليس الإنجيل كما يقوله أبيلار. هل صحيح أنك تكتب لنا إنجيلاً جديداً؟ ولكن الكنيسة لم يعد بها مكان لمؤلف إنجيل خامس".(٤)

وصف برنار أبيلار بأنه شخص غامض بكل ما في الكلمة من معان، فكيف تسنى لأبيلار أن يُحدث كل تلك الانفعالات وردود الأفعال المتناقضة فيمن قابلهم؟ فلم يُشر أبداً إلى أن هناك من هو غير مكترث أو عابئ به، لعل أحد تفسيرات ذلك هو أن التناقض أو التعارض كان حرفة أبيلار كعالم للمنطق، وهى الحرفة التى عاش من أجلها وكانت سعادته غامرة بكل ما هو متناقض ومثير للجدل

---

(١) Abélard, P., "Le Dialogue" éd. J. Jolivet et M.de. Gandillac, Lussanne, 1981, P. 18

(٢) Ghellinck, J.de, Op. Cit, P.25

انظر أيضاً عن القديس أنسيلم وأدلته على وجود الله في الدراسة التى أعدها الدكتور حسن حنفى حسنين، نماذج من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، القاهرة، ١٩٧٨م ص ١٠٣ وما بعدها.

(٣) Jolivet, J., et delibera, A., Gilbert de poitiers et ses contemporains, Napoli, 1987, PP. 15-18

(٤) Bernard, (St.) Oeuvres Choises, éd. M.M.Davy, paris, 1946, P. 132

والنقاش، حتى أن المنطق في العصور الوسطى كان يتولد من الجــدل، وكــانت تُــرص العبــارات المتناقضة جنباً إلى جنب ثم تطبق عليها متوالية من الاختبارات المنطقية منها: التى تميز بين الإثبــات والنفى، أو بين الجنس والنوع، أو بين الصفــة المميــزة أو العارضــة، وهكــذا ....، وكــان المدرسون أمثال أبيلار يهدفون إلى إثارة الشكوك والتساؤلات حول كل شئ وأى شئ مــن اختبــاره وإقامة البراهين حول مدى صحته.(١)

كان أبيلار كثيراً ما يقتبس بعض عبارات القديس أوغســطين وبوئثيــوس باعتبارهمــا مــن دعائم السلطة داخل الكنيسة والثقافة اللاتينية أيضاً عبر العصور الوسطى ، غير أن الهجوم الذى شــنه القديس برنار والذى وصل إلى أوجه في مجلس سنس عام ١١٤٠ ، استهدف بــالقدر نفســه القديــس أوغسطين وآباء الكنيسة قائلاً: "إنه من السخف أن يظنوا أن عبقريتهم الإنسانية يمكنــها أن تفســر أى شئ. ما هو الأكثر تناقضاً مع العقل من محاولة استخدام العقل في تخطى العقل؟ ومــا هــو الأكــثر تناقضاً مع الإيمان من رفض الاعتقاد بأى شئ لا يتوصل إليه العقل؟، وأعلن برنار أن أبيلار يكشــف عن الأسرار التى كانت مستترة ومحجوبة عن الأعين، وأنه استهزأ بإيمــان البســطاء مــن النــاس، وانتزع أسرار الرب حتى أحشائها وأصبح يجاهر بالأسئلة عن الأشياء المقدســة بمنتــهى الاســتهانة والاستهتار.(٢)

كان اللاهوتيون في العصور الوسطى هم العلماء الذين عقــدوا عزمــهم علــى ألا تَروعــهم خشيتهم لله أو يحيرهم أى شئ خلقه، وعزموا على أن يدرسوا الإلهية بتحليلها وتفنيدها حتى أحشــائها إذا جاز تعبير القديس برنار. ووفقاً لبرنار، فإن كتاب اللاهوت "Theologia" لأبيــلار يُعــد ســلباً وتضييعاً لماهية الثالوث الأقدس للرب، الشئ الذى جعل منه تهديداً مّروعاً لكل مسيحى، ولذلك يجــب إتلافه، أما مرتكب ذلك الجرم فيجب إسكاته إلى الأبد لأنه مهرطق زنديــق ومدعــى بالبــاطل علــى الرب.(٣) وفى عام ١١٤٠م تم عمل مراسم خاصة لحرق كتاب اللاهوت فــي رومــا، أمــا أبيــلار المهرطق والمكذب للعقيدة الكاثوليكية على حد تعبير برنار، فقد حكم عليــه البابــا انوســنت الثــانى "Innocont II" (١١٣٠ – ١١٤٣م) بالسجن والصمت بناء على دعاوى سان برنار.(٤)

كان رد أبيلار على القديس برنار بكل كبرياء وتعقل مرجعاً سبب الاتهامات الموجهة ضــده إلى الكراهية أو عدم الفهم والجهل وأن فلسفته حتماً أكثر تعقيداً مما اعترف به برنار. لقد جمــع بيــن

---

(١) De Wulf, M., History of Medieval philosophy, Vol. I, London, 1952, P. 195

(٢) De Wulf, Op. Cit, P. 197

(٣) De Ghellinck, J., Op. Cit, P. 32

(٤) Rashdall, H., Op. Cit, P. 62

سان برنار وأبيلار أفكاراً مشتركة، فكلاهما كان راهباً ومصلحاً اجتماعياً، كما أن كلاهما كان يتمتـــع بمهارة فريدة في استخدام الألفاظ وعبر الاثنان عن ولاءهما الشديد للســيد المســيح المصلــوب. أمــا الأسلوب الشديد الذى اتسم به هجوم القديس برنار على أبيلار، فقد دل على أنه يواجه شئ يشبه ذاتــه الأخرى، فهو أيضاً كان يمكن أن يكون أستاذاً نابهاً وآسراً للقلوب ومثلاً أعلى للشــباب.(١) لقــد كــان هجومه شخصياً ولهذا السبب كان قوى التأثير، ولأنه أقنع نفسه بأن أبيلار لا يؤمن بفكـــرة الخـــلاص "Redemption"، فكان يهاجم بشدة وهو صوت الكنيسة المحافظ. لقد شـــهد مجلــس ســنس ١١٤٠ الملك الفرنسى لويس السابع (١١٣٧ – ١١٨٠) وأمير الأمراء والعديد من النبلاء والأشراف وعامـــة الشعب، حيث هاجم برنار بكل ما أوتى من قوة، واستنجد أبيلار بالبابا الذى حكـــم عليــه بـــالصمت والسجن، ولم يُجره إلا بطرس الموقر في كلونى.(٢)

أما إيلويز التى تعد نقطة تحول هامة في حياة أبيلار، فإن جـــورج دوبـــى "Duby, G." يقول: "لقد قتل أبيلار إيلويز، أما هى فقد ضحت بحياتها من أجله عن طيب نفس". ومعنى قتله لها أنــه أنهى حياتهما سوياً بينما أن إخصاؤه في حد ذاته لم يكن سبباً حتمياً لإفساد ذلك الــزواج، ولــم يكــن يمنعهم من أن يعيشوا معاً زواجاً روحانياً". لقد كانت تدلى بقسمها الأخير وتتشنج من فرط البكاء فـــى مذبح الكنيسة، وفى لحظة المجاهرة تلك قدمت نفسها للموت ليعيش أبيلار.(٣)

بالرغم من أن إيلويز كانت ترفض الدخول في حياة دينية، فإنها ممـــا يدعـــوا للدهشـــة أنـــها استطاعت أن تكتسب سمعة طيبة كراهبة وحظيت بإعجاب بطـــرس الموقـــر والعديــد مـــن رجـــال الإكليروس وعامة الناس الذين أغدقوا التبرعات والهبات على ديرها المسمى ديـــر الـــروح القـــدس "Paraclete" الذى بناه أبيلار ومكث فيه فترة قبل أن يعطيه لإيلويز وراهباتـــها. وفـــى المراســـلات الخاصة لأبيلار وإيلويز، انعكست أدوارهما كراهب مارق وراهبة صالحة، فهو كثيراً ما قـــدم نفســه على أنه راهب حكيم، بينما أصرت هى على أن حياتها داخل الدير حياة مزيفة ومصطنعة لأنها فـــي قرارة نفسها لا تزال عشيقته. "إن الأشخاص الذين يدعونني بالطهارة لا يعرفون كم أنا منافقة".(٤)

كان رد أبيلار عليها قائلاً: "إن من يحبه الرب يعاقبه"، لكنها لم تكن تعتبر إخصاء أبيلار هـــو عقاب إلهى من رب مُحب لها: "إننى دوماً ما أتهمه بالقسوة الشديدة فى هذا الظلم، ولأننـــي أعـــترض

---

(١) Knowles, D., Op. Cit., P. 128

وانظر أيضاً Taylor, H.O., The Medieval Mind, vol.2, London, 1930, P. 383

(٢) Poole.R.L., Op. Cit, P. 142 &Lasserre, Op. Cit, . 113

(٣) Duby,G., Dames du XII[e] siècle, Paris, 1995, P. 85

(٤) Betty Radica, The letters of Abelard and Heloise, Penguin Books, 1974, P.28

على قسمته أعصيه كثيراً بتذمرى وضيقى أكثر مما أقوم به من كفارة أو مرضاة لتهوين هذا الأمـــر". والواقع ان إلمام إيلويز ودرايتها التامة باللغة اللاتينية ، ربما كان السبب فى تعمدها اختيـــار ألفاظـــاً قانونية في مسألتها أمام الرب: إننى أتهمه "arguo" بـــالظلم "Injuria" وأعارضـــه "Contraria" وكانت تتساءل على الدوام عن رحمة الرب التى لم تدركها.(١)

فطن أبيلار إلى أن عليه أن يبدل حب إيلويز له على الأقل بحب معاناة السيد المسيح من أجـل البشرية، إن لم يكن حبها للرب القادر والأب الذى تعارضه وتتهمه بالظلم، فاســـتحضر أبيـــلار أمـــام عينيها صورة الصلب قائلاً: "ألا تتحرك دموعك وتشعرين بالأسى والحسرة عندما ترين الإبن الوحيـــد للرب بكل براءته وهو يُعذب وتّعصب عيناه ويّسخر منه ويّضرب ويّبصــــق عليـــه وتّكلـــل جبهتـــه بالشوك، ثم يّصلب في آخر الأمر وسط اللصوص على هذه المشنقة المشينة والمخزيـــة للصليـــب؟" . فأخبرته إيلويز أن مشاعرها لم تعد تحت سيطرتها، وأن المعاناة الوحيدة التى حركتـــها هـــى معانـــاة حبيبها. بيد أنها طمأنته أنها منذ ذلك الوقت فصاعداً " لن تكتب عن مشاعرها الخاصـــة، وأن عليـــهما بدلاً من ذلك أن يراسلا بعضهما بمراسلات غير شخصية مثل أى راهب وراهبة تمامـــاً كمـــا يريـــد هو".(٢) وعند تتبع المراسلات الخاصة بهما بعد ذلك نجد أبيـــلار يرســـل إليـــها "بعـــض الدعـــوات والترنيمات والخُطب وحلولاً لبعض المشكلات التى تثيرها نصوص الكتاب المقدس، وبحـــث متمـــيز حول نشأة الراهبات، وبحث آخر أطول يعتبر نظامـــاً وقـــاعدة لديرهـــا، وأخـــيراً شـــهادة الإيمـــان "Confession of Faith" التى رفضت الإدلاء بها أمام القديس برنار".(٣)

أما عن إيلويز الإنسانة ، فوالدتها كانت تسمى "Hersindis" غير أنه لم تكـــن هنـــاك أيـــة إشارة عن من يكون والدها. وعلى الأرجح أن والديها قد توفيا وهى لا تزال طفلة. أما أبيـــلار فكـــان يدعوها على أنها ابنة أخت فولبير، غير أن إيلويز لم تقض طفولتها مع فولبرت فى نوتـــردام، ولكـــن في دير راهبات أرجينى "Argenteuil" رفيع المقام. وقد "ارتبط وجود إيلويز في نوتردام بعد ذلـــك بتوسيع مجال تعليمها ليفوق كل ما يستطعن الراهبات أن يدرسوه. وحتـــى قبـــل أن يتولـــى أبيـــلار التدريس لها، اشتهرت إيلويز بأنها أكثر النساء علماً في باريس".(٤)

تعد خطابات أبيلار إيلويز مطابقة تماماً لخطابات القرن الثانى عشر، وذلك بعد عملية الكشـف والتحقيق، ومع ذلك فستظل الحقيقة الهامة قائمة دائماً، وهى أن كاتبان من كتاب القرن الثـــانى عشـــر

---

(١) Charrier, Ch., Op. Cit, P. 108

(٢) Gilson, E., Hèloise et Abélard, 2éd. Paris, 1964, P. 106

(٣) Duby, G., Op. Cit, P. 110 ; Guérard, A. L. , French Civilization, Eng. Trans., By fisher,U., London, 1920, P. 199

(٤) Gilson, E., Op. Cit. P. 34

استطاعا فهم الحب والتعبير عنه بمثل تلك الألوان والأنغام العميقة أيضاً، بحيث يستطيع كل إنســان أن يتذوق فيها حتى اليوم طعم الصدق وقوة الحيوية وذلك بعد انقضاء ثمانية قرون.(١)

لا شك في أن أبيلار كان عبقرياً من الطراز الأول. فقد تأثر كل من لقيــه بقــوة شــخصيته وسلطانه العقلى. وربما تعكس حياته العاصفة القلق النفسى الناتج عن فشله في الاهتداء إلـــى المنــاخ الملائم لممارسة موهبته الفذة ممارسة كاملة. ويبدو أن متاعب أبيلار الشخصية ترجع إلى حقيقة أنـــه سبق عصره بقرن كامل من الزمان. فقد كان رائداً في مجال استخدام المنطق الأرسطى، كمــا كــان رائداً في البحث الصارم عن الحقيقة العقلية. وكان هناك آخرون يفعلون الشيء نفسه، ولكن تـــأثيرهم وفعاليتهم كانت أقل كثيراً، كما أن بزوغ نجم أبيلار جعل منه كبش الفداء لأولئك الذين كانوا يشـــكون في نتائج ودلالات المنطق الجديد. ولو أنه عاصر توما الأكوينى لأثار قدراً من الاهتمام، ولكنه كـــان حتماً سيبدو أقل تميزاً وخصوصية. ولو أنه عاش في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، لعاش حيـــاة أكاديمية عادية وتولى منصب الأستاذية في إحدى الجامعات الكبرى، ولتجنب تلك التعاســـة والبـــؤس الذى خيم على حياته.(٢)

---

(١) Le Goff, J Les intellectmels au moyen âge, Paris, 1985, P. 46

– قامت الباحثة هيلين وادل بكتابة رواية عن أبيلار وإيلويز وهى رواية شهيرة تحولت إلى مسرحية

أنظر، Helen Waddell, Peter Abelard, New York, 1959

(٢) نورمان كانتور، المرجع السابق، ص ٤٤٦



الفصل الأول

ظهور أبيلار واكتساب المعرفة فى عصره

-العلم والسحر

- الموسيقى والعلوم

- اكتساب المعرفة والتفكير المدرسى

- تعلم القراءة والكتابة

- المرأة والكتابة

- اختيار أبيلار للكتابة

- تعلم اللاتينية

- الأعمال الكلاسيكية اللاتينية فى عصر أبيلار وأهمية النحو .

العلم والسحر:

لم يكن الخط الفاصل بين العلم والسحر – بين الواقع والأسطورة – واضحاً تماماً في العصور الوسطى، لأن كل منهما كان يبحث فى المعجزات وأسرار المعرفة القديمة، وكل منهما كان يبحث فى القوى غير المرئية التى تتحكم فى العالم والتى لا يستطيع أن يتحكم فيها أو يتنبأ بها سوى الخبراء بها.

كان الحد الفاصل بين العلم والدين غير واضح أيضاً– لنفس الأسباب تقريباً– لأن الدين يهتم بالأمور الغيبية ويعد بالحياة بعد الموت، إن الفرق بين السحر والدين يختلف من وجهة نظر طرف لآخر. فرجال الدين يستعملون كلمة"السحر" لوصف أعمال السحر والتنجيم والاستعانة بالقوى الخارقة التى كانت تزعجهم وتبدو غريبة بالنسبة لهم، فبينما كان الوثنيون يمارسون السحر من خلال التعويذات والممارسات الشيطانية الأخرى، كان المسيحيون يمارسون الدين الحق، وإن كان هناك تعارض بين السحر المحرم وبين "القرابين المقدسة" فى الفكر اللاهوتى المسيحي.(١) فقد تبدو شعائر التعميد وإقامة القداس (القربان المقدس) للوهلة الأولى وكأنها أعمال سحر بالنسبة لشخص لا يدين بالمسيحية ويتعرف عليها أول مرة، أما بالنسبة للقساوسة المسيحيين، فإن طقوس القربان المقدس وسائر الشعائر الدينية كانت أمراً مألوفاً تماماً وتقليدياً وخالياً من أية خرافات، فهى ليست من عمل الشيطان مثل السحر، وإنما "هي ابتهالات إلى الإله الحق لاستجداء عونه للنصر على الشياطين التى كان يُعتقد أنها تهدد البشرية من كل اتجاه".(٢)

لم تكن السلطات الكنسية في عصر أبيلار أو فى أى وقت آخر– نعنى بذلك الأساقفة الموجودين فى مجالسهم الإقليمية والبابا والكاردينالات فى روما– لم تكن معارضة للإطلاع والمعرفة، بل على العكس، فقد أرادوا المسيحيين أن يتعلموا كل شيء عن دينهم. وكان الفرق بين إتباع الدين والهرطقة يتوقف على نوع المعرفة التى يطمح المسيحى أن يكتسبها. فيجب ألا تكون المعرفة من النوع الذى يملأ صاحبه بالغرور وألا تكون دنيوية فقط. "فالهرطقة كانت عيب أخلاقى أكثر منه فكرى". ولهذا السبب استخدم سان برنار لغة مليئة بالغضب تجاه أبيلار حيث قال:"إن زهوه بالمنطق والتفكير العقلانى ما هو إلا اغتصاب سلطة إلهية يصل به إلى حد التأله".(٣)

---

(١) Thorondike, L., A History of Magic and Experimental Science Vol.1, New York, 1929, p. 512

(٢) Pierre Lasserre, Op. Cit., p. 34

(٣) Luscombe, D.E., Peter Abelard's Ethics, Oxford, 1971, P.21

انظر أيضاً ، Knowles, D., Op. Cit., P.119

إن العلم المسيحى محفوظ فى الإنجيل وفى تعاليم علماء الكنيسة الأوائل، ويعد تفسير تلك الكتابات الوظيفة الرئيسية والواجب الأول لكل من يحاول اكتساب المعرفة. وعلى الرغم من ذلك، وعلى عكس ادعاءات برنار، فقد قدم أبيلار مساهمة كبيرة للمعرفة المسيحية فى كتابه الخالد "Sic et Non" "نعم ولا"، والذى قدم فيه لكل الدارسين نصوص علماء الكنيسة الأوائل والتى جمعها بطريقة منظمة يسهل تحليلها تدريجياً بحيث أمكن تجميع شتى أمور العقيدة المسيحية بشكل موسوعى.(١)

كان الاعتماد على الإنجيل وكتابات آباء الكنيسة الأوائل كمصادر رئيسية للمعرفة فى كل نواحى الحياة، له نتائج أضفت على التفكير المدرسى فى العصور الوسطى طابعاً مميزاً.(٢) فكان يتم التعامل مع أسفار أقل أنبياء العهد القديم شهرة مثل حزقيال وكأن كل كلمة مذكورة فيها زاخرة بمعانى كثيرة، في حين احتلت كتابات عظماء الفلاسفة فى العصر اليونانى الرومانى المرتبة الثانية فى هرم المعرفة،و صحيح أن أفلاطون وأرسطو وشيشرون كانوا يّعدوا عمالقة الحكمة عبر العصور الوسطى ، إلا أن تلك النظرة كانت تشوبها بعض الازدواجية لأنهم كانوا يدينون بالوثنية.(٣) فمن الناحية النظرية، كان الإنسان المسيحى الجاهل يعرف ما يفوق ما يعرفه هؤلاء الفلاسفة قيمة وأهمية. وكان برنار يرى أن الرهبان الذين يعيشون فى عزلة داخل أديرتهم يعرفون أكثر مما يعرف الأساتذة الذين يدرسون فى المدارس. وكان برنار فى اضطهاده لأبيلار متأثراً بأفكار الرهبان السسترشيان "Cistercian" الآخرين ، وكان يردد الشكوك المسيحية التى تكتنف القيمة الأخلاقية للتعليم الدنيوى. وقد اعترف برنار أن أبيلار قد يكون أذكى وأهم عالم فى عصره، ولكن من أين اكتسب ذلك العلم وإلى أين يقوده – إلى الجنة أم إلى الجحيم؟.(٤)

---

(١) Dictionnaire d'Histoire et de géographic ecclèstiques, tome I , Paris, 1912, P. 75

(٢) Monroe, P., A Text- Book in The History of Education, London, 1933, PP. 300 – 301.

-التفكير المدرسى أو الحركة المدرسية استخدمت لتعبر عن معانى مختلفة: فاستخدمت فى بعض الأحيان لتشير إلى الحياة الفكرية فى العصور الوسطى وإلى كتابات كل العلماء والفلاسفة المدرسيين أى الذين قاموا بالتدريس والبحث فى مدارس الكاتدرائيات. وكان لفظ "Scholasticus" يطلق على كل معلم فى مدرسة.وقيل أيضاً أن الحركة المدرسية هى التى اعتمد أنصارها في تكوين نظرياتهم وتنظيمها على الطريقة المنطقية التى وضعها أرسطو والتى تقوم على أساس القياس المنطقي. وقيل فيها أيضاً أنها كانت حركة تسرف فى المناقشة اللفظية وتعالج مسائل الدين ليس غير، وتخضع فى ذلك للنقل دون العقل، انظر ، وهيب إبراهيم سمعان، الثقافة والتربية فى العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٦٢ ، ص ١٠٠

– كتب أبيلار أول عمل لاهوتى له عن النبى حزقيال فى شكل رسالة عام ١١١٥ م ، انظر،

Abélord, Ouvrages inédits, P. 41.

(٣) Thorondike, Op. Cit., P. 513

(٤) Baldwin, M.W., The Medieval Church, New York, 1960, P. 42

اتهم برنار أبيلار في مجلس كنيسة "سينس" "Sens" عام ١١٤٠ بالخوض في الماء العكر فى ربطه بين السحر والدين والعلم. فقد ذكر برنار أن أبيلار كان يرى أن الشياطين توسوس لنا عن طريق اتصالنا بالنباتات والأحجار، وأن العالم كائن حى والروح القدس هى روحه (فكرة روح العالم المأخوذة عن أفلاطون). وتلك الاتهامات من وجهة نظر برنار تثبت أن أبيلار كان وثنياً، على الرغم من أنه كان يرى أن مثل تلك الاتهامات لا يجب النظر إليها مقارنة بأخطاء أبيلار الكبرى بشأن الثالوث والخلاص.[(١)]

كان أبيلار يحاول أن يجمع بين العلم الطبيعى فى العصر اليونانى الرومانى والإيمان المسيحى بوجود السحر والشياطين، فكل الكنائس الكبرى فى عهد أبيلار كانت تصور الصراعات الجبارة بين الملائكة والشياطين حول أرواح البشر الضعيفة. أما عن مس الشياطين لبنى الإنسان، فقد أثبت المسيح بنفسه صحته فى العهد الجديد، كما أنه كان أحد المواضيع المفضلة فى الفن الرومانسكى. وبالتالى فإنه كان شيئاً مألوفاً أن يقول أن الأفكار الشريرة تطرأ على أذهاننا عبر همسات الشياطين، فالشيطان كان متجسداً فى صورة "الأفعى الخبيثة" فى سفر التكوين والتى أغوت آدم وحواء.[(٢)]

إلا أن مّعارضي أبيلار اعترضوا على محاولة تفسيره لعملية الغواية تفسيراً طبيعياً وتجسيدها فى صورة مادية بقوله أن الشياطين تستعين بعلمها لتغيير حالتنا الذهنية باستخدامها عقاقير من النباتات والأحجار ، كما أن الكنيسة لم تنكر حدوث بعض أنواع السحر خاصة بالنسبة للقرابين المقدسة، إلا أن تلك الممارسات لا يجب أن يقوم بها سوى الأشخاص الذين تحددهم الكنيسة، أى القساوسة عند إقامة القداس، ورجال الدين الذين يقومون برقية وعلاج المرضى وذلك فى أضرحة القديسين.[(٣)]

---

(١) Abélard, Ethics, P. 38

- ذكر أبيلار أن الأحجار والنباتات تتمتع بخصائص معينة تربطها بالقوى الشيطانية، ولقد طرح أبيلار هذا الموضوع حينما كان يناقش جانباً نفسياً يتعلق بالطريقة التى ترد بها الأفكار الشريرة والإغواءات على أذهاننا. وقد أوضح أن بعض النباتات والأحجار تحتوى على مواد طبيعية "قوى" لها القدرة على إثارة عقولنا أو تهدئتها ولقد شرح أبيلار ذلك وكأنه عالم نبات أو كيميائى متخصص قائلاً:" إن العلماء المتخصصين فى علوم هذه المواد يعلمون كيف يحدثون هذا التأثير" .

وعن اتهامات برنار لأبيلار بالسحر انظر، Bernard, (st.,), Ouvres Choisies, P.111

وانظر أيضاً، Abélard, Ouvrages inédits, P.19

(٢) Abélard, Ethics, P.39

وعن صحة مس الشياطين للإنسان فى العهد الجديد انظر : (مرقس ٥: ١-٢٠) ، (متى ٩: ٣٢ - ٣٤) (لوقا ٨ : ٢)

(٣) Jolivet&de Libera, Op. Cit., P.23

ترجع شهرة أبيلار كساحر لاتهامه بالهرطقة مرتين وحرق كتبه فى "محرقة مشهورة" فى كنيسة القديس بطرس فى روما (كما جاء على لسان جيفرى سكرتير سان برنار) ويُذكر أن الكتب التى نجت من الحرق حفظها تلامذته سراً لمدة طويلة. وقد كانت لكتب أبيلار خواص سحرية فيقال أنها تكره النور ولا يمكن العثور عليها حتى عند البحث عنها.(١) وقد ترجع أيضاً سمعة أبيلار إلى أصوله البريتانية، غير أن مشاعره تجاه أصله البريتانى كانت مزيجاً من الحب والكراهية. فيقول عن نفسه أنه يأتى من أطراف مقاطعة بريتانى وأن مسقط رأسه لوباليه "Le Pallet" الواقعة جنوب نهر اللوار، وكان أبيلار يصف دائماً البريتانيون فى محاضراته بأنهم "وحشيون" وذلك حتى يثير ضحك طلابه فى باريس، و"كان يصف دائماً البلدة بأنها بربرية فى كتابه تاريخ المصائب" إلا أن أبيلار كان يُعد بريتانياً فى نظر الأجانب- وهو سبب عبقريته فى نظرهم. فكانت بريتانى تُخرج رجال دين يتسمون بحدة الذكاء كما جاء على لسان أوتوالفريزى.(٢)

ولقد حدث خلط فى إحدى المرثيات بشأن أصل أبيلار البريتانى حيث وُصف عن طريق الخطأ بأنه "إنجليزي المولد". ومن المحتمل أن ذلك الخلط حدث نتيجة تشابه اسم أبيلار مع أحد أبناء جيله وهو "أديلارد أوف باث" "Adelard of Bath" عالم الرياضيات الشهير.(٣)

على حد تعبير أوتوالفريزى يُعتبر أبيلار "ذو ذكاء لا يُقدر وذاكرة فائقة وقدرة خارقة"، فبالإضافة إلى إطلاعه على النحو والديالكتيك (الجدل) واللاهوت، فقد درس الهندسة والحساب. لقد كان مفكروا القرن الثانى عشرالميلادى- الذين تأثروا بشكل كبير بفكر أفلاطون وفيثاغورث- يرون أن الفنون العددية كانت المفتاح لفهم أدق أسرار الكون، لأن كل شىء فيه تحكمه الأرقام- كما كتب أبيلار فى اللاهوت "Theologia": "إن النظام الموجود فى الطبيعة وتناسق الأرقام والنسب كلها علامات ودلائل على ذلك، فالأرقام موجودة فى كل شىء وتناسقها هو المثال الأكمل. هذه الحقيقة لا تغيب عن أذهان الذين يتأملون فى أسرار الفلسفة، ولهذا السبب أيضاً يقال أن الحساب- الذى يختص

(١) Bernard, (st), Op. cit., P.113

(٢) Otto of Freising, Op.Cit.,P.226

(٣) يوسف كرم، المرجع السابق، ص٨٢-٨٤

-نشأ ذلك الخلط نظراً لأن أديلارد (مثل أبيلارد) كتب هو الآخر عن معانى الكليات فى الفلسفة. ونظراً لعدم توافر نشرات دورية عن العلماء المعاصرين فى تلك الفترة ، فقد كان من الصعب التحقق من صحة مثل تلك المعلومات. فالعلماء فى العصور الوسطى كان لديهم الكثير من المعلومات عن الإنجيل وكتابات آباء الكنيسة الأوائل، بيد أن من معلوماتهم عن أبناء جيلهم كانت ضئيلة جداً.حتى فى الأديرة التى كانت تحتفظ بنشرات تاريخية، كانت تلك النشرات محلية والمعلومات الواردة فيها كانت متفرقة ولا يمكن التحقق منها.

بشكل أساسى بدراسة العلاقات بين الأرقام- هو أم بقية الفنون، فالمبادئ الأساسية لكل شىء تتوقــف على الفروق بين الأرقام، ولذا فإن الذين فهموا الأرقام وأهميتها صاروا أساتذة مجتمعهم وسادته.(١)

صور الفن المسيحي الرب ومعه فرجار ضخم باعتباره مـــهندس الكـون، وتعـد الكنـائس الرومانسكية والقوطية التى بُنيت فى عهد أبيلار أثراً تاريخياً شاهداً على نظريات التوافـق الحسـابية ودليلاً على المقدرة الحسابية لبُناتها. وعلى الرغم من اهتمام أبيلار الفلسفى بالأرقام، فإنه اعترف بأنــه كان "جاهلاً تماماً" بالطرق الحسابية.(٢)

الموسيقـــى والعلـــوم:

لعل أبيلار قد اكتســب شهرته في الرياضيات بسبب نجاحه كموسيقى. فبراعته فـــى تـــأليف الموسيقى والغنـــاء جعلــت منه شخصية غاية فى الجاذبية فى أعين النساء على حد تعبير إيلويـــز.(٣) وتُعد مقطوعـــة "الروح القدس" التى ألفها أبيلار لإيلويز وراهباتها من أشهر المقطوعـــات الموسـيقية الدينيـــة فالموسيقى كانت أحد الفنون أو المواد التى تُدرس في المجموعة الرباعيـــة "quadrivium" بجانــب الحساب والهندسة والفلك، والتى كانت مرتبطة بالقدرة الحسابية منذ عهد فيثاغورث. فيذكـــر أبيـــلار أن: "التناغم يعد عنصراً أساسياً ليس فقط فى ترتيب الأرقام فى الحساب، ولكن فى نظريـــات الهندسة وفى حركة النجوم والكواكب فى علم الفلك. ومن خلال حســابات التنـــاغم الموســيقى، فـــإن الموسيقـــى تؤكد أن الحياة ستستمر، وأن النجوم ستبقى فى مساراتها، والفصول ستتعاقب مـــن عـــام لآخـــر".(٤)

---

(١) Otto of Freising, Op. Cit., P.227

وعن أهمية الحساب عند أبيلارد انظر، Abélard, Ouvrages inédits, P.57

انظر أيضاً، Jolivet&de libera, Op.Cit., P.28

(٢) Mews, C., "On dating the works of peter Abelard", A.H.D.L.M.A., 52(1985), P.93

-ربما ذكر أبيلار جهله بالحساب بهدف التواضع، أو قصر نفسه على الجدل فلقد كانت لديـــه ميـــول رياضيـــة، وذلــك لأن استنتاجات المنطق الصوري (الدياليكتيك الذي تخصص فيه أبيلار) لها علاقة بالنظريات والمعـــادلات الحسابيـــة. كذلك ربما يكون أبيلار قد ساهم في نظرية العمارة، لأنه كان-على ما يبدو-أول مفسر الإنجيل ولقـــد أوضح التطابق بين النسب المستخدمة في بناء معبد سليمان في القدس- كما جاء في سفر الملـــوك- والإيقـــاع الموسيقى الفيثاغورثى. و تم استخدام نسب عددية في معبد سليمان، والذى اســـتلهمت منـــه كنـــائس القـــرون الوسطى، بحيث تضاهى صورة الجنة وتستحضر تناغمها الذى لا يوصف .ويعد هذا مثالاً على ما قصـــده أبيـــلار بـــأن تناسق الأرقام هو "المثال الأكمل".

(٣) Waddell, H., The Wandering Scholars, Michhigan Press, 1989, PP. 116-120.

(٤) Abélard, Ouvrags inédits, P.28

ورثت فلسفة العصور الوسطى عن اليونان الإيمان بأن النجوم تثبت فى أماكنها بمساعدة مدارات شفافة ضخمة تَصدر موسيقى عن دورانها حول الكون، وفكرة أن سكان الأرض لا يسمعون تلك الموسيقى الرفيعة ولا يرون تلك المدارات الشفافة لا تنفى تواجدها (أى الموسيقى). بل كانوا يؤمنون بوجودها كإيمانهم بالله، لذا فقد اعتقدوا أن الموهوبين فى الموسيقى أمثال أبيلار يتمتعون بموهبة قدسية تتناغم مع طبيعة الكون.(١)

يقول الأستاذ هيودوسان فيكتور، والذى كان ينافس أبيلار على كسب قلوب وعقول تلاميذه فى باريس فى ثلاثينات القرن الثانى عشر الميلادي:" توجد ثلاثة أنواع من الموسيقى: أعظمها هى "موسيقى الكون" التى لا يسمعها البشر، وتأتى بعدها "موسيقى الإنسان" التى لا يسمعها البشر ولكن يشعرون بها، وفى المرتبة الثالثة تأتى الأنواع المختلفة لموسيقى الآلات التى يحتاج لسماعها الأشخاص الذين لا يسمعون إلا بآذانهم".(٢) ويعنى هيو بموسيقى الكون ما هو أبعد بكثير من الموسيقى التى تَصدرها المدارات الكرستالية (الشفافة) – لأنها ترتبط بالمكان والزمان وتصف تغير الفصول وحركة النجوم. ويعنى بموسيقى الإنسان التناغم بين الجسد والروح والذى يمكن ويجب على أى فرد أن يحققه، فهو يعنى بمفهومنا الحديث ترتيب جينات الجسم، فهرمونات الجسم هو موسيقاه. ولم يهدف هيو بقوله ذلك اكتشاف شئ جديد، لأنه كان يستشهد بكلام بوئثيوس Boethius من كتابه الموسيقى "De Musica" والذى يرجع بدوره إلى فيثاغوزث، ومن خلال تلك الطريقة فى التفكير، كانت الموسيقى تَعد علماً رفيعاً يُعنى بأساسيات الحياة نفسها ويربط كل فرد بالكون.(٣)

كان أبيلار شخصية متعددة المواهب وعالم متبحر، فقد كان موسيقياً وشاعراً وفيلسوفاً وكذلك عاشقاً عظيماً كما تقول إيلويز، بل ومهرجاً أحياناً، إلا أنه لم يكن عبقرياً فى العلوم بالمعنى التجريبى على غرار باكون " Bacon" فى القرن الثالث عشر الميلادي. لقد تغير معنى كلمة "العلوم" من المعنى الشمولى للكلمة حتى اقتصرت على العلوم الطبيعية بدلاً من كل نواحى المعرفة. وقد عرف أبيلار العلوم بأنها "فهم حقيقة الأشياء"، بيد أن علماء العصر الحديث لا يعترضون على هذا التعريف، ولكنهم رغبوا في معرفة طريقة تحقيق هذا "الفهم".(٤)

---

(١) Reese, G., Music in the Middle Ages, London, 1940,P.63.

(٢) Sicard, P., Hugues de St. Victor, Paris, 1991, P.16

وعن حياته وفلسفته راجع، يوسف كرم، المرجع السابق، ص ١٠٠

(٣) Sicard, P., Op. Cit., P.17

(٤) Thorodike,L., Op.Cit., P.531.

- لم يختلف العلم فى العصر الوسيط عن العلم الحديث بشكل كبير حول الهدف من فهم الحقيقة، بل كان الاختلاف حول أولويات العلم وطرقه. ففى حين يعطى العلم الحديث الأولوية للتجارب العلمية. وتطبيق التكنولوجيا، كان العلم فى العصور الوسطى يركز على تطبيق الفكر المجرد على مجالات المعرفة المتعارف=

لقد كان غالبية العلماء- أمثال أبيلار وهيودوسان فيكتور- يؤمنون بضرورة استعادة المعرفة التي وصل إليها العالم القديم وفهمها فهماً تاماً بدلاً من التجريب. فكانوا يُكنون التقدير والاحترام لتراثهم القديم فى الأمور الدنيوية تماماً مثل الأمور الدينية. ويقول الأستاذ (هيو):"إن الأشياء التي يتقدم بها كل إنسان فى طريقه للمعرفة تشمل شيئين أساسيين هما القراءة والتأمل، ومن بين هذين الشيئين تحتل القراءة المكانة الأولى. فيجب على الطالب أن يعرف ما الكتب التى يجب أن يقرأها، وبأى ترتيب يقرأها، وكيف يقوم بقراءتها".(١) وأكد (هيو) أن القواعد التي وضعها تنطبق على الكتابات الدنيوية كما تنطبق على الكتاب المقدس، ولقد كان الوضع كذلك فى الوقت الذى كان فيه علماء العصور الوسطى يتعاملون مع نصوص أفلاطون وأرسطو باعتبارها أساس العلوم الطبيعية مثلما كان الإنجيل أساس العلوم المقدسة.

أما حنا السالزبورى فيوضح لنا كيف كان أبيلار يّعلم تلاميذه أنهم مجرد أقزام يقفون على أكتاف عمالقة. وهو يستشهد ببعض الرسومات التى تظهر على نوافذ كاتدرائية شارتر "Chartres" القريبة من باريس، "تبين صور أنبياء العهد القديم العظام- مثل إشعيا-وهم يحملون على أكتافهم أشخاصاً أصغر حجماً وهم متى ومرقس ولوقاويوحنا مؤلفى الأناجيل الأربعة للعهد الجديد. ومن هذا المكان المرتفع يّطل أصحاب الأناجيل الأربعة على الكاتدرائية وهم يشهدون نصر الإنجيل المسيحي".(٢)

لقد كان علماء العصور الوسطى - بما فيهم أبيلار- على استعداد للاعتراف بأنهم كانوا أقزاماً بالمقارنة بحكماء العصور القديمة العمالقة، ولكنهم ولنفس الأسباب، كانوا واثقين أنهم يعرفون أكثر من أسلافهم - لا لشيء سوى أنهم جاءوا فى زمان بعد زمانهم، ولذا فإنهم يعلونهم فى سلم المعرفة التراكمية. و"كان المفكرون في عصر أبيلار يرون أنهم كانوا فى مكانة شديدة التميز لأنهم يجمعون بين أعظم ثقافتين فى العالم: الثقافة اليونانية الرومانية من ناحية، والثقافة اليهودية المسيحية من ناحية أخرى".(٣)

=عليها. إن تجارب علماء العصور الوسطى فى الحقيقة كانت فى غالب الأمر تشوبها العيوب مثل تجارب المبتدئين فى العصر الحديث . فقد أصروا على اكتشاف كل شئ بأنفسهم وذلك فى الأمور التجريبية، ورفضوا تلقى المعرفة المتعارف عليها حتى وإن كانت صحيحة. فكان باكون 'Bacon' يرى أن الذهب يخضع للمغنطة مثل الحديد ويصر على ذلك، فى حين كان ليوناردو دافنشى فى القرن الخامس عشرالميلادى يرى أن معلوماته فى الكيمياء كافية لتجعله يرفض الطريقة التقليدية المتبعة في خلط الألوان الزيتية، مما سبب إتلاف كم كبير من أعماله الفنية. كان العلم التجريبى فى العصور الوسطى يحتل مكانة ثانوية بين مجالات المعرفة، حيث ارتبط أكثر ما ارتبط بالكيمياء والسحر. وذلك لأنه لم يقدم نجاحات عملية كثيرة ولم يكن على ما يبدو أنه يشكل نظاماً فكرياً.

(١) Hugues de St. Victor, PL, Vol.175, (1886), PP.84-85.

(٢) John of Salisbury, book3, PL, P. 116.

(٣) Le Goff, J., Les intellectuels au moyan âge, P.48

إن مفارقة تشبيه الأقزام الواقفين على أكتاف العمالقة تفيد بأنه على الرغم من أن جيل أبيلار قد يكون أقل شأناً، إلا أنه فى معرفته بالعلوم الدنيوية تفوق على معرفة أرسطو وأفلاطون بها، ومعرفته بالعلوم المقدسة تفوق معرفة أصحاب الأناجيل الأربعة الذين كتبوا العهد الجديد. وقد أدى إيمان أكثر العلماء تفاؤلاً فى جيل أبيلار بحتمية التقدم إلى اصطلاح كلمة جديدة يصفون بها أنفسهم: فقد كانوا "حديثين "moderni"، أى رجال الحاضر الذين يتسمون ببعد النظر، فى مقابل الفلاسفة القدامى وأنبياء العهد القديم. لقد كان هناك سؤال فلسفي يطرحه أبيلار دائماً على اليهود والمسيحيين وهو: لماذا لم يحدث تقدم فى الإيمان الدينى على غرار التقدم الذى حدث فى كل شيء، حيث يزداد فهم الإنسان مع مرور الأزمان وتعاقب العصور؟ فالعلماء المحدثين في القرن الثاني عشر الميلادي كان يحدوهم الإيمان القوى بحتمية التقدم وليس التخلف.(١) وبذلك التفسير، فإن المسيحية نفسها تحمل رسالة تقدمية، فلم يكن العالم فى العصور الوسطى ليّكن كامل الاحترام للمعرفة التى قدمها الفلاسفة القدامى لأنهم لم يعرفوا المسيح، فمن وجهة نظر علماء العصور الوسطى، أن كل من أفلاطون وأرسطو وإشعيا النبى قد أصابوا فى أمور كثيرة ولكنهم ناقصي الإيمان والمعرفة لأنهم ولدوا قبل المسيح، وهو بلاء أودى بهم إلى شئ أقرب إلى اللعن، إضافة إلى ضياع إنتاجهم الفكرى فى نهاية الأمر.(٢)

أوضح أبيلار فى كتابه "Sic et non" "نعم ولا"، كيف حاول هو وأقزامه الجدد"تلاميذه"، الذين أسماهم (القراء الحساسين)، أن يتفوقوا على أعمال العمالقة فيما يخص التراث المسيحى. فقد قام بتجميع مئات الشواهد من كتابات علماء وآباء الكنيسة الأوائل، وخاصة كتابات القديس أوغسطين والبابا جريجورى الكبير، وذلك فى تسلسل منطقى وأدرجها تحت مائة وثمانية وخمسون عنوان رئيسى، حتى يتسنى له إلقاء الضوء عليها وتحديد التناقضات فيما بينها.(٣) لم تكن نية أبيلار بذلك العمل الإساءة لسمعة أباء الكنيسة الأوائل بتصنيف آرائهم إلى "نعم" أو "لا" كإجابة على أسئلته المائة والثمانية وخمسين. فقد كان واثقاً أن التناقضات الظاهرة فى الشواهد التى جمعها سوف تختفى بسهولة بمجرد تطبيق مناهج النقد العلمى عليها وذلك باستخدام الفنون اللغوية مثل المنطق الذى برع هو فيه.

---

(١) Phillipp Wolff, L'Eveil intellectuel de l'Europe, P.207; Ferruolo, S., Op. Cit., P.37

(٢) Delort, R., Le moyen âge, Histoire Illustré de la vie quotidienne, Lausanne,1972, P.87

-أحد التماثيل الموضوعة بمدخل كتدرائية نوتردام، والذى يرجع لعهد أبيلار حوالى ١١٣٠م، يعرض تجسد المسيح، والفلاسفة اليونان يجلسون على جانبى قاعدة التمثال وهم منكبين يكتبون ولا يرفعون أبصارهم عن أعمالهم، وذلك على حد قول أبيلار:"لأنهم لا يرون المسيح الذى يمثل الحكمة الحقيقية التى لم يعرفوها أبداً". كذلك وبنفس المعنى تظهر صورة الماضى اليهودى فى أحد التماثيل فى صورة أنثى معصوبة العينيين. إن الازدواجية التى تعامل بها "الأقزام" من جيل أبيلار تجاه تراثهم الفكرى من العصور القديمة، منحتهم الثقة أو الغرور أحياناً للاستفادة من أخطاء العمالقة، فحاولوا أن يأخذوا ما يناسبهم من الماضي ويجعلوه مناسباً لهم متوافقاً معهم.

(٣) Ferruolo, Op., Cit., P.77

"عندئذ يمكن لأبيلار وتلاميذه (القراء الحساسين) أن يتسلقوا وبثقة أكتاف علماء الكنيسة العمالقة، ومن هذا المكان المرتفع يمكن للأستاذ وتلاميذه أن يروا الدين المسيحى واضحا وكاملا للمرة الأولى فى تاريخه".(١)

اكتساب المعرفة والتفكير المدرسي:

لقد كانت ثقة أبيلار فى ذلك البرنامج من الدراسة (مقارنة الشواهد) تتلخص فى مقولته فى مقدمة كتاب "نعم ولا" أنه:"عن طريق الشك نصل إلى التساؤل، وعن طريق التساؤل نفهم الحقيقة".(٢) فالمنهج المدرسى كان يسمح لممارسيه أن يحافظوا على المراجع وأن يقدموا في نفس الوقت حلولا إبداعية وذلك عندما تتطلب تلك المصادر مزيدا من الشرح المطول، وهو أمر منتشر كثيرا فى تلك الفترة وما تلاها. فعلى سبيل المثال يستشهد أبيلار فى كتابه "Theologia" "اللاهوت" بالعديد من الكتاب القدامى – سواء الكلاسيكيين أو المسيحيين– إلا أن المناقشات الواردة فيه تعد غير مسبوقة لدرجة أن سان برنار وبعض رجال الكنيسة وصموها بأنها هرطقة بالغة الخطورة.(٣)

أصبح الضعف الذي يشوب المنهج الدراسي كما أوضح أبيلار، يكمن فى أنه فى نهاية الأمر لم يصل سوى إلى مستوى إجادة المراجع التى اعتمد عليها. وحتى فى عهد أبيلار كان يبدو واضحا أن بعض الحكماء القدماء لم يكونوا أبدا مفكرين عمالقة، بل كانوا بشرا متخاذلين. فكما أوضح أبيلار فى مقدمة "نعم ولا" أنه كان يعد من الهرطقة أن يخرج بأي شكل من الأشكال عما جاء فى العهد القديم والجديد، حتى وإن وجدت أخطاء بهما، بيد أن أبيلار يرى أن الفلاسفة الكلاسيكيين كانوا أفضل حالا حيث أن أحدا لم يحكم عليهم بالهرطقة لأى سبب.(٤)

(١) Dictionnaire de Théologie catholique, tome III, Paris 1923,P.39

(٢) Abélard, Ouvrages Inédits, (Sic et Non), P.17

–رغم بساطة وسذاجة هذا الوصف لكيفية اكتساب المعرفة، إلا أنه كان شديد التأثير فى مدارس العصور الوسطى. فبعد ما يزيد عن قرن منذ عهد أبيلار، يعرض توما الأكوينى فى كتابه "خلاصة اللاهوت" نفس التساؤل ونفس الطريقة. ففى هذا الكتاب يجيب توما الأكوينى على أى سؤال، حتى وإن كان شديد التعمق فى اللاهوت أو العلوم الطبيعية فى صفحة أو صفحتين، معتمدا على طريقة المقابلة بين الشواهد التى يقتبسها من المراجع. والفرق بين كتاب "نعم ولا" وكتاب "خلاصة اللاهوت" هو أن توما الأكوينى يقدم الإجابة الفعلية للأسئلة المطروحة، عن طريق مناقشة المراجع واحدا تلو الآخر، فى حين أن أبيلار قد ترك هذه المهمة للبحث المستقبلى ولقرائه.

انظر، Chenu, M.D, Saint Thomas D'Aquin et la Théologie, Paris, 1959, PP.74-75.

(٣) Jolivet & de Libera, Op. Cit., P.28.

(٤) Abélard, Ouvrages, P.19

لم يكن العلماء التجريبيين هم أول من شك فى صحة المنهج الدراسى، بل إن سان برنار اتخذ موقف الهجوم ضد ذلك المنهج منذ مولده، عندما هاجم أبيلار فى مجلس سنس ١١٤٠م.(١) كتب برنار خطاباً إلى البابا إنوسنت الثانى "Innocent" (١١٣٠-١١٤٣م) يقول : "بُعداً لأي فكرة تقول بأن الإيمان المسيحى ينبغى أن تكون له حدود وفقاً لتقديرات هؤلاء الأكاديميين الذين يشكون فى كل شيء ولا يعرفون أى شيء. وإنى لأومن بإحدى جمل سيد المسيحيين، وإنى لعلى يقين بأنى لن أضل".(٢)

إن (برنار) يتعمد استخدام مصطلحات مدرسية (سكولاستيه) لكى يُضعف من مكانتها. فبدلاً من مئات الجمل التى جمعها أبيلار فى كتابه "نعم ولا، يُعلن برنار أنه يعتمد على "جملة واحدة" من أستاذه القديس بولس رسول المسيحيين : " لأنى عالم بمن آمنت، وموقن أنه قادر أن يحفظ وديعتى إلى ذلك اليوم". (تيموثاوس (٢) – إصحاح ١ : ١٢)، ثم يضيف برنار قائلاً: " وهو يذكر أن الإيمان مسألة "تقدير" ويتذمر من الغموض، وكأن لا شيء أكيد أبداً".(٣)

عرف أبيلار الإيمان فى كتابه اللاهوت "Theologia" بأنه "تقدير" للأشياء غير المرئية، وكان أبيلار وبرنار يقومان بلعبة المقاصد المتعارضة فى تلك النقطة ولم يختلفوا حول الأصول. إن برنار يعنى "بالإيمان" "اليقين"– وهو على حد تعبيره عملية نفسية عميقة فى الذهن. ويستشهد بقول القديس أوغسطين الذى يقول فيه " أن الإيمان لا يسكن قلب أى شخص يرى أن الإيمان ليس سوى حدس أو رأى، ولكنه المعرفة الأكيدة التى يرتضيها العقل". ويكون الإنسان قد وصل إلى المعرفة الأكيدة بشأن شيء ما عندما يجتمع قلبه مع ملكة المعرفة لديه ليكونا اليقين. أما مفهوم أبيلار عن الإيمان بأنه "تقدير" فإنه يركز على مرحلة مبكرة فى العملية النفسية.(٤) ويلاحظ (أوتو الفريزى) أن أبيلار قد خلط بين مصطلحات العلوم الطبيعية ومصطلحات اللاهوت، وذلك هو ما فعله فى بحثه فى عملية التفكير، حيث قام أبيلار بالتمييز بين الفهم والتقدير والمعرفة،إن أي خبر يجب أن يتم فهمه أولاً قبل أى شيء بصرف النظر عما إذا كان صحيحاً أم خاطئاً، ثم تأتى عملية التقدير أو تقييم ما إذا كانت الفكرة– التى يتم تكوينها فى الذهن– ينبغى تصديقها أم لا، وأخيراً تأتى مرحلة المعرفة وهى حالة من يقين العقل.(٥)

---

(١) يوسف كرم، المرجع السابق ، ص١٣٠-١٣٦

–بعد عهد أبيلار بقرن من الزمان، أى فى عصر باكون حوالى ١٢٥٠م، كشفت عملية الشك والوصول إلى التساؤل المتكررة أن بعض العلوم فى الفترة اليونانية الرومانية لم تكن ذات معنى من الأساس، ولا تستحق كل الشهرة التي وصلت إليها. ووجد أن التفكير العقلانى المعتمد على مراجع خاطئة هو أيضاً عديم النفع، كما وجد أن أفضل طريقة للتقدم– خاصة فى العلوم الطبيعة– هى الطريقة التى يوصى بها باكون والتى تقوم على التجريب، وهو الأسلوب الذى ابتدعه أبيلار منذ البداية وسار عليه بقية علماء وفلاسفة القرون التالية.

(٢) Bernard de clairvaux, (St.,) Epistola ad Innocentium II, in PL, P.1054

(٣) Bernard, (St.,), Ouvres choisies, P.93

انظر أيضاً، Verger J. & Jolivet, J., Bernard, Abelard, Paris, 1982, P.117

(٤) Verger et Jolive, Op. Cit., P.119

(٥) Otto of Freising, Op. Cit., P.229

وبتوضيح تلك الفروق السابقة نجد أن سان برنار كان مَحقاً في قوله بشأن "تقديـــر" الإيمــان عند أبيلار والذى يقصر عن المعرفة الكاملة. بيد أن أبيلار أكد أن المعرفة والإيمان شيئان مختلفـــان، وكان بذلك يتعمد التحذير من نوع الإيمان الذى يغيب العقل ويصدق كل شيء. فإذا أمــن المســيحيون بكل ما ليس له معنى، فلن يكونوا أفضل بحال من الوثنيين في شئ ، وفى مرات عديدة يؤكد أبيـــلار في عمله على أسبقية الفهم على الإيمان وهو بذلك يعكس قاعدة القديس أنسليم "إنى أؤمن حتى يمكننـــى أن أفهم". وتوضح قاعدة القديس أنسليم أن العقل عندما يسمح لنفسه بالاقتناع بشيء ما، يمكنه عندئـــذ أن يستكشف معناه.(١)

برر أبيلار تعريفه للإيمان عندما ذكر فى كتابه "تاريخ المصــــائب" آراء طلابـــه المناهضـــة لمقولة القديس أنسليم، والذين أصروا على أنه "لا يمكن الإيمان بشيء إلا إذا تم فهمه أولاً، وأنـــه مـــن السخف أن يقوم شخص بتعليم غيره شيئاً لا يستطيع هو أو غيره أن يفهمـــه". وأوضـــح أبيـــلار أنـــه يشارك طلابه نفس الرأى حيث كتب فى "اللاهوت": " إنه لشيء سخيف جداً أن يقول فرد فكـــرة مـــا يرغب فى تعليمها لشخص، غير أنه لا يفهم هو نفسه عما يتحدث". ويكشف هذا الرأى أولويات أبيـــلار كمدرس على الطراز السقراطي الذي يدعو طلابه إلـــى التســـاؤل والاختـــلاف حتـــى يصلـــوا إلـــى الحقيقة.(٢) ففى المدرسة يجب أن يتم تعريف الإيمان بأنه "تقدير" ،فإذا كان الإيمان يقيناً، فلن يصبـــح إذاً موضوعاً للمناقشة، ولن يجد الأستاذ وطلابه عندئذ بديلاً أمامهم سوى أن يعترفوا بإيمانهم وكأنـــهم فى كنيسة يتلون قانون الإيمان المسيحى.(٣)

اتهم سان برنار أبيلار "بالشك فى الرب" وذلك بسبب رفضه الإيمان بأى شيء ما لـــم يفكـــر فيه تفكيراً عقلانياً. وكانت هذه نقطة جدل فى صالح برنار، إلا أنها لم تُلغ اعتراض أبيلار بأنه ينبغـــى أن يفهم الطالب أو الشخص المقبل على اعتناق المسيحية ماهية الأشياء التى يجب أن يؤمن بها. نفـــس ذلك الجدل الذي أثاره سان برنار وبنفس اللغة المشحونة بالغضب، كان قد أثاره (سان أنســـليم) نفســـه قبل ذلك بخمسين عاماً حينما اتهم (روسلان) بالتجرؤ على تقديم العقل على الإيمان، ولقد كان أبيـــلار مشتركاً فى ذلك الجدل اللاذع المتعذر حله بشأن العقل والإيمان طوال فترة شبابه حينما تتلمذ على يـــد

---

(١) Le Goff, J., Op. Cit., P.48

-إذا أردنا أن نضرب مثالاً بسيطاً بالمفهوم المعاصر، يمكننا أن نقول أنه من الضرورى أن نؤمن بوجود القطب الشـــمالى قبل أن نفكر فى الوسيلة التى يمكن أن توصلنا إليه، وحتى إذا وصلنا إليه فيجب أن نصدق الوسائل التى نســـتخدمها فـــى الإبحار حتى نفهم أننا وصلنا المكان المقصود. إلا أن مقولة القديس أنسليم تعد صحيحة هى الأخرى إذا عكســـناها. فلكـــى نؤمن بشيء لابد وأن نفهمه أولاً، فإذا أسأنا فهم كلمة قطب، فلن نحقق هدفنا. انظر عن العقل والإيمـــان، يوســـف كـــرم، مرجع سابق، مواضع متفرقة .

(٢) Verger et Jolivet, Op. Cit., P.120

(٣) Le Goff. J., Pour un autre moyen âge, Paris,1977,P.186

روسلان وأنسليم، فى الوقت الذى كان الجدل فيه بين الرجلين على أوجه.(١) يقول سان برنار أن تجربته الخاصة كراهب أهم من دراسة الكتب، ويقول أيضاً:"صَدِق شخص سبقت له التجربة فسوف تجد أشياء في الطبيعة أكثر مما تجد فى الكتب. فالطبيعة بما فيها من غابات وأحجار سوف تُعلمك ما لا يمكنك أن تسمعه من الأساتذة، هل تعتقد أنه لا يمكنك أن تستخرج العسل من الصخور والزيت من أقسى الحجارة؟".(٢)

يتساءل سان برنار فى نفس الإطار أيضاً قائلاً:"لم تبحث عن الكلمة (المسيح) وسط باقى الكلام؟" إن برنار يرى أن المدرسيين هؤلاء من أمثال أبيلار ليسوا "حديثين" كما يرون أنفسهم، بل إنهم ينتهجون فكراً ولى من قرون، فهم لا يزالون مُتكبين على مكاتبهم مثل فلاسفة اليونان القدامى الذين تتواجد تماثيلهم فى شارتر وباريس وهم مُنهمكون في كتاباتهم لدرجة تمنعهم من أن ينظروا ليروا النور، ومن بين عدد غفير من الكلمات كما فى كتاب "نعم ولا"، فقد عجز المدرسيون عن ملاحظة وصول الكلمة الوحيدة الحقة وهى "يسوع المسيح". ذلك هو مقصد برنار.(٣)

كانت هناك قواسم مشتركة كثيرة ومتعددة تجمع كل من أبيلار، وهيودوسان فيكتور، وبرنار، فثلاثتهم كانوا مُلتزمين نظرياً بالانضباط الرهبانى، على الرغم من أنهم لم يعيشوا فى عزلة، كما أن ثلاثتهم أيضاً كانوا يهدفون إلى استغلال مواهبهم الغير عادية فى البلاغة لتعليم كلام الله والوعظ به، وكانوا جميعاً يتسمون بالذكاء والبراعة خصوصاً في المناظرة، بالإضافة إلى أنهم كانوا كُتاباً عظاماً وكان أبناء جيلهم يعتبرونهم فى صدارة أصحاب المعرفة والفهم. وقد قام كل منهم بمحاولات لاجتذاب الشباب لتعليمهم مبادئه، وكان هيو محافظاً أكثر من أبيلار أو برنار فى أمور العقيدة، بيد أنه فى جوانب أخرى كان هو وبرنار يتسمون بروح المغامرة أكثر من أبيلار (على سبيل المثال رأيهما فى العلاقات بين الجنسين) وغنى عن القول أن كل واحد منهم أكد على ضرورة تقصى الرشد التام فى الأمور الدينية، إلا أنهم اختلفوا حول تعريف ذلك الرشد.(٤)

يُعد أبيلار الأصعب بين الثلاثة ،وذلك لأنه لا ينقل أفكاره بنفس السهولة التى يتميز بها كل من هيو وبرنار، فأبيلار يُولى اهتماماً كبيراً لأبسط الأمور، فهو واحد من هؤلاء الأساتذة الذين لا

---

(١) Poole, R.L., Op. Cit., P.139

(٢) Lasserre, Op. Cit., P.64

-يشير برنار هنا إلى فكرة صوفية واردة فى الإنجيل، بيد أن معلوماته عن الخواص الكيميائية للأحجار والنباتات أقل بكثير من معلومات أبيلار عنها، ومن المرجح أن خبرة برنار بذلك تأتت من بعض الرهبان الذين كانوا يداوون المرضى بالأعشاب والحجارة.

(٣) Bernard, (St.), Ouvres choisies, P.176

(٤) Marenbon, J, Op. Cit., P.105

يستطيعون الامتناع عن إلقاء المحاضرات على مسامع تلاميذهم، ويستشهدون بفقرات طويلة من المراجع وينقلونها حرفياً (وهذا ما جعل أعمال أبيلار مصدراً ثرياً تستفيد به الأجيال اللاحقة من المدرسيين وخصوصاً بطرس اللمباردى). وخلف ذلك الاستمتاع بالتدريس والذى اكتسبه بعد حياة كاملة وحافلة قضاها فى المدارس، اختلافات أعمق بينه وبين برنار.[1]

ورداً على سؤاله:"لم تبحث عن الكلمة وسط باقى الكلام؟"، كان أبيلار مقتنعاً بأن البحث لابد وأن يبدأ بالنصوص، فهو لم ينكر أبداً أن "المسيح وحده هو كلمة الله" ولكنه أضاف أن:"هذا ما يَطلق عليه اليونان الكلمة (Logos)، لذا يقول القديس أوغسطين أن بداية إنجيل يوحنا تبدأ بـ "فى البدء كانت الكلمة" والتي تسمى في اليونانية (Logos)، لذا ووفقاً للأصل الاشتقاقي لهذا الاسم، فإن كل من يتمسك بهذه الكلمة الكاملة والحقة من خلال العقيدة والمحبة، فينبغى أن يَسمى عن حق "عالم منطق" "وفيلسوف".[2]

تعد حَجج أبيلار تلك مدرسيه من حيث الشكل والمضمون. لأنه يَصر أولاً على الإحالة إلى النص اليونانى لإنجيل يوحنا بدلاً من النص اللاتيني، ونظراً لعدم توافر النص اليونانى لديه (ومن المحتمل أنه لم يعرف اللغة اليونانية فى الأساس)، فإنه يعتمد على استشهاد القديس أوغسطين بالجزء الخاص بمعنى لوجوس (Logos)، ويذكر الشاهد (مثلما يجب على أى باحث) واسم الكتاب ورقم الإصحاح، ثم يتجه أبيلار بعد ذلك إلى علم الأصول الاشتقاقية لكى يوضح أنه بما أن المسيح تعنى الكلمة Logos ، فلابد وأن المسيحيين هم علماء المنطق (الكلام)، والتعليم المسيحى يعنى التعليم المنطقى.[4]

ينبغى أن يكون المسيحيون علماء منطق، ذلك ما نادى به ابيلار طوال حياته المهنية، وذلك لأن المنطق وحده يدرك المراد من اللغة، ولقد اتفق كل من برنار وهيودوسان فيكتور وأبيلار على أن كلمة الله قد انتقلت إلى الكنيسة عن طريق اللغة، وعلى وجه الخصوص عن طريق الإنجيل. كما اتفقوا أيضاً على أن الترجمة اللاتينية للإنجيل (كما وضعها القديس جيروم فى ٣٨٢-٤٠٠م) كانت معتمدة لدى الكنيسة الرومانية، وبالتالى يجب أن يَدرس كل رجال الدين الإنجيل باللغة اللاتينية وأن يقبلوا كل تدريباته.[5]

---

(١) Blomme,R., La doctrime du péché dans les écoles théologiques de la premiére du XIIe siècle, Louvain, 1958, P.55

(٢) Pierre Lasserre, Op. Cit., P.73

(٤) علم الأصول الاشتقاقية علم أولاه الباحثون فى العصور الوسطى وعصر النهضة ثقة كبيرة جداً، انظر
Abélard, P., "Le Dialogue", éd. Jolivet. J, Lussanne, 1981,P. 36

(٥) Ibid, P.38

إن المنهج المدرسى فى المعرفة والذى يّمثله أبيلار، لم يختلف كثيراً عن المنهج الرهبانى من حيث المضمون وإنما اختلف من حيث توقعاته، فعندما يّعلن أبيلار أن المسيحيين علماء منطق، فإنه واثق أن هناك الكثير الذى يمكن أن يتعلموه من التراث اليونانى الرومانى، وأنه هو وزملائه وطلابه سوف يفهمون دنياهم حقاً، كان أبيلار وطلابه هم بحق الأقزام الذين يرتقون أكتاف العمالقة، ومن خلال ذلك الكلام وتلك المكانة، فهم يتطلعون إلى كمال العلم. ومن ناحية أخرى، لم يكن لدى الرهبان الذين تنافسوا مع الأساتذة على قلوب الشباب أية توقعات عن العالم من حولهم، فقد كانوا مّلتزمين بالانعزال عن العالم والتسامى عن تلك المعرفة الدنيوية المّعرضة للوقوع في الخطأ. وكانت لدى هؤلاء المّفكرين أسباب وجيهة لعدم رغبتهم فى السير على درب أبيلار، وكان من أكثر المّعبرين عن ذلك سان برنار. فكان يرى أن الشك قد لا يؤدى إلى التساؤل، ولكن ربما يؤدى إلى مزيد من الشك.(١)

جاء إخصاء أبيلار فى عام ١١١٨م لينهى حياته المهنية فى المدارس، ويضطره إلى أن يصبح راهباً. كان فى ذلك الوقت قد قارب الأربعين من العمر وحاول (كما يصف فى كتابه تاريخ المصائب) أن ينعم بالسكينة الرهبانية، إلا أن ذلك لم يحدث أبداً. فقد ظل "أستاذاً" يتعارك مع الكلمات ويستمتع بكتبه وطلابه، وفى أعقاب إخصاء أبيلار، قام فولك Fulk مقدم دير دويل "Deuil" بوصفه بأنه راهب شقيق استطاع أن يتخلى عن رغباته الدنيوية، كما شجعه بقوله:"أن الطلاب قد أتوا مهرولين من جميع أنحاء أوروبا إليه، وكانوا متأثرين بشدة بوضوح ذكائه وحُسن بيانه ومهارته الفائقة فى فنون اللغة ودقة علمه".(٢)

والواقع أن فكر أبيلار واجتذابه لقلوب وعقول طلابه ظل ينبض بالحياة ولم ينقطع، وعلى مدى العشرين عاماً التالية فى حياة أبيلار (١١١٨-١١٣٨م) أبدى أبيلار مفهومه عن كونه راهب بأنه عكف على دراسة منطقة الدين فى كتابه اللاهوت "Theologia" وبالتأكيد كان سان برنار يهدف بتعليقه على ذلك السخرية من أبيلار حين قال:"لدينا الآن فى فرنسا عالم جديد باللاهوت، كان فى الأصل أستاذ قديم". بيد أن ذلك التعليق قد رفع من قدر أبيلار باعترافه بأن طاقة ذلك الأستاذ الفكرية لم تتخاذل وما زالت تشع وتنبض بالحياة رغم كل المصائب والأحداث.(٣)

---

(١) Verger et Jolivet, Op. Cit., P.123

(٢) Fulk de Deuil, letters en PL, vol. (178), P.102

(٣) Abélard, PL, P.1857

انظر أيضاً، Jolivet et de libera, Op. Cit., P.39

تعلم القراءة والكتابة

إن أول الأشياء التى يخبرنا بها أبيلار عن نفسه فى كتابه "تاريخ المصائب"، هى أنه تربى لكى يصبح قادراً على القراءة والكتابة، وكان ذلك شيئاً غير عادياً أنذاك.[1] فبالنسبة لأبيلار وأبناء جيله، كانت القراءة والكتابة أمراً بعيد المنال. فكانت الكتب - إن وجدت- مقصورة بدرجة كبيرة على الكنائس، كما كانت أدوات الكتابة غير متوفرة بدرجة كبيرة، فقد جرى العرف على أنها حق مقصور على الرهبان داخل أديرتهم المنفصلة عن جموع الشعب، وبين جدران تلك الأديرة كانت القراءة قراءة مقدسة أى دراسة الإنجيل وكتابات آباء الكنيسة، ذلك النوع من التعليم (تعليم القراءة والكتابة) فى الأديرة، كان يُؤثر الكيف على الكم، فكان النظام المتبع يقضى بأنه فى كل عام مع بداية الصوم الكبير، يقوم كل راهب بتسلم كتاب واحد فقط من المكتبة ويقوم بقراءته وفهم كل كلمة فيه قبل أن يعيده إلى المكتبة فى العام التالي، وكانت تلك القاعدة تسمى قاعدة القديس بندكت.[2]

كانت الصفحة المقدسة (الإنجيل وكتابات الآباء) تزداد قدسية بزركشة أحرف الكلام بالألوان والمعادن الثمينة، ومع نهاية الإمبراطورية الرومانية تحولت الكتابة إلى شيء غير شائع بين الناس وتحولت القراءة والكتابة باللغة اللاتينية إلى شيء نفيس جداً بفضل الرهبان.[3] ومن بين أروع المخطوطات المزخرفة و الأحرف الزاهية،تلك المخطوطات التي أصدرتها مدارس باريس في القرن الثاني عشر الميلادي الخاصة بالإنجيل و كتابات الآباء،و التي كانت تضم التعليقات حول المزامير و رسائل القديس بولس،والتي كتبها زملاء أبيلار و طلابه أمثال بطرس اللمباردى.[4]

---

(١) Abélard, Historia, P.4

(٢) Gibson,M.T., The Bible in The Latin West, Horfard.1993, P.183

(٣) Glemission, J., Le livre au moyen âge, Paris, 1988, P.46

(٤) Glemission, J., Op.Cit,P.52 (٠) Jean de meun, La vie et les epistres Pierre Abelard, Geneva, 1991, P.64

-لا تزال هناك نسخة أولى لأول أعمال أبيلار "اللاهوت" محفوظة فى كاتدرائية ديرهام (على الحدود الشمالية لإنجلترا) والتي أودعها أحد الرهبان عند عودته من مدارس باريس فى ثلاثينيات القرن الثاني عشرالميلادى قبل إدانة أبيلار على يد البابا إنو سنت الثاني. ومن خلال آراء لورانس مقدم ديرهام الواردة بجانب آراء أبيلار، يمكن القول بأن نسخة كتاب "اللاهوت" الموجودة في ديرهام تخص لورانس. وفى شمال باريس يتواجد دير بريفننج "Pru fening" الذي يضم أفضل نسخة لكتاب الأخلاق "Ethics" لأبيلار والمذكورة فى فهرس المكتبة فى ١١٦٥ م أو قبل ذلك وقدتم نقل ذلك المخطوط الآن إلى ميونخ. وقد ذكر عدد من أبناء جيل أبيلار أن طلاب أبيلار كانوا يأتوه من جميع أرجاء مملكة المسيح اللاتينية، وهو ما يثبته توزيع المخطوطات فى جهات كثيرة من أوربا. فهذه الأديرة النائية أمثال ديرهام وبريفننج، لم تكن أديرة إقليمية صغيرة في ذلك الوقت، وربما أنها قد آلت إلى ذلك في فترة لاحقة، ولكنها خلال القرن الثاني عشر الميلادي كانت في أوج مجدها ونشاطها، وكان رهبانها يقطعون مسافات شاسعة لكي يدرسوا أو ينشروا اهتمامات أديرتهم وبناء على المخطوطات الموجودة، فإن كتابات أبيلار لم تكن تحظى بنفس شعبية كتابات برنار في القرن الثاني عشرالميلادى، إلا أنه يعد حالة استثنائية مقارنة بمعظم=

اندثرت تلك المخطوطات الفاخرة لأعمال أبيلار منذ القرن الثانى عشر الميلادي، فمن المحتمل أن أبيلار – شأنه فى ذلك شأن أبناء عصره – كان يفضل أن يملى أعماله على حاجب (سكرتير) خاص به بدلاً من أن يكتبها بنفسه. فالأساتذة الأكاديميون كانوا معتادين ومدربين على صياغة كلامهم باللغة اللاتينية، ذلك التقليد يفسر عدم وجود مخطوطات لأبيلار بخط يده، بالإضافة إلى أنه يقال أن البابا "إنوسنت الثاني" أمر فى عام ١١٤٠م بحرق كتب أبيلار أياً كان مكان تواجدهم، وتم تدمير كثير من كتبه نتيجة لذلك، بالرغم من قيام أتباعه بالاحتفاظ ببعض كتبه سراً فى أماكن متفرقة تجاهلاً للأمر البابوى، أو نظراً لعدم العلم بالقرار.(١)

المرأة والكتابة:

كانت "الصفحة المقدسة" تقتضي التعظيم والإجلال من الأشخاص المنقطعين إليها، سواء كانوا رهباناً أو أساتذة، وفى عهد أبيلار كان من المعهود بالنسبة للأشخاص الذى يكرسون حياتهم لتعلم القراءة والكتابة أن يحيوا حياة الرهبان فى تبتل وابتعاد عن نقائص حياة الإنسان ،وقد ذكر أبيلار إيلويز بذلك المبدأ عندما أخبرها كم هى محظوظة لأن تكون راهبة بدلاً من أن تكون ربة منزل قائلاً: "كم هو من غير اللائق أن تنغمس تلك الأيدي المباركة التي تقلب الآن صفحات الكتب المقدسة فى أعمال النساء الحقيرة".(٢)

ولقد أشارت إيلويز نفسها إلى "أعمال النساء" فى اعتراضها على الزواج من أبيلار، فلقد أرادت لأبيلار أن يكون طاهراً ومتبتلاً فقد تساءلت: " ما مدى التناغم الذى يمكن أن ينشأ بين العلماء والخادمات، أو بين غرف الكتابة المقدسة وحضانة الأطفال؟". وبالمقارنة "بالمهام الحقيرة " التى تقتضيها تربية الأولاد (كما وصفتها إيلويز)، كانت الكتابة مهنة نظيفة وراقية، ولقد كانت كذلك منذ عهد الفلاسفة الإغريق القدامى الذين عظموا شأن التعليم. ولقد كونت إيلويز أفكارها من النتائج العملية للبحث والتعليم وقراءاتها عن فلاسفة مثل سقراط وفيثاغورث،ولقد حذرت أبيلار من ألا ينغمس فى "المجون " ونصحته بأن يحيا حياة بسيطة شريفة مثل القدامى.(٣)

=المعلمين والمثقفين العلمانيين في عصره. وبالإضافة لما سبق، فلابد من الأخذ فى الاعتبار الحظر الذي فرضه البابا على جميع أعمال أبيلار وتذبذب مكانته الأكاديمية في باريس من معلم مشهور ذائع الصيت إلى راهب إلى معلم مرة أخرى إلى راهب بعد ذلك. ومن اللافت للأنظار حقاً عدد النسخ من كتب أبيلار التي بقيت خصوصاً النسخ التي ترجع للقرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين.

وعن أماكن النسخ انظر،

Clanchy, M.T ,From Memory to Writtenr Record, Oxford, 1993, P.117

(١) Pernoud, R., La Femme au temp de cathédrales, Paris, 1980, pp. 43- 44

(٢) Charrier, Ch., Op. Cit., p. 277

(٣) Duby, G., Op. Cit., p. 76

إن وجود إيلويز كراهبة يدل على أن النساء لم يكن مستبعدات من الأكليروسية، مثلما كن مستبعدات من الكهانة والفروسية، لقد كان هناك تمييز طبقي في عملية القراءة والكتابة، وكان يّسمح للنساء بالإطلاع على الكتب شريطة أن يّحافظن على طهارة أيديهن وأن يتجنبن أعمال النساء المنزلية.أما سيدات المجتمع، فكان ينبغي أن يكون للسيدة قسيس خاص يّعلمها وينبغي أن تتلو صلواتها كل يوم وتّحافظ على طهارتها لزوجها، وكان ذلك أسلوب الحياة المّعتاد والمّنعزل والذي كان يشبه حياة الراهبة أو رئيسة الدير، وكانت مريم العذراء تمثل نموذجاً لمثل ذلك النوع من السيدات، ومع زيادة الاهتمام بالقراءة والكتابة، بدأت تظهر صورة السيدة مريم فى الفن المسيحي بأنها قارئة تقية وهى مّمسكة بكتبها في مّصلاها لحظة البشارة، أو وهى تقدم كتاب ليسوع الطفل فى غرفتها.[1]

تلك كانت الصور التى كان أبيلار يستحضرها عندما وصف " الأيدى المباركة " وهى تقلب صفحات الكتب المقدسة، فكانت الأيدي المباركة أيدي نظيفة وطاهرة، وكان المّصلى يّصور على أنه مكان هادئ ومّنظم ومّنعزل ذو أرضية نظيفة وأرفف مرتبة،على النقيض من ذلك ، كانت أعمال النساء دنيئة حيث أوضحت إيلويز أن النساء لا يستطعن أن يتحكمن فى أجسامهن مثل الرجال وذلك نظراً للعمليات "البيولوجية" اللاإرادية من حيض وولادة ورضاعة، وكان أبيلار يعجب كثيراً بتفكيرها ويرد قائلاً: "وهل هناك حياة أصعب من الصلب بالهموم اليومية للزوجة والأولاد؟ ".[2]

إن التفانى في دراسة "الصفحة المقدسة " الذى كان يتمتع به الرهبان، لم يكن مّيسراً إلا بفضل المرافق الداخلية الموجودة في الأديرة، والتى لم يكن لأستاذ يعتمد على نفسه في العمل مثل أبيلار أن يقدر على تحمل تكاليفها، فلقد كانت هناك مرافق صحية خاصة بالرهبان- مصارف مياه وماء جارى- تضمن الحفاظ على طهارة أيدى الرهبان، مثلما كانت غرف الرهبان الهادئة تضمن تهيئة الجو لهم للتركيز في القراءة، أما الكتابة فكانت تحتاج لعنصر آخر خاص بها لأنها لم تتم إلا داخل غّرف الكتابة، وذلك للحفاظ على أدوات الكتابة من جلد وحبر الكتابة والضوء، إضافة إلى ضرورة أن يكون الشخص لدية أفراد تحت إمرته يجلبون وينقلون له ما يريد- وتلك هى الأسباب الرئيسية التى جعلت إيلويز، وأبيلار أيضاً يرون أن الكتابة والقراءة هى فى الأساس مهنة الرجال فقط.[3]

(١) Pernoud, R., La Femme au temp de cathédrales, Paris, 1980, pp. 43- 44

(٢) Charrier, Ch., Op. Cit., p. 279

(٣) Glemisson, J., Op. Cit., p.57

يصف لنا أبيلار كيف أن والده قد "جعل كل أن من أبنائه يتعلمون الكتابة " ، أما عن والدة أبيلار وأخواته فلا يأتى ذكر لهم فى ذلك الموضوع، مما يوحى بأنهن لم يكن يعرفن القراءة والكتابة، ومن المعلوم أن لأبيلار أخت واحدة على الأقل، وهى التى ورد ذكرها عندما أعطاها أبيلار ابنه من إيلويز لكي تربيه وتقوم" بأعمال النساء"، فى حين سافر هو و إيلويز إلى باريس فى محاولة لمواصلة حياتهما كعالمين متزوجين، إن رغبة أبيلار فى أن تكون إيلويز وراهباتها في الدير قادرات على القراءة والكتابة تؤكد فكرة أن الكتابة لم تكن من أعمال النساء وذلك على المستوى العادى.(١)

وحينما امتدح بطرس الموقر رئيس دير كلونى سعة إطلاع إيلويز، كان يحكم عليها مقارنة بالرجال، حيث كتب يقول: "فى وقت لا تكاد المعرفة تجد موطئ قدم ليس فقط بين النساء، ولكن حتى بين عقول الرجال"، وفى موضع آخر يقول لها: "لقد غلبتي كل النساء وتفوقت على كثير من الرجال".(٢)

وقد أخبرت إيلويز أبيلار أن ذلك المديح لم ينل إعجابها، وأنها لم تسع وراء نصر ما، ولكن بطرس الموقر لم يستطع التفكير والتقييم فيما يخص القراءة والكتابة إلا بمفهوم غلبة الآخرين.أما عن واقع الحياة اليومية، فإننا نلاحظ أن التبتل الأكليروسى لم يكن يفرض بصرامة، كان العديد من النساء يتواجدن داخل حدود الكنيسة بصفتهم زوجات أو خليلات أو بنات رجال الأكليروس. وكانت إيلويز التي قابلها أبيلار عام ١١١٧ م وهى تعيش فى حدود كاتدرائية نوتردام بباريس فى منزل الشماس فولبير بجوار مدرسة أبيلار، هى أشهر سيدات تلك الفئة.(٣)

فلقد عاشت هناك بصفتها ابنة أخت فولبير لمدة خمسة عشر سنة. ولكن لماذا لم يطلب أبيلار يد إيلويز للزواج مباشرة بدلاً من إقامة تلك العلاقة السرية بينهما؟ كان تفسير إيلويز هو أن مسئوليات الزواج ستصلّب أبيلار، إضافة إلى أنه بوصفة رئيس مدرسة نوتردام، كان من المتوقع منه أن يكون مثالاً يحتذى به أمام طلابه وزملائه من ال[illegible]ـاسين. فمسموح للشماس فولبير أن يعيش مع ابنة أخته في حدود الكاتدرائية، ومسموح لغيره أن يبنى بيتاً هناك وأن يدخل فى مستشاري الملك أو القادة العسكريين حسب كفاءته، ولأن أبيلار كان رئيس المدرسة، كان من الواجب عليه أن يحافظ على مكانته بين رجال الأكليروس "وألا يسقط فى الملذات الزوجية".(٤)

---

(١) Abelard, Historia, p.4
انظر أيضاً، Gilson, E., Heloise et Abelard, paris, 1938,P.23

(٢) Radices., B., Op. Cit., p.278

(٣) Duby, G., Op. Cit., p. 87

(٤) Gilson, E., Op. Cit., p. 46

إن القـوة الفكريـة والأخلاقيـة التى كان يتميز بها "وليم دو شامبو" أستاذ أبيـلار ورئيـس المدرسة الذي خلفه أبيلار، كانت قد اجتذبت طلاباً من فرنسا وغيرها من البلاد، وكان على أبيـلار أن يّحافظ على ذلك المنصب ويتحاشى أية فضيحة أخلاقية قد تجعل رعاة الطلبة الكنسيين عـبر أرجـاء مملكة المسيح يسحبوا دعمهم المالى من نوتردام، إن إلزام الأساتذة بضرورة التبتل كان أحد جوانـب الانضباط بين رجال الأكليروس وفقاً لمبادئ الإصلاح الجريجوري (برنـامج مرتبـط باسـم البابـا جريجوري السابع)، ولأسباب معقدة، كان إلزام الأساتذة بالتبتل يّطبـق بشـكل أكـثر صرامـة فـى المدارس الشمالية مثل باريس عنه فى المدارس الإيطالية، وفى فرنسا فى حياة أبيلار، بدأ يحظر علـى النساء التواجد فى حدود الكنائس والكاتدرائيات، وفى الوقت الذى كان يّسمح فيه للنساء مـن الطبقـة الدنيا أن يقوموا "بأعمال النساء الضرورية" داخل الكاتدرائيات، وبذلك لم يعد الطـلاب أو الأسـاتذة على اتصال فكرى مع نساء من نفس طبقتهم الاجتماعية.(١)

أما إيلويز التي أصبحت زوجة شرعية لأبيلار وكفئا له في التعليم، فقد ظلت حتى أواخر أيـام أبيلار متعلقة بالكتابة والثقافة وأصرت على أنها ستواصل التعبير عن أفكارها عن طريق الكتابة لقـد كانت مشاعرها مكملة لفهمها للأدب الكلاسيكي، فكثيرا ما كانت تستشهد بفلاسـفة رواقييـن، ولعلـها كانت آخر امرأة من العصور الوسطى تتعلم الكتابة والأدب الكلاسيكي، فبعد إيلويز بحوالي قرن مـن الزمان، كانت كثير من الراهبات قد توقفن عن تعلم اللاتينية وظهرت بعد ذلـك نسـاء رائـدات فـى الكتابة باللغات المحلية أواخر العصور الوسطى. وظلت النساء لقرون طويلة بعد إيلويز مستبعدات مـن المجتمع الأكاديمي الذي ألفته إيلويز ونالت فيه مثل ذلك التميز، وقد "أوضحـت بـالفعل مـن خـلال خطاباتها أنها كانت كفئا لعقول الرجال كما قال عنها بطرس الموقر".(٢)

اختيـار أبيـلار للكتابـة

لم تكن بدايـة تعلم أبيلار القراءة والكتابة من اختياره، بل كانت نتيجة لقـرار اتخـذه والـده بشأن كل ابن من أبنائه، وربما كانوا قد بدءوا في تعلم الهجاء فى سن سبع سنوات أوفى سن أصغـر من ذلك، لكن الاختلاف في حالة أبيلار أنه استمتع باللاتينية لدرجة أنه اسـتمر فـي دراسـتها بعـد الانتهاء من المستوى الأساسي الذي وصل إليه والده واخوته، وكان ذلك بداية اختيار أبيلار "للكتابـة" ربما فى سن الثانية عشر أو الثالثة عشر، حيث أصبح فى سن يسمح له بالتدريب العسـكرى ليصبـح فارسا أو يلتحق بمدرسة دينية أعلى، ويصف أبيلار ذلك الاختيار وكأنة علاقة حب قائلا: " لما كنـت الابن الأكبر لوالدي وبالتالي الأقرب إلى قلبه، فقد أراد لي أن أنال أفضل قـدر مـن التعليـم، ولـذا مضيت فى دراسة اللغة وكنت فى كل مرحلة أحقق تقدما أسرع،وازداد تعلقي وحماسي لدراسة اللغـة،

(١) Duby, G., Op. Cit., p. 93

(٢) Southern, R.W., Scholastic Humanism and unification of Europe, Vol., I, London., 1995, p. 202

ولقد أغوانى حبي الشديد لها، أنى تخليت عن ساحة القتال (مارس) حتى يمكنني أن أتعلم فى أحضـان منيرفا (إلهة العلم) ، ولذا أحلت إلى إخوتى عظمة المجد العسكرى إلى جـانب مـيزات وامتيـازات أسلافى ".(١)

إذا أخذنا في الاعتبار أن أبيلار كان الابن الأكبر لأحد الفرسان، لذا كان المستقبل المتوقع لـه أن يصبح كبير عائلته ومالك أراضى و له مكانة مرموقة فى بلده، ويمتلك ميراثاً يورثـه لأبنائـه. إن مثل هذا الوصف لتخيل أبيلار عن الحياة العسكرية، يبين كم كان قراره أمراً قدرياً لأن يصبح معلمـاً للقراءة والكتابة، فى وقت كان كل رجل متعلم من الأكليروس يحيا حياة الرهبان. إن المعنى الحرفـي لكلمة إكليروس هو "المختار" أو "المنتخب" ، وبمجرد اختياره تعلم القراءة والكتابة، انفصل أبيلار عـن بقية أفراد أسرته وأصبح واحداً من المّختارين أو النخبة المذكورة.(٢)

وربما كان اختيار أبيلار هذا قراراً لا رجعة فيه، وذلك لأنه لم يستطع منع نفسه من مواصلـة التعليم. فقد وجد أن "اللغة" شديدة الجاذبية، بل إنها حتى شهوانية. ولقد تعرض هو للغواية ليبـقى فـي أحضان منيرفا، مثلما وقع فى غرام إيلويز الأسمى من حيث الثراء اللغوى. (٣)

نال والد أبيلار أكثر مما توقع عندما منح ابنه المفضل فرصة تعلم الكتابة، وبتخلـى أبيـلار عن حق البكورية (الوراثة للإبن الأكبر) أصبح هناك خطورة فى أن تنتهى سلالة عائلته إذا توفـي والده وإخوته قبله. فمثل ذلك الأمر كان سيجلب عليه العار، ويؤدى إلى التنازل عن كل أملاك عائلتـه للمالك الإقطاعى. بيد أنه فى الواقع، لم يقطع أبيلار كل صلاته مع أفراد عائلته، فقد عاد لبلده في عـام ١١١٣ م للإشراف على انعزال والديه في إحدى الدور الدينيـة. وأدى انعـزال والـد أبيـلار إلـى تخصيص أجره كفارس إلى واحد أو أكثر من اخوة أبيلار وإعادة التفاوض بشأن حقـوق البكوريـة، كذلك فإن الكتابة التى اختارها أبيلار كانت تنطوى على خطورة شديدة، فيصف أبيلار كيـف أصبـح منفياً يطوف من مدرسـة لمدرسـة أخـرى عبر مقاطعات فرنسا، حيث أصبح نموذجاً حيـاً للعـالم الهائم المتجول المتعطش للشهـرة والإعجـاب.(٤)

يوضح أبيلار أن والده أراد لأولاده أن يتعلموا "الكتابة" قبل أن يتعلموا اسـتعمال "الأسـلحة" وربما كانت تلك طريقة لتغطية اختيارات المهن المتاحة لهم، على الرغم من أن أبيلار فسر أن والـده

---

(١) Abelard, Hist., p. 12

(٢) Abelard, Oeuvres Choisies, p. 23

(٣) Blomme, R., Op .Cit., p.62

(٤) Paul, j., Op. Cit., p. 195 & LeGoff, intellectuel,p.48

كان مدفوعاً في ذلك بحبه هو"للكتابة"، فالكتابة واستعمال الأسلحة تّشكلان أساليب **الحياة في تلك الفترة**. الكتابة كانت تعد بمستقبل إكليروسي– وظيفة أسقف أو رئيس دير فيما بعد، أما الفروسية فكانت تؤدى إلى الشرف الدنيوى والسيادة، وكلا المجالين يتطلبان الانضباط والتدريب المستمر، وكانا مقصورين على أبناء الطبقة الحاكمة فقط، أما الطبقة الثالثة والتي تتكون من الفلاحين والعمال، فكانت مستبعدة من المجالين.(١)

كانت الكتابة تجعل من الرجل إنساناً ليناً، وذلك كما أكد أبيلار فى مقارنته بين دوري كل من مارس (ساحة القتال) ، ومنيرفا (إلهة العلم). أما إذا حدث وتعرض رجل الدين إلى الإخصاء فإنه يتحول إلى إنسان روحانى مّتكب على مكتبه فى غرفة الدراسة، وإذا ما رفع بصره عن كتبة لكي يرى العالم من حوله، فإن العامة(الناس والعائلة) تدخل حياته مرة أخرى ولكن فى تلك المرة بطريقة مّغالى فيها. فكان رجال الدين مطلقى العنان كما كانوا يتمتعون بحصانة القانون الكنسي، كانوا في نفس الوقت خطراً على زوجة كل رجل وبناته. لذا حينما قام أقرباء إيلويز بإخصاء أبيلار، فإنهم جعلوا التبتل الأكليروسى لدية حقيقة واقعة.(٢)

* * * * *

تعلم اللاتينية

إن الفرق بين تعلم الكتابة والمستوى الاجتماعى للأسرة فى ثقافة العصور الوسطى يتضح من خلال اللغة التى كانت تّدرس للطلاب بهدف استعمالها فى القراءة والكتابة. ففي عصرنا الحديث يتعلم الإنسان القراءة والكتابة بلغته القومية، وعادة ما يتلقى مبادئ هذه اللغة على يد والدته فى مرحلة طفولته. ولكن فى عهد أبيلار كان تعلم"اللغة" يعنى تعلم اللاتينية بدءاً من تعلم حروف الهجاء إلى مرحلة قراءة الأدب الكلاسيكى.(٣)

وكان ذلك أصعب من تعلم القراءة والكتابة بلغة حية تّستخدم في الحياة اليومية، حيث أن كلمات وقواعد اللاتينية كانت قد بلغت ما يزيد عن الألف عام في عهد أبيدر، وكان أدبها غزيراً ومعقداً، يبدأ من الكلاسيكيات القديمة مثل أعمال شيشرون وفيرجيل ، ويمتد عبر أعمال أباء الكنيسة الأوائل مثل القديس أوغسطين وجريجوري الكبير ويصل لأعمال الكّتاب المعاصرين لأبيلار.(٤)

---

(١) Southern, R. W., Op. Cit., p. 207

(٢) Gilson, E., Op. Cit., p .86

(٣) Jolivet, J., Art du Langage et thédogie Chez Abelard, paris, 1982, p. 16

(٤) Marenbon, J., Op. Cit., p. 77

كان أبيلار وأبناء جيله بشكل عام يّجيدون الكتابة باللغة اللاتينية القديمة، فلم يّخطئوا في القواعد النحوية أو معانى الكلمات، وذلك لأنهم درسوا أعمال الكّتاب القّدامى بعمق، ويذكر (حنا السالزبورى) كيف كان أبيلار "أعظم ينابيع اللغة فى بلاد الغال" يّعلم طلاب من الصبية والشباب أن يّقلدوا الكّتاب الكلاسيكيين أولاً، ثم يبدءوا في نظم الشعر وكتابة النثر بأسلوبهم الخاص بعد ذلك، فأبيلار وزملاؤه هم أعلام عصر نهضة القرن الثانى عشر الميلادي.(١)

ونظراً لأن اللغة اللاتينية كانت لا تزال لغة حية، فكان الأساتذة يّوصون بأعمال الكّتاب المّعاصرين كنماذج للدراسة إلى جانب أعمال الكّتاب الكلاسيكيين، فحينما. قدم حنا السالزبورى بعض النصائح بخصوص تعليم اللاتينية، كان من بين الأسماء التى ذكرها بجانب تاكيتوس وشيشرون وفرجيل، اسم هيدلبرت من لافاردين" **Hidlebert of Lavardin** "، الذى كبر على حفظ أعماله فى صدارة كّتاب النثر الراقي، واشتّهر بقصائده الرثائية عن أطلال روما القديمة، وأصبح بعد ذلك مّطراناً فى تور" **Tours**" وتوفى عام ١١٣٣م.(٢)

لقد تفوق أبيلار وأبناء جيله فى استخدام اللغة اللاتينية والإبداع من خلالها لأنها كانت الوسيلة الوحيدة التى عرفوها للتعبير عن أفكارهم بشكل دائم، وبعبارة أخرى، إنهم لم يتعلموا أية وسيلة أخرى يكتبون بها، فكانوا يّقارنون بين اللغة اللاتينية الراسخة، ولغة الحديث الدارجة أو العارضة، وبعد عهد أبيلار بحوالى قرن من الزمان، كانت اللغة القومية قد تطورت بشكل كاف فى فرنسا حيث أصبحت وسيلة التعبير الرئيسية وأفضل طريقة لتدوين الحديث. إلا أنه بعد ذلك، حينما قام طّلاب المدارس في عصر النهضة بترجمة آداب لغاتهم القومية إلى اللاتينية، بدا واضحاً أن اللغة اللاتينية أصبحت تحتل المرتبة الثانية كلغة أدبية، على الرغم من أنها استمرت تّستخدم لقرون عديدة فى أماكن لم تكن تتطلب الإبداع مثل المدارس والكنيسة الرومانية.(٣)

تجد أحد الرهبان المعاصرين لأبيلار من الإنجليز وهو وليم المالمسبورى **william of malmesbury** ، يذكر ما يزيد عن ٢٠٠ كاتب لاتيني قديم في كتاباته. وعلى الرغم من أنه لم يكن من الضرورة أن يعرفهم جميعاً، فإن استشهادا ته بهم بلغت حوالي ٤٠٠ عمل أدبي، وكانت دقيقة وفى محلها.

(١) Jolivet, J., Aspects de to pensé médiéval: Abélard, Paris,1987, p. 111

يعد مصطلح نهضة القرن الثاني عشر الميلادي مصطلحاً مضللاً، وذلك لأن أبيلار وزملائه كانوا يرون أنهم امتداد للماضي الكلاسيكي، ويّعد مصطلح "رومانسيك" هو المصطلح الأقرب لوصف ثقافتهم بدلاً من كلمة "النهضة". كذلك لا يمكن القول بأنه كان هناك "إحياء" للغة اللاتينية، وذلك لأنها في القرن الثاني عشر الميلادى لم تكن لغة ميتة بعد، على الرغم من أنها لم تكن لغة شعب معين فى ذلك الوقت.

انظر أيضاً Philipp Wolff, Op. Cit., 232

(٢) John of Salisbury, PL, p. 216

(٣) Jolivet, J., Aspects de la pensé, p.116

كان أبيلار – الذي كان في طور النضج فى عام ١١٠٠ تقريباً – ينتمي للجيـــل الأخـــير فـــى فرنسا والذى كانت اللغة اللاتينية بالنسبة له ليست مجرد لغة أجنبية مندثرة، ولكنها اللغة التى تعلم بـــها القراءة والكتابة عندما كان لا يزال صغيراً، فكان تعلم القراءة والكتابة وتعلم اللاتينيـــة يعنيـــان نفـــس الشيء، وكان الفرد الذى يوصف بأنه متعلم"Literus" يعرف القراءة والكتابة أولاً، ودارس لـــلأدب اللاتينى ثانياً، فهذان المعنيان كانا مترابطين.(١)

كانت اللغة اللاتينية عادة ما توصف بكلمة"اللغة" لأنها كانت اللغة الوحيـــدة التـــى يســـتعملها الناس فى الكتابة، وكان الاستثناء الوحيد لتلك القاعدة في الجزر البريطانية التي كانت تســـتخدم فيـــها لغات أخرى للكتابة(مثل الأنجلو سكسونية والسلتية). وفى أواخر العشرينيات من القرن الثـــانى عشـــر الميلادي، أصبح أبيلار رئيساً لدير سان جليداس في مقاطعة بريتانى المنفصلـــة عـــن تلـــك الثقافـــة السلتية. وعنها يقول أبيلار:"كانت البلد بربرية، وكانت لغتها مجهولة بالنسبة لى".(٢)

وهو ما يعنى أن أبيلار لم يكن يتحدث تلك اللغات أو يكتب بها، كما أنه لم تكن لديـــه أدنـــى رغبـــة فـــى القيـــام بذلك. وعلى الرغم من أن أبيلار ولد في مقاطعة بريتانى، فإن أصله يعود إلـــى جنـــوب نهر اللوار ومن المحتمل أن والده كان من مدينة بواتو "Poitou" . لذا فربما يكون أبيـــلار قد تعلم التحدث باللغة الرومانسية البسيطة التى تميز منطقة بواتو، و منطقة نهر اللوار، وهـــو بذلـــك يعود أصله إلى حدود المنطقة التى خرجت منها ثقافة الشعراء الغراميين، وإذا كان والـــده كمـــا نعلـــم فارساً من أهل بواتو، لكان لدى أبيلار الخيار بأن يذهب لبلاط الشاعر الكبير وليم التاسع كونت بواتـــو ودوق أكويتين"Aquitaine" (١٠٨٦-١١٢٧) لكي يتعلم الغناء والمبارزة معاً عنده، لكنه بـــدلاً مـــن ذلك وكما رأينا، فإنه اختار أن يصبح عالماً، وقصائد الحب التي كتبها لإيلويز، كانت بالتأكيد مكتوبـــة باللغـــة اللاتينية وليست باللغة الفرنسية الحديثـــة.(٣)

تقول إيلويز عنها "حتى الشخص الأمي يمكنه أن يتذكر عذوبة أنغامها"، وهو ما يـــدل علـــى أن الكلمات كان يصعب تذكرها لأنها مكتوبة باللغة اللاتينية. وربما كـــان أبيـــلارد بوصفـــه دارســـاً للأعمال الكلاسيكية ورجل دين وشماس، كان ينظر لكل الكتابات باللغة المحلية على أنها فظة وغـــير مهنية وغير دائمة. ولم يكن أبيلار ليتنازل عن حق البكورية لأجل" اللغة الرومانسية البســـيطة" التـــي عرفها والتي من المحتمل أن يكون قد تحدث بها لولا لغة الأعمال الكلاسيكية العريقة الأصـــل، لغـــة شيشرون وأوغسطين. لقد كان أبيلار يرغب فى أن يصبح رجلاً محنكاً، وكانت طموحاته موجهه نحـــو

---

(١) Blomme, R., Op. Cit., p.165

(٢) Haskins, Ch., The Renaissance Of The Twelfth Century, Cambridge 1928, p. 113

(٣) Curtius, E.R., European Literature and the Latin Middle Ages, Cambridge, 1953, p.385

باريس وروما، ولم تكن موجهه نحو المدن الصغيرة الممتدة على ضفتي نهر اللوار والتى عرفها حينما كان صبياً.(١)

جعلت اللغة اللاتينية أبيلار مشهوراً بأنه " أمير الدراسة فى العالم" على حد تعبير بطرس الموقر،(٢) وتكاد تخلو هذه المقولة من المبالغة، حيث أن طلابه ومعجبيه كانوا قد جاءوا إليه من كل أنحاء مملكة المسيح اللاتينية، ولم يكن أبيلار ليعلم، أولم يكن خياله ليصل إلى أن الشعراء الرومانسيين الذين خرجوا من بلده، والذين استخدموا اللغة الرومانسية البسيطة، سيصبحوا من أعظم رواد الأدب العالمي، إن أبيلار وكتاب عصره اللامعين الذين كتبوا باللغة اللاتينية كانوا سيذهلون إذا علموا أنهم قد أساءوا الحكم على الأجيال القادمة وأن مستقبل الأدب في أوروبا يعتمد على اللغات المحلية، وبالأخص على لغة تسمى"اللغة الفرنسية".(٣)

أهمية الأعمال الكلاسيكية اللاتينية:

مع بدايات القرن الثاني عشر الميلادي ،طالب كثير من الكتاب بالحصول على المكانة التى كان يحظى بها كتاب اللغة اللاتينية في بلاط الملوك والأمراء قديماً، وذلك في الفترة التي بدأت تظهر فيها الكتابة باللغات القومية. وعندما قرر أبيلار التمسك باللغة اللاتينية، فإنه كان يفكر فى كافة الاعتبارات،" إضافة إلى السبب الذى ذكره بشأن غواية منيرفا له". لقد كانت اللغة– متمثلة في النحو اللاتيني والبلاغة – تكفل لدارسيها مستقبلاً مهنياً باهراً، وذلك فى الوقت الذى ظن فيه الجميع أنه لن يحل محل تلك اللغة أية لغة أخرى.(٤)

وعلى الرغم من أن قواعد الإصلاح الجريجورى كانت تزيد الضغوط التى كانت تفرضها على رجال الدين لكى يحيوا حياة الرهبان، فإن أبيلار قد شهد فى شبابه كيف كان الأساقفة وسائر المسئولين الكنسيين من أغنى الرجال وأكثرهم نفوذاً مثلما كان أسلافهم الوثنيين يحكمون الإمبراطورية الرومانية.(٥)

لقد حل مسئولوا الكنيسة محل العاملين بالسلطة الإمبراطورية، وكان الشرط الأساسى للدخول فى تلك الفئة هو معرفة اللغة اللاتينية بما فيها الأدب الكلاسيكي. وعلى الرغم من أن رجال الإصلاح

---

(١) Waddell, H., The Wandering Scholars, p.119

(٢) Peter The Venerable,Op.Cit,P.212

(٣) Curtius., E.R., Op. Cit., p. 387

(٤) Ibid,p. 388

(٥) Abelard Ouvrages inédits p. 94

الجريجورى كانوا يريدون أن يكون الانقطاع إلى الدين هو الشرط الأساسي للدخول في المناصب الكنسية، فإن ذلك الشرط كان يصعب توافره مقارنة بمعرفة اللغة اللاتينية، نظراً لأن أكثر رجال الإصلاح التزاماً كانوا غالباً ما يتنازلون عن تولى أى منصب عام كى يصحبوا نساكاً. (١)

أما فى الفترة التى ولد فيها أبيلار، فكانت المدارس الكاتدرائية لا تزال هى البوابة التي يعبر منها كل رجال الدين الطامحين إلى تحقيق أمالهم، والتى كان يسود فيها المنهج المدرسى القديم. وكان الأستاذ الناجح يحظى بتأثير واسع النطاق فى الكنيسة خصوصاً بعد فترة طويلة من عمله وذلك عندما يبدأ طلابه في التعيين في مراكز مرموقة. وكان الأساتذة يعينون في مناصب مثل رئيس الشمامسة أو رئيس مدرسة أو حتى أساقفة، مثل وليم دو شامبو أستاذ أبيلار. وعلى هذا الأساس، كان الأساتذة الذين صاروا رهباناً يتعينون رؤساءاً للأديرة، مثل ما حدث مع أبيلار نفسه حينما تم انتخابه رئيساً لدير سان جيلداس. (٢)

عندما كان أبيلار فى مرحلة شبابه وتحديداً في عام ١٠٩٦م، في الوقت الذي كان يدرس على يد روسلان فى لوش Loches ، تم تعيين هيلدبرت Hildbert من لافاردين Lavardin أسقفاً فى لومان Le Mans ، كما عين ماربود Marbod أسقفاً فى رينRennes. وكان أهم ما يميز كل من هيلدبرت وماربود أنهم شعراء لاتين، ولعل الدرس الذى استفادة أبيلار من تلك الترقيات، أنه عرف كيف يصبح أمراً مجزياً وأن يكون رجل الدين الطموح شاعراً لاتينياً أيضاً. ومع كل ذلك، "كان هناك جو من الفضائح يحيط بالشعراء من رجال الدين، وذلك لأنهم كانوا يكتبون مثل أوفيد Ovid وكاتولوس Catulus عن قصص حبهم للأولاد والبنات. وتلك القصائد الفجورية- والتى بقى منها المئات من القرنين الحادى عشر والثاني عشر الميلاديين- لم تكن كلها بالضرورة تمارين مدرسية."(٣)

في ذلك الإطار الاجتماعي تم أول لقاء بين أبيلار وإيلويز فى بيت خالها فى دير نوتردام عام ١١١٧م. ونظراً لشهرتها كعالمة باللاتينية، فقد تمنى أبيلار أن يحظى معها "بتواصل مرح" على حد قوله . وذلك لأن كثيراً من الأشياء يمكن التعبير عنها كتابة بجرأة أكثر من قولها. فعندما كان أى شخص له تطلعات أدبية يتولى منصباً كنسياً، كان يحاول أن يلفت الانتباه إلى إتقانه للغة اللاتينية، وذلك عن طريق نشر مذكراته عن تحرره وعدم تحفظه فى شبابه، على غرار ما فعله ماربود بعد أنه أصبح أسقفاً لرين. (٤)

---

(١) Poole, R,.l., Op. Cit, p. 124

(٢) Léon, A., Histoire de lénseignement en France, paris 1995, p.18

(٣) Waddell., Op. Cit., p .121

(٤) Abélard, Hist., p. 52

بالمثل فإن "تاريخ المصائب" لأبيلار، والذى كتبه عندما تولى رئاسة دير سان جيلداس، يجمع بين الاعتراف بأعماله الطائشة فى شبابه، والعرض لموهبته الأدبية. لقد كان تفضيل الأعمال الكلاسيكية اللاتينية أمراً عادياً وشائعاً في حياة رجال الدين، لأنه كان يدل على سعة إطلاعهم. "حتى سان برنار قيل عنه أنه قام بنظم "قصائد مزاحية قصيرة باللاتينية وذلك فى فترة شبابه". كما يذكر كاتب السيرة الذاتية لسان سوجيه Suger كيف أنه لم يستطع أن ينسى الشعراء القدامى بفضل ذاكرته القوية، كما أنه كان فى كثير من الأحيان يتلو ما يقرب من الثلاثين بيتاً من أشعار هوراس Horace.[(١)]

ويحكي جيوبرت دونوجنت **Gubirt de Nogent** (أحد أساتذة جيل أبيلار) عن سبب انجذابه للشعر اللاتيني، وكيف أنه كان يجده مثيراً للجنس وهو فى مرحله شبابه. فكان ينظم شعراً مّجونياً ومّبتذلاً، ويقول أنه لم يعرض تلك الأشعار على أحد سوى قله من أصحابه. وكان الطّلاب الذين يسبقون سنهم فى المدارس يكتبون أشعاراً أضيفت فيما بعد إلى الأشعار اللاتينية الخاصة بفترة القرن الثانى عشرالميلادى، وجاءت الأشعار الماجنة لأساتذة العصور الوسطى كلاسيكية الروح والأسلوب على غرار الشعر الرومانى العاطفى وشعرائه الرومان.[(٢)]

استنكر أبيلار فى كتابه اللاهوت المسيحي" **Theologia Christiana** " الذى كتبه مباشرة بعد إخصائه وإدانته بالهرطقة فى سواسون عام ١١٢١م، استنكر كل الأدب الكلاسيكى. وذكر قصة القديس جيروم **Jerome** الشهيرة التى تروى أنه حلم بأنه سّئل عن ديانته فأجاب بأنه مسيحي، فرد عليه القاضي بأنه كاذب،" لأنه من أتباع شيشرون الوثني". وفى رواية أخرى ذكرها أبيلار فى نفس السياق، أن ملاكاً قد أنتزع الكتاب الذى كان يقرأه جيروم لأنه كتاب لشيشرون. وقد "أدان أبيلار فئة الشعراء ككل" [(٣)]

إضافة لما سبق، فقد أدان أبيلار أيضاً كل من المّهرجين ولاعبي الأكروبات وكل المّشعوذين والمّغنيين الذين يتغنون بفّحش الكلام، والذين كانوا غالباً ما يأتون إلى المدينة فى أيام أعياد الكنيسة. ويتساءل أبيلار قائلاً: "لم لا يتم فصل الأساقفة وأساتذة الدين المسيحى عن الشعراء فى مدينة الرب، مثلما منعهم أفلاطون من دخول الجمهورية المثالية؟" وكانت الإجابة على

(١) Cutius, E.R., Op. Cit., p. 388

(٢) Ibid,P.391 ; Waddell ,H., Op. Cit. p. 121

(٣) Waddell, H., Op. Cit., p. 119

-عندما أدان أبيلار فئة الشعراء ككل، لم يذكر شيأ عن أشعاره وقصائد الحب التي كتبها لإيلويز، والتي كان يتغنى بها الطلاب فى باريس في ذلك الوقت.

ذلك السؤال هي" أن كثيراً من البذاءة التى كانت تتردد فى الشعر اللاتيني قد قام بتأليفها أو نسخها الأساقفة والأساتذة أنفسهم حينما كانوا طلاباً في مدارس باريس".[١]

لقد وصف أبيلار من قبل أحد الأساتذة المنافسين له (هيودوسان فكتور) بأنه كان كالمهرج الذي يلعب دور مهرج البلاط بدلاً من دور الأستاذ. بيد أنه لم يكن رأى أبيلار السابق بشأن الشعراء اللاتين هو نفس رأيه بشأن الأعمال الكلاسيكية ، إذ أنه فى كتابه اللاهوت "Theologia" الذي ألفه في الثلاثينيات فى القرن الثانى عشر الميلادى، قام بتغيير ذلك الرأى. ولعله كان متأثراً بخطاباته مع إيلويز التي كان إعجابها بالأعمال الكلاسيكية كبيراً، كما أنها كثيراً ما كانت تستشهد بأقوال الحكماء القدامى.[٢]

أعاد أبيلار ذكر سؤال سان جيروم البلاغى مرة أخرى: "ما علاقة شيشرون بالقديس بولس؟" ولكنه في تلك المرة قدم إجابة لذلك السؤال، وأوضح أبيلار أنه "لا أحد ممن يعرفون الكتاب المقدس يجهل حقيقية أن رجال الدين قد حققوا تقدماً فى العقيدة المقدسة من خلال دراسة اللغة وليس من خلال فضائل الدين". فلم يكن القديس بولس برسول أعظم من القديس بطرس ولا كان القديس أوغسطين أيضاً أعظم من أى من الرسل، إلا أن كل من بولس وأوغسطين قد قدما مساهمات كبرى لفهم العقيدة المسيحية لأنهما قد درسا الأدب العلمانى قبل اعتناقهم المسيحية ،وبذلك كانوا قد تعلموا كيفية التعبير عن أنفسهم. وقد استنتج أبيلار بأسلوب مثير "أن دراسة الأدب العلمانى أمر موصاً به بتقدير إلهى".[٣]

<u>أهمية النحو اللاتينى:</u>

لعل الشخصية الأسطورية التي لم يستطع أبيلار طردها من حياته، كانت حبه الأول للإلهة منيرفا إلهة الحكمة، والتى جاء تجسيدها كثيراً فى أدبيات العصور الوسطى باسم السيدة نحو Lady Grammar، أو السيدة لغة" Lady philologoy"، كما جاء وصفها في إحدى القصائد اللاتينية بأنها عروس أبيلار. وقد كانت إيلويز على حد قول أبيلار في ذلك الشأن "هي الأسمى من حيث الثراء اللغوى" ،فكانت هي التجسيد الحقيقي لتلك الشخصيات.[٤]

---

(١) Abélard, Le Dialogue, P. 39

(٢) Duby, G., Op. Cit., P. 78

(٣) Mews, C., Archives d' Histoire, P. 79

(٤) Abélard, Oeuvres choisies , P. 83

كان تعلم اللاتينية يشكل أحد طقوس المرور من عالم الطفولة إلى عالم الرشد الذى يسوده الرجال. ويذكر جيوبرت دو نوجنت كيف كان يجلس بزيه الإكليروسى مثل "الحيوان" الذى ينتظر الذبح، وهو يشاهد بقية الأطفال يلعبون. وقد كان أبيلار صريحاً بشأن القسوة التى كان يتسم بها تعليم النحو. وحينما أولاه فولبير تعليم إيلويز، يقول أبيلار"لقد أعطانى كامل الحرية فى أن أفعل بها أى شئ أريده، فيمكننى أن أخضعها لدروسي بالتهديد أو بالضرب دون النظر لطبيعتها الأنثوية".(١)

ويّعد القديس أنسيلم St. Anselm الوحيد من أبناء جيل أبيلار الذي ربط بين الضرب والوحشية، وقد سجل له كاتب سيرته الذاتية إيدمير Eadmer مقولته كمثال على حساسيته الغير عادية قائلاً "إنكم تصنعون من البشر وحوشاً مؤدبة". وهى المقولة التى وجهها أنسيلم إلى أحد رؤساء الأديرة الذين سألوا عن بديل لضرب الأولاد أثناء التعليم. فالقديس أنسليم يرى أن الصبى فى مرحلة النمو يحتاج للتشكيل، فهو يشبهه بالرقيقة الذهبية عند وضعها على المعدن أو جلد الكتابة. فالصانع الماهر يّشكل تلك الرقيقة ويمكنه أن يطرقها برفق، ولكن لا يمكن بالطبع أن يّمزقها.(٢)

كذلك يظهر فى سجلات التربية فى ذلك العصر اسم أحد أبناء جيل أبيلار وهو أورديريك فيتاليس Orderic Vitalis، والذي عهد به إلى أحد القساوسة لكى يعلمه مبادئ اللغة فى الخامسة من عمرة عام ١٠٨٠م وهو سن مبكر جداً، إلا أن والد أورديريك كان قسيساً (كان هناك قساوسة متزوجين رغم مبدأ التبتل الإكليروسى)، ولعله كان يدرك أهمية تعليم ابنه فى سن صغيرة.(٣)

لقد كان تعليم اللغة بتعلم حروف الأبجدية حرفاً حرفاً، حيث كان يتم نطق كل حرف على حده وتحديد الصوت الدال عليه فى اللغة اللاتينية. وكان هذا التمرين يستدعى الحفظ والتكرار كما وضع قواعده مارتيانوس كابللا Martianus Capella فى بدايات القرن الخامس

---

(١) Duby, G., Op. Cit, P. 79

(٢) Eadmer, Life of St. Anselm, ed.R.E. Southem, Oxford, 1965, ch.32,p 37

– لا يذكر أبيلار شيئاً عن الأسلوب الذى تعلم به القراءة فى صغره، ربما يكون السبب وراء ذلك أنه يراه أمراً عادياً. والإشارة الوحيدة التى يذكرها بخصوص ذلك الموضوع كانت في خطاب كتبه لراهبات دير إيلويز يردد فيه رأى القديس جيروم بضرورة توافر ألعاب من الخشب أو العاج على شكل الحروف الأبجدية حتى يتسنى للأطفال أن يتعلموا أسماء الحروف وأن يضعوهم في ترتيبهم الصحيح. Abelard , in letters with Hiloise,P.123.

(٣) Durkheim, E., L'évolution pedagogique en France, Tome I, Paris,1938, p.68

–لا تتوافر لدينا معلومات عن المكان الذى تلقى فيه أبيلار وأخوته بداية تعليمهم اللغوى. ومن المحتمل أنهم درسوا على يد أحد القساوسة المحليين كما كان الحال مع أورديريك، أو ربما كان يدرس لهم قسيس خاص فى منزلهم كما كان الحال مع جيوبرت دونوجنت. ومن المؤكد أن تعليم أبيلار توقف فى المقام الأول على ثروة والده والتى لا يعرف حجمها. ولعل أبيلار وإخوته اضطروا لمغادرة مجتمع لوباليه Le Pallet مسقط رأسهم لدراسة النحو فى إحدى المدن القريبة أو الكنائس المجاورة.

الميلادى، وقد أطلق مارتيانوس على عمله اسم" زواج اللغة من عطارد"، وذلك كي يجعلـــه مّستســاغاً ومرغوباً فيه فالطالب كان يتــزوج السيــدة " نحــو" [١]

فالقــول بأن الحرف"U" يطبــق الشفتين على بعضها، وأن الحرف"N" يجعل اللسان يضغــط على الأسنان، أو أن الحرف"O" يجعل الفم يتخذ شكل دائرة. لا تمثل زواجاً على الأقل فى نظر طفــل لا يتعدى السادســة من عمرة وتهدده عصا الأستاذ. فكان يتم التركيز على النطق الصحيح لكل حــوف على حده لأن المرحلة التى كانت تتلو ذلك هى تكوين المقاطع ثم تطبيق تلك القواعد الروتينيــة علــى النص اللاتينى وقراءته بصوت عال.وكانت تلك الطريقة تّخرج أشخاصاً قادرين على نّطــق اللاتينيــة نّطقاً صحيحاً دون أن يفهموا كثيراً من كلمات النصوص التى يقرأوهــا.[٢]

نظراً لموهبة أبيلار الموسيقيــة، فربما أنه وجد ذلك النوع من التعليم عن طريــق الاســتماع والتكرار عن ظهر قلب عملية سهلة جــداً. فالقراءة كانت مرتبطة بالإنشاد في المدارس مثلما كــانت فى الكنائس. وتعلم حروف الأبجدية لم يكن يتطلب وجود كتاب لأن الحروف كانت تّكتب علــى لــوح خشبى أو معدنى لكل طفــل.[٣]

لــم تكــن هنــاك كتب للقراءة مّخصصة للأطفال. فبمجرد تمكــن الطفـــل مــن نّطـــق الحروف، كان يبدأ بقراءة الصلوات اللاتينية المألوفة أو المزامير. ولعل تلك الطريقة كـــانت طريقـــة ممتازة للتعود على القراءة، إذ أنه فى بيت مثل بيت أبيلار، كانت الصلوات تّتلى يومياً. وكان التعليـــم يبدأ بالصلاة لأنها كانت النصوص المتوفرة في أغلب الحالات، والأهم من ذلـــك أن القـــراءة كـــانت قراءة مقدسة "Lectio divina" فالقراءة كانت مهارة نفسية لا ينبغى تبديدها بترديد عبارات دنيويـــة عادية.[٤]

لم تكن الفرصة متاحة أمام القارئ العادى- مثل والد أبيلار- أن يقــرأ الكثــير مــن الكتــب (فالكتب كانــت باهظة الثمن وحتى مكتبات الأديرة كانت متناثرة وقليلة) لذا فإنه لم يكن ليقرأ ســـوى ما يراه مّجدياً ومّفيداً. ولقد أحب المسيحيون المزامير منذ أيام الكنيسة الأولـــى لأنـــها كـــانت تّشـــكل مجموعة ثرية من الصلوات التى تحتفظ بأنغامها ورنينها فى ترجمة القديس جيروم اللاتينية. إضافـــة

---

(١) Wangar, The Seven Liberal Arts, Bloomington, 1983,p.24

(٢) Ibid, p. 25

(٣) Dukheim , E., Op. Cit., p. 69

(٤) Léon, A., Op. Cit. P. 23

إلى أنها كانت تّغنى يومياً في الشعائر الدينية بالأديرة والتى كانت تّشكل نموذج العبادة لكـل النـاس[١] وبالتالى كان لابد للقـراءة باللاتينية أن تمتزج بالعبادة والترانيم فى كل من المنزل والمدرسة. وكـانت الوظيفة الأساسية للقراءة فى منزل مثل منزل أبيلار هى الصلاة. ففى فرنسا فى نهاية القرن الحـادى عشر الميلادي، لم يكن للقراءة والكتابة أى غرض آخر فى حياة الناس اليومية سوى نصـوص مـن الإنجيل تّكتب بحروف كبيرة وتوجد فى الكنائس أى لأغراض دينية فقط وهو الحافز الوحيـد بـالطبع والقوى لـدى أيـة أسـرة مسيحيـة.[٢]

الأصـوات والحـروف:

علق أبيـلار قائـلاً أنه "**يقال عن أى فرد فى الأديرة أنه يعرف اللغة، إذا كان يعلـم كيـف ينطق حروفها**" أما بخصوص الفهم، فإن الرهبان الذين يعترفون أنهم لا يعرفون كيف يقـرءون كتابـاً مّعيناً، فهم لا يقلون عن الناس العاديين الذين يّطلق عليهم "أميين". ووفقاً لقول أبيلار فإن كثـيراً مـن الأديرة كانت لا تّعلم سوى الترانيم وهى مجرد وسيلة لتكوين الكلمات دون فـهم معناهـا.[٣] وجـاء وصف بعض الرهبان لأنفسهم بأنهم أصبحوا بعد فترة من ممارسة عملهم قادرين على فـهم اللاتينيـة لتؤكد تعليقات أبيلار بشأن الرهبان والراهبات بأنهم يتسنى لهم فهم اللاتينية مـن خـلال الممارسـة اليومية، وذلك مثلما يتعلم الطفل لغته الأم دون أن يدرسها. وفى سياق أخر يذكر أبيلار مقولة القديـس جيروم لراهبات دير إيلويز التى جاء فيها "**أن الإنسان يصل لمعانى الكلمات من خلال أصواتـها وأن من يتعلم نطق الكلمات سيرغب فى فهم معانيها**".[٤]

كان المصطلح الذى يستخدمه القديس جيروم للدلالة على الكلمات هو "الأصـوات" " **Voces**" وذلك لأن الكلمات كانت تدرس كأصوات قبل اختراع الطباعة التى مكنت الناس من إنتاج أعداد هائلـة من الكلمات المطبوعة على صفحات الكتب والجرائد[٥]. إن التأكيد الشديد على الكلام والحفـظ عـن ظهر قلب جعل من الذاكرة عّنصراً هاماً في علمية تعلم القراءة فى العصور الوسـطى. فمـن خـلال التكرار المتواصل، كان رجل الدين يتعلم طقوسه الدينية ويحفظها عن ظهر قلب. وكانت أهـم الكتـب فى العصور الوسطى، المزامير وكتب الإنجيل التى توضع فى المراسـم الاحتفاليـة فـوق المقـرأة بوصفها عرض "للصفحة المقدسة" والتى كانت نصوصها معروفة لدى قرائـها. وكـانت مـهارات الذاكرة تلقى تقديراً كبيراً لدى الأساتذة المدرسين أمثال أبيلار، ولدى الرهبان.[٦]

(١) Le Goff, J. Pour un autre Moyen âge, p. 183

(٢) Jolivet, J., Aspects de la pensé médiévd, p.93

وانظر أيضاً، Blomme, R., Op. Cit., p. 84

(٣) Clanchy, M.T., From Memory, p. 187

(٤) Mews, C. "A Twelfth Century Anecdote about Peter Abelard"., Traditio (44) (1988 p.172

(٥) Jolivet, J., Aspects de la pensé, p.94

(٦) Philipp Wolff, Op. Cit., p.208

ويوصف أبيلار بأنه يتمتع "بذاكرة ليس لها مثيل" على حد قول هيودوسان فيكتور أحد زملاء أبيلار ومنافسيه، والذي كان يعلم طلابه كيف يحفظون المزامير عن ظهر قلب ويكررونها بأي ترتيب. ففى ذلك الوقت الذى كان يصعب فيه الحصول على الكتب، بل ويصعب حتى تدوين الملاحظات (إذ أن الشمع والخشب والألواح المعدنية كانت مواد يصعب الكتابة عليها) كانت الذاكرة تحظى بتقدير أكبر مما تحظى به فى مجتمعاتنا المعاصرة.(١)

كان الحديث يُنظر إليه على أنه جوهر اللغة، وبالتالى جوهر الفهم. وقد عرف حنا السالزبورى تلميذ أبيلار الحروف بأنها "رموز الأصوات". فبواسطة الصوت يعطى الإنسان الأشياء مُسمياتها ويفهم اللغة. فالكلمات التى كانت تُكتب فقط- وبالتالي لا تُلفظ- لم تكن كاملة وذلك لأن الكتابة كانت مجرد وسيلة للوصول لغاية. فكانت تُمثل وسيلة تخزين يُسجل فيها الحديث الذى تم فى الماضى حتى يصل للمتلقي في المستقبل. وكانت المهمة الرئيسية التي يقوم بها القارئ هى أن يحول الكلمات التى يراها مكتوبة على الصفحة إلى لغة مفهومة عن طريق "نطقها". وذلك لم يكن يعنى بالضرورة أن كل كلمة يجب وأن تنطق بصوت عال، على الرغم من أن القارئ فى العصور الوسطى كان مُعتاداً على ذلك، إذ أنه تعلم أن القراءة تبدأ بالنطق(٢). فلم يكن الشخص فى العصور الوسطى يستطيع أن يقرأ دون أن يستمع أولاً. وكتب برنار سيلفستر Bernard silvistris أحد أبناء جيل أبيلار يقول: **"إن الحروف كانت ستغنى إذا خلق الإنسان أصم"**.(٣)

كان أبيلار كأستاذ يرأس مجموعة من الأشخاص ذوى مستويات علمية متفاوتة، وفى مثل تلك المجموعة كان يمكن للأفراد أن يُشاركوا في القراءة دون أن يضطر كل فرد منهم أن يقرأ ويكتب منفرداً.(٤) وفى القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين، كان الناس يجتمعون فى ما يسمى **"بالمجتمعات النصوصية"** التى تركز اهتمامها على تعاليم نصوص الإنجيل وكتابات آباء الكنيسة الأوائل وبعض الآداب العامة. وعلى الرغم من أن الإنجيل كان مقصوراً على رجال الدين ومحظوراً على عامة الناس، فإن كلمات الصفحة المقدسة امتدت فى عدة صور إلى ما وراء المجموعة الصغيرة من الكتبة الرهبان أو مُحترفي الكتابة من رجال الأدب. فكل شخص من هؤلاء كان يقرأ اللغة اللاتينية كما كان يُترجم كلمات تلك اللغة الغريبة عليه إلى لغته القومية الحية.(٥)

---

(١) Mews, , Op. Cit., p. 174

(٢) John of Salisbury, Op. Cit., ch. 13, p.32

(٣) Jolivet.J., Aspects de la pensé, p.95

(٤) Stock, B., The Emplicatiom Of Literacy, London 1983, p.3

- تشبه تلك العملية ما يعرف حديثاً بنظام الكتاتيب التى يردد فيها التلاميذ العبارة مع بعضهم البعض فى نفس الوقت

(٥) Clanchy, M.T., From Memory, p.189

لقد كان الإنجيل اللاتينى يصل لكل الناس من خلال الطقوس الدينية اليومية التى كانت تتم فى الكنيسة من ترانيم وقرارات دينية متغيرة بانتظام، بشرط أن يتوجهوا لأحد دور العبادة. لقد كان هناك عدد محدود من الكنائس، فالكنائس الكبرى مثل كلونىCluny أو سان دينيس st. Denis لم تكن كثيرة. أو أنها لم ترحب بعامة الناس، كما أن معظم أفراد الطبقة العاملة لم يكن لديهم وقت كاف للذهاب لتلك الكنائس.(١)

كانت عائلة أبيلار – التى تعد حالة استثنائية حتى بين أبناء الطبقة الراقية – بأبنائها الأربعة المتعلمين وو الدهم المتدين، يمكن أن تعد مجتمع "نصوص". وربما أن فهم الصلوات والمزامير اللاتينية قد امتد خارج إطار الذكور المتعلمين رسمياً ليصل إلى الأم (التى أصبحت راهبة فى شيخوختها) والأخت (التي قامت بتربية ابن أبيلار وإيلويز وتعليمه) وربما أيضاً إلى الخدم الموجودين بالمنزل والمزارعين الذين كانوا يعملون لديهم. ووفقاً للقانون الكنسي الراسخ، كان من المفروض أن يكون كل إنسان على علم بالصلوات الأساسية مثل الصلاة الربانية وأن يستطيع أن يتلو قانون الإيمان المسيحى باللاتينية. ومن المفترض أن عائلة مثل عائلة أبيلار كان يتكرر ذلك الأمر فيها بشكل يومى عدة مرات.(٢)

---

(١) Stock,., Op. Cit., p.5

(٢) Ibid,. p. 15

– يرجح المؤرخ برايان ستوك أن والدة أبيلار وأخته قد تعلمتا القراءة والكتابة أيضاً وهو الأمر الذى بدا واضحاً عند دخول والدته فى الرهبانية أواخر حياتها وأدائها للقسم، وكذلك أخت أبيلار التى قامت بتربية ابن أبيلار وإيلويز وتعليمه القراءة والكتابة.



الفصل الثانى

أيلار الأستاذ

عالم المنطق

أولاً: الأستاذ:

لقب الأستاذ

بدايات أبيلار كأستاذ

أسس سلطة الأستاذ

كتابات أساتذة أبيلار

دين أبيلار لأساتذته

طريقة التدريس

تدوين الملاحظات والقواميس

أبيلار الفصل

ثانيا: عالم المنطق:

أبيلار وارسطو

الهدف من دراسة المنطق

أسلوب دراسة المنطق

أبيلار وروسلان

الحقيقة المنطقية والحقيقة الإلهية

منطق الثالوث

علم المنطق والهزل

علم المنطق والعقيدة المسيحية

أولا: الأستــاذ:

"الأستاذ بطرس" "Magister Petrus"، هذا ما أطلقه بطرس الموقر رئيـس ديـر كلونـى "cluny" على أبيلار فى خطاب بعثه إلى إيلويز يخبرها بنبأ وفاته. وقـد أسماه بطـرس الموقـر "الأستاذ" نسبة إلى أستاذيته (Magisterium) فى المعرفة وكدليل على احترامه الشديد له، وذلك لأن لقب الأستاذ يعبر عن المرتبة التى وصل إليها فى المجتمع.كانت كلمة الأستاذ في الفترة التـي كتـب فيها بطرس الموقر خطابه لإيلويز، تستخدم كلقب يوضع أمام أسماء الأشخاص الذين يتخرجـون فـى المدارس الدولية الكبرى وكذلك الأشخاص الذين يدرسون فيها.[١] وهناك قصيدة ساخرة ترجع لأواخـر القرن الثانى عشر تصف طموح شخص يدعى بورنيل Burnell فى أن يحقق تقـدم فـى مـدارس باريس حتى يحصل على لقب "أستاذ"، حيث يقول "عندئذ سوف يسبق لقب "الأستاذ" اسـمى، وإذا لـم يضف أحد لقب الأستاذ إلى اسمى ليصبح "الأستاذ بورنيل"، فسوف يكون ذلك الشخص هـو عـدوى اللدود".[٢]

****

- لقـب الأسـتاذ:

حارب أبيلار طويلاً وكثيراً تماماً مثل بورنيل حتى يَصبح "أستاذاً" لدرجـة أن سـان برنـار نفسه قد ناداه بذلك اللقب وإن لم يكن بشكل دائم أو عن طيب نفس. ففى بعض الخطابات التـى كتبـها سان برنار إلى كاردينالات الإدارة البابوية فى روما وقت انعقاد مجلس سـنس عـام ١١٤٠م، كـان برنار يّطلق على أبيلار "الأستاذ بطرس" وفى خطابات أخرى كان يّجرده من ذلك اللقب، وذلـك فـى الوقت الذى كان يشتد فيه غضبه عليه.[٣]

فى خطابات إيلويز لأبيلار لم تخاطبه أبداً بلقب الأستاذ، كما أنها لم تناديه باسم "بطرس"، بـل إنها كانت تخاطبه دائماً باسمه مجرداً "أبيلار"، حيث تّعد نفسها الوحيدة التى لا يليق بـها أن تخاطبـه بصفة رسمية خاصة بعد أن انتشرت قصتها فى ربوع باريس.[٤]

كانت كلمة "Master"أي أستاذ "لقب" أخذ فى الشيوع بسرعة فى القرن الثانى عشر، ليـس على مستوى المدارس فقط، بل بين الحرفيين مثل البناءين والصيـادين وغـيرهم. ويبـدو أن ذلـك الاستخدام قد بدأ فى كّبرى مدارس فرنسا الشمالية ثم انتقل منها إلى باقى المؤسسات الأخرى والمـهن المختلفة.[٥]

---

(١) Peter the venerable, The letters, ed. G. Constable, London, 1967, Letter (115) PP.306 – 307

(٢) Waddell, H., Op. Cit., P. 131.

(٣) Jolivet., J., Cahiers de civilization, P. 309.

(٤) Duby, G., Op. Cit., P. 77.

(٥) Lemarignier, J. E., La France médiéval: institutions et socité, Paris, 1971, P. 53.

لعل الطريقة التى اكتسبت بها كلمة أستاذ معانى مختلفة، تتضح من خلال حياة أحد أبناء جيل أبيلار وهو جيلبرت من سيمبرينجهام Gilbert of Sempringham الذى ولد فى ثمانينات القرن الحادى عشر الميلادي بعد بضع سنوات من ميلاد أبيلار. ومثل أبيلار كان جيلبرت ابناً لفارس وقد غادر بلاده أيضاً ليجوب مقاطعات فرنسا بحثاً عن العلم حتى حقق مرتبة "أستاذ" وبعد عودته لوطنه فى لنكولنشاير Lincolnshire، بدأ يعلم الأولاد والبنات أيضاً فى بلدته. ويصفه كاتب سيرته الذاتية التى كتبها أواخر القرن الثانى عشر (حيث عاش جيلبرت حتى بلغ المائة عام) بأنه أستاذ فى ثلاث سياقات: أنه كان أستاذاً لمدرسة، وكان خريجاً للمدارس الفرنسية، وكان أستاذاً وسيداً لرغباته، فقد حافظ على طهارته على حد قول كاتب سيرته.(١)

لقد ربط أبيلار أيضاً بين الأستاذية والحياة الطاهرة فكتب "أن هناك أشخاصاً "ينسبون لأنفسهم بدون وجه حق لقب أستاذ فى الصفحة المقدسة" على الرغم من أنهم يحيون حياة شهوانية وقذرة ولا ينتهون عن ذلك، وكأنهم يفتحون باب معبد الروح القدس على مصراعيه أمام كل الناس". ولقد كتب أبيلار ذلك الكلام بعد إخصائه وبعد أن تعلم من أخطائه، فعندما قام بإغواء إيلويز قبل ذلك بأربع سنوات فى منزل فولبير داخل حدود كتدرائية نوتردام، كان هو الآخر يحيا حياة شهوانية وقذرة حيث كان أستاذاً مسئولاً عن تعليم الصفحة المقدسة من الإنجيل فى الكتدرائية.(٢)

كان التبتل أمراً ضرورياً لكل من أبيلار وجيلبرت من سيمبرينجهام، وذلك لأنهما كانا رؤساء ذكور لمجموعات من النساء المتدينات. وفى ذلك السياق كان جيلبرت يلقب رسمياً بأستاذ جماعة سيمبرينجهام. وعندما لقب بطرس الموقر أبيلار بلقب الأستاذ، فلعله كان يفكر فيه ليس فقط على أنه أستاذ في مدرسة، بل على أنه أيضاً أستاذاً للراهبات.(٣)

أما بالنسبة للرهبان فى عهد أبيلار، فقد كانت كلمة "مدرسة"، و"أستاذ" ترتبطان بحياتهم الرهبانية أكثر من أى شيء آخر دنيوى أو أكاديمى. فكل تلك المعانى المختلفة لكلمة أستاذ تجمعت لديهم فى شخص السيد العظيم "يسوع المسيح".وفى كتابه الأخلاق قام أبيلار بالاستشهاد بكلمات من إنجيل متى "سيدى: سوف أتبعك حيثما ذهبت".(٤) كذلك فإن قانون القديس بندكت St. Bendict يبدأ بالكلمات: "أصغ إلى تعاليم الأستاذ"، وينصح أتباعه أن يؤسسوا مدرسة لخدمة الرب. وقد ذكر سان برنار ذلك النموذج القديم لفكرة المدرسة الدينية عندما أكد لأحد رؤساء الأديرة البندكتية أنه "تلميذ فى

(١) Foreville, R. & Keir, G., The Booke of St. Gilbert, Oxford, 1987, P. 14.

(٢) Jolivet. J., Aspects de la pensé, P. 119.

(٣) Ibid,P.120

(٤) Abelard, Ethics, ed. and trans. by D. E. Lusconbe, London, 1971, P. 19

مدرسة التقوى برئاسة الأستاذ يسوع". وفى رأى برنار، فإن الأساتذة الأكاديميين، وبالأخص أولئك الذين كانوا يدرسون الإنجيل مثل أبيلار، قد اغتصبوا لقباً ودوراً يخص المسيح والمتدينين. ولقد كان أبيلار نفسه مدركاً لذلك عندما استشهد بالنص الذى يقول "ولا يسمى أحدكم نفسه بلقب أستاذ أو سيد، وذلك لأن المسيح وحده هو سيدكم". ولكن أبيلار لم يقل بأن البشر العاديين أمثاله لا ينبغي لهم أن يلقبوا بكلمة أستاذ أو سيد.(١)

لقد سجل القديس أنسيلم من كانتربورى – أعظم مفكرى عصر أبيلار – شكوكه بشأن معنى كلمة أستاذ بأسلوب متواضع ولكنه دال على الثقة فى نفس الوقت: قائلاً "يلقبونني بالأستاذ، على الرغم من أننى لا أعرف ماذا يعنى أن يكون المرء أستاذاً".(٢)

على النقيض من الاعتراف بأستاذية القديس أنسيلم بسهولة، كان كفاح أبيلار لتحقيق مثل ذلك الاعتراف مثيراً للجدل. فتجارب أبيلار قد ملأته بالمرارة بصورة تظهر فى كتاباته خاصة "تاريخ المصائب". ولابد أن أبناء جيله الذين عاصروا تلك الأحداث وكانوا على علم بالأشخاص الذين يقصدهم أبيلار فى كتاباته، لابد أنهم يعرفون أى الأجزاء فى كتاباته تشكل دفاعاً خاصاً به.(٣)

****

ـ بدايات أبيلار كأستاذ:

كان أبيلار يتعمد دائماً أن يقصد كبار الأساتذة فى عصره. يقول أوتو الفريزى: "أولاً كان روسلان أستاذاً له، وكانت عظمة روسلان تتمثل فى أنه كان اول شخص فى زماننا يدخل الفلسفة الاسمية فى المنطق".(٤) إن الفلسفة الاسمية كانت ركناً أساسياً فى حياة أبيلار المهنية كفيلسوف، كما أن معظم أفكاره الخاصة بتطبيق النظرية اللغوية على العقيدة المسيحية ترجع إلى روسلان، مع أن

---

(١) Pierre Lasserre, Op. Cit., P. 46; Verger et Jolivet, Op. Cit, P. 132.

(٢) Abélard, Théologia Christiana, in La théologie d'Abelard, Paris, 1997, P. 36.

(٣) Marenbon, J., Op. Cit., P. 44.

– ربما كان الهدف من وراء كتابة "تاريخ المصائب" أن يكون وثيقة ضمن حرب الكتابة التى كانت تحدث بين الأساتذة المتنافسين فى فرنسا، ولكن نظراً لأن كتابات خصوم أبيلار لم يبق منها سوى أجزاء متفرقة – هذا إن وجدت أية أجزاء – فإن رواية أبيلار أحياناً ما ينظر لها وكأنها مصدر موثوق به يكشف حالة التعليم فى نهضة القرن الثانى عشر. وقد يكون ما جاء فى "تاريخ المصائب" عن فهم أبيلار ورؤيته لتجاربه صحيحاً، إلا أن ذلك لا يعنى أن الكتاب كان يهدف لتسجيل حقائق تاريخية وأن يكون كتاباً تاريخياً بمفهومنا المعاصر. ولكى تكون الصورة أكثر وضوحاً، ينبغى عدم التركيز على رواية أبيلار وحدها وضرورة محاولة تجميع ما يستطاع من أجزاء يمكن تجميعها مع بعضها من عدة مصادر أخرى، وذلك دون تجاهل لكتاب "تاريخ المصائب". انظر أيضاً،
Blomme, R., Op. Cit., P. 87; Jolivet. J., Aspects de la pensé, P. 121.

(٤) Otto of Freising, Op. Cit., P. 224.

أعمال روسلان لم يبق لها أثر. ولم يذكر أوتو الفريزى أن روسلان قد اتّهم بالهرطقـــة فـــي مجلـــس سواسون عام ١٠٩٢م، وعلى الرغم من ذلك، فإنه لم يَمنع من التدريس، بل إن محاكمتـــه زادت مـــن شهرته كمفكر. ومن المحتمل أنه بدأ التدريس لأبيلار فى تلك الفترة وكان أبيلار وقتـــها فـــى الثالثـة عشرة أو الرابعة عشرة من عمره، وامتد تعليمه بعد ذلك طوال سنوات صباه وشـــبابه، كمـــا يذكـــر روسلان بعد ذلك قائلاً "لقد علمتك الكثير والكثير باسم الأستاذ وعمله".[١]

يقول روسلان فى نفس السياق أنه كان يدرس فى لوش Loches، ويبدو الأمر وكأن التجـول بالمقاطعات كما أسماه أبيلار بحثاً عن علماء المنطق جعل أبيلار أيضاً يطوف وادى نهر اللوار بدايـــة من مسقط رأسه لوباليه Le Pallet مروراً بأنجو Anjou ووصولاً إلى توريـــن Touraine وبلـــوا Blois. وتعد الخطوة الحاسمة فى شباب أبيلار هى توقفه عن اتباع مجرى نهر اللـــوار الـــذى كـــان سيأخذه إلى الشرق وإلى مدرسة كتدرائية أورليان Orléans، ثم يتجه به شمالاً نحو وادى نهر الســين وإلى المنطقة التى أسماها هو وأبناء عصره "فرنسا". (عندما اضطر أبيلار بعد ذلك لمغـــادرة بـــاريس للعودة لمدينته، وصف نفسه بأنه كان بعيداً عن فرنسا).[٢]

مثلما كانت فرنسا فى القرن الثاني عشر الميلادي مقتصرة على جزيـــرة المدينـــة Ile de France كانت باريس بالنسبة لأبيلار هى تلك الجزيرة الصغيرة فى السين والتـــى تضـــم كتدرائيـــة نوتردام عند أحد طرفيها والقصر الملكى عند طرفها الآخر. وعندما كتـــب قـــائلاً "أخـــيراً وصلـــت باريس"، كان يعنى أنه نجح أخيراً فى دخول ذلك المكان الخاص الذى يقع فى قلب فرنسا (حيث كـــان فى بعض الأحيان يجتمع مع الأسقف والملك).[٣]

كانت مدرسة باريس فى ذلك الوقت تحت رئاسة الأستاذ المهيب وليـــام دو شـــامبو رئيـــس الأساقفة وكاتم أسرار الملك فيليب الأول (١٠٦٠ – ١١٠٨م). وكان أبيلار قد وصل باريس كغريـــب عليها فى حوالى عام ١١٠٠م حينما كان يبلغ الحادية والعشرين مـــن عمـــره. ولأن روســـلان كـــان أستاذه، فقد دخل أبيلار باريس وسمعته مثل أستاذه مَعرضة للشبهات، وهذا ما يفسر سبب ابتعاده عـــن روسلان فيما بعد. ولقد وصف أبيلار باريس بأنها كانت بالفعل مصدر إلهام، حيث كان علم المنطـــق مزدهراً، وقد أقر أبيلار أن وليام دو شامبو كان أستاذاً بارعاً حقاً من حيث الشهرة والحقيقة.[٤]

---

(١) Roscelin, Letter to Abelard, ed. J. Reiners, in Der Nominalisums in der Frühscholastik, stuttgart, 1956, P. 64

- يشير روسلان بكلمة الأستاذ وعمله إلى الفلسفة الاسمية التى تفرق بين اسم الكلمة وعملها.

(٢) Abelard, Hist., P. 6

(٣) Philipp Wolff, Op. Cit., P. 207

(٤) Ferruolo, S., Op. Cit., P. 19

بعد أن وصل أبيلار إلى قمة طموح أى طالب بأن درس على يد أفضل الأساتذة فى أفضـــل مدرسة، قد يظن البعض أنه سوف يستقر بعد ذلك ويسعى إلى الترقيـة عـن طريـق كسـب رضـا رؤسائه، بيد أن ذلك لم يكن أبداً أسلوب أبيلار. لقد قضى ما يقرب من عشرة أعوام أو أكثر للوصـول إلى منصب تعليمى مضمون ومرموق (منذ ١١٠٤ – ١١١٤م). وبمجرد حصوله على ذلك المنصـب طرحه جانباً حتى يراود إيلويز عن نفسها. ولقد تكرر ذلك الفعل من جانب أبيلار الذى كان دائماً مـا يرمى نجاحه بعد أن يعمل جاهداً لتحقيقه.[١] فبعد أن أنقذه دير سان دينيس من علاقته بإيلويز، وكـان هذا الدير أشهر أديرة باريس – قام أبيلار بالتشكيك فى أصالة القديس دينيس الذى كان راعيـاً للديـر ولمملكة فرنسا. وبعد اتهامه بالخيانة، تعاطف معه كونت تشامبنى Champagne وأعطـاه الحمايـة وأيضاً قطعة أرض ليبنى عليها دير خاص به (الذى أصبح بعد ذلك البـاراكليت الخـاص بـإيلويز). ولكنه تخلى عن ذلك الدير أيضاً عندما أصبح رئيس دير سان جيلداس فى بريتانى. وبذلـك اسـتمرت الكوارث فى حياة أبيلار حتى نهايتها، وقد أرجع أبيلار أسباب تلك المصائب إلى أول وصوله لبـاريس "والحسد" الذى أبداه تجاهه زملائه من الطلاب وكذلك أستاذهم وأستاذه وليام دو شامبو.[٢]

أما من أجل الحصول على وظيفة مضمونة، كان أبيلار فى حاجة لأن ينتخبه شمامسة إحـدى الكنائس الكبرى لكى ينال رتبة كنسية ذات دخل. وكانت الوظائف التى تتلو تلك الرتبـة تتمثـل فـى مناصب تعليمية فى كنائس أخرى أو العمل كمساعد أستاذ وهى الوظائف الأقل رسمية. وقـد وصـف أبيلار نفسه بأنه "مراهق" يطمح فى أن يكون له مدرسته الخاصة، وقد حقق ذلك فى ميلـون Melun (جنوب باريس) وذلك فى عام ١١٠٢م حينما كان يبلغ من العمر الثانية والعشرين.[٣]

يوضح أبيلار فى كتابة" تاريخ المصائب "أن كبار رجال الدولة هم الذين قدموا له الحماية مـن وليام دو شامبو فى ميلون Melun. فلقد كان لوليام سلطة كنسية عليا لأنه رئيس الأساقفة، كمـا أنـه كان يتمتع بنفوذ فى البلاط الملكى. وقد ساند أبيلار فى مواجهته مع وليام شخص يُدعـى سـتيفن دو جارلاند Stephen de Garlande أحد رؤساء الأساقفة بباريس والذى كان من عائلة يتولى أفرادهـا مناصب كنسية وملكية عديدة بفرنسا.[٤]

يحكى أبيلار أنه قرر فى عام ١١٠٤م أن ينقل مدرسته من ميلون إلـى كوربـى Corbeil والتي كانت محصنة على نهر السين حتى يكون قريباً من باريس ويشترك فى المزيد من المنـاظرات الجدلية مع وليام دو شامبو، والذى كانت سمعته كأستاذ على وشك الانهيار. والراجح هنـاك احتماليـة أن يكون طرد أبيلار من ميلون أولاً ثم كوربى بعد ذلك قد تم بتدبير من وليام دو شامبو.[٥]

(١) Cottiaux, J., "La Conception de la théologie chez Abélard" R. H. E. (28) (1932), P. 249.
(٢) D'Irsay, S., Op. Cit., P. 36.
(٣) Knowles, D., Op. Cit., P. 119.
(٤) Abélard, Hist., P. 5; Philipp Wolff, Op. Cit., P. 207.
(٥) Charrier, ch., Op. Cit., P. 33.

يّفسر أبيلار الأحداث التى تلت ذلك تفسيراً شخصياً وفلسفياً، فقد اضطر أن يعود إلى وطنه "لوباليه" عام ١١٠٥م بسبب إصابته بمرض أقرب للانهيار العصبي نتيجة الإفراط في الدراسة. وظل أبيلار بعيداً عن فرنسا لبضع سنوات ومن المحتمل أنه لم يرجع لباريس إلا فى عام ١١٠٨م. وقد يرجع مرضه إلى الإجهاد المؤقت الذى تزامن مع التهديد الذى كان يمارسه أتباع وليام دو شامبو عليه. ولم يّصب أبيلار بأي انهيار عصبي طويل الأجل مرة أخرى رغم الكوارث التى تعرض لها من إخصاء وإدانة بالهرطقة واتهام بالخيانة والتهديد بالموت فى سان جيلداس، إلخ ...(١)

اضطر أبيلار للبدء من جديد مرة أخرى فى باريس بعد تعرضه للانهيار. ومرة أخرى أصبح تلميذاً لوليام دو شامبو. ويقول أبيلار أنه بعد عدة مكائد تم تعيينه "مسئولاً عن دراسة الديالكتيك" فى مدرسة كتدرائية باريس. وخلال أيام قلائل استطاع وليام دو شامبو أن يضعف من مكانة أبيلار حتى أجبره على الانسحاب مرة أخرى والعودة إلى ميلون، إلا أن وليام نفسه انسحب فى عام ١١٠٩م من منطقة جزيرة المدينة بباريس، حيث ذهب إلى مدرسة سان فيكتور على الضفة الجنوبية لنهر السين خارج أسوار المدينة، والتى كان أحد أساتذتها من قبل.(٢)

كان انسحاب وليام دو شامبو إلى سانت جنيفيف Ste. Geneviève بمثابة فرصة ثانية لأبيلار الذى يقول "وعّدت على الفور من ميلون إلى باريس أملاً فى الصلح معه من الآن فصاعداً" بيد أن أبيلار كعادته استهان بخصمه مرة أخرى، مما جعل وليام يمنعه من الاقتراب من مدرسة كتدرائية نوتردام، ولم يّسمح لأبيلار سوى بالتدريس في كنيسة سانت جنيفيف التي تقع على الضفة الجنوبية لنهر السين خارج أسوار المدينة. ولم يكن أبيلار حاسماً بخصوص النتيجة النهائية لذلك الصراع ويختتم روايته عن ذلك بقوله "إننى لم أهزم".(٣) أياً كان ما حدث فى باريس، فإن أبيلار قد اضطر أن يعود لوطنه مرة أخرى، ويقول أن والدته كانت مسئولة عن ذلك لأنها اختارت أن تترهبن فى أحد الأديرة بمجرد دخول والده الدير لنفس السبب.(٤)

---

(١) Abélard, Hist., P. 6.

- كان الضعف النفسى الذى اعترف به أبيلار هو عدم الاستقرار فى مكان واحد فترة طويلة، إضافة إلى أن كثيراً من كتبه تبرز لنا "أنه لم يستطع أن يكمل البناء ولذا فهو يستحق الملامة".

(٢) Knowles, D., Op. Cit., 120.

(٣) Abélard, Historia, P. 7; Marenbon, Op. Cit., P. 58.

(٤) Le Goff, J., pour un autre moyen âge, P. 185

- كان ذلك النوع من التقاعد الذى قام به والديه وسيلة لضمان توريث أملاك الأسرة إلى الجيل التالى من الأبناء تحت إشراف الأبوين، إضافة إلى إعطاء الزوج والزوجة فرصة الاستعداد للحياة الآخرة. وعلى الرغم من أن أبيلار قد تنازل بالفعل عن كل أملاكه فى لوباليه، فإنه كان مطالباً بتأكيد ذلك التنازل. فرجال الدين غير الناجحين مثله والذين لم يلتزموا بالتبتل التزاماً لا رجعة فيه بأن يصبحوا قساوسة، قد يرجعون لبيوتهم فجأة ويطالبون بممتلكاتهم من ذويهم. انظر،

Paré, G. & Brunet. A. & Trenplay, P.,La Renaissance du XIIe siècle: les écoles et l'enseignement, Paris, 1933, P. 278.

عاد أبيلار فى عام ١١١٣م إلى فرنسا وإن كان لم يعد إلى باريس، حيث كان سيصبح شخصاً غير مرغوب فيه. وذهب إلى مدرسة كتدرائية مدينة لاون Laon والتي تبعد عن باريس مسافة ثمانين ميلاً. ويقول أبيلار أنه ذهب هناك حتى "يتعلم اللاهوت" ولعل ذلك القرار يرجع إلى تقاعد والديه فى الدير. فقد كان علم المنطق والديالكتيك الذى تخصص فيه خلال الخمسة عشرة عاماً الماضية من حياته، مجالاً علمانياً على الرغم من أن تطبيقاته كانت تتم على تفسير الإنجيل.[١]

من ناحية أخرى فقد أدت دراسة اللاهوت بشكل مباشر إلى فهم الدين. ومرة أخرى حاول أبيلار الذي كان قد بلغ من العمر آنذاك الثانية والثلاثين أن يبدأ من جديد، حيث ذهب إلى الأستاذ أنسيلم فى لاون ليّصبح تلميذاً له.[٢]

كان الوضع الطبيعي لأي شخص آخر غير أبيلار -قضى أكثر من عشر سنوات مّعرضاً للمهانة والإحباط، أن يختار مدرسة قريبة من موطنه ليستقر فيها ويعمل أستاذاً فى هدوء وسلام، بيد أن الرسالة التى ينطوى عليها كتاب" تاريخ المصائب "تّوضح أنه كان يسوقه الطموح الشديد ليكون أعظم فيلسوف فى العالم حيث يقول "كدت أشعر أننى الفيلسوف الوحيد فى العالم، وكذلك اعتبرت نفسى". حيث حقق تلك المنزلة فى رأى كثير من مّعجبيه أمثال بطرس الموقر. ولولا ذلك الطموح والمعاناة والآلام التى عاشها، ما سمعت الأجيال التالية شيئاً عن أبيلار ولا إيلويز.[٣]

****

- الأسس التى تقوم عليها سلطة الأستاذ:

اتبع أبيلار نفس الأساليب التى سار عليها فى باريس وفى لاون أيضاً، بيد أن الأستاذ أنسيلم دو لاون أثبت أنه خصم لا يقل هيبة عن وليام دو شامبو. ويرى حنا السالزبورى أنه "ما من أحد حاول الهجوم على أنسيلم دو لاون دون أن يسلم من العقاب"[٤] فلقد امتد عمل أنسيلم فى لاون لما يقرب من الثلاثين عاماً، قام خلالها بتعليم الكثير من الأساقفة ورؤساء الأديرة سواء من فرنسا أو خارجها. كانت سلطة أنسيلم تعتمد على مكانته كأستاذ أكثر من منصبه، فقد تولى منصب عميد ومستشار، وهو ما يعنى أنه كان مسئولاً عن الكتدرائية وأعمال الأسقف، وكانت مدينة لاون كلها تحت سيطرة الكتدرائية.[٥]

---

(١) Knowles, Op. Cit., P. 121.

(٢) Cottiaux, J., Op. Cit., P. 269.

(٣) Abélard, Historia, P. 8; Le Goff, Op. Cit., P. 185.

(٤) John of Salisbury, Book 1, Ch. 5, P. 21.

(٥) Poole, R, L., Op. Cit., P. 123.

عندما وصل أبيلار إلى لاون فى عام ١١١٣م، كان أنسيلم فى أوج ســلطته ونفــوذه. فقبــل وصول أبيلار للمدينة بعام، كان أنسيلم قد نجا من ثورة قام بها سكان المدينة ضد رجال الديــن قتلــوا فيها الأسقف جودرى Gaudry. وقد ساهم أنسيلم فى تهدئة المدينة وإعادة سمعتها الطيبة وأصبحــت مرة أخرى مصدر جذب للطلاب.(١)

كان جيوبرت دو نوجنت يّطلق على أنسيلم دو لاون لقب "الأستاذ" كما كان يشير كثيراً إلــى أمثلة تدل على حنكته في الأمور السياسية. فقد حذر أنسيلم من انتخاب جودرى فى منصب الأســقف منذ البداية، وبعد مقتله، أقنع أنسيلم سكان المدينة بتسليم جثة الأسقف حتى يتم دفنها. بيد أن كثير مـــن الناس ومن بينهم معجبيه أمثال جيوبرت دو نوجنت وحنا السالزبورى، يرون أن أنسيلم دو لاون كـــان ألمع ما أنجبت فرنسا من عقول، إلا أن معظم الهجوم سواء عليه أو على وليام دو شامبو أنــهما كانــا يّعلقان على الإنجيل على الرغم من أنهم ليسوا رهباناً، بل إنهما كانا مجــرد رجــال ديــن علمــانيين تميزوا فى الفنون الأدبية وانغمسوا فى العمل الكنسى.(٢)

كانت الحيــاة المهنية لكل من وليام دو شامبو وأنسيلم دو لاون تّبين أن الأساتذة لــم يعيشــوا في أبراج عاجية. فقــد كانوا فى حاجة إلى أمان الكنائس المّحصنة، وكان يتوجب عليــهم أن يكونــوا على استعداد لتدميــر خصومهم مثلما يفعل الفرسان فى قلاعهم. كذلك فقد كانت سلطة الأستاذ تعتمــد على ركيزتين أساسيتين هما: شهرته الأكاديمية، والتى كانت تجتذب الطلاب الأجانب لمدينته، إضافــة للمناصــب الكنسية التى يتولاها والتى تمنحه سلطات يّمارسهــا على رجال الكهنوت فى مدينته.(٣)

كان أنسيلم دو لاون علــى علــم بالأمور السياسيــة فى فرنسا مثلما كان وليــام دو شــامبو وذلك لأن لاون كانت أ قفية ملكية. فبعد مقتل الأسقف جودرى قام الملك الفرنســى لويــس الســادس Louis VI (١١٠٨ – ١١٣٧م) بغزو منطقة لاون وذلك لطرد المتمرديــن الذيــن أثــاروا الشــغب بالمدينة وتسببوا فى مقتل الأسقف، وذلك على حد قول جيوبرت دو نوجنت ورئيـــس ديــر ســوجيه Suger الذى كتب السيرة الذاتية للويس الســادس.(٤)

---

(١) Ibid, P. 124.

– كان أنسيلم ناجحاً جداً فى ذلك الوقت كما جاء فى خطاب يرجع لعام ١١١٤م يصف حشود الطلاب الذين أتوا من كل أنحاء أوروبا إلى لاون وإلحاحهم فى حجز الأماكن التى سيسكنوا فيها. فى تلك الفترة كان أنسيلم قد أصبــح رئيساً للشمامسة وامتدت سلطاته على رجال الأكليروس فى الأسقفية، إضافة إلى كونه عميداً ومستشاراً للأسقف، انظر ، Chenu, M .D., Nature, Man and Society, New York, 1968, P. 270.

(٢) Benson, R. L:., Renissance and Renewal in the Twelfth Century, New York 1982, P. 116

(٣) Chenu, M. D., Nature, P. 272.

(٤) Guibert de Nogent, Autobiographie, ed. E. R. Labande, Paris, 1981, Book 3, Ch.11, P. 394

انظر أيضاً، Suger, Vie de Louis VI Le gros, ed. H. Waquet, Paris, 1929, Ch. 24, PP. 176 – 177.

كان الأسقف الجديد في لاون هو "هيــو" Hugh عميد أورليان Orléans مديناً بمنصبه إلــى مستشار الملك لويس السادس المدعو ستيفن دو جـــارلاند Stephen de Garlande، إلا أن ذلــك الأسقف الجديد توفى فجأة فى بداية عام ١١١٣م.فى تلك المرحلة وصل أبيلار لاون، ووفقاً لما جـــاء فى روايته، فإن نواياه كانت أكاديمية بحتة، حيث جاء ليدرس ويتتلمذ على يد الأستاذ أنسيلم العظيم.(١)

إلا أن أنسيلم لم يصدق أن وصول أبيلار كان وراءه مثل ذلك الهدف البسيط. فلقد كان أبيــلار أستاذاً فى كنيسة سانت جنيفيف التى كان يتولى عمادتها ستيفن دو جارلاند الذى هو مستشــار الملــك الفرنسى، والذى رشح من قبل الأسقف هيو رئيساً على الأستاذ أنسيلم، فلربما جاء أبيــلار إلــى لاون بوصفه عميلاً أيضاً لستيفن دو جارلاند، وذلك حتى يقوى نفوذه الملكى بعد مقتل الأســـقف جــودرى ووفاة الأستاذ هيو.(٢)

لابد أن أنسيلم كانت تساوره الشكوك بشأن أبيلار حتى قبل أن ينطق أبيلار بكلمـــة، وربمــا شعر بالتهديد من جانب ستيفن دو جارلاند وأتباعه. إن الهيبة التى كان يكنها أنسيلم لمستشــار الملــك ستيفن تتضح من خلال رواية أبيلار والتى تصف كيف ألقى أنسيلم بنفسه تحت أقدام ســتيفن ليتشــفع لأبناء أخيه الذين تعرضوا للسجن بتهمة قتل الأسقف جودرى أثناء أحداث الشغب فى لاون قـــائلاً "إن ذلك الرجل النبيل البارز قد تأثر تأثراً شديداً بتواضع أنسيلم لدرجة أنه نزل عن مجلسه وقـــرر ليس فقط الإفــراج عن أبناء أخيه، بل وأيضاً منحهم رتبة فارس".(٣)

يصف أبيلار بعد ذلك فى كتابه" تاريخ المصائب"، كيف أنه أضعف من أهمية صفوف أنسـيلم الدراسية بشكواه وغيابه عنها، بل إن التهور قد وصل به إلى أنه بدأ فى إعطاء دروس فـــى مدرسـة أنسيلم. ومثلما حدث مع وليام دو شامبو فى باريس قبل ذلك بعشر سنوات، فقد أثارت تلــك الأفعــال حقد أنسيلم وتم طرد أبيلار،و بتحريض من ستيفن دو جارلاند، ربما كانت خطة أبيلار تهدف لتدمــير سلطة ذلك الرجل العجوز، والاستيلاء على مدرسة لاون لنفسه. ومثلما حدث فى مواقف سابقة، فقـــد استهان أبيلار بخصمه، بيد أنه في تلك المرة لم تكن التبعات خطيرة بالنسبة لأبيلار، إذ أنـــه ســرعان ما تم تعيينه أستاذاً فى نوتردام بباريس، ومع الأخذ فى الاعتبار المعارضة التى واجهته هناك، إلا أنـــه غالباً ما مارس ستيفن دو جارلاند سلطته لأجل تعيين أبيلار مكافأة له على عمله فى لاون رغم عـــدم استطاعته تدمير سلطة أنسيلم تماماً.(٤)

---

(١) Abelard, Historia, P. 9.

(٢) Guibert de Nogent, Op. Cit., P. 395.

(٣) Abelard, PL., P. 379.

(٤) Paré, G., Op. Cit., P. 279.

لقد كان أبيلار ينظر إلى عودته إلى باريس على أنها نصراً قائلاً: "وهكذا بعد بضعة أيام، عدت إلى باريس، إلى المدرسة التى كانت مقدرة لى لزمن طويل، والتى عَرضت على عندما طُردت للمرة الأولى فى عام ١١٠٩، وظللت هناك فى سلام لبضع سنوات".[١] وفى عام ١١١٦م قوى مركزه بعد أن رَقّى نصيره جيلبرت المستشار ورئيس الأساقفة وتولى منصب أسقفية باريس. وفى عمر السابعة والثلاثين، وصل أبيلار أخيراً إلى قمة طموحه. فقد أصبح حينئذ يمكنه السير جيئةً وذهاباً على جسور باريس فى الوقت الذى يحلو له، وذلك لأنه، كان الصديق الحميم للأسقف ورجل مستشار الملك، وذلك هو الوقت الذى ذكرته إيلويز بأنه كان عندما يمشى كان الناس يتكالبون على النظر إليه، وأصبح يحتل المرتبة الأولى وسط مفكرى فرنسا فى ذلك الوقت، وهو أيضاً الوقت الذى يذكره فولك أوف دويل Fulk of Deuil عندما كانت حشود الطلاب تأتيه من كل أرجاء فرنسا، بل وحتى من أطراف أوروبا البعيدة.[٢]

على الرغم من أن أبيلار قد حقق نفس مستوى النجاح الذى حققه وليام دو شامبو فى اجتذاب الطلاب إلى باريس، إلا أنه لم ينجح فى تدعيم منصبه هناك مثلما فعل وليام. فلو كان أبيلار قد تولى منصب مستشار أو رئيس أساقفة باريس خلفاً لجلبيرت عام ١١١٦م، لكان مركزه بمثل قوة مركز وليام أو أنسيلم دو لاون، ولربما أصبح قادراً أيضاً على اجتياز الضجة التى سببتها غوايته لإيلويز فى العام التالى.[٣]

لعله لم يكن لديه وقت كاف بحلول عام ١١١٦م لبناء الدعم الشخصى وسط جماعة أكليروس كتدرائية نوتردام، هذا بخلاف اكتسابه أتباع وسط طّلابه والعامة في الشوارع. وقد يرجع أحد الأسباب وراء قبوله القيام بتعليم إيلويز والسكن في منزل الشماس فولبير إلى رغبته فى الفوز بالحظوة لدى فولبير وكبار أعضاء جماعة الإكليروس فى الكتدرائية بباريس. فإذا كانت تلك هى الظروف التى كانت تحيط بأبيلار، فإن قيامه بإغواء إيلويز يّعد الشيء الأكثر حماقة الذى فعله.[٤]

كان الأساتذة الناجحون يتمتعون بملكة الإدارة، كما أنهم كانوا يفهمون أنهم أيضاً موظفين مثلما كانوا مّفكرين، ومن أمثلة هؤلاء الموجودين بعهد أبيلار القديس أنسيلم من كانتربورى (رئيس دير ورئيس أساقفة)، وإيفو أوف شارتر Ivo of Chartres (رئيس دير للرهبان وأسقف)، ووليام د

(١) Abelard, Historia, P. 9.

– من المحتمل أن الفترة التى يقصدها أبيلار تمتد ما بين عامى ١١١٤، ١١١٧م.

(٢) Fulk of Deuil, PL., P. 102; Benson, Op. Cit., P. 116.

(٣) Jean de Meun, Op. Cit., P. 47.

(٤) Gilson, E., Op. Cit., P. 53.

شامبو (رئيس دير للرهبان وأسقف)، وأنسيلم دو لاون (عميد ومستشار ورئيس شمامسة)، كما أنه لم يكن هناك بعد هيئات جامعية تُعطى تراخيص للأساتذة أو تتحكم فى الطلاب.(١)

لقد جاء السيد ريتشارد سوذرن Richard Southern بأفضل وصف لتلك الفترة القصيرة التى توازى النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادي، وذلك عندما زادت الفرص المتاحة أمام العمل الفردى والمنافسة الخالية من الرحمة، حيث يقول: "لقد كانت المنافسة قوية جداً لدرجة أن الأساتذة الذين لم يتمتعوا بحضور الذهن وإعمال العقل، كان يتم إخراجهم من الساحة على يد منافسيهم. وكان أقسى الطرق لتحقيق ذلك الهدف، هو اتهام الأستاذ بالهرطقة، وهو ما حدث مع روسلان عام ١٠٩٢م، ومع أبيلار نفسه عامي ١١٢١، ١١٤٠م، ومع جلبرت دو لابوريه Gilbert de La Porrée عام ١١٤٨م".(٢)

جمع أوتو الفريزى بين حالتى أبيلار وجلبرت دو لابوريه، وقد ذكر أن أبيلار كان يفتقر إلى الرأى السديد. فعلى الرغم من أنه كان يتمتع بذكاء شديد فى مجال الدراسة والآداب، فإنه كان في مجال المعاملات "غبياً جداً" ويبدو أن معظم البريتانيين كانوا كذلك. فهاهما الأخوان برنار وتيرى Thierry من شارتر اللذان صارا أساتذة فى شارتر، يتبعان نفس الأسلوب الأبيلاردى فى معاملة أساتذتهم ورجال الدين.(٣)

كانت سمعة تيرى Thierry من شارتر كأستاذ مثيرة للإعجاب والجدل مثل أبيلار. كما أنه أيضاً قد اشتكى من الإشاعات والحقد، حيث تردد أنه ساحر ومهرطق وأنه يفسد أخلاق الطلاب. ويذكر أبيلار حالة ذلك الزميل في محاكمته هو في سواسون عام ١١٢١م قائلاً: "فحينما جاءت اللحظة الحاسمة لإعلان الحكم، أخطأ ممثل البابا خطأ لاهوتياً فسخر منه تيرى. وعندما نطق بالصيغة الصحيحة من قانون أثناسيوس، حذره أسقفه أنه سيصبح عرضة للمحاكمة بتهمة الطعن فى السلطة البابوية، ومع ذلك -كما يقول أبيلار-، فقد صمم تيرى على موقفه وطالب بإعادة المحاكمة، وعلى الفور وقف رئيس المحكمة (رئيس أساقفة ريمز Reims) وأعلن أنه لا ينبغى الاستماع إلى أى منحرف آخر".(٤) وبذلك حكم على تيرى بالصمت، وأدين أبيلار دون أن يسمح له بالدفاع عن نفسه،

(١) Dronke, P., A History of Twelfth Centry western Philosphy, New York, 1988, P. 362.

- وعن كيفية إعطاء تراخيص للأساتذة واعتماد إجازات التدريس قبل مرحلة النشأة الجامعية بباريس، راجع للباحث رسالة الماجستير، ص ٢٥ وما بعدها.

(٢) Southern, R., "The Schools" in Renaissance and Renewal, ed. Benson, R. L., P. 115.

- وعن جلبرت دو لابوريه وحياته وأعماله انظر، يوسف كرم، المرجع السابق، ص ٩٤ - ٩٥.

(٣) Otto of Freising, Op. Cit., P. 224.

(٤) Abélard, Historia, P. 15.

فقد كان الأساتذة المنحرفين أمثال تيرى وأبيلار يشكلون تهديداً على النظامين الهرمي والمؤسسي اللذين كانت البابوية تصارع من أجل إبقائهما على حالهما، وذلك لأنهم كانوا يدعون معرفة الحقيقة من خلال عقولهم فقط، كما أنهم كانوا يفوقون الآخرين الذين لم يحظوا بتعليم سكولاستى بخلاف سان برنار.[1]

****

كتابات أساتذة أبيلار

كان كلام أبيلار عن أساتذته فى كتاب "تاريخ المصائب" فيه تحامل عليهم وتضليل عن الحقيقة، فهو لا يذكر شيئاً عن روسلان على الرغم من أنه أمر أكيد أنه تلقى العلم على يد يه والواقع أن التفسير المحتمل لذلك التجاهل هو أن روسلان قد أهان أبيلار فى خطاب أرسله إليه يتهكم فيه على حادثة إخصائه.[2] ولا توجد طريقة نعرف من خلالها بالتحديد حجم المساهمة التي قام بها روسلان فى تكوين فكر أبيلار، لأن العمل الوحيد الذى بقى لنا هو ذلك الخطاب الذى بعثه لأبيلار. لكن الآراء التى نسبها إليه كل من أبيلار والقديس أنسيلم من كانتربورى فى خضم الجدال المثار حوله، توحي بأنه قام بإحياء الجدل اللاهوتى الخاص بالمعنى المنطقى للثالوث، وكان ذلك الجدل الذى بدأ مع القديس أوغسطين وبؤثيوس، هو الذى أكمله أبيلار فى كتابه اللاهوت Theologia.[3]

هناك أيضاً نص يحمل عنوان "عن الكليات" ينسب إلى "الأستاذ "Master R" ونظراً لاشتماله على أفكار متشابهة مع أفكار أبيلار، فإنه من المرجح أن يكون أحد كتابات روسلان، وفى تلك الحالة يتبين أن أبيلار يدين له بالكثير من فهمه للكليات.[4]

لم يكن روسلان راهباً شأنه فى ذلك شأن كل من وليام دو شامبو وأنسيلم دو لاون ، وإنما كان أستاذاً للفنون الأدبية وكان لديه من الجرأة ما جعله يطبق قواعد النحو الكلاسيكى والمنطق على العقيدة المسيحية، وحان ذلك فى رأى الرهبان المحافظين عملاً خطيراً حتى وإن لم يثبت عليه الهرطقة. وفى عام ١٠٩٢م كتب القديس أنسيلم من كانتربورى تفنيداً لعمل روسلان، وفى عام ١٠٩٨م قدم نسخة منقحة لذلك التفنيد إلى البابا أوربان الثانى Urban II (١٠٨٨ – ١٠٩٩م) يدعوه فيها لوضعه تحت الرقابة.[5]

---

(١) Poole, R. L., Op. Cit., P. 130; Jolivet et de Libera, Op. Cit., P. 27.

(٢) Roscelin, Op. Cit., P. 64.

– لمزيد من التفاصيل عن حياة روسلان وأعماله، راجع يوسف كرم، المرجع السابق، ص ٧٤ – ٧٥.

(٣) Kluge, E., "Roscelin" in Journal of the History of philosophy, (14) (1976), P. 405.

(٤) Mews, C. J., Traditio, P. 187.

(٥) Marenbon, J., Early Medieval Philosophy, Harfard, 1983, P. 135.

كان القديس أنسيلم يّصر على أنه "ينبغى تنبيه كل شخص يحاول طرح أسئلة بشأن الصفحة المقدسة بضرورة توخى الحذر الشديد، فعلماء الديالكتيك فى زماننا أو بالأحرى هؤلاء المهرطقين فى علم الديالكتيك الذين يظنون أن الكليات هى مجرد كلمات، ينبغى أن يتم استبعادهم من أية مناظرة تناقش قضايا روحانية".(١)

على هذا الأساس كان القديس أنسيلم يرى أن روسلان وأتباعه كانوا مهرطقين فى تفسيرهم للفنون الأدبية مثل الديالكتيك والمنطق، كما كانوا مهرطقين فى الدين أيضاً، وربما كان الشاب أبيلار يّعد واحداً من هؤلاء المهرطقين فى الديالكتيك، إذ أنه فى عام ١٠٩٨م كان لا يزال فى مدرسة روسلان أو على وشك أن يغادرها متوجها لباريس.(٢)

لعل الطريقة التى اتبعها أبيلار بعدم ذكره شيئاً عن أستاذه روسلان فى روايته عن تعليمه تجعلنا نشك فى مصداقيته فيما يقوله عن كل من وليام دو شامبو وأنسيلم دو لاون، فمثل حالة روسلان لا يبقى من أعمالهم التى كتبوها بأيديهم أو صرحوا بنشرها إلا أقل القليل، هذا إن وجدت، فالروايات التي تّنسب لهم موجودة لدينا إما فى صورة مقتطفات أو في صورة نصوص كاملة من مصادر مشكوك فيها. ومن تلك الناحية، فإن أساتذة أبيلار يتعارضون مع أبيلار نفسه؛ إذ أن أعماله اللاهوتية لا تزال باقية فى كتب كاملة على الرغم من صدور الأوامر البابوية بتدميرها فى أعقاب محاكمة سنس ١١٤٠م.(٣)

أما عن حالة روسلان فإن الاتهامات بالهرطقة الموجهة إليه كانت أقوى من الاتهامات الموجهة لأبيلار فى تدمير كتاباته، على الرغم من صعوبة إدراك الأسباب التى أدت لذلك، كما أن الهرطقة لم تكن تفسيراً لعدم ترك كل من وليام دو شامبو وأنسيلم دو لاون سوى القليل جداً من كتاباتهم، إذ أنهم كانوا يّعدون من نماذج الدين القويم فى عصرهم.(٤)

على النقيض من كل وليام دو شامبو وأنسيلم دو لاون، فقد ضمن أحد أبناء جيلهم وهو القديس أنسيلم من كانتربورى، أن أعماله نّشرت وحّفظت. كانت شهرة القديس أنسيلم كأستاذ فى عصره لا تضاهى شهرة أى من أنسيلم دو لاون أو وليام دو شامبو، ويتضح ذلك من خلال عدد من القصائد الرثائية لكل منهما، فكان القديس أنسيلم يعيش فى عزلة نوعاً ما لأنه كان راهباً، أولاً فى نورماندى ثم فى انجلترا، كما أنه لم يكن يسعى لاجتذاب الطلاب من أنحاء مملكة المسيح (أوروبا).(٥)

(١) St. Anselmi, in p.L 178, P. 729.

(٢) D. H. G. E., P. 89.

(٣) Marenbon, J., Medieval philosophy, P. 136.

(٤) Kluge, E., Op. Cit., P. 406.

(٥) Cottiaux, J., Op. Cit., P. 533; Jolivet, J., Arts du langage, P. 68.

يرجع تفسير حفظ أعماله وتواجدها إلى أنه كان راهباً، فبصفته رئيس دير، كان يتحكــم فــى المرافق المخصصة للكتابة وكان يحظى باحترام إخوانه الرهبان الذين كانوا يّجيـــدون التعبـير عــن أفكارهم بشكل مكتوب ودائم على ورق الكتابة، فكان الرهبان "كّتاب الـــرب"، هــم الذيــن يحولـــون الألفاظ المجردة والعابرة المستخدمة فى الحديث اليومى إلى حروف الكتابة الرصينة كما جــاء علــى لسان العديد من الرهبان، وكان أساتذة الآداب العلمانيين مثل روسلان وأنسيلم دو لاون، يتبعون نـــهجاً خاصاً فى التعليم، فهم ينحدرون عن الأساتذة الرومان الذين درسوا اللغة اللاتينية مــن خـــلال النحـــو والبلاغة والمنطق.[١] وفى رواية حنا السالزبورى التى يتم استشهاده بها كثيراً عن الطريقة التى كـــان يتبعها أبيلار فى تدريس الكّتاب الكلاسيكيين، كان يذكــر كثيراً الطلاب وهم يستمعون ويتحدثون، أمـــا الكتابة فلم تّذكر إلا مرة واحدة، وكان الأساتذة يعيشـــون على حد الكفاف أكثر من الرهبان حتـــى وإن كان لديهم مرتب من وقف كنســى، فكثيــر منهــم كانوا يفتقرون للمكان والوقت الكـــافى للاســتقرار فى حياة عزلة وتأليف أعمال رئيسيـــة مثــل أعمال القديس أنسيلم من كانتربورى.[٢]

لعــل أبيــلار قــد نجــح فى حفظ كتاباته أكثــر من مّدرسيه لسبب رئيسي وهو أنه صـــار راهبـــاً فـــى الجـــزء التالـــى من حياته المهنية نتيجة لخصائه عام ١١١٨م، ومنذ ذلك الحين– شـــأنه في ذلك شأن القديس أنسيلم – يّحتمل أنه أتيحت له فرصة الدخول لغّـــرف الكتابـــة وأصبـــح مّدركـــاً لضرورة إنتاج نّسخ لأعماله. إلا أن هذا التفسير لا يعدو عن كونه مجرد حدس، لأنه لا يوجــد عمــل من أعمال أبيلار يحمل تاريخـــاً بشكل صريح، ولعله قد أتم كتابـــه الأساســـى عـــن المنطـــق وهـــو "ديالكتيكا" Dialectica في صومعـــة دير سان دينيس، حيث قام بتعليم الفنون الحرة واللاهوت فـــى عامى ١١١٨، ١١١٩م. وفى كتاب ديالكتيكا يشير أبيلار إلى بعض الأعمال التى كتبها واصفاً إياهـــا بالأعمال التي "كتبناهـــا"، وخصوصاً عمـــل يصفـــه بأنـــه مقدمة لعلم الديالكتيك للمبتدئين.[٣]

لعــل بعـــض تلــك الأعمال كتبها أبيلار قبل أن يصبح راهبـــاً، إذ أنه كان يّدرس المنطـــق لما يزيد عن الخمسة عشـــر عاماً؛ ولكنـــه لم يتمكن من نشرها (أى إنتاج نسخ عديدة يتـــم تداولـــها) حتى فترة لاحقة من حياته، ويّعد أول عمل يصف نشره هو دراسته عن الثالوث (والذى يصفـــه فيمـــا

(١) Blomme, R., Op. Cit., P. 92.

(٢) John of Salisbury, Op. Cit., book 1, Ch. 24, P. 53.

– كان على الأساتذة أن يّعدوا دروسهم لليوم التالى والذى يليه، إضافة إلى التعامل مع مشكلات الطلاب الشـــخصية والأكاديمية فى حال ظهورها. فلم يكن لدى أحكم الأساتذة فرص كثيرة للكتابة ونشر أعمالهم وحفظـــها إلـــى ان قامـــوا بتحويـــل مدارسهـــم إلـــى نواة لمؤسسات جامعية – تشمل الحرم الجامعي والمنح والإجازات والاختبارات ومساعـــدى المدرسيـــن وغـــرف النسخ والمكتبـــات. ومع نهاية القرن الثالث عشر كان قدر كبـــير مـــن ذلـــك البرنامج قد تم تنفيـــذه فـــى كبرى الجامعـــات مثل باريس وبولونا، على الرغم من أن المدارس فـــى العصـــور الوسطى ظلت أماكـــن محمومـــة بالمناقشـــات مقارنـــة بغرف الرهبان التى يسودها الهدوء. راجـــع للبـــاحث، جامعة باريس، ص ٦٦ وما بعدهـــا وانظـــر أيضـــاً،

Piobetta, J. B., Le Baccalouréat de L'enseignement Secondaire en France, Paris, 1937, P. 50.

(٣) Mews, C. J. On deting The works of peter Abelard, P. 92.

بعد باللاهوت) قائلا: "لقد قرأته علنا وأشرفت بالفعل على كتابته بواسطة عدد كبير من الناس". بيد أن حماس أبيلار لنشر أعماله أوقعه فى مشاكل خطيرة، إذ أن ذلك كان السبب الذى جعل الممثل البابوى في محاكمته بتهمة الهرطقة في سواسون عام ١١٢١م يسمح للإدعاء بالاستمرار ومباشرة عمله ضد أبيلار.(١)

كانت مكانة أبيلار كأستاذ لا تعتمد بشكل أساسى على كتاباته، وذلك لأنها كانت محدودة التداول لأن كل الكتب كانت في صورة مخطوطات. فكان أهم ما ينشر لأي أستاذ هو محاضراته الشفهية والتعليقات التى كتبت عليها. فالطلاب صغارا كانوا أم كبارا يخرجون من تلك المحاضرات يخبرون زملائهم بضرورة الذهاب وحضور محاضرات الأستاذ الكبير أنسيلم دو لاون أو الأستاذ أبيلار فى باريس.(٢) وعلى النقيض من المدارس التى تغلب عليها الثرثرة والاهتياج، كانت غرف الرهبان تركز على الصمت وأشكال الكتابة والقراءة التى تتطلب التأمل والاحترام، فعندما دخل أبيلار دير سان دينيس عام ١١١٨م، دخل بذلك مجال الكتابة فى الأديرة، والتى مكنته من حفظ أعماله. ولكن فى حالة أبيلار بخلاف حالة القديس أنسيلم من كانتربورى فإن كتابة أبيلار لأعماله سببت له معاناة كبيرة لأنه لم يتوخ الحذر بشأن ما كتبه، لذا عندما اتهم بالهرطقة في عامي ١١٢١، ١١٤٠م، تم حرق كتبه، إلا أنه من المفارقة أن كتابته لأعماله هي التي حفظتها للأجيال التالية.(٣)

تفسر الاعتبارات السابقة عدم نجاح أنسيلم دو لاون-الذي لم يتقاعد في أي دير- في نشر أى من الأعمال فى صورة كتاب يحمل اسمه، فكانت مدرسته مشغولة جدا، كما كانت حياته محمومة إلى أن حدثت كبرى أزمات حياته عام ١١١٢م مع مقتل الأسقف جودرى الذى اتهم فيه أبناء أخى أنسيلم دو لاون.(٤) ويقول حنا السالزبورى أن أنسيلم لم يتمكن أبدا من إتمام تعليقه على الإنجيل لأن "الشمامسة الذين كان يترأسهم وكثيرين غيرهم دأبوا على تأخيره وإعاقته فى عمله بإشراكه فى قضاياهم أو بتمجيده فى تملق، أو باضطهاد الفقراء الذين كانوا تحت حمايته، أو بمضايقته بالاشتراك فى أعمال جماعة الرهبان فى الدير".(٥) ولأن أنسيلم دو لاون كان مستشار الأسقفية وعميد الكتدرائية، فإن كل تلك الأمور كانت تندرج تحت قائمة مسئولياته. ومن المحتمل أنه كان يستمتع بتولى تلك المناصب، أو على الأقل أنه كان يرغب فى ضمان عدم تولى أحد غيره تلك المناصب، إذ أنه صار رئيسا للشمامسة عام ١١١٥م.(٦)

(١) Ibid, P. 95.

(٢) Ghellinck, J. de., Le mouvement théolgioque, P. 112.

(٣) Mews, On dating the works, P. 95.

(٤) Benson, Op. Cit., P. 118.

(٥) John of Salisbury, Op. Cit., book I, Ch. 24, P. 56.

(٦) Ghellinck, J., de., Op. Cit., P. 112.

كذلك فإن تفسير عدم نشر وليام دو شامبو سوى قلة قليلة جداً من أعماله يّعد مشكلة أكبر من مشكلة تفسير حالة أنسيلم دو لاون، وذلك لأن وليام كان راهباً، بدير سان فكتور منذ عام ١١٠٥م. إلا أن دير سان فكتور كان مؤسسة جديدة ولم يكن دير بندكتى مثل سان دينيس يحتوى على غرفة كتابة ومكتبة.[١] وقد ظل وليام دو شامبو منشغلاً بالعمل كأستاذ فى مدارس باريس لفترة طويلة بعد ذهابه إلى سان فيكتور؛ ولعله اضطر للقيام بذلك لأن دير سان فيكتور كان يعتمد على المال الذي يجلبه من مصاريف الطلاب. وتفسير أبيلار لذلك، هو أن وليام دو شامبو لم يكن ينوى الامتناع عن التدريس فى المدارس أبداً، وقد التحق بسان فيكتور لسبب واحد فقط، وهو أن يّضفى على نفسه طابعاً أكثر تديناً حتى يتسنى له الترقية لمنصب الأسقف.[٢]

أما بالنسبة لكثير من الأساتذة في عهد أبيلار، فإن ما تبقى من أعمالهم لا يتعدى مجرد مقتطفات لمحاضراتهم، وبعضها لا يزيد عن بضعة أسطر، في حين يمتد البعض الآخر منها لما يزيد عن صفحة واحدة او صفحتين. وقد يرجع أصل تلك الأعمال المتبقية لنا في هذه الصورة إما للملاحظات التى كان يكتبها الطلاب، أو للمّلخصات التي كان يكتبها الأساتذة عن محاضراتهم على صفحات فردية بغرض النسخ.[٣]

كان يّطلق على المّقتطفات الاسم الفني الجمل "Sentences" وهى التي كانت تحمل أسماء كل من وليام دو شامبو وأنسيلم دو لاون، حيث حّفظت معظمها في كتاب يّسمى "Liber Pancrisis"، والذي يرجع تاريخ تجميعه إلى وقت وفاتهم تقريباً (فقد توفى أنسيلم عام ١١١٧م، وتوفى وليام عام ١١٢٢م)، حملت تلك المجموعة من المقتطفات لقب "Liber Pancrisis" الفخيم لأنها كما جاء في كلمتها الافتتاحية "تحمل بين طياتها جمل ذهبية". فكلمة Pan-crisis تعنى "الذهب الخالص" أو "كل الذهب" باليونانية.[٤]

---

(١) Longère, J., L'abbay Parisianne de St. Victor, PP. 23 – 24.

(٢) Pierre Lasserre, Op. Cit., P. 87.

- كان من بين الأشياء التى وقفت حجر عثرة بطريق كتابة وليام دو شامبو لأعماله فى أيامه الأولى بدير سان فكتور، الإزعاج الذى كان يشكله أبيلار وطلابه الذين يحاولون التنافس معه فى باريس. ولم يحقق دير سان فيكتور النجاح فى الجمع بين كونه دير ومدرسة فى نفس الوقت إلا فى أيام الجيل التالى لهيو دو سان فيكتور، وكانت كتابات هيو عن الأسرار المقدسة وعن الفنون الأدبية تحظى بتأثير واحترام أكبر من أى عمل كتبه أبيلار فى حياته كلها. وقد توفى كلاهما فى أربعينات القرن الثانى عشر ١١٤٠م، وتجمع بينهما بعض المرثيات باعتبارهما حاملي مشعل العلم فى فرنسا، على الرغم من التباين الشديد فى شخصياتهما انظر،

Longère, J., Op. Cit., P. 47

(٣) Bliemetzriedre, F., Recherches de théologie ancienne et Médiéval, tome I, Paris, 1929, P. 436.

(٤) Guibert de Nogent, Op. Cit., book 3, Ch. 11, P. 34 ;Clanchy, M. T From memory, P. 127

يّعد الشيء الغريب فى "Liber Pancrisis" أنها تمزج بين الجمل الذهبية لآباء الكنيسة اللاتينية (أوغسطين وجيروم وأمبروز وجريجورى الكبير) وبين جمل الأساتذة الجدد، وكأن أرائهم على نفس المستوى من الأهمية، ويتصدر ثلاثة أساتذة جدد (معاصرين) القائمة وهم: وليام دو شامبو، وأنسيلم دو لاون، وإيفو أوف شارتر، وكانوا جميعاً من أبناء جيل أبيلار، إلا أن إيفو نال أيضاً رتبة أستاذ معاصر فى "Liber Pancrisis" لأنه كان كما يقول سوجيه أسقف سان دينيس "كان أعظم خبير فى عصره بالقانون الكنسى".(١)

كذلك يّعد اختيار الأساتذة الجدد فى "Liber Pancrisis" اختياراً انتقائياً وليس متحيزاً فقد يتم استبعاد أسماء منها على سبيل المثال القديس أنسيلم من كانتربورى، ويبدو أن معيار الاختيار كان أن يكون الأساتذة فرنسيين، وتحديداً ممن يسكنون فى جزيرة فرنسا Ile-de-France ، وأن يكونوا منخرطين فى شئون المملكة الفرنسية، مما يوحى بأن "Liber Pancrisis" قد نشأت فى فرنسا، وبذلك لم يعد القديس أنسيلم من كانتربورى في نظر الطلاب الفرنسيين "معاصراً" أو من الأساتذة الجّدد.(٢) وبوضع الأساتذة الفرنسيين الجدد على قدم المساواة مع القديس أوغسطين والقديس جريجورى الكبير، فإن "Liber Pancrisis" تعيد للأذهان مقولة أحد كتاب القرن الثانى عشر ويّدعى كرتيان دو تروى Chrétien de Troyes الذى جاء بعد أبيلار بجيل تقريباً والذى قال "أن شعلة الإغريق والرومان قد انطفأت، وأن الفروسية والعلم قد انتقلت لفرنسا، وندعو الله أن تظل فى بلادنا إلى الأبد". ولعل موقف كرتيان المّفعم بالإحساس بالنصر يفسر سبب تصميم أبيلار كما جاء على لسانه فى كتاب" تاريخ المصائب"، على أن ينتمى لفرنسا ولباريس على وجه التحديد. فلم يكن الفرد يحظى بسمعة ذهبية ويّحسب ضمن المفكرين الكبار إلا إذا كان فرنسياً.(٣)

****

دين أبيلار لأساتذته.

أوضح العديد من الأساتذة أن "Liber Pancrisis" يعد نذيراً لكتاب Sic et Non لأبيلار وكثيراً من الكتب السكولاستية التى جاءت بعد ذلك. وتّرتب جمل الأساتذة فى "Liber Pancrisis" وفقاً للموضوع وليس ترتيباً عشوائياً حسب اسم الكاتب. فعلى سبيل المثال يتم عرض آراء كل من أنسيلم دو لاون والقديس أوغسطين ووليام دو شامبو حول تعريف الروح البشرية. ويّعد كتاب" نعم ولا "لأبيلار أفضل من Liber من حيث ترتيبه للموضوعات بأسلوب مترابط منطقياً وأشمل كما جمع المصادر بأسلوب شامل أفضل من أى طريقة استّخدمت من قبل فى جمعها، إضافةً إلى احتوائه على فكرة جديدة فى دعوته للقارئ أن يقارن ويوازى بين الأقوال الواردة بالكتاب والمّستشهد بها.(٤)

---

(١) Suger, Louis VI, Ch. 14, P. 84.
(٢) Smalley, B., The Study of The Bible in the Middle Ages, Oxford, 1952, P. 48.
(٣) Southern, R. W., The Schools, P. 124.
(٤) Bliemetzrieder, F., Op. Cit., P. 454.

هناك فرق آخر بين" نعم ولا" لأبيلار و"Liber Pancrisis" وهو أن أبيلار لم يدرج الأساتذة المعاصرين الثلاثة فى كتابه، لأنه كان يكرههم جميعاً، إستعان أبيلار في ترتيبه لكتاب" نعم ولا"، بترتيب مثل الترتيب المستخدم فى "Liber Pancrisis" أو شيء مشابه له وأضاف إليه بعض التحسينات اعترافاً بأهميته، ويعد ذلك سمة مميزة لأعماله، وعلى الرغم من أنه يصف نفسه بأنه ملىء بالهموم، فإنه تناول النصوص بدقة ملحوظة وأسلوب مرتب.[١]

يبدو كذلك أن أبيلار قد تناول ما تعلمه عن وليام دو شامبو وأنسيلم دو لاون وروسلان بنفس الطريقة التى تعامل بها مع "Liber Pancrisis" ككل. وبعبارة أخرى، إنه اقتبس مبادئ أساتذته التنظيمية وموضوعات بحثهم دون الاعتراف بذلك واستكملها على نطاق أشمل وكأنها من ابتكاره وحده.والحقيقة إن إنجازات أبيلار تبدو لنا اليوم مثيرة للإعجاب وأصيلة لأن أعماله الكاملة والهامة بقيت، فى حين أن تعاليم أساتذته بخصوص الأسئلة اللاهوتية لا تبقى منها إلا مقتطفات يتم الاستشهاد بها، هذا بالإضافة إلى صعوبة الفصل بين تأثير أنسيلم دو لاون وتأثير وليام دو شامبو فى كتابات أبيلار، وذلك لأن وليام كان تلميذاً لأنسيلم دو لاون.[٢] وربما يكون أبيلار قد استوعب كثيراً من أفكار أنسيلم ليس عن طريق التتلمذ مباشرة على يديه عندما قام بزيارته الغير ناجحة إلى لاون عام ١١١٣م، ولكنه تلقى أفكار أنسيلم بشكل متقطع على مدى العشر سنوات السابقة لزيارته عندما كان تلميذاً لوليام فى باريس، وعلى الرغم من أن أبيلار لم يعترف بأنه مدين لأساتذته فكرياً، فإن هذا الدين كان كبيراً بالتأكيد فلم يكن أبيلار بالضرورة يقوم بانتحال آراء الأساتذة الآخرين بنقله الكثير من أفكارهم، بل إنه كان تلميذاً نجيباً. فكان هو وأساتذته ملزمين بتناول نفس الأسئلة، لأنها كانت نقاط الجدل الرئيسية فى ذلك العصر.[٣]

لم يكن أبيلار شخصاً يّعلم نفسه بنفسه ويحاول أن يطرق مجالاً لم يطرقه أحد من قبله، بل كان مفكراً حظى بتعليم رفيع وقضى عشرون عاماً (١٠٩٦ – ١١١٤م) فـي الالتحاق بأفضل المدارس والتخرج منها قبل أن يصبح هو نفسه أستاذاً معتمداً. كما أنه لم يكن من العادات المتبعة في أوساط الكّتاب في العصور الوسطى الاعتراف بكل مصادرهم، خصوصاً إذا كانت تلك المصادر لأفراد "معاصرين" لا يزالون على قيد الحياة.[٤]

(١) Jolivet, J., Arts du Langage, P. 137.

(٢) Blomme, R., Op. Cit., P. 211.

(٣) De Wulf, M., Op. Cit., P. 199.

(٤) Paul, J., Op. Cit., P. 197.

هكذا شارك أبيلار كل من وليام دو شامبو وأنسيلم دو لاون وقبل ذلك القديـــس أنســـيلم فـــى أسلوب كتابه الذى يعتمد بأقل ما يمكنه على الاستشهاد بالأصول إن جمل وليام دو شامبو وأنســـيلم دو لاون المذكورة في "Liber Pancrisis" أحياناً ما تستشهد بأجزاء من الإنجيل ولكنها لا تشير لآبـــاء الكنيسة الأوائل إلا فى مناسبات قليلة جداً، ولا تذكر أياً من الأساتذة المعاصرين، لقد كان تعليم أبيـــلار – مثل تعليم أساتذته – يشمل الفنون الأدبية، لذا فإن نقطة البداية لديه شـــملت الأعمـــال الكلاســـيكية اللاتينية ومنطق أرسطو، ولم تشمل الصفحة المقدسة من الإنجيل التى كانت ترتكز عليـــها دراســـات الصبية فى الأديرة.[١]

لم يعتمد المنهج الذى كان يّدرس به أبيلار على شرح الإنجيل سطراً سطراً كما كـــان يفعـــل الرهبان، ولكنه كان يسعى لطرح أسئلة واسعة المدى والإجابة عليها وفقاً لمبادئ علم المنطق، وكـــأن الإجابة عليها تتم للمرة الأولى. وكان الأساتذة "المعاصرون" – بما فيهم أبيـــلار – يـــرون أنـــه مـــن المناسب أن يقدموا تعليقات على الإنجيل، ولكنهم كانوا يستخدمونها كوســـيلة لطـــرح أســـئلة عامـــة يتناولونها بالتفصيل فيما بعد[٢]. وقد استخدم أبيلار ذلك الأسلوب فى تعليقه على رسالة القديس بولـــس إلى الرومان، ولعله قد تعلمه من أنسيلم دو لاون الذي كان يستخدم أسلوب السؤال والجواب (بشأن مـــا إذا كان علم المسيح كإله مختلف عن علمه كإنسان) فى تعليقه على الرسالة المبعوثة إلى كولوسى كمـــا جاء فى "Liber Pancrisis" إن أشهر الأسئلة المدرسية فى عهد أبيلار تم طرحها فـــى التســـعينات من القرن الحادى عشر الميلادي في كتاب للقديس أنسيلم مـــن كـــانتربورى عنوانـــه (Cur Deus Homo?) أى "لماذا [أصبح] الرب إنساناً؟". كان ذلك السؤال شائعاً فى مدرسة لاون، وإن لـــم يكـــن بنفس الصيغة البليغة التى وضعها القديس أنسيلم والتى تتكون من ثلاث كلمات فقـــط. فـــى حيـــن أن "Liber Pancrisis" تذكر مقولة أنسيلم دو لاون "من العادي أن يسأل الإنسان: لماذا رغـــب الـــرب فى أن يّخلص البشرية بتجسده، فى حين أنه كان بإمكان أى نبى أو ملاك القيام بذلك؟".[٣]

على الرغم من أن القديس أنسيلم من كانتربورى كثيراً ما عرض عمله وكأنه تأملات راهـــب فى عزلته؛ فإنه تناول الأسئلة الشائعة بأسلوب أستاذ فى الآداب. ولقد استهل كتابه (لماذا أصبح الـــرب إنساناً؟) بالتبرير بأن "ليس فقط المثقفين يسألون ذلك السؤال ويريدون تفسيراً له، بل وكثيراً من عامـــة الناس أيضاً". إن الكتاب يتخذ شكل حوار بين أنسيلم وراهب أصغر منه، فـــالبحث بأســـلوب الســـؤال والجواب سمح له باسم الراهب الصغير أن يطرح أسئلة من المدارس ويجيـــب عليـــها دون الإحالـــة لمصدر كنسى، ويعترف أنسيلم بأن ذلك الأسلوب غير تقليدى، على اعتبار أن آباء الكنيسة قد قالوا مـــا فيه الكفاية".[٤]

(١) Abélard, Ouvrges inédits, P. 47.

(٢) Kluge, E., Op. Cit., P. 407.

(٣) Lottin, O., Psychologie et morale, tome V, Paris, 1942, P. 185.

(٤) Longère, J., Op. Cit, P. 52.

تابع القديس أنسيلم حواراته: "ومع ذلك أقول للذين يسألون، سوف أتعهد بأن أبين أن الرب قـد تفضل بأن يكشف لى عنها". إنها نفس التفسيرات الشخصية والتى تبدو فى ظاهرها ســاذجة، والتـى استهان بها أبيلار بعد ذلك بثلاثين عاماً لكي يبرر كتاباته لـ "Theologia" قائلاً: "إن طلابـه قـد طلبوا تفسيرات إنسانية وفلسفية".(١)

يقول أبيلار "إن ما حدث لى هو أننى عكفت أولاً على مناقشة أساس إيماننا باستخدام نمـاذج مشابهة من العقل البشرى". كان أبيلار مثل القديس أنسيلم من كانتربورى، قد أذعن دون تردد لطلبـات سائليه، وبسبب إلحاح طلابه وليس بإصرار منه، بدأ أبيلار فى التفكير والاستنتاج؛ فكان هـذا مجـرد شيء حدث له بالمصادفة، وشأنه أيضاً شأن القديس أنسيلم، فإن أبيلار أضاف أن الرب قد مكنه مـن تأليف عمله.(٢)

لم يكن أبيلار مخترعاً للمنهج المدرسي، كما أنه لم يكن رائد الفكر العقلانى الـذى لا يعتمـد على السلف، فقبل عشرين عاماً من كتابـة (Cur Deus Homo?)، أعلـن القديـس أنسـيلم مـن كانتربورى فى سبعينات القرن الحادى عشر الميلادي، أن جمهوره يطالب بأنه "لا ينبغى الجزم بـأى شيء كان؛ ينبغى مناقشة كل شيء وبحثه بشكل خاص وعلى حدة". وبحلول عام ١١٠٠م، عندما كـان أبيلار لا يزال فى بداية حياته العملية، كان القديس أنسيلم قد حظى بموافقة البابا أوربان الثـانى علـى كتاباته وكان بذلك قد أوجد مكاناً للتفكير العقلانى المحض فى مجال اللاهوت التأملى، وقد حقق ذلـك من خلال التسليم بوجود قيود على ذلك المنهج القائم على "الإيمان الذى ينشد الفهم"، وقد بين أنه علـى استعداد لاحترام تلك القيود بإدانته لروسلان فى خطابه إلى أوربان الثانى.(٣) وبذلك لـم يكـن أبيـلار مضطراً للمحاربة لأجل المطالبة بحقه فى طرح مثل تلك الأسئلة، إذ أن السؤال والجواب كـان نـهجاً معمولاً به فى كبرى المدارس، كما أنه لم يكن مضطراً أيضاً للمطالبة بحق علماء المنطـق وأسـاتذة الآداب فى إخضاع الإيمان المسيحى للتفكير العقلانى المحض؛ إذ أن القديس أنسيلم قـد جعـل ذلـك الأمر مبدأ عاماً، كما كانت مدرسة أنسيلم دو لاون تطبق تلك التعاليم "الحديثة" لما لا يقل عن عشـرين عاماً مضت.(٤)

مع ذلك فقد واجه أبيلار مشكلة من نوع خاص لأنه كان أحد تلامذة روسلان، وعندما انتقـل أبيلار إلى مدرسة وليام دو شامبو في باريس عام ١١٠٠م، كان عليه أن يوضح أنه بإمكانه العمل فـى

---

(١) Blomme, R., Op. Cit., P. 212.

(٢) Abelard, Historia, P. IX.

(٣) Southern, R. W., St. Anselm, New York, 1990, P. 197.

(٤) Benson, Op. Cit., P. 121; Ghellinck, Op. Cit., P. 114.

إطار حدود "الإيمان الذى ينشد الفهم" وعدم تجاوزها بالأسلوب الذى اتهم القديس أنسيلم من كانتربورى روسلان بإتباعه، ومن خلال "Liber Pancrisis"، نجد أن وليام دو شامبو كان يقدم التدريس "الحديث" فى مدرسته مثلما كان أنسيلم دو لاون يفعل.[١]

يصف أبيلار فى كتابه" تاريخ المصائب" كيف أنه سرعان ما حاول أن يناقض جمل وليام وأن يجادله بالحجة، ولقد شعر أبيلار بالفخر بشكل خاص لنجاحه فى تغيير موقف وليام بشأن معنى الكليات، لقد كان أبيلار محقاً بلا ريب فى الناحية الفنية لعلم المنطق، ولكن ما لم يقدم له تفسيراً هو أنه كان يجادل من وجهة نظر اسمية مشابهة لوجهة نظر روسلان، ولعل اسم وليام كان سيرتبط بهرطقة روسلان إذا كان قد وافق أبيلار، وهو الأمر الذى كان سيؤثر على سمعة مدرسة وليام وعلى أبيلار نفسه، وما كان وليام ليشعر أنه بمأمن من الاتهام لأنه أستاذ قدير، فقد كان روسلان أستاذاً مرموقاً. وهكذا كانت اتهامات الهرطقة تشتعل فجأة وتستمر لسنوات كما حدث لأبيلار.[٢]

لقد اعترف أبيلار فيما بعد أن الكبر والشهوة هما اللذان جلبا عليه المصائب التى تعرض لها، وتضم "Liber Pancrisis" عنواناً "وليام دو شامبو عن الكبر"، فقد عرف الكبر بأنه حب المرء لتفوقه الشخصى: فمن الكبر يولد الحسد، ومن الحسد يتولد الانتقاص من القدر، ومن ذلك يأتى الافتراء، ولعل الهجمات التى كان يتعرض لها أبيلار كانت تدور بخلد وليام حيثما وضع ذلك التعريف، إن مقولة القديس أنسيلم من "الإيمان الذى ينشد الفهم" تعنى من ناحية التطبيق أن الأحكام عن حسن نية هذا الأستاذ أو ذاك كانت تطلق جزافاً.[٣] وفى كتابه" تاريخ المصائب"، اتهم أبيلار وليام دو شامبو وأنسيلم دو لاون بسوء النية: "وكان يحركهم فى ذلك الحسد الذى يكنونه لمواهبي، وفى المقابل قاموا باضطهادى لأنهم حكموا على بأني تلميذ روسلان وبالتالى فأنا شخص مثير للمتاعب".[٤]

هذا ومن تعاليم وليام دو شامبو وأنسيلم دو لاون والتي يبدو فيها أن الصواب والخطأ (أن الخطيئة بمفهوم اللاهوت) يخضعان لطبيعة الشخص. فليست طبيعة الفعل هى التى تحدد ماهيته، وإذا كان خطأ أم صواب، بل إن نية صاحب الفعل هى التى تحدد ذلك، وأوضح وليام دو شامبو أن آباء الكنيسة الأوائل قد علموا أن "الخطيئة عدم" لأنها ليست من خلق الرب، "وأن النية فقط والإرادة التى

---

(١) Southern, St. Anselm, P. 126.

(٢) Abélard, Historia, P. 9; Lottin, Op. Cit., P. 221.

- لم تكن موضوعات أبحاث أبيلار أو طريقته فى عرضها والتى تعتمد على الجدول هى التى جعلت من أبيلار شخصية مثيرة للجدل منذ أول ظهور له فى مدارس باريس عام ١١٠٠م، بل كان ارتباط اسمه بروسلان وكبريائه هما اللذان أسهما فى إثارة الجدل حوله، انظر، Gttiaux, Op. Cit., P. 535

(٣) Poole, Op. Cit., P. 120.

(٤) Abélard, Historia, P. 10.

تنبع منها هى مكمن الشر". ويّنسب لأنسيلم دو لاون مقولته: "أن الرب لا يقيم جسامة الخطيئة بحسب جسامة الأشياء التى تمت، ولكن جسامة الخطيئة تنبئ عن نية فاعلها".[1] كما أوضح أبيلار فى كتابه عن "الأخلاق " أن الرب يقيم الخطيئة ونية صاحبها لأنه مطلع على قلوب الناس". وعلى الصعيد الآخر، فإن القضاة من البشر يحاكمون الناس على ما يفعلوه فقط، لا على ما يسرونه فى أنفسهم، وقد بنى أبيلار كتابه "الأخلاق" الذي يبدو شديد الجرأة والإبداع على أفكار أساتذته، ويّعد من المستحيل إمكانية تحديد حجم دينه لهؤلاء الأساتذة بالضبط. إذ أن اعمالهم لا يبقى منها سوى مجرد مقتطفات، فى حين أن أعماله تملأ مجلدات.[2]

بالتأكيد كانت القضايا الفلسفية واللاهوتية الأساسية التى تعرض لها أبيلار هى نفس القضايا التى تعرض لها كل من وليام دو شامبو وأنسلم دو لاون، وذلك كما هو مّبين من خلال المقتطفات الموجودة فى "Liber Pancrisis"، وهى كما يلى: الثالوث، والخلق، والجسد والروح، والضمير، والخطيئة الأصلية، والقدر، وتجسد المسيح، والتخليص من الخطيئة، والعماد، والقربان المقدس، وليس ذلك بمّستغرب، لأن تلك كانت هى نفس القضايا التى تعرض لها آباء الكنيسة، وكان الطلاب يتوافدون على مدارس أنسيلم دو لاون ووليام دو شامبو فى باريس ليحضروا تفسير تلك القضايا مع توضيحٍ للنحو والمنطق اللذين برعا فيهما الأساتذة المعاصرين.[3]

كان أبيلار خلفاً لهؤلاء الأساتذة، على الرغم من أنهم رفضوا الاعتراف بشرعية خلافته لهم، وعلى الرغم من أنه لم يقر بدينه لهم إلا من خلال روايته التى تنطوى على قدر من التحامل فى كتابه "تاريخ المصائب"، وبنفس الدرجة من الأهمية، فقد كان خلفاً لروسلان على الرغم من انه حذف اسم روسلان من روايته تماماً.[4]

كان أبيلار فى أول محاكمة له باتهامه بالهرطقة عام ١١٢١م فى سواسون Soissons (وهو بنفس المكان الذى تعرض فيه روسلان للمحاكمة عام ١٠٩٢م)، هو كبش الفداء "للإيمان الذى ينشد الفهم"، فى حين كان الأشخاص الذين يوجهون له الاتهام على حد قوله "يطمحون فى أن يتولوا وحدهم منصبى كل من أنسيلم دو لاون ووليام دو شامبو، وأن يخلفوهم باعتبارهم ورثتهم".[5]

---

(١) Le Goff, J., Les intellectuels, P. 46.

(٢) Abélard, Ethics, P. 42.

(٣) Lottin, O., Op. Cit., P. 223; De Wulf, Op. Cit, PP. 204 – 205.

(٤) Paré, Op. Cit., P. 278.

(٥) Abélard, Historia, P. 14; Ferruolo, S., Op. Cit., P. 77.

- طريقة التدريس:

لعل الطريقة التى كان التدريس يتم بها يصعب جمع المعلومات عنها أكثر من المواد التى كانت تَدرس، وذلك لأن الأساتذة فى ذلك العصر أخذوا الطريقة المستخدمة فى التدريس أمراً مسلماً به، كما أن المصادر لا تذكر سوى القصص والنوادر بخصوص طريقة التدريس. فهل كان الأستاذ عادةً ما يحاضر إلى جمهور مطيع وصامت، أم كان يثير تساؤلات الجمهور ويحثه على المشاركة والمناقشة؟ وهل كان الأستاذ فى القرن الثانى عشر الميلادي يسير على نهج الأساتذة الكلاسيكيين ويتكلم بطريقة خطابية مثل شيشرون، ام يفكر وهو واقف على قدميه مثل سقراط؟ أما المنهج السقراطى فإنه يَحفز الطلبة الأذكياء فى حين أنه يُربك الطلبة الضعفاء ولا يستكمل المقرر الدراسى.بينما الأسلوب الشيشرونى يفحص الموضوع بطريقة أنيقة وشاملة، ولكنه لا يقبل الاختلاف فى الرأى ولا يتطلب انتباه الجمهور. فالطريقة السقراطية لا تسير على اتجاه واحد وتتسم بالإثارة والإلهام، فى حين أن الطريقة الشيشرونية تعتمد على الاحتراف والمهارة المكتسبة بالمَمارسة. "وخلال العصور الوسطى استخدم أغلب المدرسين كلتا الطريقين: "المحاضرة الشيشرونية" لدراسة موضوع، و"الندوة السقراطية" للمناقشة".(١)

أما الاختلاف بين "المحاضرة" و"الندوة"، فإنه يطابق ما قاله أبيلار عن مدرسة لاون ذات يوم فى كتابه "تاريخ المصائب" "كنا نحن الطلاب نمزح بشأن بعض المقابلات بين الجمل المختلفة". فكلمة "Collatio" اللاتينية تعنى حرفياً "جمع" وبالتالى فهى تعنى "مؤتمر"، وبالتالى فإن الجمع بين الجمل "هو مناقشة نصوص محددة لعرض الاختلافات بينها، أى ما يقابل الندوة".(٢)

كان كتاب أبيلار "حوار بين فيلسوف ويهودى ومسيحى" يوصف بأنه "مقابلات"، لأنه يجمع بين أشخاص يتحدثون بالنيابة عن الديانات المختلفة. ويقوم أبيلار بالتمييز بين "المقابلات" فى مدرسة لاون، وبين "المحاضرات" الرسمية للأستاذ أنسيلم دو لاون، والذي كان يكرهه أبيلار ويتخلف عن حضور محاضراته عمداً، ولأن أبيلار كان عالماً بالمنطق، فقد كان أستاذاً سقراطياً من حيث الاستعداد أيضاً. فكان أبيلار كما قال بطرس الموقر فى رسالته لإيلويز "بمثابة سقراط الذي أنجبته فرنسا".(٣) قال أبيلار للطلاب فى لاون "ليست من عاداتى أن أحرز تقدماً من خلال الممارسة، ولكن من خلال الذكاء (العبقرية) ingenium". وكان ذلك حين تحدوه لكي يقدم محاضرة بشأن النبى

---

(١) Chartulerium Universitatis Parisiensis, Tomus I, No. 1678; Brehier, E., Histoire de la philosophy, tome III, Moyen âge et Renaissance, Paris, 1994, P. 209.

(٢) Abélard, Historia, P. 6; Pernoud, R., La Femme au temps des cathédrales, Paris, 1980, P. 133.

(٣) Abelard, Oeuvres Choisies, P. 67.

حزقيال – أحد أصعب الكتب فى الإنجيل – وقد نصحوه بأن يأخذ ما يكفيه من الوقت، فى حين أنه صمم أن يأتوه فى اليوم التالى مباشرة.(١)

لم يكن أبيلار مقتنعاً بأن الممارسة تحسن من مستوى الفرد، وكان فى رأيه أن ما يعيب أنسيلم دو لاون هو أن ذلك الرجل العجوز كان قد اكتسب شهرته الكبيرة بفضل الممارسة الطويلة وليس من خلال الذكاء والعبقرية، كما أنه يصف طرق التعليم التى اتبعها أنسيلم بأنها مناقضة للطرق السقراطية: حيث أن أى شخص يحدوه الارتباط بشأن قضية معينة، كان يخرج تراوده الشكوك اكثر من ذى قبل؛ فهو يكون معجزة فى أعين جمهور معين، فى الوقت الذى لم يكن له شأن فى نظر المتشككين،(٢) كان أنسيلم دو لاون له أسلوب رائع من حيث الألفاظ، فى حين كان معناها تافهاً وخالياً من العقل، وعلى حد تعبير أبيلار فإنه "عندما كان يشعل ناراً"، كان يملأ منزله بالدخان بدلاً من أن ينيره".(٣) وتؤكد "Liber Pancrisis" أن أنسيلم كان صاحب أسلوب رائع من حيث اختياره للألفاظ، فعلى سبيل المثال، فهو يشرح Cur Deus Homo? في شكل "حوار درامي بين الإنسان و الرب على النحو التالي: أخرجني من تحت سلطة الشيطان، فيجيب الرب: أنت أخضعت نفسك له رغم أمرى لك، فأخرج نفسك إن استطعت، فيقول الإنسان للشيطان: إما أن تنهى سيطرتك على أو تنفذ ما وعدتني به ولم تحققه، فقد وعدتنى أنك ستكون لى كالإله. فيجيب الشيطان: لست ملزماً بأن أحقق وعودى لك لأنه ما كان عليك أن تجعلنى أعدك بشيء".(٤)

كان أبيلار بعد ما يرى ويسمع ذلك يطرح سؤالاً يصفه سان برنار بالسخرية، وذلك عندما سأل أبيلار عن Cur Deus Homo?، إذ أنه كيف يمكن أن تكون المخالفة الأولى لأوامر الرب في الجنة (تذوق تفاحة واحدة) خطيئة أكبر من صلب ابنه على الصليب؟ كيف يمكن أن يكون قتل إنسان برىء – بل والأسوأ من ذلك أنه إله – تكفير عن تلك الرمزية؟ ولعل تلك الأسئلة كانت من بين الأسئلة التى حاول من خلالها أبيلار النيل من أنسيلم وإبعاده عن منصبه فى لاون عام ١١١٣م.بيد أنه ربما "كان أنسيلم قد سبقت له مواجهة مثل تلك الأسئلة، حيث رد بطريقة سقراطية موضحاً أن ادم قد ارتكب ما لا يقل عن ستة جرائم بذلك الفعل الواحد".(٥)

---

(١) Abelard, Le dialogue, P. 17.

(٢) Brehier, E., Op. Cit., P. 209.

(٣) Abelard, Historia, P. 8.

(٤) Southern, R. W., St. Anselm, P. 134.

(٥) Abelard, Le Dialogue, P. 23.

هل كانت المناقشات الحقيقية تتم بين الأساتذة والطلاب داخل الفصل وبنفس تلك الدرجة مـــن الوضوح كما جاء فى ذلك الحوار السابق؟ ذلك السؤال يصعب معرفة إجابته، فمن المؤكـد أنــه منــذ عهد القديس أنسيلم من كانتربورى، كان يقترض بالأساتذة بما فيهم مدرسو الصفحــــة المقدسـة مـن الإنجيل، أن يجيبوا على الأسئلة مع تقديم الإثبات عليها. (١) ولابد أن أبيلار عام ١١١٣م، كان يطـرح على أنسيلم دو لاون،أسئلة أصعب من أى شخص آخر، وذلك لأنه كــان تلميـذاً لوليـام دو شـامبو والقديس أنسيلم من كانتربورى. بالإضافة إلى ذلك، وكما سبق القول، فربما كــان أنسـيلم يخشـى أن يكون أبيلار هو عميل سياسى لمستشار الملك ستيفن دو جارلاند فى لاون. كذلك ربما كان الهدف مــن أسئلة أبيلار، هي جعل أنسيلم يفقد اعتباره واحترامه كخطوة أولى لتدمـــيره وليـس لإثـارة الجـدل اللاهوتى.(٢)

يصف أبيلار كيف أنه كان يّربك طّلاب أنســيلم دو لاون ويدعـى أن علـم أنسـيلم أذهلـه ومّطالبته لأنسيلم بضرورة الحاجة إلى تعليم اللاهوت لفهم تعليقات وشروح آباء الكنيســة، حيـث أن كتابات وشروح أستاذ مثله تكفى للمّتعلمين أمثال أبيلار، ويبدو أنه بذلك كان يردد حّجة مطروحة فـي ذلك الوقت بشأن القضية القديمة التى تبحث عما إذا كان الكتاب المقدس يحتاج لمّفسرين أم لا؟(٣)

يذكر هيو دو سان فيكتور "العابثين" ومن بينهم أبيلار، الذين قالوا أن الاستماع للأساتذة ليـس أمراً ضرورياً لأن الكلام الإلهى واضح ومّفسر، إلا أن أبيلار كان يطرح فكرة مهمة، لأن كتابه" نعـم ولا "مبنى على الفكرة القائلة بأن الطلاب (قرائه الحساسين) سـتثيرهم التناقضـات الظاهريـة التـى يواجهونها، ويستخدم أبيلار كلمة التناقضات لبذل مجهود أكبر لطرح الأسئلة واكتشاف الحقيقة.(٤)

إن الإيمان بإمكانية حل التناقضات الموجودة فى المصادر يرجع إلى عهد القديس أوغسـطين. وقد رد أنسيلم دو لاون على أبيلار بأنه هو نفسه استخدم تلك المصطلحات، كتب أبيلار لأحد رؤسـاء الأديرة فى ليج "Liège" قائلاً: "إن الجمل التي وضعها كل الآباء الكاثوليك تعتبر متنوعـة وليسـت متناقضة". ويقول أبيلار فى موضع آخر: "إن ذوى الخبرة سّرعان ما يوضحون أن الاتفاق يأتى مــن التنافر (الاختلاف)". ويستخدم أبيلار فكرة (التنوع – التناقض) فى جملته الافتتاحية لمقدمة كتاب" نعـم ولا"، ومن هنا تبدو فكرة أخرى من ضمن الأفكار التى أخذها أبيلار عــن أسـاتذته دون أن يعـترف بذلك.(٥) بيد أن الاستنتاجات التى استخلصها من فكرة (التنوع – التناقض) كانت بعيـدة الأثـر، ففـي

(١) Durkhaim, E., L'evolution Pédagogique en France, tome 1, Paris, 1938, P. 82.
(٢) Benson, Op. Cit., P. 119.
(٣) Abelard, Historia, P. 10.
(٤) Hugh de St. Victor, PL, P. 127.
- يقصد هيو "بالعابثين"، أولئك الذين لا يأخذون الأمور مأخذ الجد ويستهينون بها ولا يهتمون إلا بصغارها. راجـع أيضاً الدراسة الهامة عن شخصية هيو وتعاليمه فى؛
Baron, R., Science et Sagesse chez Hugh de St. Victor, Paris, 1955, P. 94
(٥) Abélard, Ouvrages inédites, P. 42.

مقدمة" نعم ولا" يقترح أن التناقضات فى المصادر يجب أن تحل ليس على يـــدى ذوى الخـــبرة كمـــا اقترح أنسيلم دو لاون، وإنما على أيدى "قرائه الحساسين" ويوصى فى المقدمة بأن يبدأ أقـــل الطـــلاب خبرة فى دراسة المسيحية وأكثرهم جهلا بطرح تساؤلاتهم، فينبغى عليهم أن يقوموا بذلـــك دون تلقـــى أى علم من أستاذ، لأن أبيلار كان على ثقة بأن سؤالهم هو بداية الطريق نحو الحكمة.(١)

كان ذلك بالتأكيد هو جوهر الطريقة السقراطية، ولكن إلى ماذا تـــؤدى تلـــك الطريقـــة عنـــد التطبيق؟ إلى الحقيقة أم إلى الفوضى وازدراء كل المصادر كما كان يخشى مضطهدى أبيلار؟ ويعـــد كتاب" نعم ولا" مجموعة ضخمة من "المقابلات بين الجمل"، فهو بمثابة كتاب خاص للنـــدوات، ولـــهذا السبب كان يرجع إليه بطرس اللمباردى Peter Lombard تلميذ أبيلار وأساتذة أخرين ممن جـــاءوا بعد أبيلار للحصول على ضالتهم من المادة العلمية فى ذلك الكتاب.(٢) ولعل أبيلار قد قام بجمع ذلـــك الكتاب عندما كان فى سان دينيس عام ١١٢٢م، على الرغم من أنه بدأ يكون فكرته عنه عندمـــا كـــان فى لاون عام ١١١٣م، إذ أن مدرسة أنسيلم تخصصت فى "الجمل" واتبعت الأساليب الســـقراطية فـــي التعليم، ويعد كلا من Sicet Non، Liber Pancrisis من بين الكتـــب القيمـــة التـــى تتوافـــر فـــى المدارس، وذلك لأن الطلبة لم يتح لهم الاطلاع على الكتب الكاملة التى كتبها آباء الكنيسة إلا إذا كـــانوا قد أتوا من مكتبات الأديرة الكبيرة مثل كلونى Cluny وسان دينيس St. Denis وحتى في الأمـــاكن التي وفرت المجلدات الكاملة، كان يصعب العثور عليها لأن الفهارس وقوائم محتويات الكتب لم تكـــن موحدة فى جميع المخطوطات.(٣) وكان أبيلار واحدا من الأساتذة الأوائل الذين طبقوا نظامـــا عدديـــا على الأسئلة التى يعرضها، كما فى العناوين المتتالية التى يندرج تحتها مائة وثمانية وخمسين ســـؤالا في" نعم ولا"، وذلك الترقيم كان يتطابق فى المخطوطات ولا يختلف من مخطوطة لأخرى، وقد تمـــيز توما الإكوينى فى استخدام ذلك النظام كوسيلة تعليمية بعد ذلك بقرن من الزمان، وذلك فـــى الأجـــزاء والأسئلة والمقالات المرقمة في كتابه الشهير، خلاصة اللاهوت "Summa Theologia".(٤)

****

تـدويـــن الملاحظـــات والقواميـــس:

لعل أصعب ما يمكن تحديده ومعرفته عن التعليم الذى لا يتم فى الفصول فى عهد أبيلار هـــو نوعية الملاحظات التى كان الطلاب يدونونها وطريقة ذلك التدوين. فتدوين الملاحظات بشكل ســـريع يعد أمرا عسيرا لصعوبة استعمال الريش القلمى وورق الكتابة، ولم يكن من الســـهل اســـتخدام أقـــلام وألواح الشمع. فالمدارس لم تكن مزودة بوسائل الكتابة مثلما كانت غرف الكتابة في الأديـــرة مـــزودة بمعدات خاصة للكتابة.(٥)

---

(١) Marenbon, J., Op. Cit., P. 93.

(٢) Durkheim, E., Op. Cit., P. 84.

(٣) Verger, A., Histoire des bibliothèque Française, tome I, Les bibliothèque médiéval du V'siècle à 1530, Paris, 1989, P. 284.

(٤) Glemisson, J., Le Livre au moyen âge, Paris, 1988, PP. 109 – 110.

(٥) Jolivet, J., Aspects de La Pensé, P. 89.

كما سبق القول، فإنه حتى الأساتذة البارزين أمثال أنسيلم دو لاون لم ينجحوا فى نشر أي من أعمالهم وذلك لعدة أسباب منها: ضيق الوقت وعدم توافر المعدات الكافية وعدم وجود حافز لنشر تلك الأعمال، فشهرة الأستاذ فى ذلك العصر كانت تتوقف علي ما يقوله الطلاب عن محاضراته. أما الكتب التى تسجل محاضراته فإنها تضر بمدى رواج عمله كأستاذ، فهى بذلك تمنع عنه الربح. فالأستاذ الذى يقدم على نشر كتب تضم محاضراته، كان يجعل وجوده زائداً عن الحاجة، أو الأسوأ من ذلك، وهو أن يتهم بالهرطقة كما حدث مع أبيلار فى كتابه Theologia.(١)

لا شك أن الكتابة كانت تتم بشكل من الأشكال، ففي روايته عن حياته في لاون، يصف أبيلار "القواميس التى تكتب" وفى ذلك السياق يميز بين أول محاضرة له عن النبى حزقيال و"قاموس الكلمة الصعبة" "glosandum" الذى حثه الطلاب على القيام به بعد ذلك كما جاء فى كتابه. "إن المعنى الحرفي المقصود بقاموس الكلمات الصعبة هو تفسير الكلمات الصعبة ومعانيها".(٢) ويقول حنا السالزبورى أن "محاضرات أبيلار كانت واضحة بشكل ملحوظ، وكانت تحتوى على معلومات أساسية لدرجة أن المحاضرات كانت صبيانية وبسيطة". هذا بالإضافة إلى أن أبيلار قد أخبر طلابه فى لاون أن تدريس اللاهوت لم يكن ضرورياً بأى حال، ومع ذلك فقد امتثل لرغبة الطلاب، فكان الطلاب الذين فاتهم حضور المحاضرة الأولى كما يقول: "يهرعون لحضور المحاضرة الثانية والثالثة، لأنهم كانوا جميعاً حريصين على كتابة الكلمات التى بدأت فى شرحها فى اليوم الأول".(٣)

أصبح "القاموس" في منتصف القرن الثانى عشر الميلادي يعنى التعليقات المختزلة التى كانت تملأ هوامش الكتب المدرسية،" لدرجة أن أساتذة القاموس كما كان يطلق عليهم، كانوا يجدون صعوبة فى فهم الاختصارات التى وضعوها هم بأنفسهم. ومن هنا نجد أن معنى القاموس امتد من تفسير الكلمات الفرادى إلى كتابة أعداد كبيرة من الملاحظات المختزلة إلى اختصارات تدل عليها". وبهذا المعنى كان أبيلار يستخدم كلمة قاموس في روايته عن مدرسة لاون. وعندما كان يؤلف كتابه "تاريخ المصائب "عام ١١٣٢م لابد وان ذلك المصطلح كان حديثاً تماماً فى اللغة الإصطلاحية السكولاستية وعندما طلب منه الطلاب تدوين "قاموس" لمحاضراته، فإنهم كانوا يطلبون منه أن يدون ملاحظات معتمدة معهم".(٤)

لم يتم تدوين تلك الملاحظات التفصيلية عن المحاضرة أثناء المحاضرة نفسها، لأن الكتابة على الورق المخصص للكتابة لم تتم إلا داخل غرف الكتابة المزودة بمقاعد وحبر و أدوات لقطع ولف ورق الكتابة، وكان الأستاذ فى المحاضرة يركز على قراءة النص المحدد للدراسة مع طلابه.(٥)

(١) Glemisson, J., Op. Cit., P. 111.
(٢) Jolivet, J., Arts du Langage, P. 137.
(٣) John of Salisbury, Op. Cit., book 3, Ch. 1, P. 103; Abelard, Historia, P. 12.
(٤) Paré, G., Op. Cit., P. 286.
(٥) – وهو ما يطلق عليه اليوم ورشة العمل فى المؤتمرات والندوات.
Glemisson, Op. Cit., P. 112.

يصف أبيلار كيف أنه استخدم تعليقاً موجوداً من قبل فى أولى محاضراته عن النبى حزقيـال كقاعدة يبنى على أساسها شرحه هو، وبذلك كانت محاضراته تعليقاً على تعليق سابق، وربما كان القاموس الذي طلبه الطلاب بجمع المقتطفات من ذلك الشارح (التعليق) مع التفسيرات الجديدة التى قدمها أبيلار فى محاضراته.(١)

أما فيما يخص انسيلم دو لاون، فقد كان أمراً سيئاً بالنسبة له أن يلقى أبيلار محاضرات فى مدرسته، أما أن يكتب أبيلار قاموساً بمحاضراته، فقد كان ذلك أمراً بالغاً فى السوء بالنسبة لأنسيلم. والسبب فى ذلك فى رأى أبيلار: "أن أى خطأ سأرتكبه فى الكتابة سوف يُنسب له،و يرى أبيلار أن ذلك الاعتراض تافه ولا ينبع إلا من حسد أنسيلم له. إلا أنه فى محاكمته فى سنس عام ١١٤٠م، أى بعد ما يقرب من خمس وعشرون عاماً، كان لأبيلار وجهة نظر مختلفة تماماً، فقد كان مُصراً على الإقرار بأخطائه هو وليس بالأخطاء التى نُسبت إليه عن طريق الخطأ".(٢)

بناء على ما سبق، قد تكون الجمل الذهبية لكل من أنسيلم دو لاون ، وويليام دو شامبو المُجمعة في Liber Pancrisis هى ملخصات لمحاضرات أساتذتهم التى قام الطلاب بتدوينها تحت إشرافهم، فكل جمل الأساتذة كان يتم النظر إليها على أنها "قواميس" لأنها كانت تشير للصفحة المقدسة من الكتاب المقدس، وكانت بمثابة نُسخ مُنقحة للتعليقات والشروح الموجودة من قبل، وبذلك تصبح المقابلات بين الجمل التى يصفها أبيلار ، بأنها بمثابة ندوات يقوم فيها الأساتذة بتتبع ما جرى فى محاضراتهم ومراجعة ما تم تدوينه منها.(٣)

- الصور الموجودة دائماً ما تصور الأستاذ أثناء عملية التدريس يظهر وهو ممسكاً بكتاب مفتوح والطلاب وهم ممسكون بكتب مماثلة أصغر حجماً يتتبعون فيها النص، إلا أن أدوات الكتابة لا تظهر فيها بالمرة. انظر،

Mews, C, J., "Orality, Literacy and Authority in the 12th Century schools", Exemplaria 2, New York, (1990), PP. 475 – 476.

(١) Smalley, B., The Gospels in The Schools, Oxford, 1985, PP. 7 – 8.

- نجد أنه من الضروري التأكيد على احتمالية ما يشتمل عليه قاموس أبيلار، وذلك لأن القاموس عن النبي حزقيال غير موجود و لم يُنشر على الإطلاق على الرغم من أنه قال عند عودته لباريس "صممت على إتمام القاموس الذي بدأته فى لاون". ويمكن طرح العديد من الفرضيات لتفسير عدم قيام أبيلار بنشر القاموس: فلم يكن أبيلار قد أصبح راهباً فى ذلك الوقت، وبالتالى لم تكن لديه خلفية كاملة عن النشر، أو أن ذلك يُعد أحد نماذج عجزه عن القيام ببعض المهام: "هنا كان رجلاً قد بدأ البناء ولم يستطع أن يُتمه". أو أن علاقته مع إيلويز قد صرفته عن كتاب حزقيال تماماً. راجع،

Abelard, Historia, PP. 8 – 11.

(٢) Abelard, Historia, PP. 9 – 14.

- كان من المعروف أن أنسيلم دو لاون يتحكم فى الكتابة التى تتم داخل مدرسته، إذ تذكر إحدى الملحوظات على كتاب له ما يلى: "هنا ينتهى قاموس الأستاذ جيلبرت دو لابوريه "Gilbert de Laporée" الذى قرأه فى حضور أستاذه أنسيلم، حتى يقوم بتنقيحه". وهذا يشير إلى أن جيلبرت كان يخضع للإشراف وهو طالب فى إحدى جلسات كتابة القاموس التي يصفها أبيلار. وفى الغالب كان أبيلار يدرس فى لاون فى ذلك الوقت. انظر،

Mews, C. J., Orality, Literacy, P. 477

(٣) Paré, G., Op. Cit., P. 287; Mews, Oralty, P. 478

أبيـــــلار فى الفصـــــل:

كان أنسيلم دو لاون في محاضراته المكتوبة والتى هى أقرب إلى النـــدوات، يقـدم مادتــه العلمية كسلسلة من الحّجج التي يربط بينها ردود على الاعتراضات المقترضة أو المتوقعة منها علـــى سبيل المثال: "ولهؤلاء نقول ... " -أي يقول لهم أبيلار-"إنني على استعداد أن أسلم بـــأن ... " إلـــى أخر تلك التعبيرات. ومثل أنسيلم دو لاون، كان أبيلار يتناقش مع محاورين من صنع خيالـــه: "ولكـــن ربما ستقول أن ... "، "إننا لو نظرنا لهذا الموضوع باهتمام أكـــثر ... "، "أخـبرنى أيـاً مـا كنـت ..."،"أجيبك أحسنت قولاً .. ".[١]

كان ذلك أسلوب أبيلار فى التحاور، كما أنه كان يتناقش مع من يقاطعـــه فـــى حديثـــه مثـــل الفرسان الذين يتجولون بحثاً عن الفروسية والبطولة، فقد كان الطلاب المولعون بالجدل يظهرون علـــى الساحة ويتحدون الأستاذ لإجراء مباراة بلاغية فى حضور طلاب الفصل، وقد حـــاول أبيـــلار القيـــام بنفس الشيء مع وليام دو شامبو وأنسيلم دو لاون.[٢]

تصف لنا حياة سان جوسوين St. Goswin كيف كان مجموعة من المفكريـــن المحـــافظين ساخطين على البدع غير المسبوقة التى ترد فى جمل أبيلار، وأنهم قد اختاروا جوسوين لكـــى يذهـــب إليه ويتحداه، وكان ذلك عام ١١١٢م عندما كان أبيلار يقيم مع طلابه فى كنيسة سانت جنيفيـــف فـــى محاولة منه لأن يحل محل وليام دو شامبو مرة أخرى بعودته إلى باريس، وكما تقول سيرة جوســـوين "كان الأستاذ أبيلار يستخدم مدرسة عامة فى إحدى جوانب سانت جنيفيف، وقد جمع حولـــه طـــلاب كثيرين".[٣]

يقول مؤلف السيرة الذاتية لجوسوين أنه وجد أبيلار يّلقى محاضراته إذ أنه كان "يغرس بدعـــه فى عقول طلابه". ويّوصف أسلوب أبيلار فى المحاضرة كما يلي: "وها هو ذا يفجر آرائـــه المدهشـــة والغير مسبوقة أمام جمهوره، وكأنه يستهزئ من العقلاء والحكماء".[٤] وبمجـــرد مـــا أن شـــهد الآراء الثورية لأبيلار، نهض جوسوين لكى يتحدث، فكان رد فعل أبيلار أن "نظر إليه نظرة شرسة وهـــدده

---

(١) Southern, R. W., St. Anselm, P. 146

(٢) Abelard, Ethics, P. 42; Ferruolo, S., Op. Cit., PP. 37 – 38

(٣) Goswin, (St.), Vita Goswini, extracts reprented by M. Bonqueted. Recueil des Historiens de la France, (14), Paris, (1860), P. 442.

(٤) Clanchy, M. T., "Abelard's Mockery of St. Anselm", Journal of Ecclesiastical History (41), (1990), PP. 11 – 12.

- يظهر أسلوب أبيلار الساخر خصوصاً فى هجومه على القديس أنسيلم وأساتذة آخرين أوردهـــم فـــى اللاهـــوت المسيحى Theologia Christian.

بعنف قائلاً حافظ على الهدوء واحرص على ألا تقاطع مسار محاضرتي"يواصل مؤلف السيرة الذاتية قائلاً "لم يأت جوسوين إلى هنا لكى يلتزم الهدوء، وأصر على الكلام بشدة". ولم يّعر أبيلار كلام جوسوين أى اهتمام، وذلك لأنه "كان يرى أنه لأمر مّهين أن يجيب أستاذ عظيم مثله على مثل ذلك الشاب التافه". كان أبيلار يحكم على جوسوين من خلال صغر سنه، ولم يلحظ الذكاء وحدة الذهن التى بداخله.[١]

بعد ذلك قام جوسوين بمقاطعة محاضرة أبيلار بإصرار، وعندئذ قال الطلاب: "إنهم يعرفون ذلك الشاب جيداً، ولا يجب على أبيلار أن يتحاشى الرد على أسئلته، إذ أنه مّجادل حاد الذهن ومّتطلع للعلم". وأضافوا أنه "لا توجد إهانة فى خوض ذلك النوع من الجدال، فى حين أنه لأمر شائن جداً أن يواصل أبيلار الرفض هكذا"،بعد أن وجد أبيلار نفسه فى وضع حرج، لم يجد أمامه بّداً من مواجهة جوسوين، لذا فقال لطلابه: "دعوه يتكلم إن كان لديه شيء جدير بالقول"،بيد أنه من المؤسف ألا يكشف مؤلف السيرة الذاتية لجوسوين عن ماهية موضوع الجدال، فمن المرجح أنه لم يفهمه، إلا أنه أورد كيفية إدارة المناظرة مثل: "بافتراض ذلك وتأكيد ما سبق، مع الحرص على ألا تعارض تأكيداته ذلك ... " واستمر جوسوين فى معارضاته حتى أغلق أبيلار أمامه جميع الذرائع واستطاع أبيلار فى النهاية أن ينصر العقل على ما سواه".[٢]

سواء استطاع جوسوين أن يّخرج أفضل ما فى الأستاذ أبيلار أم لا، فهذا أمر يستحيل معرفته، إذ لا يذكره أحد سواه، وربما تطورت ذكريات جوسوين عن جرأته كشاب فى أن يتجادل مع أبيلار وتضخمت داخل ذهنه بمرور السنين، ثم قام مؤلف السيرة الذاتية بالإسهاب فى سرد القصة، بالتأكيد إن للقصة عناصر بلاغية، إذ أن الأبطال يتم تشبيههما بداود وجالوت، وهناك مثال مشابه مع أبيلار نفسه، إذ أنه يصف كيف استطاع أن يّخرج أفضل ما فى وليام دو شامبو وأنسيلم دو لاون، وأن الرب مكنه من التغلب عليهما وتدميرهما.[٣]

كثيراً ما كان يتم الاستشهاد بأجزاء من أعمال الكّتاب الكلاسيكيين بالاستعانة بالمقتطفات الأدبية المختارة أو من الذاكرة، حيث كان الطلاب يحفظون أجزاء من تلك الأعمال فى المدرسة، لأن الكتب الكاملة لأشهر الكتاب مثل فرجيل وأوفيد، كان يصعب الحصول عليها، ومن ناحية أخرى، كان الأشخاص المولعون بالأدب الكلاسيكى فى القرن الثانى عشر الميلادي ينصبون فخاخاً لقرانهم الذين يقلون عنهم علماً، وذلك عن طريق الاستشهاد بأجزاء غير واضحة المعنى أو حتى من صنع خيالهم.

---

(١) Goswin, Op. Cit., P. 443

(٢) Goswin, Op. Cit., PP. 443 – 444; Clanchy, M. T., Op. Cit., P. 13

(٣) Mews, C., Orality, P. 448; Clanchy, M. T., Op. Cit., P. 14.

وقد برع حنا السالزبورى فى ذلك، ولأن أبيلار كان أستاذه المفضل، فربمـــا يكـــون قـــد تعلـــم ذلـــك الأسلوب منه، فقد كان أبيلار نفسه شاعر لاتينى وكان قد تلقى تعليمه فى وادى اللوار فى التســـعينات من القرن الحادى عشر الميلادي، في نفس الوقت الذى كان فيه شعراء أمثال هيلدبرت من لافـــاردين Hildbert of Lavardin وماربود من رين Marbod of Rennes، وهم أشهر الشعراء اللاتين فـــي ذلك العصر، والذين كانوا يقومون بنشر أعمالهم ويشجعون على تقليد الأعمال الكلاسيكية.(١)

مقارنة بحنا السالزبورى، يّعد أبيلار مّقتصداً في استشهاده بالأعمال الكلاسيكية، فقد كان فـــي الأساس عالماً بالمنطق وليس أديباً، إلا أن ذلك لا يعنى أنه لا يمكنه الاستفادة من سياق الاستشـــهادات التى يقتبسها، فأول استشهاد له فى "تاريخ المصائب "من أوفيد: "إن الحسد يستهدف الأعالى، والريـــاح تكتسح قمم الجبال". وفى ذلك إشارة إلى غضب "الحسد" من "العبقرية". وهناك إشارة أخرى إلى وليـــام دو شامبو فى بيت آخر ولكنه من تأليف أبيلار: "اذهب ومزق نفسك أيها الحسد الشره، فـــإن اســـمى أصبح عظيماً بالفعل".(٢)

أما مكانة الأستاذ فمهما كانت كبيرة ، فإن الطلاب الذين يتنافسون فى الحصول على مكانـــة، دائماً ما يكونون على ثقة بأنه فى النهاية ستضعف قوته ويسقط صريعـــاً، مثـــل أنســـيلم دو لاون، أو يهرب بعيداً ليّصبح أسقفاً مثل وليام دو شامبو (الذي يصفه أبيـــلار بالمنـــافق)، أو يتعـــرض للخـــزى والعار فى محاكمة بالهرطقة مثل روسلان وتلميذه أبيلار.(٣)

****

---

(١) Payen, J., Litterature Françáis, Le Moyen âge, Tome I, des Origin à 1300, Paris, 1970, P. 312.

وعن هؤلاء الشعراء انظر، Waddell, H., Op. Cit., PP. 103 - 106.

(٢) Abelard, Historia, P. 15.

(٣) Le Goff, J., Les intellectuels, P. 50.

ثانيا: عالم المنطق:

كان المنطق مركز اهتمام عالم أبيلار الفكري منذ أيامه الأولى عندما بدأ كطالب متجول وحتى نهاية حياته، أى منذ الوقت الذى يصف فيه انطلاقه من بيته فى تسعينات القرن الحادى عشر "مسلحاً بالحجج المنطقية"، حتى اعترافه الأخير فى خطابه الذى أرسله لإيلويز عند انعقاد مجلس سنس عام ١١٤٠م "بأن المنطق قد جعلني مكروهاً لدى العالم".[١] إن التفكير المنطقي الذى علمه مجموعة من القواعد لتمييز الحجج الصحيحة عن الزائفة، قد جعل من علم المنطق المفتاح إلى كل مجالات المعرفة فى رأى محبى ذلك العلم. وفى رأى القديس أوغسطين الذى استشهد به أبيلار كثيراً حيث أنه كان يمثل السلطة الفكرية التى تلقى أكبر قدر من الإجلال فى الكنيسة الغربية، كان الديالكتيك يعد "علم العلوم" لأنه يُعلمنا كيف نُعلم وكيف نتعلم". ولأن الديالكتيك يعتمد على الوضوح والصراحة ، فإنه يعارض الغموض والإبهام. بل إن أوغسطين ذهب إلى القول بأن " الديالكتيك يعرف المعرفة ، وأنه وحده لا يكتفى بمحاولة جعل الناس علماء، بل إنه الوحيد القادر على ذلك دون غيره من العلوم". [٢]

يرى المعجبون بأبيلار ، فيروا أنه قد حقق كل شيء فى علم المنطق الذى وصفه أوغطسين ، وذلك الكلام يكفى أن يكتب فى منعاه . فقد كتب أحد معجبيه شعراً لاتينيا رصيناً ، يقول : " هنا يرقد بطرس أبيلار ، الذى تكشف له وحده كل ما يمكن أن يتعلمه الإنسان".[٣] وقد عبر سان برنار عن نفس الرأى ولكن من وجهة نظر معادية لأبيلار حين قال : " إنى لا أعلم ماذا يوجد فى السماء ، أو ماذا يوجد فى الأرض التى لا يعرف هو عنها شيئاً . فهو يقحم رأسه بين السحاب ويفحص أسرار الرب العليا ، ثم يعود إلينا بألفاظ لا يصح ذكرها ويَحْرُم على الإنسان النطق بها ".[٤]

أما بالنسبة لعالم المنطق الذى يرى كل شيء معقول وصريح ، فلا توجد ألفاظ محرمة أو أسرار لا يصح ذكرها. وببراعة شديدة جمع بطرس الموقر رئيس ديركلونى – أحد منافسى برنار الذى نافسه على عقول وقلوب أبناء جيله – بين شهرة أبيلار بسعة الإطلاع وبين سمة التواضع المسيحى فى خطاب بعثه إلى إيلويز يخبرها بنبأ وفاة أبيلار عام ١١٤٢ م حيث كتب يقول : " وهكذا أنهى الأستاذ بطرس آخر أيامه ، فقد كان معروفاً بتفوقه الفريد فى العلم عبر مختلف أنحاء العالم تقريباً ،

---

(١) Abelard، Historia, P. 4
– اعتراف الإيمان لإيلويز انظر ، The Letters, PP. 270 - 271
(٢) Marenbon, The philosophy of peter Abelard, P.36
(٣) Jolivet, Aspects de la pensé Médiéval , p.98
(٤) Pierre Lasserre, Op.Cit., p.73

وكان مشهوراً فى كل مكان بأنه تلميذ الرب الذى قال : " تعلم منى لأننى حليم ووديع " . إن بطرس الموقر قد مدح أبيلار أعظم مديح عندما وصفه بأنه فيلسوف المسيح.[١]

أما بالنسبة لأبيلار وأبناء عصره فى المدارس ، فقد كان علم المنطق والديالكتيك كلمتان مترادفتان . فعلم المنطق يضم دراسة الكلمة (Logos) وبالتالى فهو يضم الفهم الكامل للغة فى أدق مستوياتها الفلسفية وأوليات النحو الذى يُدرس للأولاد فى المدارس.[٢] كانت مواد المنهج الثلاثى الذى كان يدرس فى العصر اليونانى الرومانى (trivium) كانت كلها تبحث فى اللغة وذلك من خلال دراسة تراكيبها كما فى " النحو" ومن خلال دراسة أساليب التعبير بها كما فى مادة " البلاغة" ، ودراسة معناها كما فى مادة " الديالكتيك" . ومن الناحية النظرية كانت المواد الثلاثة تحظى بنفس القدر من الاهتمام فى منهج العصر اليونانى الرومانى، إلا أن تلك المواد كانت فى عصر أبيلار ترتب ترتيباً تصاعدياً من حيث الصعوبة بدءاً بمبادئ قواعد اللغة اللاتينية (النحو) ثم تأليف النثر ونظم الشعر (البلاغة) وصولاً لأصعب مرحلة حيث يتم تحليل تراكيب اللغة نفسها (الديالكتيك).[٣]

يوصف أبيلار فى إحدى المراثي بأنه : (grammaticae fons, rhetoricae Pons,ac logica mons) . وبعبارة أخرى ، فإن أبيلار قد مر بكل مرحلة من مراحل الثلاثية (trivium) : فقد كان " ينبوعاً للنحو " ، " وجسراً للبلاغة" ، " وجبلاً من المنطق " . ورغم فجاجة ذلك التشبيه ، إلا أن تلك المرثية توضح أن البلاغة التى يقصد بها هنا تأليف النثر والشعر اللاتيني ، كانت تشكل جسراً بين مصدر المعرفة الأساسى المتمثل فى " النحو" وقمة المعرفة المتمثلة فى " جبل المنطق " والذي اعتلاه أبيلار بتفوق.[٤]

****

أبيلار وأرسطو:

لعل أبيلار لم يكن يبالغ فى تقدير شهرته الأكاديمية عندما قال فى إحدى خطاباته لإيلويز : " إن أعدائى اعترفوا بأنني متفوق فى علم المنطق بالتأكيد".[٥] ويلقبه سان برنار فى أسلوب ساخر بأنه " بديل أرسطو " . وقد رد بطرس الموقر على تلك السخرية بشكل حاسم مثلما رد على برنار من قبل بشأن سعة إطلاع أبيلار ، فقد كتب بطرس الموقر : " كان أبيلار بالتأكيد أرسطو آخر ، فقد كان فذاً لا نظير له بين علماء المنطق الذين مروا علينا ، فهو أرسطو فرنسا بل وأرسطو الغرب ".[٦]

(١) Peter The venerable , The Letters, P.306-307; Marenbon, The philosophy, p. 37
(٢) Bliemetzriedre, Op.Cit., p. 436
(٣) Jolivet, Arts du langage , p. 112
(٤) Migne, PL, p.739; jolivet, Arts du langage, p.114
(٥) Radice, Op. Cit., p. 270
(٦) peter the venerable , The letters, p. 306

يؤكد حنا السالزبورى أيضاً تلك الفكرة بقوله : " إن الفيلسوف المشائى Peripatetic من لوباليه قد حظى بذلك التفوق فى علم المنطق على كل أبناء عصره لدرجة أن الناس اعتقدوا أنه وحده فهم أرسطو ".(١) ونظراً لأن معظم محاضرات أبيلار عن المنطق والتى لا تزال موجودة تتكون من شروح لجزء محدود من أعمال أرسطو، فليس بغريب أن يكتسب أبيلار تلك الشهرة التى تصفه بأنه مثل أرسطو، وهى الشهرة التى كان يسعى إليها أبيلار منذ زمن طويل.(٢)

يذكر كذلك حنا السالزبورى كيف أنه ذهب إلى باريس عام ١١٣٦م لكى يجلس عند قدمى أبيلار على حد قوله، "وذلك حتى يتعلم مبادئ علم المنطق" فقد كان يختطف كل كلمة تخرج من فم أبيلار، وقد أصيب بإحباط شديد حينما غادر أبيلار باريس".(٣)

كان أبيلار في تلك الفترة قد عمل على إلقاء المحاضرات فى مبادىء علم المنطق لمدة تتراوح ما بين الثلاثين والأربعين عاماً ، وقد استطاع خلال الفترة أن يعيد مرة أخرى لكتابات أرسطو الحياة وذلك عاماً بعد عام ، حيث أنه لم يحاضر سوى عن جزء محدود من كتابات أرسطو. وقد اضطر ذلك أبيلار كما هى العادة فى إلقاء المحاضرات ، أن يفكر بصوت عال مع طلابه مثل أسلوبه فى بقية أبحاثه ومحاضراته ، وذلك حتى يمكنه إعادة تكوين الأجزاء المفقودة فى استنتاجات أرسطو لنفسه.(٤) استطاع أبيلار أن يحقق طموحه من خلال إحياء إنجازات أرسطو ، وذلك بأن يصبح محاكياً للفلاسفة "المشائين" الذى عاصروا أثينا القديمة.(٥)

---

(١) John of Salisbury, book 1, ch.5, p. 20

(٢) Marenbon, Op, Cit., p. 38

(٣) John of salibury, book 2, ch. 10, p. 70

(٤) Abelard, Dialectica, p.88 in ouvres choisies

(٥) Ibid, P.89

- كان علماء العصر الوسيط يفهمون كلمة المشائين على أنها تعنى أن علماء المنطق اليونانيين كانوا يتجولون من مكان لآخر ، فى حين أنها تعنى إما أنهم كانوا يتمشون أثناء استنباطهم لأفكارهم ، أو أن مدرسة أرسطو التى أخذوا منها ذلك الاسم كانت تقع على بستان أو ممشى له سقف . وأياً كان المعنى الحقيقى لكلمة مشائى ، فإن الكلمة اليونانية (peripatetic) كان لها وقع موسيقى جذب أبيلار وطلابه الذين لم يعرفوا اللغة اليونانية ولكنهم كانوا منجذبين إليها. وقد شاعت موضة اتخاذ الأسماء اليونانية فى عهد أبيلار على يد القديس أنسيلم مع نشر كتابة " Monologion " " المونولوج " عام ١٠٧٧م وقد سمى بذلك الاسم لأنه عبارة عن مونولوج فى صورة مناظرة فلسفية مع نفسه. كذلك فقد أطلق حنا السالزبورى على كتابه عن الحياة والمنطق اسم " Metalogicon" أى المنطق الأعلى ، وهو فى ذلك الكتاب يطلق على أبيلار " Peripateticus palatinus " والتى من المحتمل أن تكون أحد الألقاب الشائعة بين طلابه. وتشير كلمة palatinus إلى لوباليه Le pallet مسقط رأس أبيلار . وكذلك يمكن أن نفهم Peripateicus palatinus بعدة طرق : كان أبيلار يطلق على أرسطو لقب " أمير المشائين " ، لذا كان أبيلار هو (بلاطين أرسطو أو رئيس قصره). وبالتدرج فى احتمالات معانى لقب pripateticus palatinus من الأعمق للأبسط ، فإنه يعنى " الفيلسوف المتجول من لوباليه " ، مما يوحى بأن أبيلار كان مغامراً محلياً يجرب حظه فى باريس مثل الفلاسفة القدامى. انظر ، Marenbon, op,cit, p.40 وانظر كذلك ، Burnett., c.s, Glosses and commentaries on Aristotelian logical Texts, New York, 1992, p.78

لم يكن أبيلار مهتماً بالعثور على أعمال أرسطو المفقودة مثلما كان مهتماً بكتابة أعماله هو ولعل هذا ما كان يعنيه لقب أرسطو فرنسا بالنسبة له. وقد ذكر حنا السالزبورى أنه من السهل على أحد أبناء عصره أن يكتب مؤلفاً عن المنطق وأن يكون ذلك المؤلف بنفس مستوى الأعمال التى كتبها القدامى أو حتى على مستوى أفضل منها ، إلا أنه سيكون من الصعب بل من المستحيل أن يتم قبول مثل ذلك المؤلف مرجعاً يتم تدريسه فى المدارس ، وذلك لأن أرسطو كان المؤلف الذى تدرس أعماله على مدى ما يقرب من الألف وخمسمائة عام الماضية ، وذلك من خلال تعليقات وشروح بورفيرى وكذلك بوثيوس.(١)

لذا فإن أحدث الكتب التى نصح أبيلار طلابه بدراستها كانت التعليقات التى كتبها بوثيوس والتى يرجع كتابتها لستمائة عام . ونلاحظ أنه بالنسبة للأعمال التى كتبها أبيلار فى علم المنطق والتى تعبر عن قمة طموحه – كتاب Dialectica – لم يحاول أبيلار فيها سوى تلخيص الكتب التقليدية والمعروفة فى ذلك الوقت. بل إنه فى مقدمة الكتاب ذكر أبيلار أنه لا يوجد سوى ثلاثة مؤلفين يتم تدريس أعمالهم هم أرسطو وبورفيرى وبوثيوس.(٢)

أوضح أبيلار تلك الكتب السبعة التى ينبغى على كل فرد يدرس ذلك الفن وينال تعليماً لاتينياً أن يتسلح بها وهى : " كتابان فقط من أعمال أرسطو لا يزالان يستخدمان لدى دارسى اللاتينية وهما كتاب المقولات categories وكتاب التفسير De Interpretatione. إضافة لكتاب بورفيرى porphery بعنوان (Predicables) وهو مقدمة تمهيدية لكتاب المقولات . وعادة ما نتعامل مع أربع كتب من أعمال بوثيوس وهى : التقسيم De Divisione ، والموضوع De Topicis ومقولة القياس المنطقى وفرضية القياس المنطقى" . ويقول أبيلار: "وسوف يشتمل كتابى Dialectica على ملخص كامل لكل تلك الكتب ، وسوف يرى الكتاب النور حتى يتسنى للقراء الإطلاع عليه ، وذلك إذا ما منحنا الخالق قدراً قليلاً من الوقت، وإذا ما باعد الحسد يديه عن أعمالنا".(٣)

---

(١) John of Salisbury, book3, ch.4, p. 116

(٢) Abelard, Dialectica, p.146

وانظر كذلك ، Patrologia latina, p. 174

(٣) Abelard, Dialectica, p.147

*لعل هذه الفقرة تدلنا على بعض جوانب من حياة أبيلار العملية والشخصية. فالإشارة هنا إلى الحسد مشابهة لشعوره بالاضطهاد الذى عبر عنه فى كتابه تاريخ المصائب ، والذى يشير من خلاله لجميع مراحل حياته العاصفة على حد تعبيره. وعندما يذكر أبيلار أن الثلاثة مؤلفين الذين تدرس أعمالهم تتمثل تلك الأعمال فى سبعة كتب ، فإننا لا نعرف بالضبط إذا ما كان يقصد مجلدات حقيقية أم لا ، فلا يتسم أى كتاب من تلك الكتب بالضخامة فى الحجم ، كما أن الكتاب التمهيدى لبورفيرى كان لا يتعد حجمه حجم الكتيب الصغير. ويرغب أبيلار فى أن يتسلح كل فرد بتلك المؤلفات ، وذلك لأن المنطق هو فن الحرب المدرسية ، لذلك فلابد لطلابه أن يحذوا حذوه بأن يبدءوا حياتهم العملية وهم مسلحون بالحجج الدياليكتيكية. انظر ، Marenbon, op, cit., p.41

يؤكد أبيلار أيضاً أنه كان يطلع على بعض أعمال أرسطو المجهولة فى الغرب مما يوضح أنه كان على دراية بأبحاث أخرى كتبها أرسطو باللغة اليونانية عن المنطق. وكان ما يطلق عليه اسم " المنطق الجديد" قد بدأ فى الانتشار فى فرنسا فى حياة أبيلار ، ولكن من الصعب تحديد مدى استفادته من ذلك العلم. يقول أبيلار: " إننى أذكر رؤية كتاب محدد صغير يحمل اسم " Sophistici Elenchi " ويحمل اسم أرسطو، وقد قرأته بعناية تامة "[١] وكان ذلك الكتاب الصغير عبارة من بحث أجراه أرسطو عن المغالطات وقد ترجمه بوثيوس إلى اللاتينية ولم يُعثر عليه لقرون عديدة فى ترجمة اللاتينية. ولعل أبيلار قد شهد تلك النسخة ولم يشهد الترجمة الجديدة من اليونانية والتى قام بها جيمس من فينسيا James of Venice والتى من المحتمل أنها لم تنتشر إلا فى الأربعينيات من القرن الثانى عشر الميلادى.[٢]

أحياناً ما يكتب المؤرخون وكأن امتداد العلم فى نهضة القرن الثانى عشر لم يكن سوى عملية استيراد لبعض الكتب الجديدة التى قد يجلبها جنود الحملات الصليبية فى حقائبهم أو يفرغها تجار البحر المتوسط من سفنهم ، إلا أن تلك الكتب الجديدة ما كانت لتصبح بذات فائدة إلا إذا كان الأساتذة فى الغرب يعرفون بالفعل سبب حاجتهم إليها.[٣]

إن ذكر أبيلار لكتاب Sophistici Elenchi قد جعل بعض الأساتذة المعاصرين يشككون فى فهمه لذلك الكتاب فى لغته الأصلية ، فى حين أن البعض الآخر ذكر أن أبيلار لم يرد أن يدمج الكتاب فى منهج محاضراته . ومما يجدر ذكره أن الحصول على الكتب فى ذلك الوقت كان من الأمور بالغة الصعوبة. فتأكيد أبيلار على أنه قد قرأ الكتاب لا يوحى بأنه فى الغالب يملك نسخة منه ، فلم يكن ليضمه إلى منهجه الدراسى إلا إذا كان هناك العديد من النسخ المتاحة للطلاب . كما أنه فى

---

(١) Abelard, dialectica , p. 148; Abelard, patrologia Latina, p.175

(٢) Abelard, ouvrages inédits , p. 551

لم يكن أبيلار يعرف اللغة اليونانية باستثناء القليل منها والذى يكفيه للتعامل مع المصطلحات الفنية فى علم المنطق . كذلك لم يكن طلابه ليتمكنوا من تعلمها وبالتالى كان أرسطو لا يزال كتاباً مغلقاً بالنسبة لهم. لم تكن إنجازات السكولاستيين في العصر الوسيط متمثلة في الترجمة من الأعمال اليونانية القديمة ، وإنما تمثلت في خلق لغة خاصة بهم في علم المنطق من اللغة اللاتينية. وقد ظلت تلك اللغة هى لغة العلوم حتى القرن الثامن عشر ، كما أنها شكلت المصطلحات الفنية فى كل لغات أوروبا الغربية. وعلى الرغم من أن المدرسيين فى القرن الثانى عشر لم يكونوا سوى مجرد مفسرين ومترجمين لمصادر معترف بها ، فإنهم ابتكروا تراكيب وصورا جديدة للفهم، تماماً مثلما فعل المعماريون القوطيون فى كنائس لاون وباريس وتشارتر، وهى نفس الأماكن التى كانت مهداً للفلسفة المدرسية.

انظر ، Jolivet, J., Aspects de la pensé medieval, p.95

(٣) Philipp wolff, op. cit., p.207

الغالب أن أبيلار كان ملتزماً بالكتب السبعة التي ذكرها في كتابه Dialectica وذلك على حد تعبير تلميذه حنا السالزبوري.[1]

ـ الهدف من دراسة المنطق:

لقد صرح أبيلار في كتابه Dialectica بأن هدفه من تأليف ذلك الكتاب هو "عمل ملخص" Summa " كامل للكتب السبعة المعترف بها في ذلك الوقت".[2] وقد تفوق المدرسيون في عمل الملخصات وكان ذلك لسببين أولهما أن الطلاب كانوا يحتاجون لكتب للدراسة والسبب الآخر أن إنتاج الملخص كان يشكل مظهراً لائقاً للفيلسوف ، وذلك لأن المنطق يصنف المعرفة إلى فئات ، لذلك فقد كان يُعد وسيلة ممتازة لبناء ملخص لأي فرع من فروع المعرفة – بما فيها علم المنطق نفسه.[3]

كان أقل ما يُعلمه علم المنطق للطلاب ، هو كيفية عمل عناوين رئيسية وفرعية ووضع قائمة بالأهداف. وعلى الرغم من أن علماء المنطق في العصر الوسيط كانوا يدعون أنهم فلاسفة حقيقيين يميزون الحقيقة عن الزيف مثل الإغريق القدماء ، فإنهم لم يصوروا أنفسهم أنهم حكماء تنبع حكمتهم من تفكيرهم العميق ، بل على العكس من ذلك ، فقد قام أرسطو وبورفيري وبوئثيوس بوضع أسس الفكر ولا يمكن تجاوز جهودهم ، بل كان علماء المنطق يبدءون بها وينتجون تعليقاً حول تعليق آخر مثلما فعل دارسو اللاهوت بأعمال آباء الكنيسة.[4]

كانت دراسة المنطق مثل دراسة القانون ، كان الأستاذ يقدم للطلاب ملخصاً محدثاً يشرح لهم فيه آخر ما وصل إليه الفكر من القواعد الراسخة التي وضعها الكتاب المعترف بهم ، وكان أبيلار يجيد ذلك العمل إجادة بالغة.[5] وإذا ألقينا نظرة سريعة على فهرس محتويات كتابه Dialectica ، لرأينا كيف التزم في ترتيبه بالكتب السبعة بداية ببورفيري ومروراً بكتاب المقولات Categories لأرسطو ونهاية بأعمال بوئثيوس حول القياس والفوارق (المأخوذة عن أرسطو وشيشرون).[6]

---

(١) Abélard, Dialectica , p.148

يقول حنا السالزبوري أن أبيلار لم يرغب في وضع صعوبات أمام طلابه ، فالكتب التقليدية كانت متاحة للطلاب من خلال المكتبات الكنسية وهي الكتب التي كانت معروفة بالاسم سواء للأساتذة أو الطلاب وعلى رأسها بورفيري وبوئثيوس. انظر ،

John of Salisbury, book3 , ch.4, p.117

(٢) Abélard, Dialectica, p. xvii

(٣) Jolivet, Aspects , p. 103

(٤) Jolivet, Arts du langage, p.87

(٥) Pierre lasserre, op.cit., p.58

(٦) Jolivet, Arts ., p.88

تعد الطريقة السابقة فى عرض المعلومات مفهومة وتقليدية لأنها تتدرج من البسيط إلى المعقد ، يقول أبيلار: "لكى تجيد الكتابة فى علم المنطق، فمن الضرورى أن تبحث أولاً فى طبيعة التعبيرات البسيطة ، ثم التعبيرات المركبة ، وأخيراً تحقق غاية المنطق فى الجدال".[1] ، وقد تعامل بورفيرى مع التعبيرات البسيطة ، فى حين يبحث كتاب المقولات لأرسطو فى التعبيرات المعقدة ، أما كتب بوثيوس فتناقش أنواعاً مختلفةً من الحجج .

لم يكن أبيلار مبدعاً فى بنية كتبه التى كتبها عن المنطق أو فى الغرض من كتابتها مثلما كان مبدعاً فى أعماله التى كتبها عن اللاهوت. يتضح هذا من خلال عناوين تلك الكتب، فكلمة Dialectica هى ببساطة الاسم التقليدى لفن المنطق ، فى حين أن كتابى نعم ولا ، واللاهوت تعد عناوين مثيرة وغير عادية.[2]

كتب وليام أوف سان تيرى William of st. Thierry إلى سان برنار قائلاً : " يجب أن أعترف أن العنوان Theologia Abaelardi قد آثار فضولى لقراءة الكتاب .... ويتراءى على مسامعى أن هناك أعمالاً أخرى له تحمل عناوين مثل Sic et Non و Scito te Ipsum وغيرها . وأخشى أن مثل هذه التعاليم قد تكون منافية للعقل مثل العناوين التى تحملها".[3]

كان وليام يرى أن تلك العناوين مضللة لأنها حولت العقيدة المسيحية إلى منطق وثنى. وقد ذكر هو وبرنار أنهما لا يرغبان فى " المنطق الإلهى" الذى يقدمه أبيلار ، ولا فى كتابه المريب الذى يحمل عنوان " نعم ولا ".[4] بالإضافة إلى أن كتابى Theologia و Sic et Non يحملان عناوين غير تقليدية ، فإنهما يتبعان أسلوب ترتيب من ابتداع أبيلار ، فى حين أن كتاباته عن المنطق تأخذ شكل التعليقات التقليدية معتمداً فيها على الترجمة اللاتينية لبورفيرى وأرسطو ويعد كتاب Dialectica هو العمل الوحيد الذى كتبه أبيلار عن المنطق ولم يكتبه على شكل تعليق ، بل ادعى أنه ليس أكثر من بحث شامل للمؤلفين الذين تدرس أعمالهم، وقد يحتوى التعليق على كثير من المعلومات وقد ينطوى على الإبداع لكنه لا يمكن أن يتناول المبادئ الأولى لموضوع ما ، وذلك لأنه لابد وأن قام المؤلف الذى تدرس أعماله بوضع أسس الموضوع، حتى بعد أن اتجه أبيلار للكتابة فى اللاهوت ، ظل يُدرس المنطق لطلابه ، وذلك كما ذكر بنفسه فى كتابه تاريخ المصائب.[5]

(1) Abélard, Dialectica, p.xxiv; Marenbon, The philosophy, p.38

(2) Blomme , R., op. cit., p.47

(3) Wiliam of St. Thierry, ed. Leclercq, in Revu Bénédictine 79 (1969), Paris, p.377

(4) Jolivet, Abelard entre chien et loup, p.309

(5) Jolivet, Arts du langage, p.108

لقد ألقى أبيلار محاضرات فى علم المنطق بنفس الطريقة التى اتبعها الأساتذة الآخرون فى تدريس مؤلفات الكتاب الكلاسيكيين مثل فرجيل وشيشرون. فأولاً يقوم الأستاذ بالتعليق على الكتاب ، ثم يتم تصنيف فرع الديالكتيك الذى سيندرج تحته موضوع ذلك الكتاب.(١) وفي تدريسه لكتاب بورفيري يقول أبيلار: "إن غرض بورفيري هو تقديم مقدمة لمقولات أرسطو وموضوعه هو الخمسة "Predicables" : Genus, Species, Difference, Property and Accident أما أسلوب المعالجة الذي كان يتبعه فهو أن يناقش تلك الكلمات كل علي حدة ثم يناقش الكلمات الخمسة معاً. ويضيف أبيلار أن المصدر الهام الذي يرجع إليه هو بوئيوس وهو الشخص الذي فهم مؤلفات بورفيري جيداً في معالجتة لأرسطو. ويبدأ أبيلار محاضرته مستخدماً الصيغة المعهودة : "بعد هذه الأفكار التمهيدية ، دعونا نأخذ موقفاً بشأن الكلمات ، أي أن نجري تعليقاً علي كل كلمة مذكورة في النص"(٢)

إن أولي الكلمات التي يبدأ بها بورفيري كتابه في ترجمته اللاتينيه هي Cum sit Necessarium . لذا يبدأ أبيلار بتعريف كلمة ضروري Necessarium بشكل مطول ، فيقول أبيلار لجمهوره : فسروها كما يلي ، " إنه لأمر ضروري " ، أي إنه أمر " مفيد " أن نعرف ما هو Genus [Quid Genus Sit ?] وبدلاً من أن يفسر بشكل مباشر ماهو Genus ، ينشغل أبيلار بكلمة Quid "ماذا" التي تسبقه ثم يركز علي إشارة بورفيري إلي أرسطو فيما يسميه بورفيري " بحث أرسطو ".(٣)

---

(١) Abelard, Dialectica, P. 13

- كان الطلبة في العصور الوسطي لا يتم إطلاعهم علي الموضوع أو المجال مثل النحو أو البلاغة في حد ذاته ، وإنما كانوا يطلعون علي الكتب التي جري العرف علي تدريسها في ذلك المجال أولاً. ويضرب أبيلار مثالاً لذلك الأسلوب المتبع في التدريس عندما بدأ تدريسه لعلم المنطق من كتاب بورفيري . فيبدأ أحد تعليقاته بالتفسير البسيط والمطمئن أن العنوان اليوناني لكتاب بورفيري (Isagoge) يعني "مقدمة" ثم يؤكد أبيلار أنه بعد ذلك سوف يستكمل تعليقه بالطريقة التقليدية من حيث الغرض – الموضوع – أسلوب المعالجة – الفائدة . انظر ، Poole , Illustrations of The History of Medieval Thought, PP. 121-122

(٢) Abelard , Dialectica , P. 17

راجع أيضاً ، Paré la Renaissance du XII siècle , P. 282

(٣) Abelard , Quvrages inédits , P. 552

- يشير أبيلار إلي تسمية بورفيري " بحث أرسطو " : أن الكتاب أحياناً ما يأخذ اسم مؤلفه ، مثلما نقول لوقا ونحن نقصد إنجيل لوقا. فأبيلار كان يخاطب نوعين من القراء هما المبتدئين الذين سيرحبون بتفسيره الواضح لأرسطو ، والطلاب من المستوي المتقدم ، والذين سيدركون أن أبيلار يشير إلي قضية التسمية التي شغلته كثيراً كفيلسوف . إن القضية في المنطق هي : علام يدل الإسم " أرسطو" إذا ما رحل الشخص الذي يحمل هذا الإسم عن الوجود؟ ويجيب أبيلار أنه فى هذه الحالة نعنى بالاسم " أرسطو" كتاباً قد ألفه.

يكشف تحليل كلام أبيلار بهذه الطريقة عن نقاط الضعف والقوة فى تدريس المنطق باستخدام طريقة الشرح والتعليق. فجمهور الطلاب كان لديهم شيء محدد ومعتمد يتم التركيز عليه فى نص بورفيرى. وكان أبيلار يستخدم كثيرا من المصطلحات الفنية قبل أن يفسرها ، بل وينشغل فى نفس الوقت بتفسير كل كلمة فى النص مثل "ضرورى" و " ماذا " ، بل ويتطرق أيضا لطرح قضايا أساسية مثل الوجود والعدم أثناء شرحه. وكان حنا السالزبورى يرى " أن المحاضر الذى يشرح بورفيرى ، لا ينبغى عليه أن يتعمد الصعوبة ، بل عليه أن يبسط كل شىء ، وكان ذلك أسلوب بلاطين المشائى ".(١)

****

أسلوب دراسة المنطق:

لا تحمل أى من كتابات أبيلار تاريخا صريحا وقد حاول الباحثون فى العصر الحديث وضعهم فى ترتيب زمني معتمدين على الفرضية التى تقول أنه تطور من البسيط إلى المعقد، لذا يقال أن تعليقاته الأكثر بساطة ترجع لأوائل القرن الثاني عشر الميلادى عندما كان مع وليام دو شامبو فى باريس ، وأن كتاباته الأكثر تعقيدا ترجع للعشرينات من القرن الثاني عشر أو حتى بعد ذلك.(٢) غير أن فريق آخر من الباحثين وصفوا كتابات أبيلار عن المنطق بأنها غالبا ما تطورت من المعقد إلى البسيط ، وليس العكس مستندين فى ذلك إلى كلام أبيلار نفسه فى كتابه تاريخ المصائب حيث يقول: " بدأت حياتى العملية بالدخول فى مباريات ديالكتيكية مع وليام دو شامبو ". (٣)

= وفى موضوع لاحق من التعليق على بورفيرى ، يطرح أبيلار قضية التسمية بشكل عام وبارز قائلا : " إذا لم يعد يوجد أى زهور فى العالم ، ستظل كلمة زهرة تحمل دلالة فى فهمنا حتى وإن اختفى الشيء الذى يطلق عليه الاسم من الوجود ، وإلا لن يصبح للجملة التى تقول "لا توجد زهور" أى معنى . لقد أضاف أبيلار هذا التعليق على كلام بوثيوس حول طبيعة الكائنات غير المادية مثل الرب والروح ، فهما ليس لهما أبدان ، فهل يمكن للزهرة أن توجد دون جسمها المادى ؟ إننا عندما نقول " لا توجد زهرة " ، فإننا نؤكد أننا نفهم ماهية هذه الزهرة ، أى أن أفكارنا لها وجود مادى وحقيقى خارج أذهاننا انظر عن ذلك ، Sikes, peter Abailard , pp.93-94

راجع أيضا ، سعيد عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، ج٢ ، ص ٤٣٨

(١) John of Salisbury, book 3 , ch.1, p.103

- الغالب أن أبيلار كان يبسط محاضراته عن بورفيرى بشكل كبير فى تلك الفترة أى عام ١١٣٦م وهى الفترة التى ذهب فيها حنا السالزبورى ليتعلم على يد أبيلار. ويرى البعض أن أسلوب أبيلار كان يتسم بالصعوبة فى شرحه لبورفيرى ، بيد أنه لو كان كذلك لأدرجه حنا السالزبورى ضمن الأسماء التى شجبها فى كتابه وهى : " أسماء الأكاديميين المسنين الذين يمحصون كل مقطع وكل حرف مما يقولوه ويكتبوه ، متشككين في كل شيء ويبحثون دائما ولكنهم لا يصلون أبدا إلى المعرفة " . انظر John of Salisbury, op. cit., p.66

راجع كذلك ، Sikes, op. cit., p.95

(٢) Marenbon, The philosophy of peter Abalard, p.39

(٣) Abelard, Historia, p.3 ; Jolivet, Arts du langage, pp.31-32

- يرجح الباحث الرأى الأخير القائل بأن أبيلار قد طور أسلوبه من المعقد إلى البسيط فقد أنشأ أبيلار مدارس له فى ميلون وكوربى المجاورة لباريس ، وذلك حتى يمكنه القيام " بهجمات جدلية متكررة " على حد تعبيره ضد وليام في=

هذا وقد انتهج الأستاذ ألبيريك –المنافس الشاب لأبيلار فى باريس فى الثلاثينات من القرن الثانى الميلادى – تجاهه نفس السلوك الذى انتهجه أبيلار تجاه وليام دو شامبو . فقد اتهم أبيلار بعدم فهم حجج أرسطو جيداً ، إلا أن أبيلار أصبح على درجة من الأهمية تجعله يتجاهل مثل ذلك النقد. وعلى الرغم من أن علم المنطق كان يهدف لإيضاح كل الأشياء ، فإن ممارسيه لم يتفقوا بشأنه واتسمت مجادلاتهم بسوء السمعة.(١)

لقد كانت أفضلية حنا السالزبورى أنه ترك الحياة الأكاديمية مؤثراً العمل مع أساقفة كانتربورى ، وذلك بعد أن أصيب بخيبة أمل ، فقد كان يرى أن كثيراً من علماء المنطق الكبار باستثناء أبيلار كانوا "مُدعين" ، فقد وعدوا بأشياء كثيرة ، إلا أنهم لم يفعلوا شيئاً سوى المراوغة بالكلمات والحجج.(٢)

يُعد أى عالم من علماء المنطق فى ذلك الوقت مراوغ ، وذلك لأنه تخصص فى التمييز بين المعانى وهو فى تلك العملية يخلق لغة خاصة به . ويقول حنا السالزبورى : " إننى تعلمت كيف أضع تعريفاً لكل شيء أريده فى كلمات قليلة " . ثم يستأنف بعد ذلك قائلاً : " وعلينا بعد تعلم التعريف أن ننتقل إلى التقسيم الجزئى ".(٣) هذا وبعد الدخول فى شرح لتلك الأفكار السابقة ، كان لدى حنا السالزبورى الجرأة فى أن يطلب من أساتذته على سبيل المثال أن يوضحوا كيفية تطبيق قوانينهم وشروحهم فى الواقع العملى ، إلا أنهم أجابوا بسخط أنهم مجرد فلاسفة لا يقومون سوى بالاعتراف بعلم المنطق وشرح نظرياته.(٤)

= باريس ؛ بيد أن تعليقات أبيلار الأولى على بورفيرى وبوئثيوس لا يمكن النظر إليها على أنها هجمات جدلية ، إلا أن أبيلار قد اضطر إلى تناول أعقد قضايا المنطق وليس نقاط الشرح البسيطة ، وهو ما فعله عندما أجبر وليام على تغيير موقفه عن أهمية الشخصية الفردية، ومن جانب آخر فالاعتقاد بأن تعليقات أبيلار الأولى ، والتى لم تنشر مبكراً فى بداية حياته كانت بسيطة هو اعتقاد خاطئ ، وذلك لأن أبيلار فى تلك الفترة كان لا يزال يعمل على تحسين سمعته فى مواجهة وليام دو شامبو، وقد كان أبيلار نموذجاً تقليدياً للأكاديميين الشباب الذين يحاولون التفوق على أساتذتهم لخلق شهرة لأنفسهم ، لا لأن يصبحوا أساتذة أكفاء يبسطون الأمور للطلاب. وبعد ثلاثين عاماً أى حوالى عام ١١٣٦م ، عندما انجذب حنا السالزبورى لأسلوب أبيلار ، استطاع أبيلار أن يحاضر بأسلوب واضح وبسيط ، لأنه لم يعد مضطراً أن يحاول التأثير فى الأشخاص ، فقد كان على حد قول حنا السالزبورى " المشائى الأبرز " الذى حظى بكل التميز والتقدير لدرجة جعلته ينظر له على أنه الوحيد الذى فهم أرسطو ، وقد اعترف حنا السالزبورى أن أبيلار كان فى تلك الفترة يبسط الأمور ، إلا أن ذلك لم يمنع طلابه ولا حنا نفسه من الإعجاب به .

لمزيد من التفاصيل انظر ، Jolivet, Aspects de la pensée, pp.94-109

(١) Dronke, p., A History of Twelfth century western philosophy , Cambridge , 1988, p.280

(٢) Du wulf , op. cit., p.198

(٣) John of Salisbury, book 2 , ch.7 , p.66

(٤) Ibid, p.68

استطاع علماء المنطق على مدى الألف وخمسمائة عام التى تفصل بين فلاسفة أثينا المشائين والفلاسفة المدرسيين فى باريس فى القرن الثانى عشر، خلق لغة خاصة بهم وكذلك قائمة بالكتب التى يُنصبح بدراستها ، بل وعالم خاص بهم. كذلك حتى وإن اتسم بعض أساتذة المنطق بالتعقيد والصعوبة مثل أولئك الذين وصفهم حنا السالزبورى، إلا أنهم عرفوا الطلاب على حد قوله: " بحديقة سرية حيث يمكن فيها رؤية زهرة حتى وإن اختفت الأزهار من الوجود ".(١) كذلك فإن علماء المنطق فى العصر القديم والوسيط استخدموا علم النفس فى شروحهم ، لأن تحليل اللغة كان يتطلب فحص كيفية عمل الذهن. لقد اتبع أبيلار أسلوب أسلافه الإغريق عندما وصف الطريقة التى يقوم بها الذهن ببناء مدن كاملة فى خياله ، وكيف أنه كان يحلم بأشياء تبدو كاملة وحية أكثر من أى شىء موجود على الأرض.(٢)

****

-أبيلار وروسلان :

كان أبيلار حريصاً بشكل عام أن يجعل صفات الرب خارج تفسيراته وأمثلته ، وربما تعلم ذلك فى أيامه الأولى فى تسعينات القرن الحادى عشر، وهو الوقت الذى شن فيه هجومه على روسلان. وعلى الرغم من أن أبيلار لم يذكر فى كتابه تاريخ المصائب شيئاً عن تعليمه على يد روسلان ، فإن روسلان قد ذكره فى أحد خطاباته بأنه درس عنده بوصفه أستاذه فى فترة الصبا والشباب.(٣)

من المستحيل تحديد حجم المعرفة التى يدين بها أبيلار لروسلان ، ومن المحتمل أنها قدر كبير ، لأن كثيراً من الأسئلة والقضايا التى طرحها أبيلار كانت على ما يبدو ضمن اهتمامات روسلان، وفى موضع فى كتابه Dialectica يُقر أبيلار أن روسلان كان أستاذاً له ، وذلك عندما ذكر أن روسلان كان " مجنوناً" عندما قال أنه لا يوجد شىء يتكون من أجزاء.(٤)

---

(١) John of Salisbury, book 2, ch.7, p.68

(٢) Jolivet , Arts de langage , p.118

يتساءل أبيلار فى نفس الموضع عما إذا كانت الأحلام تعكس الحقيقة – مثل المرآة التى تعكس الصورة – أو أنها ليست سوى خدع ضوئية . ثم يقول: "إن صورة المرآة تعد لا شئ ، لأن لها خاصية زائفة ظاهرية ، ولا يمكن تكوين فهم أو جوهر حقيقى لشىء من خلال خاصية زائفة" .

انظر ، Abelard, Dialectica, p.491

وعن مثل هذه المواضيع راجع أيضاً ، Dronke, A History of Twelfth century western philosophy, p.282

(٣) Roscelin, letter to Abelard, p.63

(٤) Abelard, Dialectica, p.554

كان يتم التعامل مع المنطق واللاهوت على أنهما مواد منفصلة تماماً عند أبناء جيل أبيلار ، وذلك لأنهما يعتمدان على كاتبين مختلفين : فأرسطو كان النص الرئيسى لمادة المنطق ، فى حين كان القديس أوغسطين هو النص الرئيسى فى اللاهوت . (الباحث)

لقـد أبقى أبيلار مناقشة الرب خارج عمله في المنطق باستثناء فقرة واحدة في تعليقـــه علـى بورفيرى حيث تطرح قضية فكر الرب بشكل حتمى ، لأن قضية معرفة المستقبل تخضـع للمناقشـة. يقول أبيلار أن معرفة الرب بالمستقبل يمكن فهمها بشكل عقلانى ، إلا أنه لا يود الخوض في ذلـك ، لأن الإنسان غالباً ما يتجرأ ويستخدم الحديث للكلام عن الخالق بنفس الطريقة التى يسـتخدمها للكـلام عن سائر المخلوقات ، حيث يتم وصف الرب مثلاً بأنه حكيم وذكى ، إلا أن أى كلام يخـص الإدراك يعد خارجاً عن الموضوع فيما يتعلق بالكلام عن الرب وطبيعته.(١)

ويصرح أبيلار أن الرب فوق كل قواعد المنطق وخارج المناقشة وفق الديالكتيك ، وليس ذلـك لأن عالم المنطق يحرم عليه أن يناقش الذات الإلهية ، ولكن لأنه لا يسعه ذلك ، إذ أن طبيعـة الـرب تفوق نطاق منطق العقل البشرى . ولأن طبيعة الرب لا تتغير ، فـإن أنـواع المحمـول لبورفـيرى ومقولات أرسطو لا تنطبق عليها. يقول أبيلار : " إن أى سؤال عن الرب يعد غير ضرورى وبـاطل تماماً ". كذلك فقد افتخر أبيلار عام ١١٢٠م بأنه يضع سيف الديالكتيك على رقاب التفكير البشرى فـى الرب. وذكر أنه لم يوجه سيف الديالكتيك الوثنى إلى الرب ، وإنما يوجهه إلى الناس الذين يتصفـون بالشر والغباء ويسيئون تصوير الرب ، وفى صدارة هؤلاء وضع أبيلار أستاذه السابق روسلان الـذى وصفه أبيلار بأنه عالم ديالكتيك زائف ومسيحى زائف أيضاً . وكان أمل أبيلار أن يثبت صحة إيمانـه بالإساءة إلى روسلان ، إلا أن تلك الخطة أثبتت فشلها الذريع عندما أدين أبيلار بالهرطقة فى مجلـس سواسون عام ١١٢١م. (٢)

****

ـالحقيقة المنطقية والحقيقة الإلهية.

يقـول أبيلار كاشفاً عن اتباعه للدين وصحة إيمانه : " نحن لا نعد بتعليم الحقيقـة ، والتـى نتفق جميعاً على أنه لا يمكننا ولا يمكن لأى بشر كان أن يعرفها ، ولكننا لا نعرف إلا احتمال الحقيقـة الذى يتفق مع الفكر البشرى ، ولا يتعارض مع الكتاب المقدس"، ثم يستأنف قائلاً : " وهذا الاحتمـال

(١) Cottiaux, la conception de la Théologie chez Abelard p.533

(٢) Abelard, Theologia Summi Boni, in Jolivet, la Théologie d'Abélard, Paris, 1997, p.25

- يـرى الباحث أن هذا الإصرار على أن الرب خارج عن المناقشة وفق قواعد المنطق تعد غريبة أن تصـدر عـن أبيلار الـذى أدين مرتين بالهرطقة لمناقشة الثالوث والذي توضحه كتاباته عن اللاهوت باعتبارها مختلفة عـن المنطق، فهو فى كل صفحة يسأل ويجيب على أسئلة بخصوص الرب.
- هذا وقد تم توجيه السؤال له ذات مرة بخصوص إقحامه الكلام عن الرب داخـل الديالكتيك فأجـاب قـائلاً : " إن هناك اختلاف كبير بين تطبيق الديالكتيك على طبيعة الرب نفسه وهو أمر مستحيل وبالتالي باطل تمامـاً ، وبيـن تطبيق الديالكتيك على الكلام الكثير الذى يقوله الناس عن الرب. فالنوع الثانى مـن الديـالكتيك يعـد محمـوداً وضروري جداً ، وذلك لأنه يساعد علماء اللاهوت على أن يوضحوا معنى الإيمـان بالرب . انظر ،

Abelard, ouvrages inédits, sic et Non, p.179

نوجهه ضد كل من يتفاخرون بأنهم يطعنوا فى الإيمان باستخدام الحجج العقلية. إن الرب يعلم ما هـــى الحقيقة ، ولكننى أحكم عما يقال أنه احتمال لها وما هو متفق مع الحجج الفلسفية التى نستخدمها".[١]

كان أبيلار يحكم على تلك الأمور – على الأقل فى رأيه الشخصى – لأنه كـــان أفضـــل علمـــاء المنطق. فأساتذة العقيدة المسيحية الذين لم يدرسوا الديالكتيك ليسوا مؤهلين لمناقشة قضايـــا فلســـفية . وكان ذلك ذروة القسم الذى يحمل عنوان " فى مدح الديالكتيك" فى كتابـــه اللاهـــوت Theologia ، والذى افتتحه باستشهادات من القديس أوغسطين بأن الديالكتيك هو علم العلوم. [٢]

لم يكن أبيلار على تلك الدرجة من التوفيق مثلما كان فى التمييز بيـــن "الاحتمـــال" ، والـــذى يمكن للبشر معرفته، وبين "الحقيقة " والتى لا يمكن للبشر إدراكها . وقد اتسم أبيلار واشتهر بإعلانـــه الذى ذكره فى كتابه "نعم ولا" أنه : " عن طريق الشك نصل للتساؤل وعن طريـــق التســـاؤل نـــدرك الحقيقة " . وسواء أكانت الحقيقة هى بالفعل الحقيقة أم مجرد احتمال لها ، فقد أثـــارت تلـــك القضيـــة العديد من التساؤلات مثل : كيف يرتبط إدراكنا بالعالم الخارجى؟ ما هـــى الأشياء التى تعـــد حقيقيـــة وما هى الأشياء التى يختلقها الخيال ؟ "فالمسيحية تقول أن الحقائق المطلقة – الرب والروح والحقيقـــة – تعد خارج نطاق الإدراك البشرى". ولهذا السبب يقول أبيلار أنه لا يهتم إلا باحتمال الحقيقة.[٣]

مع ذلـــك فإن الشبيه بالحقيقة ينبغي أن يقارب الحقيقة الفعلية لأن المنطق يقضى بأن "الحقيقـــة لا تتعارض مع الحقيقة ". ولكن إلى أى مدى يكون التشابه بين الحقيقة العقلانية البشرية وبين الحقيقـــة الإلهية ؟ وبأي طريق يؤدى المنطق إلى حقيقة الرب ؟ هل وصل أفلاطون وأرســـطو – مـــن خـــلال استعانتهما بالمنطق – لفهم الحقيقة عن الرب قبل ميلاد المسيح ؟ أم على العكـــس مـــن ذلـــك ، كـــان المنطق علم وثنى خادع ينبغي على المسيحيين تجنبه تماماً مثلما أمروا بأن يتجنبوا السحر والتنجيـــم ؟ وعلى الأقل استطاع أبيلار أن يدافع عن المنطق بأن كل تلك الأســـئلة ينبغـــي أن تصـــاغ فـــى لغـــة يستعملهـــا الناس، وأن علم الديالكتيك هو الذي يفسر ما هو الصحيح في اللغة وما هو الزائـــف.[٤]

كذلـــك اعتقـــد أبيلار فـــي كتابـــه Theologia بـــأن "كل المعرفة خير"، كما أنـــــه فـــى كتابه Dialectica قـــال: "نحـــن لا نقـــول بأن الحساب شر على الرغم من أنه قد يُساء اســـتخدامه بواسطة المنجمين ، ولا ينبغي علينا أيضاً أن نقول أن الديالكتيك هو فى جوهره شر ، فهو العلم الـــذي

(١) Abelard, Theologia summi Boni, p.232

(٢) Jolivet, la Thélogie d'Abelard, p.21

(٣) Cottiaux, la conception de la Thélogie, p.551

(٤) Abelard, Dialectica , p.459; Cottiaux, Op.Cit., p.788

يخضع له كل فرق بين الحقيقة والزيف ، لأن له السلطة على كل مجالات الفلسفة وتنظيم كل عقيدة". [1] وقد أوضح أبيلار أنه كان يقصد العقيدة المسيحية وليس مجرد أي تعليم ، إذ أنه وصف كيف استخدم كل من القديس أمبروز والقديس أوغسطين الديالكتيك.[2]

لم يكن أبيلار يقصد بكلمة "تنظيم" أن علم الديالكتيك ينبغي أن يشكل العقيدة المسيحية ، بل أنه ينبغي أن يميز بين الحقيقي والزائف في اللغة التي وضعها الإنسان والتي تم التعبير من خلالها عن العقيدة . إن عالم المنطق يفحص صحة أو زيف التركيب في اللغة ، وإذا ساور الشخص الشك، فينبغي عليه أن يزيل الشك باستخدام حججه، لذا ليس لعلماء المنطق أن يكونوا محققين ، ولكن لهم أن يساعدوا باستخدام الدليل.[3]

يقول أبيلار: "أن عالم الديالكتيك ليس بعالم أكاديمي متشكك، وإنما هو مُعالج لغة يستطيع بخبرته العلمية أن يزيل آلام الشك" . ثم يستأنف أبيلار كلامه قائلاً : "إن التقصي الذي يقوم به علماء الديالكتيك يعد مناسباً لتلك الأسئلة المحددة التي يقوم عليها هذا الفن بشكل رئيسي ، وذلك حيث يمكنهم إثبات صحة أو زيف شئ باستخدام الحجج، لذا فمن الواضح أن الديالكتيك يتصل كلية بتلك الجمل التي تحتوى على الصحة أو الزيف، وهذه هي الفرضيات التي سبق وذكرناها ، والتي يناقش بؤثيوس تعريفها من حيث الصحة أو الزيف فى كتابه De Topicis ".[4]

مما سبق نجد أن أبيلار يتوخى الحرص والاعتدال فى الإحالة إلى كتاب بؤثيوس وليس كتابه هو ، لتحديد أي الجمل التي تؤهل للمعالجة الديالكتيكية ، ومع ذلك فإن أبيلار يذكر فى كتابه "الجدل" أن عالم الديالكتيك يمكنه أن يميز بين الحقيقة والزيف في الثالوث المسيحى نفسه" فمن المعروف أن كل عالم منطق وكل شخص يُحكم عقله فى العصر الوسيط ، قد تعرض لفكرة الثالوث التي تصر على أن الواحد يساوى ثلاثة".[5]

****

(١) Abelard, Dialectica, p.469

(٢) Jolivet, Aspects de la pensé, p.62
Jolivet, la Théologie d'Abelard, p.22

(٣) Abelard, Dialecrica, p.153

(٤) Abelard, Dialectia, p.154

(٥) Paré, la Renaissance du XIIe siècle, p.284

ـ منطق الثالوث:

حاول أبيلار أن يبين كيف أن قواعد علم الديالكتيك الخاصة بتمييز أسماء الحقائق عن الأسماء المجردة يمكن أن تحل التناقض فى فكرة الثالوث الذي يُقر أن ثلاثة صور للإله تساوى صورة واحدة ، فالمعتقد الصحيح يقوم على أن الرب هو الأب والابن والروح القدس ، إلا أنهم لا يُعدون آلهة مختلفة، وإنما هؤلاء الثلاثة هم أسماء تعبر عن طبيعة المادة الإلهية. فإذا كان أمامنا ثلاثة رجال فهم لا يختلفون ، وذلك لأن نوعهم الإنساني وطبيعتهم واحدة ، إلا أنهم يظهرون فى ثلاثة صور.(١)

تلك النوعية من الحجج هي التي أعطت علماء المنطق وأبيلار بوجه خاص سمعة سيئة، ومما لا يمكن إنكاره أن التشبيه هو مجرد احتمال للحقيقة وليس الحقيقة الأكيدة ، ولذا فإنه لا يوافق كل الحقائق ، كذلك فمن الأكيد أن أي تشبيه يستخدمه الإنسان للتعبير عن الثالوث يعد ناقصاً.(٢) ولكن ما جدوى قيام علماء المنطق بوضع تشبيهات أو أمثلة لا تصلح في الواقع ؟ والإجابة هي أن واحداً مثل القديس أنسيلم قد قام بتكوين مثل تلك الأمثلة ، وذلك فى الوقت الذي كان أبيلار يبدأ فيه حياته العملية كعالم منطق حوالى عام ١١٠٠م ، وقد قدم أنسيلم أمثلة جديدة فى محاولته لتفنيد كلام روسلان أستاذ أبيلار.(٣)

لقد كان الأمر يبدو وكأن التشبيه أو المثال الكامل للتعبير عن الثالوث على وشك أن يكتشف ، وعندئذ يمكن حل أهم مشكلة فى الإيمان واللاهوت المسيحي، وسيحظى المكتشف الناجح بسمعة أحد آباء الكنيسة مثل القديس أوغسطين نفسه. ومن ناحية أخرى، إذا فشل التشبيه الذي سيقدمه المكتشف، فإنه سيتعرض للإدانة بالهرطقة ثم السجن أو القتل . فالمخاطرة كانت كبيرة وقد غامر أبيلار بوصفه أحد أهم مغامري عصره ، غامر بروحه لكي يحل الغموض الذي يكتنف مفهوم الثالوث ، أولاً فى كتابه Dialectica ثم بمزيد من التفصيل فى كتابه الآخر Theologia.(٤)

لقد وجد أبيلار أخيراً نداً له حول ذلك الموضوع وكان كفئاً له من حيث قوة التفكير العقلاني ومن حيث قسوة حججه ، وذلك في شخص سان برنار في مجلس سنس عام ١١٤٠م. وقد تساءل برنار: " لماذا يبذل كل هذا المجهود فى عناصر التشبيه؟,ولم يفرض علينا ذلك مستخدماً هذا الكم الكبير من الألفاظ ؟ ولم يتم التعبير عنه بمثل هذا الكلام المنمق إن لم يحقق الغرض الذي استخدم لأجله ؟ ".(٥)

---

(١) Abelard, Dialectica, p.470

(٢) Paré, Op.Cit., p.287

(٣) Blomme, Op.Cit., p.117

عن آراء القديس أنسيلم وكتاباته انظر ، يوسف كرم ، المرجع السابق ، من ٧٦- ٨١.

(٤) De Ghellinck, Le mouvement théologique, p.236

(٥) Verger & Jolivet, Op.Cit. p.87

هذا وقد واجه برنار أبيلار وكأنه ندا له في اللعب بالكلمات ، وذلك على الرغم من أن خبرته في علم المنطق كانت أقل بكثير من خبرة أبيلار. ومثل القديس أوغسطين الذي ذكر في كتابه "الاعترافات" كيف أنه علم نفسه مقولات أرسطو ولم يستطع أن يفهم لماذا يجد زملائه صعوبة بالغة في فهم مقولات أرسطو ، فإن برنار لم يجد هو الآخر صعوبة كبيرة في فهم المنطق ، فقد كان المنطق في رأيه علم تافه. " كان برنار يرى أن أبيلار قد ضل عن مدرسته الابتدائية وتاه في عالم الدين الخاص بالرجال ، وأن مكانه الصحيح يجب أن يكون في الحضانة يتجادل مع الأولاد ويخالط النساء ". (١)

لقد كانت لدى أبيلار الجرأة كما يدعى برنار ، " بأن يقود تلاميذه الصغار الذين يتسمون بالوقاحة وقلة الخبرة ، والذين قد تم فطامهم عن الديالكتيك منذ عهد قريب ، والذين لا يكادون يتذوقون أولى عناصر الإيمان ، يقودهم إلى أسرار الثالوث وإلى قدس الأقداس. لقد ذهب أبيلار يستطلع بتطفل مع طلابه الصغار السخفاء أرجاء غرفة الرب. لقد تعرض أبيلار للخصاء بدنياً لإغوائه إيلويز ، والآن يجب أن يتم إخصائه ذهنياً لإغوائه طلابه. فعلى الرغم من أن علم المنطق كان بمثابة لعبة طفولية ، إلا أنه قد يصبح خطيراً إذا تم وضعه في أيدي غير أمينة " كان هذا رأى برنار. (٢)

كان أبيلار يلعب بفن الديالكتيك منذ صغره ، وهو الآن يتحامق في الكتاب المقدس. واللفظ الذي يستخدمه برنار هو insaint ، والذي يعني "أنه يهذى بجنون". كان أبيلار بمثابة أستاذ مصاب بالجنون بعد أن اكتشف طريقة لتدمير العالم ، إذ يمكنه أن يعصف بالإنجيل باستخدام الديالكتيك ، وعندئذ لا يمكن إنقاذ أي شخص كان. (٣) كذلك وصف حنا السالزبوري أيضاً أبيلار بالجنون عندما ذكر رأى جلبرت دولابوريه Gilbert de la porrée بأن أبيلار قد لوثته حماقة علماء المنطق في محاولته التغلب عليها، كان من الصعب الرد على تلك التهمة لأن أبيلار كان قد ادعى بالفعل في كتابه "اللاهوت" أنه استخدم الديالكتيك للرد على الحمقى وفقاً لحماقتهم. (٤)

****

- علم المنطق والهزل:

يعد الرد على الحمقى بحماقة مشابهة هو لعبة المهرجين ، وهذا الأسلوب من المرح في اللعب بالألفاظ كان ينبع من المنطق البسيط الذي كان جزءاً عادياً من المنهج المدرسي في العصر

---

(١) Bernard, (St.), Patrologia Latina, vol.182 (1854), letter 190, p.1054

(٢) Bernard, (St.), letter 190, p.1055

(٣) Verger & Jolivet, Op. Cit., p.92

(٤) John of Salisbury, book 1, ch.5 , p.20

الوسيط ، وقد استطاع سان برنار أن يوحي بقوة شديدة أن علم المنطق صبيـــاني ، بـل إنـــه حتـــى جنوني، وذلك لأنه يتم تدريسه بأسلوب هزلي واضح.(١)

لقد كانت هناك أسباب وجيهة لذلك الهزل، فالطــلاب كانوا صغار السن وكـــان مثـل ذلــك المزاح يجـذب انتباههم ويتحداهم لتفنيد السخافات ، ويعــود ذلـك الأسلوب لأرسطو نفسه ، والـذي استخدم شخصيــة سقــراط الموقــرة كنموذج عشوائي فـــي ضــرب الأمثلة والتشبيهات، وقد كـــان الأسلوب الذي اتبعه أرسطو فى الشرح قوياً لدرجـة أن سقــراط ظل الهدف الأساسي لأمثلة علمـــاء المنطق فى كتاب Dialectica لأبيلار مثلما كان فـــي تعليقات بورفيرى وبوئثيوس ، فتلـــك النكتـة التي استخدمها أرسطو بشكل خـاص عن أحـد أبنـاء جيلـه قد تحولت فـــي عـهد أبيــلار إلــى شخصية هامة فى غرفة المحاضرات. وخلال نصوص علماء المنطق فى العصر الوسيط ، كان يتـــم تصوير أبيــلار على صورة حيوان فى السيرك وهــو يقــوم بخدعه المهنية.(٢)

"مــن الممكــن أن يصبــح سقــراط أسقفــاً". هــذا المثال يعطيه أبيلار لتوضيح ما يعنيـــه علماء المنطق " بالحقائق المتضادة". يقول أبيلار: "حينما نقول أنه من الممكن أن يصبح سقراط أســـقفاً ، على الرغم من أنه قد لا يصبح أسقفاً أبداً ، إلا أن هذا صحيح، وذلـــك حيــث أن طبيعتــه ليســت معارضة لطبيعة الأسقف. ونحن نستنتج هذا من الأفراد الآخرين من نفس النوع ، والذين نراهـــم الآن وهم يشتركون فعلياً فى كونهم أساقفة ، ونخلص إلى أنه أياً كان ما يحدث بالفعل لأحد الأفـــراد فإنـــه يمكن أن ينسحب لكل أفراد نفس النوع ، حيث أنهم جميعاً من نفس الطبيعة ، إن أية مادة مألوفة لــدى أفراد النوع تنطبق على بقية أفراده ، وإلا سيختلفون فى النوع ، فى حين أنــهم يختلفــون فقــط فـــى الحالات ".(٣)

---

(١) Pierre Lasserre, Op . Cit., p.78

(٢) D.H.G.E., Op. Cit., p.84

(٣) Abelard, Dialectica, p.319

- يصبح تفسير أبيلار مفهوماً إذا ما فهمنا أن "سقراط" لا يعنى شخصية سقراط التاريخية ، وإنما يعنى رجل بــهذا الاسم. فمن الممكن أن يصبح الرجــل أسقفاً لأن ولاية الأسقف تعد حالة من حالات الإنسان. أما فكرة أن سقراط لا يمكن أن يكون أسقفاً فلا علاقــة لهــا بالموضوع ، لأن الأحداث التاريخية هي حالات لا تؤثــر علـــى مـــادة النــوع. ربما كان أبيلار يهدف إلى تسلية طلابه بالإضافة إلى تعليمهم باستخدام هذا المثال ، حيث أن كثيراً مــن طلابــه كانوا يتمنون أن يصبحوا أساقفــة. انظر Marenbon, The philosophy, p.93،
- ويــرى الباحــث أن أبيلار كان يلمح فى ذلك المثــال إلــى وليام دو شامبو منافســـه وشـريكه فـــى مــدارس باريــس، حيـث أن أبيلار ذكـر ذلـك المثال عام ١١١٣ م وهو العام الذي تولى فيه وليام منصـــب أســقف شالون Châlons . وفى تلك الحالــة يرمى أبيلار إلى أنه من الممكــن لأي شخص أو مهرج مثــل وليــام دو شامبو أن يصبح أسقفــاً. فقـــد عُـرف عــن أبيــلار ميلــه للمــزاح، كمــا أنه كان لا يحتمل أولئك الرجــال الذين يتسمون بالجدية الشديــدة مثل أنسيلم اللاونى ووليام دو شامبــو.

" إن الناس يتسمون بالهزل" . هذا هو مضمون كتاب Dialectica والذي يصرح بـه أبيلار بين الحين والآخر ، وذلك حيث أن الهزل جزء مكمل لعلم المنطق القديم ، هذا التقليد يرجع إلى الإغريق الذين كانوا يرون أن الإنسان مميز عن سائر المخلوقات بقدرته على الضحك،[١] فكما يقول بورفيرى: "من خصائص الإنسان قدرته على الضحك مثلما أن قدرة الحصان على الصهيل من خصائص هذا النوع من الحيوانات ".[٢]

كذلك فإن الخاصية " Property" تعد هي أحد الصفات المميزة لأفراد النوع والتي تعد مميزة له وينفرد بها. فالكلمة اللاتينية Risibilis تعنى " قادر على الضحك " كما تعني أيضاً "مُضحك" ، يقول أبيلار: " إذا كان أي شخص رجل ، فهو قادر على الضحك. إذا كان سقراط رجلاً ، فهو قادر على الضحك ، إذا كان هو حيوان لأنه رجل ، إذن فهو قادر على الضحك لأنه رجل ، ولأنه قادر على الضحك فهو حيوان".[٣]

لعل من أكثر النماذج إثارة في كتاب Dialectica هي تلك التي تبدو ذات طابع شخصي والتي تنطوي أيضاً على الهزل، فالمثال" إذا كان أي شخص رجل، فهو قادر على الضحك"، يليه مباشرة مثال: "بيتر يحب صديقته". ويقول أبيلار لجمهوره من الطلاب: " يمكننا جميعاً أن نضحك لأن هذه هي الملكة التي تميزنا كبشر ، وأنا شخصياً مُضحك ، على الرغم من أنى أستاذكم ، وذلك لأن الحب يجعلنا جميعاً حمقى".[٤] وفى كتابه تاريخ المصائب يذكر أبيلار أنه قد شعر بالملل تجاه قيامه بتدريس المنطق أثناء علاقته مع إيلويز. والأمثلة التي يوردها فى كتابه "الجدل" نجحت فى تحفيز عقول طلابه.[٥]

وفى مثال آخر يؤكد أبيلار على أنه يشير لنفسه باسم "Peter " قائلاً : " نحن نعرف عن أنفسنا بالإخبار عن أسمائنا ، وهذا يوحي بأن أسمائنا يجب أن تشير لحقائق".[٦] وقد رد

---

(١) D.T.C., Op. Cit., p.41

(٢) Philipp wolff, Op. Cit., p.207

(٣) Abelard, Dialectica, p.319

- بالنسبة للإغريق القدماء، فإن قدرة الإنسان على الضحك تعد حقيقة بيولوجية رئيسية. وبالنسبة لأبيلار الذي كان أقرب إلى المهرج منه إلى الأستاذ على حد وصف البعض له بذلك ، فإن قدرة الإنسان هذه على الضحك تعد طريقة للتعليق بشكل غير مباشر على حال الإنسان، وهى الطريقة التهكمية المعتادة لأبيلار فى كثير من شروحه وتعاليمه لطلابه. (الباحث)

(٤) Abelard, Dialectica, p.317

(٥) Abelard, Historia , p. 21

(٦) Abelard, Dialectica, p.231

روسلان على أبيلار عندما وصفه أنه عالم ديالكتيك زائف بالسخرية من منطق خصائه، فقد أخبره روسلان أنه لم يعد يطلق على نفسه "بيتر"، لأن هذا الاسم مذكر وعندما ينحط الشيء عن نوعه فإنه لا يدل عليه، ويقول روسلان أيضاً أن الأسماء التي تفقد دلالتها تعد أسماء "ناقصة". والمنطق يقول أن أبيلار ينبغي أن يسمى نفسه الآن باسم "بيتر الناقص". وهذا النوع من الحجج أعطت روسلان الفرصة لأن يلقى بعض النكات بشأن الجزء والكل في المنطق والحياة.[1]

كانت الإشارات على حياة أبيلار الشخصية في أعماله تعد نادرة ، وذلك لأنه عادةً ما كان يكبح جماح نفسه داخل الفصل ، وكانت الحجج التي يسوقها تعتمد على سقراط وليس عليه بوصف سقراط نموذجاً للقياس في جميع الكتابات السابقة عليه. كذلك تشير جميع الأمثلة التي كان يقدمها أبيلار من الناحية الشخصية إلى علاقته مع إيلويز ، مما يوحي بمدى انشغاله بتلك العلاقة في الفترة حوالي ١١١٧م، لدرجة أنه لم يستطع مقاومة الإشارة إليها.[2] وفى كتاب "الجدل" يصف أبيلار إيلويز ليس فقط بأنها "فتاته" Puella ، وإنما بأنها حبيبته ، فقد أخبرته أن لقب صديقة أو حبيبة أغلى لديها من لقب زوجة. ويورد أبيلار أمثلة أيضاً للحالة الشرطية Subjunctive فى كتابه "الجدل": " هل لحبيبتي أن تقبلني! "، "هل لحبيبتي أن تأتى سريعاً!". فى مثال آخر من الصعب معرفة سواء أكان أبيلار يضع علاقته مع إيلويز فى ذهنه بشكل صريح أم فى عقله الباطن فقط ، فقد كان يناقش أفعال يكتنفها الالتباس لأنها تكون فى حالة المبنى للمعلوم والمبنى للمجهول فى نفس الوقت (وهى حالة موجودة فى اللغة اللاتينية ولا توجد فى اللغة الإنجليزية) وقد اختار أمثلة من نوع مثل: " أنا أعانق – أنا أُقبل – أنا أُتهم بجريمة". تلك السلسة تلخص ببراعة مسار علاقته مع إيلويز : فبعد التعانق الأول يأتى التقبيل ثم الاتهام بالجريمة.[3] لقد استطاع المنطق فى العصر الوسيط أن يعبر عن الأشياء الغامضة فى الحياة الواقعية، وذلك لأنه استخدم اللغة اللاتينية كوسيلة تعبير ، والتي كانت لغة تاريخية حقيقية وليست تركيبية مصطنعة مثل الصيغ التي يضعها علماء المنطق فى العصر الحديث.[4]

توضح الأمثلة اللغوية التي تتكرر على مدى كتاب Dialectica حجم إضافة أبيلار لعلم المنطق، والتي اهتم فيها بتفسير معاني ووظائف الألفاظ والتراكيب. ولأن المنطق يفسر الألفاظ، فإنه يعد مستوى متقدم فى إجادة اللغة اللاتينية، فقد اختلط المنطق بالفنون اللغوية الأخرى التي كانت تدرس فى الثلاثية trivium والتي كانت تضم أيضا النحو والبلاغة. لقد

(١) Roscelin, Op. Cit., p.80

(٢) Le Goff, op. cit, p.46; Paul, Op.Cit., p.193

(٣) Abelard, Dialectica, p.151; Sikes, Op.Cit., p.94

(٤) Léon, Op. Cit., p.18 ; de Ghellinck, le mouvement Théologique, P.49

كان التدريب العملي فى تصنيف الألفاظ هو الذي جعل من علم المنطق مادة محببة لدى الطلاب ، أولئك الذين تعلموا أن هناك تصنيف لكل كلمة وجملة وفقاً لنظام بسيط يحتوى على قواعد يمكن لطالب المدرسة أن يتعلم كيفية تطبيقها. لقد كان أبيلار طموحاً بشدة فى تدريسه وكذلك القضايا التي يطرحها ، فعلم المنطق كان بمثابة علم إدارة الحديث فى عهد أبيلار ، وكان أبيلار أشهر ممارس لذلك العلم.(١)

****

- علم المنطق والعقيدة المسيحية:

كان علماء المنطق على استعداد أن ينقلوا مهاراتهم لأي نوع من العمل الذي يتطلب فكرا تحليليا. والمثال على ذلك هو تعيين وليام دو شامبو عام ١١١٩م كمفاوض للبابا مع الإمبراطور هنري الخامس من أجل حل القضية الشائكة بشأن تعيين الأساقفة ورؤساء الأديرة (جدل تقلد المناصب). ويعد التوفيق بين الأشكال المتناقضة من الألفاظ عن طريق تحديد الفروق بينها هو المهارة الرئيسية التي كان يتمتع بها كل عالم منطق ذو خبرة، وبتلك الطريقة تم حل الجدل الحادث حول تقلد المناصب الكنسية.(٢) كذلك وحتى إن لم يقم علماء المنطق بحل المشكلات، فإن لديهم الخبرة الكافية فى التعبير عنها بألفاظ مختلفة وذلك من أجل الحفاظ على الشكل العام لهم، وأنهم قد توصلوا لشكل ما من الحلول.(٣)

ربما كان أبيلار الذي كان يعانى من مشكلة كبيرة عام ١١١٩م (حيث تم خصائه قبل ذلك بعام كما تعرض للاشتباه بالهرطقة)، ينظر لنجاح أستاذه السابق بغيرة وفزع ، لقد أدى اهتمام أبيلار بعلم المنطق إلى أخذه تجاه المحكمة البابوية عام ١١١٩م، إلا أنه لم يكن مثل وليام دو شامبو بوصفه أمير الكنيسة وإنما اضطر أبيلار للمثول أمام المحكمة وهو يقدم التماسا فى محاولة فاشلة لمقاضاة أسقف وشمامسة باريس بشأن زعمه تسترهم على جريمة خصائه.(٤)

بدأ أبيلار فى عام ١١١٩م أيضا فى اتباع استراتيجية تبناها بقية حياته محاولا استعادة سمعته بتطبيق المنطق على العقيدة المسيحية ونصوص أرسطو. يقول أبيلار: "إنني أولا عكفت على مناقشة أساس إيماننا باستخدام التشبيهات معتمدا على العقل الإنساني". وذلك لأن طلابه أصروا على أنه من

(١) Jolivet, Arts du langage , p.112; Southern, The making of the Middle Ages , p.181

(٢) Chodorow,S.E.,"Ecclesiastical Politics and The Ending of the investiture contest", SP., 46 (1971), PP. 629 - 630

(٣) Jolivet, Arts du langage, P. 337

(٤) Jolivert & de Libera, Gilbert de Poitiers, P. 43

السخيف حقاً أن يبين شخص للآخرين شئ لا يمكن هو أو غيره ممن يُدرس لهم فهمه. وباعتبار أبيلار هو الأستاذ المفضل لدى طلابه، فقد أذعن لطلباتهم على الفور.(١)

كان نجاح أبيلار فى علم المنطق يتوقف على إعجاب طلابه به منذ بداية عمله فى أوائل القرن الثاني عشر، عندما تنافس مع وليام دو شامبو على طلابه فى مدارس باريس. وكان تزايد طلبات التلاميذ عليه هو الذي أدى لصعوده للقمة مرة أخرى، ولكن تلك المرة أصبح أعظم أساتذة المنطق الإلهي أو "اللاهوت" على الإطلاق.(٢)

بعد ذلك بسنوات، قام سان بتلخيص أسلوب أبيلار بدقة وبسخرية قائلاً: "يقول اللاهوت ما جدوى البدء فى الحديث عن العقيدة إذا لم يكن ما نريد شرحه يمكن تفسيره بأنه شئ مدرك بالعقل؟" ولذا فإنه يعد مستمعيه بفهم الأشياء الرفيعة والمقدسة والتي تسكن فى قرار الإيمان المقدس لقد وصفه برنار بأنه شخص متطفل يتحسس أعماق الإيمان المقدس.(٣)

وقد واصل برنار نقده اللاذع وبنفس الدقة بقوله أن أبيلار "قد وضع درجات فى مفهوم الثالوث الأقدس وطرق فى عظمة الرب، وأعداد فى الخلود.(٤) وكان ذلك فى واقع الأمر هو ما قام به كل علماء اللاهوت فى العصر الوسيط، حيث كان اللاهوت تطبيقاً لعلم المنطق على التعاليم الدينية. ويوضح مثال أنسيلم الذي يضع أرقام لطرق الكبر ويصنفهم إلى ثنائية وثلاثية ذلك الكلام وبشكل جيد مثلما يوضحه أيضاً وصف أبيلار لتطبيق التشبيهات المستقاة من العقل البشري على قواعد الإيمان المسيحي.(٥)

لم يكن علم المنطق اليوناني الوثني وعلم اللاهوت المسيحي المدرسي متعارضين مع بعضهما البعض، إذ كانت تجمعهم نفس المقدمات المنطقية. فاللاهوت كما أكد أبيلار لم يعد بتعلم حقيقة الرب، ولكنه وعد فقط بتعليم احتمال الحقيقة الذي وضعه الإنسان. وعلى العكس لم يكن علم المنطق مفهوماً واضحاً كما هو، بل كان نظام عقائدي ينبغي قبوله عن طريق الإيمان به.(٦)

(١) Abelard, Historia, P.23; Paré, La Renaissance du xii' siècle, P. 282

(٢) Ferruolo, Op. Cit., P. 55

(٣) Poole, Op. Cit., P. 142; Knowles, The Evolution of Medieval thought, P. 122

(٤) Barnard, (St.), PL, P. 1054

(٥) Mews, On dating the works of peter Abelard, P, 79

(٦) لم يكن هناك شيئاً جديداً فى ذلك، فقد كانت المسيحية الرومانية ديانة قائمة على المنطق منذ عام ٣٢٥م عندما قام الإمبراطور قسطنطين بالإشراف على تعريف العقيدة النيقية. ومنذ ذلك الوقت كان يتم تلاوة مفاهيم أعمق أسرار الإيمان بشكل يومي فى الكنائس المسيحية، وأصبح من الممكن لأي فرد أن يتعلمهم وإن لم يكن بالضرورة يفهمهم. وبالتأكيد قامت الكنيسة بإصدار أمر يوجب على كل فرد معرفة دينه. وبحلول القرن الثالث عشر (أي بعد عهد برنار بخمسين عام) تقدم

كذلك فقد كان أبيلار غير مؤهل من حيث التدريب أو الاستعداد لفحص أي شئ بشكل مادي أو عددي مثلما ادعى باكون أنه يمكنه القيام بذلك باستخدام علمه التجريبي بعد ذلك بقرن من الزمان. لقد كان أبيلار مهتماً بتطابق الأرقام فى فلسفة أفلاطون، ولكنه لم يكن عالم رياضيات.(١)

يناقش أبيلار أيضاً فى كتابه Dialectica ثم بتفصيل أكثر فى كتاب Theologia ما إذا كانت روح العالم التى نفخت الحياة فى كل الكائنات فيما أسماه "الإيمان الأفلاطوني" مشابه للروح القدس فى الإيمان المسيحي، إن روح العالم تنبع من العقل الإلهي مثلما تنبثق الروح القدس من الرب الابن فى الثالوث، وقد جذبت تلك الفكرة أبيلار لأنها كانت توحي بأن كل البشر بطبيعتهم يتميزون بالعقل ويتشاركوا فى العقل الإلهي، قادرين على التفكير بنفس الأفكار.(٢)

من بين التهم التي وجهت لأبيلار فى مجلس سنس ١١٤٠م أنه كان يُدرس أن الروح القدس هى روح العالم. فقد قال سان برنار أن أبيلار قد أثبت على نفسه أنه وثنى باجتهاده لكي يجعل من أفلاطون مسيحياً.(٣)

لم يلجأ كلاً من القديس أنسيلم ووليام دوشامبو وأبيلار نفسه، لعلم المنطق كمحاولة يائسة وغير مدروسة للدفاع عن المسيحية من نقادها ، بل ظنوا أنهم وجدوا فى علم المنطق الكلاسيكي وسيلة مبهجة قد بعثها الرب لهم كي تساعدهم على تفسير الوحي المسيحي.(٤)

لقد ساعد علم المنطق فى التعليم، وكما أوضح القديس أنسيلم، فقد أدى التأمل الفكري إلى التأمل فى الصلاة حول معنى الرب. لم يكن علم المنطق هو ما هاجمه برنار، ولكنه هاجم ما زعم أنه الاستخدام السيئ لعلم المنطق. ففي حين اتسم القديس أنسيلم بالتواضع والتعبد فى تأمله لمنطق الرب، اتسم كلام أبيلار بنبرة غطرسة وعدم تبجيل، ذلك ما كان قد زعمه برنار وكان من الصعب دحض ذلك الاتهام.(٥)

اللاهوت إلى المرحلة التي كانت تقوم فيها محكمة التفتيش بمحاكمة أي شخص غير قادر على تحديد درجات الثالوث الأقدس أو تفسير كيف أصبح الرب إنساناً والحكم عليه بالحرق. وفى تلك الفترة أيضاً كان يتم تصنيف الحقائق وفقاً لأرقام مثل السبع خطايا المميتة، الفضائل الأربعة، وغيرها.

أنظر، Jolivet, Aspects de la pensé , P. 27

(١) Mews, Op.Cit., P.80

(٢) Abelard, Dialectica,P., 576

(٣) Bernard, (St.)., Patrologia, P. 1055

(٤) Le Goff, Les intellectules au moyen âge, P.49

(٥) Marenbon, The philosophy of Abelard, P.51

اعترف أبيلار كما سبق فى خطابه "اعتراف الإيمان" الذي بعثه إلى إيلويز أن علم المنطق قد جعله مكروهاً لدى العالم، كما اعترف أيضاً بعد عمر قضاه فى الجدال عن المنطق ولأجله، أنه كان راغباً فى الاستسلام. وإذا كان مضطراً للاختيار بين علم المنطق والقديس بولس، فإنه يختار القديس بولس. قال أبيلار مكرراً: "إنني لا أرغب فى أن أصبح الفيلسوف الذي يرفض بولس، ولا أرغب فى أن أكون أرسطو الذي يُبعد عن المسيح"(١)

لقد أوضح جيلسون Gilson أن أبيلار كان شاعراً بنوع من راحة الضمير فهو لم يقتنع بعد أنه على خطأ، ولم يحمله محاكموه بعد على الاعتراف بالأخطاء التي يؤنبونه عليها، فالفارس العجوز المتعب يشعر أنه لم يفصح عن آخر كلامه وفى الاعتراف بالإيمان يكرر ما قاله دائماً أنه لم يرغب أبداً فى أن يصبح فيلسوف كاذب أو أرسطو زائف، بل على العكس كان أبيلار حقيقة، فهو "فيلسوف المسيح، وأرسطو عصرنا" كما أسماه بطرس الموقر.(٢)

كانت حجة أبيلار تقول بأن علم المنطق وحده يفهم العقيدة المسيحية، لأن كل جوانب العقيدة ينبغي أن تفسر بالنسبة لنا باعتبارنا بشر من خلال التراكيب اللغوية، وعلم المنطق وحده هو الذي يفسر اللغة. فليس مفهوماً أن يتم تعليم أي شئ أو الوعظ بأي شئ لا يمكن فهمه بالاستعانة بالعقل. كان أبيلار نموذجاً تقليدياً للمفكرين المدرسيين فى النظر إلى المسيحية ليس كديانة يكتنفها الغموض، ولكن كنظام عقلاني من القواعد فكان قوامها هو علم المنطق وليس مصادر الجذب البصرية والشعورية التي اعتمدت عليها الكنائس الرومانسية الكبرى فى عهد أبيلار.(٣)

فعلم المنطق هو علم ينبغي تعلمه بمثابرة فى المدارس، فلا يمكن اكتسابه بمعجزة خلال يوم واحد، مثل العلاج على ضريح أحد القديسين. بالطبع لم يكن من الممكن جعل أفلاطون وأرسطو مسيحيين، ولكنهم اشتركوا فى التعبير عن أهمية ملكة العقل التي تميز الإنسان عن سائر الحيوانات، والتي تميز بشكل خاص الرجال المتعلمين عن الدهماء التي يسودها الجهل. إن قوة حجة أبيلار تتضح من خلال الأسلوب الذي حاول به سان برنار والبابا وكل خصوم أبيلار دحض حججه باستخدام اللغة العقلانية وباستخدام اللغة اللاتينية ومصطلحات الفلسفة الإغريقية القديمة، لأن الكنيسة الرومانية سلطتها على عقيدة ذات أسس منطقية منذ عهد الإمبراطور قسطنطين.(٤)

---

(١) Abelard, Dialectica, P. 576

(٢) Gilson, Heloise and Abelard, P. 109

(٣) Jolivert , Art du langage, P. 201

(٤) Aberlard, Dialectica, P. 577; Poole, Op.Cit., P. 139

لا يوجد دليل قاطع على أن أبيلار تنازل عن الدعوى التي ذكرها فى بداية كتابــــه اللاهــوت Theologia عام ١١١٩م ، ١١٢٠م أنه بوصفه أستاذاً للمنطق ينبغي عليه أن يكون حكماً على مـــدى صحـــة "احتمــال" الحقيقة، وهو كل ما يمكن معرفته فى الحياة. وقد أقر أبيلار أن لعلم المنطق أوجــه قصور، وإن كانت ليست نفس أوجه القصور التي أبرزها سان برنار، إن علم المنطق لا يتعامل مـــع الطبيعة الفيزيقية أو الحقائق المطلقة، "فالُمصمم الأعلى" كما كتب أبيلار فـــى Dialectica ، " قـام بخلق اللغة لنا، ولكنه احتفظ بطبيعة الأشياء تحت تصرفه هو".(١)

إن ما رفض أبيلار الإقرار له، هو أن أبناء جيله الذين عرفهم بشكل شخصي والذين شـــكك فى حكمهم وبالأخص وليام دو شامبو وسان برنار، كانت لديهم سلطة إسكاته. ولكنهم لم يكونـــوا بُنـــاةً للحقيقة – بعثهم المصمم الأعلى – ولكنهم "منحرفين مُحرفين" أو "فاسدين مُفسدين" كما أسماهم أبيـــلار فى "اعتراف الإيمان". أما بخصوص خلق اللغة، فإن أبيلار كان "مخولاً لأن يصبح صوتـــه مســـموعاً لأنه عالم المنطق الأبرز. فكما قال هو: "إن أعدائي حتى قد أقروا لي بذلك".(٢)

---

(١) Abelard, Dialectica, P. 578; Mews, On dating the works of Abelard, P. 129

(٢) Abelard, Patrologia, P. 111; The letters of Abelard and Heloise, PP. 270 - 271



الفصل الثالث

أبيلار والجوانب الإنسانية

(الفارس - العاشق - الإنسان)

أولاً: الفـــارس:

- الفروسيـة
- المهرج والشاعر الفارس
- صورة الفارس
- موقف أبيلار تجاه الحرب
- الحرب المدرسية .

ثانياً: العاشـــق:

- مقدمة
- حب الراهب والراهبة
- رؤية بطرس الموقر لتلك العلاقة
- الحب الإلهي والحب الإنساني
- دين أبيلار لإيلويز
- تأثير إيلويز على كتابات أبيلار .

ثالثاً: الإنسان:

- الشباب والهيئة
- صورة آدم وحواء
- رواية أبيلار لزواجه
- بين الزواج والانفصال
- العقاب العادل لأبيلار .

أولاً: الفارس:

كان أبيلار الابن الأكبر لفارس، ولكنه اختار أن يتخلى عن حقه في البكورية من أجل أن يصبح عالماً. بالرغم من ذلك، فقد احتفظ طوال حياته بطبيعة حياة الفارس المليئة بالحروب. وكما يقول كاتب السيرة الذاتية لمنافس أبيلار في المدارس St.Goswin: "**كان أبيلار رجلاً ميالاً للقتال لحد بعيد، كما أنه كان معتاداً على الفوز**".[١] كذلك يصف أبيلار في كتابه تاريخ المصائب مناظراته المدرسية مع منافسيه من الأساتذة بأنها "**حروب**" يحكمها الحظ: "**كان الحظ يمنح النجاح في هذه الحروب لطلابنا، وبالأخص إليّ**". كما أن أبيلار يستخدم تشبيهات عسكرية مثل: "**تصببت معسكراً**"، "**أقمت حصاراً**"، وليس ذلك فقط من أجل التأثير الأدبي لتلك الجمل ، ولكنه كان بالفعل منشغلاً بشيء قريب الشبه بالحرب لدرجة كبيرة.[٢]

ولكي يصبح أستاذاً في مدارس باريس، كان عليه أن يتخذ موقفاً من الشحناء والقتال الدائر والمحيط بالبلاط الملكي الفرنسي، والذي كان يكافح في بداية القرن الثاني عشر لإثبات ذاته. وكانت استراتيجية الملك قائمة آنذاك على زيادة إيرادات السلطة الملكية، وارتفاع مكانتها وذلك بالتدخل لحماية ممتلكات الكنيسة وقساوستها من النبلاء، وفي تلك الأجواء يصبح رجل الدين المتعلم مثل أبيلار ذا فائدة كبيرة.[٣]

لعل علاقة أبيلار مع البلاط الملكي هي التي أكسبته لقب Palatinus التي تعني رجل من رجال القصر الملكي، وهو أحد الخاصة الذين يقومون بأعمال الملك. لذلك نجد أن بعض طلابه أمثال حنا السالزبوري قد وصفه بشيء من التهكم بأنه Palatinus يجب أن يعيش داخل قصر ولا يعيش كعالم مشائي Peripatetic يجوب الشوارع. وقد وصف أبيلار نفسه بالفعل بأنه شبيه بالمشائين أتباع أرسطو.[٤] وكان أبيلار يعني بذلك أنه قد تجول من مكان لآخر بحثاً عن الفلسفة حتى وصل إلى باريس، فكان مثال للعالم المتجول، ولم يكن وصوله إلى باريس بمثابة نهاية لرحلته، إذ أنه ظل متجولاً: فقد تبع البلاط الملكي أولاً إلى ميلون وفي أماكن أخرى في بداية القرن الثاني عشر، ثم ذهب عام ١١١٣م إلى لاون ثم عاد إلى باريس. وفي عام ١١٢١م اضطر إلى الهرب من غضب الملك إلى كونت شامبني، وفي مكان غير بعيد عن هناك أسس أبيلار مجتمعه المثالي "دير الباراكليت".[٥]

---

(١) Goswin, Op. Cit, P. 443

(٢) Abelard, Historia,P.6; Harvey,R.,Medieval knighthood, Vol. 5, Cambridge, 1995 , pp. 101-102.

(٣) Le Goff, Pour un autre moyen âge, p.185

(٤) Abelard, Historia, P. 3

(٥) Le Goff, Les intellectuele au moyen âge, P. 47

هناك عنصر فى ترحال أبيلار من حياة الفرسان الرواد أبطال القصص البطولية الذين يجوبون البرارى بحثاً عن كنز، وهناك أيضاً عنصر من حياة الفرسان الذين يتقاضون مرتباً، والذين ينتقلون من سيد لآخر بحثاً عن أجر أفضل. كان أبيلار متكبراً لدرجة أنه لا يستمر عند أحد السادة لفترة طويلة، حتى عندما حقق هدفه فى الشهرة بباريس وأصبح من رجال البلاط.[1] بالإضافة إلى كونه أحد رجال البلاط، كان أبيلار معروفاً أيضاً بالملاطفة الرومانسية التى تفضلها السيدات. **تقول إيلويز: "أية امرأة متزوجة وأية شابة لم ترغب فيك فى غيابك ولم تشتعل فيها النار فى وجودك".[٢]**

ويقول **فولك أوف دويل** فى خطابه التهكمى الذى ينطوى على نصائح لأبيلار شيئاً مشابهاً لذلك: **"عندما علمت صديقاتك من النساء خبر خصائك بكين لأجلك يا فارسهن، وكأن كل واحدة منهن قد فقدت زوجاً أو حبيباً فى المعركة"[٣]**

يعد وصف فولك السابق موحياً بالفكرة الأدبية الرائجة بجمع بعض الناس للمزايا الخاصة بكل من الفارس ورجل الدين العاشق. فبعض السيدات فى تلك الفترة بل وغيرها كانوا يفضلن رجل الدين على نظيره الفارس، وذلك لأنه تلقى تعليماً وتربية أفضل. وفى واقع الأمر ووفقاً لرواية أبيلار نفسه، فقد عكف لفترة طويلة على كتابة أعماله لدرجة أنه لم يكن لديه وقت يتردد فيه على مجتمع السيدات، وبالتالى فإنه لم يحظ إلا بقدر ضئيل من تلك العلاقات قبل أن يقابل إيلويز.[٤]

****

* المهرج والشاعر الفارس:

على الرغم من أن أبيلار ادعى أنه كان محتجباً عن مجمع السيدات بسبب مواظبته على الدراسة، كما أنه لم يكن على اتصال بالناس العاديين بقدر كبير، إلا أنه كان معروفاً بأنه شخص اجتماعى ومرح وذلك من قبل أن يلتقى بإيلويز. وكما كانت عادة محاضرى المنطق، فقد أوضح أبيلار مناقشاته عن طريق إدخال البهجة لدى الطلاب عن طريق استخدام النكات مثل: **"سقراط حمار"، "من الممكن أن يصبح سقراط أسقفاً"، "أبيلار الأستاذ المرح يحب فتاته"** وغير ذلك من أمثاله".[٥]

---

(١) Duby, Dames du XII siècle, p. 75

(٢) Ibid, p. 77

(٣) Fulk of Deuil, Op. Cit, p.706

(٤) Abelard, Historia, P. 9; Le Goff, pour un autre, p. 183

(٥) Sikes, Op. Cit, p. 97

يؤكد أوتو الفريزى أن أبيلار عندما كان أستاذاً فى باريس، "لم يتفوق فقط فى الفلسفة، ولكنه تفوق فى تحريك أذهان الرجال نحو النكات، فلهذا السبب لم يكن أبيلار يحتمل أساتذته لأنهم شديدى الجدية، ومن المعروف أن أبيلار كان يكره الجدية بشدة خاصة من أساتذته".(١)

يحكى أبيلار نفسه قائلاً: "**عندما كنت فى مدرسة أنسيلم فى لاون عام ١١١٣م كنت دائماً أمزح مع الطلاب**". كذلك حذر الأستاذ جوسلين Goselin زميله Goswin منافس أبيلار من أن أبيلار مهرجاً أكثر منه أستاذاً. كما أن أبيلار كان لا يطيق جدية أساتذته المفرطة فنجده يقول: "**لم أستطع أبداً أن أحتمل الرصانة والحزن والجدية، فإننى أحب النكات وأجد الابتهاج أحلى من العسل، فطبيعة بلادى وأسلافى هى التى جعلتنى مرح الفؤاد**".(٢)

لقد نشأ أبيلار فى لوباليه القريبة من قلب فرنسا فبجانبها الطرق المؤدية إلى أنجو Anjou وقلب فرنسا، وجنوباً بواتوه Poitou وأكويتان Aquitaine التى هى أرض الشعراء الغنائيين "التروبادور Troubadours ". إضافة لذلك، فهناك مؤرخ ثقة وهو ريتشارد بواتوه Richard poitiers يقول أن والد أبيلار كان من بواتوه، لذا فإن البلاد والأسلاف التى جعلت أبيلار "مرح الفؤاد" هى نفس الأرض والثقافة التى شكلت الشعراء الغنائيين.(٣)

تلقى والد أبيلار مثل فرسان آخرين من الجنوب تعليمه الأولى فى "الحروف" وحرص على أن يتلقى كل أولاده نفس التعليم". وعلى الرغم من أن أبيلار تخصص فى فنون المنهج الثلاثى (قواعد اللاتينية والبلاغة والمنطق)، فقد تلقى تعليما فى الموسيقى وكان معروفاً بقصائد الحب التى كتبها لإيلويز.(٤)

---

(١) Otto of Freising, Op. Cit., P. 169

(٢) Abelard, Historia, P. 6 ; Goswin, Op. Cit, P. 442

يشرح أوتو الفريزى هذه النقطة بقوله أن أنواعاً معينة من الأراضى تخرج أنواعاً محددة من الأشخاص مثلما تنتج أنواعاً محددة من المحاصيل. ويذكر أن أبيلار ترجع أصوله إلى بريتانى وهى بلاد غنيه برجال الدين الذين يتميزون بذكاء حاد وتستهويهم الفنون، وكان أبيلار مثالاً حياً على هؤلاء.

انظر Oto of Freising, Op. Cit., P. 224

(٣) Waddell, H., Medieval Latin Lyrics, London, 1933, P.183

وعن شعراء التروبادور ونشأتهم ودروهم فى فرنسا انظر، سعيد عاشور، المدنية الإسلامية وأثرها فى الحضارة الأوروبية، القاهرة،، ١٩٨٢م، ص٧٣ وما بعدها.

(٤) Waddell, Medieval Lyrics, p. 185

من المحتمل أن تكون تلك القصائد مكتوبة باللاتينية على الرغم من احتمال كتابتها بمزيج من اللاتينية والفرنسية، وتقول إيلويز أن عزوبة ألحانها جعلت اسمها يتردد على ألسنة الجميع، حتى أن الشخص الأمى كان يمكنه تذكر بعض كلماتها وألحانها. انظر، Waddell, The Wandering Schoolars, P. 117

يقـول أبيــلار تعليقاً على قصائد الحب التى كتبها: "كثير منها لا يزال يتردد وتتغنـــى بــه الألسنة فى مناطق كثيرة، وخصوصاً لدى الأشخاص الذين يُمتعهم هذا النوع مـــن الحيــاة". ويقــارن أبيلار بين الأساليب الخالية من المسئولية التى يتبعها الشعراء الجوالين، وبين العلماء فى محاضراتـــه، والذين أرادوا منه أن يعود لعمل الفلسفة الجاد، كما أن كلام أبيلار يوحى بأن بعـــض أغانيــه كـــانت تندرج ضمن مجموعة أغانى الشعراء الجوالين وأن كثيراً منها بالطبع دخلت واختلطت مـــع غيرهـــا من أشعار الشعراء المجهولين.(١)

كانت صورة أبيلار العلمانية قوية جداً لدرجة أنه ظل محتفظاً بشهرته كرجل جذاب للنســـاء لفترة طويلة بعد أن تم خصائه وأصبح راهباً. وقد كان سان برنار يشبهه دائماً بجوليـــاث Goliath أو Golias فى اللاتينية وقد استعان طلاب أبيلار بذلك الاسم لشعورهم بالفخر بأستاذهم وأطلقـــوا علـــى أنفسهم الجوليـــارديين Goliardi أو الأبيلارديـــين Abeliardi.(٢) وبوصـــف أبيـــلار شـــاعراً وموسيقياً، فقد كانت لديه الإمكانيات ليصبح شاعراً جوالاً "مهرجاً" محترفاً. وذلك بالإضافة لاســـتخدام تلك المواهب لتسلية نفسه وأصدقائه. تقــول إيلويــز: **"إننـــا نعلم أن الفلاسفة الآخرين لـــم يكونـــوا ناجحين على الإطلاق فى هذا الأمر".**(٣)

أعطى أبيلار ظهره لماضيه بعد خصائه وأدان فئة الشعراء ككل، كما أدان معهم المـــهرجين والمغنيين الآخرين الذين يتغنون بفحش الكلام، ويدل ذلك على أسلوب تفكير رهبانى سليم، وهـــو مـــا يؤيده سان برنار بأسلوب شديد البلاغة فى كتابه عن "درجات الذل والكبر". وفى تحليل ســـان برنـــار فإن الخطوات الثلاث الأولى على طريق الكبر هى: الفضول، وخلو البال، والمرح فى غـــير محلـــه. وتلك الخطوات تؤدى للخطوة الرابعة وهى التفاخر. وقد كتب سان برنار ذلك فى عشـــرينات القـــرن الثانى عشر، وهو نفس الوقت الذى أصبح فيه أبيلار راهباً.(٤)

وربما كان برنار على علم بكل الأساليب المتمردة التى اتبعها أبيلار من خلال أستاذه وليـــام دوشامبو وهو الأستاذ الذى سخر منه أبيلار. ويصف برنار" الراهب الذى يعانى من خلو البـــال بأنـــه يعانى من المرح فى وجهه والخيلاء فى مشيته، كما أنه على استعداد دائـــم للضحـــك"، وبعـــد ذلـــك بسنوات، وفى هجومه على أبيلار بمجلس سنس Sens، حذر برنار من تجديف أبيلار الساخر قـــائلاً: "استمعوا جميعاً إلى قهقهاته".(٥)

---

(١) Waddell, The Wandering Schoolars, P. 118

(٢) Otto of Freising, Op. Cit, P.225

وعـن الشعـــراء الجوليارديين وجولياث انظر، جوزيف نسيم يوسف، نشـــأة الجامعـــات فـــى العصـــور الوسطـــى، الإسكندرية، ١٩٨٤م، ص٣٧٦.

(٣) Migne, Patrologia, Vol. 178,P.106

– لم يكن هذا قولاً دقيقاً من إيلويز، وذلك لأن الفلاسفة الإغريق القدامى قد درسوا الموسيقى بل وتفوقوا فيها. ولكن من المحتمل أن ما تقصده إيلويز هو أن هؤلاء الفلاسفة لم يستغلوا الموسيقى كتسلية مثلما فعل أبيلار (الباحث).

(٤) Pranger, B., St .Bernard and The Shape of Monastic Thought, London, 1994, P. 97

(٥) Ibid, P. 99

- صورة الفارس:

كان العمل الجاد الذى يتولاه الفارس هو القتال فى حروب سيده. وعندما وصف فولك أوف دويل النساء اللائى يقمن حداداً على أبيلار فارسهن، فقد كان ذلك الكلام فى سياق مشابه لتعرضه للإصابة فى الحرب (من خلال تعرضه للخصاء). إن الكلمة التى يستخدمها فولك بمعنى "فارس" هى Miles، والتى كانت تعنى عادة فى اللاتينية القديمة جندى مشاة. إلا أنه فى ثلاثينات القرن الثانى عشر عندما كان أبيلار يكتب" تاريخ المصائب" ، كان جندى المشاة يُنهى تحوله الطويل إلى الفارس كما هو معروف فى العصر الوسيط.[1] يعد الفرق الرئيسى بين Miles الرومانى، Miles فى العصر الوسيط فى السياق العسكرى، هو أن الفارس لم يعد أحد الجنود العاديين، وإنما ارتفعت مكانته ليصبح ضابطاً يرتقى ظهر جواد. ويسجل أبيلار بعض ملامح تلك المبادئ المثالية عندما يصف كيف كان والده: Militari Cingulo Insigniretur . ويعطى بعض المترجمين ترجمة لهذا الكلام على أنه "كان يطوق نفسه بحزام الجندي، وهناك ترجمة أخرى تقول أنه جندياً".[2]

كان "السيف" هو أحد شارات الفروسية لأنه كان يرمز إلى القوة. ومنذ القرن العاشر كانت السيوف تحظى بالمباركة فى المناسبات فى الكنيسة بوصفها سلاح الرب ضد الخطاة. كذلك فإن الطريقة التى يصف بها أبيلار شارة الحزام العسكرى تدل على أن والده قد تعرض لنوع من أنواع مراسم الفرسان وهى المراسم التى تتضح فى تاريخ فرنسا بجلاء منذ القرن العاشر وتتضح تقاليد الفروسية فى أنشودة رولان Chanson de Roland والتى كانت بصورتها الكاملة على عصر أبيلار.[3] ويطرح كذلك أحد الباحثين احتمالية أن يكون والد أبيلار هو أحد الفرسان البريتانيين الذين حاربوا النورمان، ولعله قد قُلد فارساً فى ساحة القتال أو يكون قد قُلد السلاح عند وصوله السن القانونى أو عند زواجه على يد كونت بواتوه الذى كان أيضاً دوق أكويتان، أو على يد كونت نانت الذى كان أيضاً دوق بريتانى. لقد كانت مقاطعة بواتوه هى مسقط رأس والد أبيلار، فى حين أن مقاطعة نانت هى مكان زواجه.[4]

---

(١) Fulk Of Deuil, Op. Cit, P. 706

(٢) Abelard, Historia; P. 1; Muckle, Op. Cit, P. 11; Radice, Op. Cit, P. 57

(٣) Harvey, Medieval Knighthood, P. 78

فى أنشودة رولان، يخاطب رولان البطل الذى يحتضر سيفه Durendal باسمه، ويذكركم مضى من الوقت وهما معاً منذ أن طوقه به شارلمان الذى كان قد تلقى هذا السيف الخاص من أحد الملائكة. وبسيفه هذا البالغ القوة والجمال يدعى رولان أنه غزا كل أراضى أوروبا تقريباً، وسوف يكون من العار على فرنسا أن يقع هذا السيف فى أيدى (غير المؤمنين). ولذا يحاول رولان أن يحطمه، إلا أن السيف قوى جداً ولا يمكن تحطيمه، فهو من الصلب المطروق، كما أن مقبضه محشو بسنة من أسنان القديس بطرس. فأنشودة رولان تصور الماضى الأسطورى للفرسان (فرسان الرب) لفرنسا. إن أبيلار بقوله أن والده كان يحظى بامتياز "الحزام العسكرى"، فقد كان يصور عدداً كبير من الأفكار الخاصة بالفروسية والتى كانت سائدة فى ذلك الوقت. (الباحث).

- عن انشودة رولان، راجع جوزيف نسيم يوسف، "أنشودة رولان" قيمتها التاريخية وما أثير حولها من جدل ونقاش، ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط، المجلد الأول، القاهرة، ١٩٨٢م، ص ٧٥ وما بعدها.

(٤) Muckle, Op. Cit, P. 14

لم يقدم أبيلار أية تفاصيل بخصوص عمل والده كفارس سوى أنه أنهى حياته راهباً. وهناك أمثلة أخرى عن فرسان كانوا يتصرفون بنفس الطريقة. والواقع أن دخول الدير بغرض التقاعد يعد أمراً عادياً، فالشخص المتقدم كان يضمن الرعاية والإعالة فى سن الشيخوخة داخل الدير. على أن الفائدة الكبيرة تكمن فى أن الفارس السابق كان يأمل أن يتلو ما يكفى من الصلوات بقية حياته كى يعوض عن خطاياه فى حياته الماضية.(1)

عند ذلك التحول إلى مهنة الرهبنة، يطلق أبيلار على أبيه اسم برنجار "Berengar" دون أن يوضح ما إذا كان ذلك الاسم هو اسم والده فى حياة الرهبانية أم اسمه العائلى.(٢) وفى صكوك منطقة نانت فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر، كان الشخص الوحيد الذى يحمل اسم "Lepallet هو Daniel de palatio "، ويظهر اسمه فى وثيقتين: فى إحدى تلك الوثائق التى ترجع لعام ١٠٨٤م، يشهد على منحة يقدمها دوق بريتانى، ويأتى اسمه متقدماً على جميع الشهود، وفى وثيقة أخرى يرجع تاريخها لعام ١٠٩٦م، يأتى ذكر منحة قدمها Daniel ويثبتها كونت نانت. كانت الوثيقتان تدلان على أن Daniel كان سيد لوباليه، وأحد أتباع كونت نانت. ومن المحتمل أن تكون والدة أبيلار ابنة Daniel ووريثته وتزوجت من برنجار قبل ولادة أبيلار عام ١٠٧٩م بوقت قصير. وباعتباره الابن الأكبر لبرنجار وحفيد Daniel، كان أبيلار وريث اللوردية. يقول أبيلار عن ذلك الإرث العسكرى أن هذا ما كان لزاماً عليه أن يتخلى عنه عندما اختار أن يصبح رجل دين: "**تقلت لإخوتى أبهة المجد العسكرى، هذا إلى جانب ميراث وامتيازات أسلافى التى كنت أتمتع بها**".(٣) ولا يتوسع أبيلار فى كلامه عن طبيعة امتيازات أسلافه القانونية والعسكرية، ولكن لابد وأنها كانت ذات شأن.

إن ذكر "أسلافه" يدل على أن ممتلكات العائلة فى لوباليه كانت محفوظة كوحدة بحصر الميراث على الابن الأكبر. لقد كان حق البكورية فى الأساس لمصلحة كبار السادة النبلاء الذين أرادوا لمستأجريهم من الفرسان أن يكون لديهم ممتلكات تكفى للحفاظ على مكانتهم المرموقة كأتباع لهم.(٤)

---

(١) Dunbabin,J.,"Fom Clerk To Knight: Changing Orders", In Medienal Kighthood, Vol. 2, p.26

(٢) Le Goff, Les Intellectuels, P.40

(٣) Abelard, Historia, P. 3

وعن الوثيقتين الخاصتين بـ Daniel انظر، Pierre Lasserre, Op. Cit. P. 47

(٤) Philipp Wolff, Op. Cit. P.206

لمزيد من التفاصيل عن ميراث الفرسان وعلاقاتهم مع سادتهم انظر، اسحق عبيد، الفرسان والأقنان فى مجتمع الإقطاع، بنغازى، ١٩٧٥،ص٤٨

كان لأبيلار ثلاثة أخوة أصغر منه، أحدهم وهو Dagobert الذى شجع أبيــلار علــى كتابــة Dialectica مذكراً إياه أنها كتبت بهدف تعليم أبناء أخيه. ويحتمــل أن يكــون Dagobert فارســاً متعلماً أو رجل دين لديه أسرة، ولقد كان الميراث بحق البكورية يعنى أن تبقــى العــائلات أمامــها اختيارات فى حالة وفاة الابن الأكبر دون أن يترك ورائه أبناء، فكان الأخ الأصغر الذى يليــه ولديــه ورثة من الذكور يحتاج أن يكون على استعداد ليحل محل الأخ الأكبر إذا ظــل الإرث فــى العائلــة، وكان الزواج الإكليركى يسمح بذلك أيضاً. وإذا افترضنا أن الأخ الثانى قد توفــى دون أن يكــون لــه أولاد، وظل أبيلار فى مهنته، فإن Dagobert كان يحق له أن يرث لوباليه.(١)

يعد تولى رجال الدين الإرث الفرسانى فى الحالات الطارئة أحد التفسيرات لظــاهرة تواجــد فرسان متعلمين، وهى ظاهرة منتشرة فى القرن الثانى عشر. فإذا ورث Dagobert لوباليــه لكــان فارساً تلقى تعليماً مكثفاً فى الفنون العقلية لدرجة تمكنه من فهم كتــاب Dialactica لأبيــلار. ذلــك بالإضافة إلى أن أبناءه كتب عليهم تلقى نفس التعليم.(٢) ويمكن لرجل الديــن أن يرتــد إلــى مرتبــة الفارس شريطة أن يبقى فى رتبة كنسية أقل وألا يكون فى رتبة متقدمة فى أعلى السلم الكنسى. وقــد اختلفت الآراء بشأن الخطوة التى لا رجعة فيها من بين تلك الخطوات، ويفسر ذلــك سـلوك أبيــلار بوصفة الابن الأكبر، فقد وقع فى غرام الحياة المدرسية وتخلى عن حق أسلافه، ومع ذلــك فإنــه لــم ينتقل إلى دراسة اللاهوت إلا بعد مرور عشرين عاماً، وذلك عندما انتقل إلى مدرسة أنســيلم دو لاون عام ١١١٣م، وهى العودة التى كانت بهدف تسوية أملاك والديه اللذين تقاعدا فى الأديرة، كما أنه مــن المحتمل أنهم تخلوا عن ممتلكاتهم فى ذلك الوقت إلى أخوة أبيلار الذين يلونه فى الترتيب.(٣)

لقد ارتقى أبيلار درجة هامة أعلى السلم الكنسى وذلك عندما عُين أستاذاً لمدرســة نوتــردام فــى باريس عام ١١١٤م، وهو المنصب الذى تصفه إيلويز بأنه " شماس". فى تلك المرحلة كان لا يــزال لدى أبيلار خيار الاستقالة، فهو لم يصبح رجل دين بشكل لا رجعة فيه إلا عندما تعــرض للخصــاء والتحق بدير سان دينيس St.Denis كراهب عام ١١١٨م.(٤)

****

- موقــف أبيــلار تجــاه الحــرب:

لم يكن مفروضاً على رجال الدين أن يلجئوا لاستخدام السلاح، بيد أن ذلك لم يجعلــهم دعــاةً للسلام، بل على العكس، كانوا يحثون الفرسان على الحرب ويبرروا لهم الحروب التــى يخوضونــها.

---

(١) Dunbabin, Op. Cit., P. 28

(٢) Philipp Wolff, Op. Cit., P. 207

(٣) Dunbabin, Op. Cit, P. 29

(٤) Ferruolo, The Origins Of The University, P. 188

فعندما يقتل رولان العشرات من غير المؤمنين، يهنئه رئيس الأساقفة على أنه فارس مقدام وليس مجرد راهب لا قيمة له لا يسعه سوى تلاوة الصلوات طوال اليوم.(١)

ومن الروايات القريبة لعهد أبيلار ومكانه، رواية رئيس الدير سوجيه Suger عن بطله في الحروب، وهو لويس السادس ملك فرنسا (١١٠٨ - ١١٣٧م)، فهو على سبيل المثال يصف فرسان لويس عام ١١٠٩م. وهم "**يقطعون غير المؤمنين بسيوفهم بالتمثيل بجثث بعضهم بالإعماء والخصاء وبقر بطون البعض الآخر وهم في منتهى السعادة**". بعد ذلك يصف قائلا: "**ثم تقوم اليد المقدسة (ليس الفرسان بالطبع) برمي الأحياء والأموات من نوافذ القلعة كي يسقطوا على أطراف الرماح الموجودة بالأسفل، ويقوم الفرسان بتعويم الجثث التي تم المثيل بها في نهر السين كإنذار لأعداء الملك في نور ماندي Normandy**".(٢)

وفي إحدى ترنيمات أبيلار الشهيرة يقول: "**أورشليم الحقيقية هي تلك المدينة التي يعد سلامها الفائق هو أسمى بهجة**". ومن النظرة الأولى يبدو ذلك الكلام وكأنه رد فظ يدعو للسلام وموجه ضد رجال الدين الميالين للحروب، مثل سوجيه، وكذلك للأعمال الوحشية التي قام بها الصليبيون عند استيلائهم على القدس في عام ١٠٩٩م، وقد حدث ذلك وأبيلار لا يزال في سن العشرين.(٣)

---

(١) Dunbabin, Op. Cit, P. 32

- تم تصوير الأسقف Odo في إحدى اللوحات في معركة هاستنجز Hastings وهو يؤدي نفس دور رئيس الأساقفة في قصيدة رولان. فيظهر Odo وهو ممسكا بعصا كبيرة بدلا من سيف ويعلم الأولاد.ومن هذه اللوحة يتضح لنا دلالتين أن : Odo يمسك بعصا مراعاة للمرسوم البابوي عام ١٠٤٦م الذي يحظر على القساوسة حمل الأسلحة، فالعصا لا تعد من الأسلحة لأنها لا تسبب بالضرورة سفك الدماء، كما أن العصا هي رمز الأستاذ في العصور الوسطى، والذي كان يعلم الأولاد قواعد اللاتينية عن طريق الضرب بالعصا. وعلى هذا الأساس فإن Odo كان يعلم الأولاد على خط القتال بتذكيرهم بقواعد الانضباط، وبتلك الطريقة يتم الربط بين آراء وممارسات رجال الدين والفرسان. انظر، Paré, La renaissance du xii siècle, p.282

وعن معركة هاستنجز وأثرها انظر، جوزيف داهموس، سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى، ترجمة د. محمد فتحي الشاعر، القاهرة، ١٩٩٢م، ص٧٤ وما بعدها.

(٢) Suger, Louis VI, ch. 17, p. 12

يدل وصف سوجيه لعملية بقر بطون الأعداء بأنها كانت تتم في جو من السعادة، وأن المشرفين على العمليات العسكرية من رجال الدين كانوا مثله هو، يجدون متعة في تلك الأعمال الوحشية أكثر من الفرسان الذين يقومون بها . (الباحث)

(٣) Le Goff , Les intellectuels, P.46

- الراجح أن أبيلار يستشهد هنا بالفكرة الأوغسطينية التي تقول أن: "الحقيقة أنه لا توجد مدينة على الأرض، ولكنها تلك المدينة السماوية التي سوف نعيش سلامها في الآخرة". ووفقا لمدينة الرب التي كتبها القديس أوغسطين، فليس

لقد تأثر أبيلار بالقديس أوغسطين أكثر من أى أب آخر من أباء الكنيسة، وهو يخاطب بلسان أوغسطين فى كتابه" نعم ولا" أخلاقيات القتل، وتحت عنوان "إنه من المشروع قتل الناس" جمع أبيلار سبعة عشر استشهادا، منها أحد عشر يستشهد بها من القديس أوغسطين، وكل السبع عشر استشهادا تبرر القتل الذى يقوم به الجنود والجلادون وذلك لأنهم موظفون شرعيون بالحكومة، وبنفس الطريقة جمع أبيلار تحت عنوان "ليس من المشروع للمسيحيين أن يقتلوا أى أحد لأى سبب" ستة استشهادات جميعها من أوغسطين، وكلها تقول بأساليب مختلفة أنه من المشروع للمسيحيين أن يقتلوا حينما تقتضى الضرورة ذلك بوجوب الحرب أو العقاب.(١)

ووفقا لرواية أبيلار فى "تاريخ المصائب"، فإنه لم يجلب السلام والعدالة لأى مجتمع من المجتمعات التى انضم إليها، حيث اضطر لترك مدرسة بعد مدرسة ودير بعد دير. والأسوأ من ذلك، أن السلام قد شوش فى غرف الرهبان فى نوتردام بباريس وهو المكان الذى كان أبيلار يتمنى الذهاب إليه بشدة. لقد حدث نزاع شديد ودموى بين أبيلار وزميله الشماس فولبير كان سببه رغبة أبيلار فى الاستحواذ على إيلويز، وفى ذلك النزاع لم يذكر أبيلار شيئا عن وصايا الإنجيل التى تنادى بالمسامحة (من لطمك على خدك الأيمن فأعطه الأيسر) أو تلك التى تنهى عن إصدار الحكم على الآخرين.(٢)

بإمكان المسيحيين تحقيق السلام على الأرض، وإنه لمن الغرور أن تعتقد الحكومات أنها يمكنها القيام بذلك، فقد حاول الرومان ذلك لكنهم فشلوا بصورة واضحة للعيان. وعلى حد وصف أوغسطين، فالحياة مقرر لها أن تكون شكلا من أشكال الجحيم على الأرض، بسبب هبوط آدم والخطيئة الأصلية. إن اللغة الوحيدة التى تفهمها البشرية هى القوة التى يمارسها الأساتذة والجنود والجلادون. انظر،

De wulf, History of Medieval philosophy, p.199

(١) Abelard, Sic et Non, P.524

- لم يذكر أبيلار أية استشهادات صريحة بخصوص الدعوة إلى السلام، فهو لم يذكر سوى الآراء القائلة بالقتل والعقاب أو بعكس ذلك، كما أن معظم أقسام كتاب" نعم ولا" تسير على هذا المنوال. فأبيلار ربما لم يتعمد تأييد الجانب المعادى للسلام، بل لعله وجد صعوبة هو وطلابه فى العثور على أراء داعية للسلام فى الكتابات اللاتينية لآباء الكنيسة التى قام بجمعها فى" نعم ولا ". فكتاب" نعم ولا" قصد منه ألا يكون رأيا أخيرا لأبيلار فى أى موضوع، وإنما مجرد عرض للقضايا وضدها فقط. (الباحث)

- فى الفكر المسيحى بعد اعتناق الإمبراطور قسطنطين للمسيحية، تم فهم وصايا الدعوة إلى السلام فى الإنجيل على أنها تبرر استخدام صناع السلام للقوة ضد الأفراد (فى صورة العقاب) وضد المجتمعات المنافسة (فى صورة الحرب). وبمجرد أن أصبح الإمبراطور مسيحيا، لم يعد الإنجيل يرتبط بالفوضوية أو الدعوة للسلام، فالوصايا المثالية كانت مفهومة على أنها تنطبق فقط على الحياة الآخرة. لقد أثبت علم الآثار فى تلك الفترة نظرة أوغسطين عن" الجحيم على الأرض" الذى يتمثل فى القلاع الحجرية الضخمة والمدن المحصنة وقوة الأبواب والنوافذ الحديدية حتى فى الكنائس والأديرة التى كانت دائما مطوقة ومحصنة، فالسلام يعد عملة نادرة فى ذلك الوقت. انظر،

Paré, Op. Cit., p.296

(٢) Abelard, Hisoria, p.3; Blomme, Op.Cit,P.171

كذلك وفى حادثة خصاء أبيلار، فقد تم إعماء اثنين من مرتكبـــى الحـــادث وخصائـــهم، ووفقـــا لرواية فولك أوف دويل، فإن أبيلار لم يظن أن ذلك العقاب كان كافيا، فهو لم يخبرنا بما كـــان يـــدور فى نفسه فى ذلك الوقت، وإن كان العقاب مناسب لجرمهما أم لا، أيضا لا تذكر إيلويز أى تعليق بشـأن عقاب مرتكبى خصاء أبيلار عندما تناقش تلك الجريمة، ويمكن بإيجاز وفقا لكلام أبيلار، القـــول بـــأن أبيلار لم يبد الغفران أو العفو، ويتضح ذلك أيضا من كلام فولك أوف دويل لأبيلار: "لقـــد أصبحـــت الآن راهبا ولم يعد مسموحا لك أن تأخذ بثأرك.[1]

•••••••••••••••••••••

الحـــرب المدرسيـــة:

يتضح ميل أبيلار المتواصل للحرب من وصفه فى كتابه" تاريخ المصـــــائب" لحروبـــه فـــى المدارس. فالحياة المدرسية كانت تنطوى على كل أنواع المكائد والإثارة التى تملأ حياة الفرســـان دون سفك الدماء. فثمن الفشل فى تلك المعارك الكنسية يمكن أن يكون غاليا إذا كان فى صورة إهانة علنيـــة كما حدث مع أبيلار فى محاكماته بالهرطقة. وفى أحد أجزاء الكتاب يصف أبيلار وليـــام دو شـــامبو أستاذه بأنه وكأنه جنرال عائد إلى باريس "ليخلص فارسه من الحصار بعد أن تخلى عنه". فبالإضافـــة إلى كونه أستاذا بالمدارس عندما أتى أبيلار إلى باريس أول مرة عام ١١٠٠م، كـــان وليـــام رئيســـا للشمامسة ومستشارا للملك، وكان على حد تعبير أبيلار "بمثابة الرجل الأول مع الملـــك".ولـــم يحقـــق أبيلار ذلك المقام الرفيع فى فرنسا والذى كان يأمل فى تحقيقه بشدة.[2]

ولكى يتنافس أبيلار مع وليام دو شامبو، كان عليه أن يجد له وليا له فـــى البـــلاط الملكـــى. ويقول Marenbon مثنيا عليه أنه سرعان ما تقـــرب إلـــى ســـتيفن دو جـــارلاند Stephen de Garlande والذى أصبح مستشارا للملك عام ١١٠٥م، وقد ظل أبيلار مرتبطا بستيفن لما تبقى مـــن حياته، وبالتالى كان مرتبطا بمكائد البلاط الملكى الفرنسى. لقد تأثرت حياة أبيلاد المهنيـــة بالإيجـــاب والسلب حسب وضع ستيفن ونفوذه، ففى عام ١١٢٠م أصبح ستيفن هو القيم علـــى أراضـــى الملـــك وقائدا للجيش الملكى، وكان معروفا عنه وقتها أنه الرجل الأكثر نفوذا فى فرنسا.[3] لقد أقر أبيـــلار أن ستيفن كان له الفضل عام ١١٢٢م فى تسوية نزاعه مع دير سان دينيس والحصـــول علـــى تصديـــق الملك والمجلس على ذلك، كان أى رجل محنك آخر غير أبيلار سيعمل على الاســـتفادة مـــن ترقيـــة ستيفن ليحظى هو الآخر بترقية له مماثلة سواء فى البلاط أو الكنيسة، غير أن أبيلار لم يســـعى لذلـــك قط، فهو لم يستفد من تلك العلاقة سوى للخروج من أزمة فقط كانت ستعصف به عام ١١٢٢م.[4]

(١) Fulk of Deuil, Op. Cit, p.707

(٢) Abelard, Historia, p.5; pierre Lasserre, OP. Cit., P.23

(٣) Marenbon, The philosophy of Peter Abelard, p.11

(٤) Mews, Peter Abelard, in Authors of the Middle Ages, Vol.2,London, 1995,p.12

لعل الجانب السلبى فى استعانة أبيلار بمساعدة ستيفن هو أنها قد أدت لاشـــاعة أن أبيــلار مروج للحرب وليس راهب يدعو للسلام، يخاطب سان برنار رئيس الدير سوجيه قائلا: "إننى أســألك، أى نوع من الوحوش هذا الرجل؟" – يقصد ستيفن – "فإنه لمن المخزى أن يرتــدى ســتيفن ملابــس القتال فى يوم ويرتدى الزى الكنسى فى اليوم التالى، أو أن ينفخ فى البوق معلنا الحرب فى يــوم ثــم ينطق بالكلمات المقدسة فى اليوم التالى.(١)

ربما كانت علاقة أبيلار بستيفن هى أساس رأى برنار فى أبيلار: "إنه لــم يكــن لديــه مــن مقومات الراهب سوى الاسم والعادة". فحتى محاكمة أبيلار فى سنس عام ١١٤٠م، كان برنار قد قــام بتضخيم شهرة أبيلار وميله للقتال لدرجة كبيرة، يقول برنار: "يتقدم جالوت عظيم الهيئة بكــامل عــدة الجندى"، "إن أبيلار يلبس ويعيش حياة الرهبان" ويخفى ببراعة أنه ينحدر من الشيطان". وتمكن برنــار من إقناع البابا وكثير من رجال الاكليروس ذوى النفوذ بأن "أبيلار كان شريرا وأنه رجل حرب منــذ صباه". وهناك بالفعل قدر من الحقيقة فى ذلك.(٢)

كان من بين قصص حياة الفروسية – سواء فى الأدب أو الحقائق التاريخية – دائمــا قصــة الشاب الذى يتحدى من يعلوه ويجبره على التخلى عن مكانته، فقد واجـــه الأبنــاء آبائــهم يطــالبون بميراثهم، والفرسان الشباب كانوا يزيحون الفرسان الأكبر سنا منهم عنوة كى يحلوا محلـــهم. كــانت

---

(١) Bernard,(St), The Letters in, Patrologia, p.1050

- المحتمل أن يكون كل من سوجيه وستيفن قد ردا بأن القيم على أراضى الملك فى فرنسا لا يحارب سوى لأجــل العدل وللدفاع عن الكنيسة المقدسة ضد أعداء الملك، تماما مثلما حارب رئيس الأساقفة لأجل شارلمان.لقد كــانت الحرب المقدسة من أكثر التقاليد المعظمة فى فرنسا، إلا أن أبيلار الطموح وجد أن انتقادات برنار مــن الصعــب تفنيدها، وذلك لأن ستيفن عاش كفارس ورجل عادى (غير كنسى) على الثروات التى كان يحصدها من مناصبــه االكنسية العديدة فى وقت انتشر فيه فساد رجال الدين فى البلاط الملكى الفرنسى، فى حين كان أبيلار يزعم أنـــه عالم متمسك بالمثل العليا ويزهد المظاهر الدنيوية. انظر، Jolivet & de libra, Op. Cit., p.31

(٢) Bernard, (ST), Patrologia, P.1051; Pierre Lasserre, OP.Cit., P.134

- رأى برنار أن أبيلار بمثابة جالوت الهائل فى حين أن برنار بمثابة داود الصبى الذى تصدى لجــالوت وســحقه، وهو فى ذلك يستشهد بأحد أمثلة الكتاب المقدس، إلا أن ذلك المثال قد أضعف صدق كلامه، كما أنه تطاول بتشــبيه نفسه بداود، كذلك استخدم أبيلار نفس المثال والتشبيه حينما ادعى فى كتابه "اللاهــوت Theologia" أنــه: "داود الصغير المسكين يصارع ضد جالوت الضخم للديالكتيك الزائف".ويقول سان برنار للبابا عام ١١٤٠م: "أنا الأقل مــن بينهم جميعا الذى دعونى للقتال مع هذا الجالوت وحدى"، كذلك يصف كاتب السيرة الذاتية لسان جوسوين التحــدى بين أبيلار وبرنار عام ١١٢٢م بأنه "لا يقل كثيرا عن المعركة بين داود الصبى والعمــلاق جــالوت". إن المحاكمــة بالقتال كانت الطريقة التقليدية لحل النزاعات وسط طبقة الفرسان، ولعل قبول برنار دعوة القتال الفردى ضد أبيــلار يتوافق مع مبادئ الفروسية كما يتوافق مع المثال المذكور فى الكتاب المقدس، إن استخدام القساوسة باختلافهم مثل أبيلار وبرنار وكاتب سيرة جوسوين توضـــح لأى مــدى كــانت قصــة داود وجــالوت مؤثــرة وجذابــة. انظــر Abelard,Théologia,in Jolivet, La THéologie,P.21; Goswin, (St.), OP. Cit, P.443

حرب البلاغة التى شنها أبيلار فى "تاريخ المصائب" تتعلق بنفس الفكرة وهى وجود شاب يتحدى من يفوقوه: أولا وليام دو شامبو فى مناسبات عدة ما بين ١١٠٠- ١١١٠م، ثم أنسيلم دو لاون فى عام ١١١٣م، والذى ينتقص أبيلار من قدره حينما يقول عنه: "هذا الرجل العجوز الذى نال شهرته بالممارسة الطويلة وليس بالذكاء".(١)

لعل السعادة التى كان يجدها رجال الدين فى المعارك اللفظية وحرب البلاغة كانت تعوضهم عن افتقارهم للأسلحة المادية، تماما مثلما اعتاد الفرسان على ارتكاب الأعمال الوحشية البدنية بشكل روتينى، كان رجال الدين يعتبرون الإساءة اللفظية الفاضحة أمرا مسموحا به، بل ومثيرا للإعجاب إذا كانت تتم دفاعا عن أنفسهم أو الكنيسة، وكان القديس برنار هو أبلغ مثال للإساءة اللفظية فى عهد أبيلار، كما كان مؤلف أبلغ الوعظات والتأملات، فقد تعمد استخدام بلاغته كسلاح ردا على ما يراه أسلحة فتاكة مصوبة تجاه خادمى الرب.(٢)

وعندما اتهم رئيس شمامسة باريس بالقتل عام ١١٣٣م، وصفه سان برنار بأن له "أسنان كالحربات والرماح، ولسان مثل السيف الحاد". وكانت تلك الجريمة تتعلق بأبيلار بشكل غير مباشر، لأن الضحية كان مقدم دير سان فيكتور (أى المدرسة التى أسسها وليام دو شامبو)، وكان ستيفن دو جارلاند متهما بالتورط فى تلك الجريمة (فقد وقعت الحادثة بجوار قلعته). وفى تاريخ غير معلوم من عام ١١٣٣م، عاد أبيلار من دير سان جيلداس فى بريتانى إلى مدرسته فى جبل سانت جنيفيف بباريس تحت حماية رئيس كاتدرائيتها ستيفن دو جارلاند. ولذلك السبب تم الربط بين أبيلار وبين قاتل مشتبه به فى قتل رئيس إحدى المدارس المجاورة. كان مثل ذلك التصرف من جانب أبيلار يعكس مدى ما كان يتمتع به من المرونة لدرجة أنه نجح فى العودة لباريس والتدريس فيها مرة أخرى فى ثلاثينات القرن الثانى عشر ,وذلك على الرغم من إدانته بالهرطقة وبأنه راهب هارب، إضافة لكونه أحد أتباع ستيفن دو جارلاند.(٣)

وعلى الرغم من بلاغته العدوانية، إلا أن أبيلار كان ينفر من العنف فى الواقع. فمن المؤكد أنه يعترف بأنه شعر بالرعب تجاه رهبان ديرسان جيلداس الذين حاولوا وضع السم له على حد ظنه، ولابد أن مقتل مقدم دير سان فيكتور كان أمرا مرعبا له، أيا كان المسئول عنه، لأنه كشف أن أساتذة المدارس لم يتمتعوا بأية حماية خارج جدران أديرتهم.(٤) وفى تورطه بعلاقته مع ستيفن دوجارلاند فى باريس فى ثلاثينات القرن الثانى عشر، انتقل أبيلار من العنف فى البلاغة ليصبح قريبا بشكل

(١) Abelard, Historia, p.6

(٢) Robertson, D.W, Abelard and Heloise, New York, 1972, p.112

(٣) Gilson, Heloise et Abélard, P.47

(٤) Robestson, Op.Cit, P.114

كبير من العنف فى الواقع، بيد أن ذلك لم يكن أبدا من اختياره، لأنه كان يحتاج لمن يحميه، فلا يمكـــن أن يكون قد نسى أنه قد تم خصائه وخيانته داخل ساحة نوتردام فى بــــاريس وكـــان يكتــب" تـــاريخ المصائب" فى أثناء ذلك التحول، حيث حدث ذلك بين عنف سان جليداس وعنف باريس.(١)

من المحتمل أن الغرض من تاريخه كان كسب التعاطف فى باريس ودحض أى إيحــاء بأنــه كان رجل عنف، وإحدى الرسائل التى ينطوى عليها الكتاب هى أنه، على الرغم من الظلــم والعنــف الذى ارتكب فى حقه بشكل متكرر، فإنه ظل كالمسيح فى صبره على المعانـــاة والمكـــاره.(٢) بـــهذا المفهوم، يختتم أبيلار حكاية صراعه مع وليام دو شامبو قائلا:" ولأنبئكم بنتيجة هذه الحرب، إننى لـــم أغلب من هذا الشخص".(٣)

---

(١) Jolivet, "Abélard et Loup", Cahiers De civilisation médiéval, 20 (1971), P.311

(٢) Gilson, Heloise et Abélard, P.47; Robertson Op.Cit, P.114

(٣) Ablard, Historia, P.7

- بيت الشعر هذا لأوفيد Ovid، وهو لا يقـــول أن أبيـــلار قد انتصر، فقائل هذا البيت هو Ajax البطل الـــهوميرى، ويحكى أوفيد أن Ajax كان شخصا متفاخرا فقد عقلـــه وقتل نفسه حينما خسر معركته، ولذا فإن أبيـــلار يخـــبر قراؤه الذين كانوا على علم بالأساطير الكلاسيكية أنه مثل Ajax، كان شخصا متفاخرا ويائسا، وقد تظاهر فقـــط بأنه قد انتصر فى معركته مع وليم دو شامبو، لأن سمعـــة وليام كانت لا يمكن إفسادها. إن الحدث الذى أعقـــب عدم تغلب وليام على أبيلار هو انسحاب الأخير إلى بريتانى، وعندما عاد، لم تكن عودته إلى باريس، وإنما عـــاد إلى لاون، ولم يعد كأستاذا وإنما عاد كطالب، يلمح أبيلار إلى أنه اختار ذلك الدور البسيط طواعية، ولكـــن مـــن المحتمل أن فشله فى التغلب على وليام جعل من المستحيل عليه العودة لباريس بصفته أســـتاذا عـــام ١١١٣م. انظر، Philipp Wulf,Op. Cit, p. 208

ثانيا: العاشق:

وفقاً لكتاب تاريخ المصائب، فإن أبيلار قد تعرض لحبين عظيمين فى حياته وكان يطمح للحب الثالث. ففى شبابه قد أغواه حب بالغ العظمة للحروف لدرجة جعلته يتخلى عن بكوريته كفارس لكى يلقى بنفسه فى أحضان منيرفا إلهة التعليم. ثم فى أواخر الثلاثينيات من عمره، اشتعل بالحب تجاه فتاته إيلويز بشكل تام. وفى النهاية وبعد خصائه وتحوله للرهبنة، كان يطمح إلى حب مسيحي أسمى وأشمل.[١]

بتلك الروح كان أبيلار يخاطب الجمهور المتلقي الغير معلوم لكتاب تاريخ المصائب بأنه "أخي العزيز الحبيب فى المسيح والرفيق الأقرب فى ديننا". كما حاول أن يخاطب إيلويز أيضاً على أنها "أخته الحبيبة العزيزة فى المسيح"، حيث أنها أصبحت فى ذلك الوقت راهبة، إلا أنها كانت ترد عليه قائلة: "إلى حبيبها الأوحد بعد المسيح من حبيبته الوحيدة فى المسيح"، وعندما أصر أبيلار على نصحها بحب المسيح بدلاً منه، أجابت فى المرة الثانية بكلمات قليلة متصلبة: "أبقى المسيح خارج حبنا".[٢]

يُحدث ذلك الاقتصاد فى الألفاظ أعمق الفروق بين أبيلار وإيلويز ،فعندما قابلها للمرة الأولي وهي طالبة فى باريس،كان يتطلع لإقامة علاقة مرحة معها كصديقة بالمراسلة، وفي مراسلاتهم اللاحقة (بعد مرور حوالي خمسة عشر عاما) حظي بأكثر مما تمني،سواء فى مجاراته لذكائها الباهر وفي إجابته للأسئلة المحرجة التي كانت تطرحها.وبينما كان هو يسعي لأن يصبح راهباً مثالياً وأن يتسلق سلم الكمال الروحاني،ظلت هي أسفل ذلك السلم منشغلة بذكراه عندما كان حبيبها،وعلي الرغم من مرور خمسة عشر عاما علي ذلك , فإن ذكراه كانت حية كأنها البارحة بالنسبة لها لأن حياتها العاطفية كانت قد وصلت لنهاية غير متوقعة فى اليوم الذي أصبحت فيه راهبة بناءً علي أوامر أبيلار. وعلى حد تعبير جيلسون، قتل أبيلار روح إيلويز وسنوات عمرها التي قضتها فى الطاعة كراهبة والتي لم تساو شيئاً لأن أبيلار ظل حبيبها الوحيد[٣] لقد كانت علي استعداد أن تذهب معه إلي الجحيم فى الوقت الذي كانت فيه أفكارها ومشاعرها خارجة عن سيطرتها، ولم تستطع تغيير تلك الأفكار بين عشية وضحاها، حتى ولو بأمر منه، وهنا يظهر لنا شيء من التناقض الواضح :لقد كانت إيلويز علي استعداد لأن تطيع كل أمر يأمرها به أبيلار سوى أمره لها أن تنهي حبهما، فقد دمرت نفسها بالفعل ولن تقدم على تدميره هو أو حتي تدمير فكرتها عنه.[٤]

---

(١) Abelard, Historia, P.2

(٢) Ibid, P. 3; Radice, The letters, P. 127

(٣) Gilson , Heloise et Abelard , p . 84

(٤) Jean de meun , Op. Cit., p. 42

علي النقيض التام من إيلويز،كان أبيلار يدعي دائما أنه متحكم فى مصيره وأنـــه يتصـرف بشكل متعمد حتى فى المرات التي تصرف فيها بشكل خاطئ أو غير معقول كان أبيلار يعتبر نفســه أكبر شأناً من إيلويز،ذلك أنه أستاذاً لها، وعليه كان يعتبر نفسه أستاذها فى كل شئ ،لـــذا فلابـد وأن يكون هو الذى بدأ علاقتهما والمتحكم في مسارها.[١] وكما يصفها فى تاريخ المصـــائب،فـإن قصـة الحب تلك لم تبدأ مع إيلويز ولكن مع إغوائه كشاب من قبل منيرفا، ويقول أبيلار أنه انطلـــق للقتـال وهو محصن بتلك الأسلحة الفكرية وكأنه أثيني قديـم وبذلـك جعـل مـن نفســه منافسـاً للفلاسـفة المشائين،وعندما قابل إيلويز للمرة الأولى بعد حوالي عشرين سنة أو أكثر قضاها فـى المهنـة التـي جعلته مشهوراً بأنه منافس لسقراط و أرسطو ، ذكر أبيلار أن إيلويز لم تكن علي درجة كبـيرة مـن الجمال ، بل إنها كانت ذات جمال عادي ، إلا أنها كانت متفوقة فى سعة اللغة، لذا ربما كان مصـــدر انجذابه إليها في أول الأمر هو تجسيدها لإلهة العلم التي كان واقعاً فى غرامـــها[٢] لـم يكـن أبيـلار منجذبا لإيلويز من الناحية الشكلية ،وإلا لما سمح له خالها فولبير أن يكون علي مقربة منها وذلـــك إذا ما لاحظ أية إشارة تدل علي انجذابه إليها. فمن المحتمل أن "فولبير وغيره من شمامسة نوتردام كـانوا يظنون أن ذلك العدو المعين حديثاً فى مجتمعهم – الأستاذ أبيلار – كان شخصا تعوزه العاطفة ، واقـع في غرام الإغريق القدامى والنجاح الذي حققه"[٣] لعل حكاية أبيلار تتلخص فى كونه بالرغم من عـــدم وجود سابقة خبره عاطفية له، فقد شرع فى إغواء إيلويز وخداع فولبير وأصدقائه منذ البداية ، وذلـــك الأمر وارد ، "إذ أن أبيلار كانت لديه دائماً نزعة مدمرة للعمل ضد مصالحه الحيويـــة" ، والاحتمـال الأقرب هو أن أبيلار ربما وافق فى البداية علي أن يعيش فى منزل فولبير ويقوم بـــالتدريس لإيلويـــز كوسيلة للفوز بالحظوة عند فولبير وزملائه من شمامسة نوتردام الذيـن أصبحـوا الآن زملائـــه فـــى باريس[٤] .

لم يحظ أبيلار عند وصوله باريس بمنزل خاص به ، إلا أنه أشار أن مـــنزل فولبـــير كـــان بجوار المدرسة مباشرة ،بيد أن تلك الميزة فسدت هي الأخرى بشكل كبير مثـــل غالبيـــة مخططـــات أبيلار ،وذلك لأنه لم يُبد مشاعره ، كما أنه لم يأخذ فى اعتباره مشاعر الآخرين، فعندما سألته إيلويـــز عما إذا كان قد أحبها بالفعل أو اهتم لأمرها ، لم يتردد فى أن يجيب قائلا "لقد أشبعت بـــك رغبـــاتي الحقيرة وكان هذا كل ما أحببته"[٥] .

(١) Jean de meun ,Op.Cit, p .44

(٢) Ablelard , Historia , p. 17

(٣) Le Goff , pour un autre , p 183

(٤) paul , Op. Cit., p. 195

(٥) Duby, Dames du XII siécle, p.74

– عند تقييم تلك الكلمات القاسية، يجب علينا أن نتذكر أنها قد كتبت مثل كل ما قاله عن إيلويز بعد مـــرور خمســة عشر عاماً أو أكثر , ولعل أزمة خصائه قد جعلته يشعر بالاشمئزاز تجاه الجنس وشوهت ذكرياته. (الباحث)

- حـــب الراهب والراهبـــــة:-

لقد كان لدي أبيلار غرضاً معيناً في إخبار إيلويز أن حبه لها لم يكن سوي شهوة ، حيث أنـــه أصبح راهباً وذلك في الوقت الذي أصبحت فيه هي الأخرى راهبة , وبناءً علي ذلك ،فقد كان يتوجـب عليهما أن يحبا الرب بدلاً من حبهما لبعضهما البعض.كانت تلك الطريقة هي الوحيدة أمام أبيلار لكـــي يرد علي إصرار إيلويز علي أنها لا تزال حبيبته الوحيدة ،وأنه كان من القسوة والظلـــم أن يعرضــه الرب للخصاء[1] .

لم يكن خصاء أبيلار أمراً محرجاً فقط بوصفه رئيس دير سان جيلداس،وأنه كـــانت بحياتــه راهبة تقسم علي حبها الخالد له وتشتكي من الرب ، و إنما كان من غير الواقعي أن تواصـــل ايلويـــز مسار ذلك الحب في الوقت الذي أصبحت فيه هي الأخرى رئيسة دير . لقد كان الخصــــاء حقيقـــة لا يمكن تغييرها مثلما كانت نذور الرهبانية التي قطعوها علي أنفسهما فالقانون الكنسي لن يســـمح لـــهما ولا رأي عامة الناس أن يحنثا بتلك الوعود ،حتي وإن كان الكثيرون يشعرون أن إيلويـــز لا تســتحق ذلك المصير ، فكان سيصبح من الصعب جداً عليها أكثر من أبيلار أن تتخلى عن الرهبانية في الوقـت الذي تحتاج هي فيه الحماية أكثر من أبيلار[٢]

بالإضافة إلى محاولة منع تدفق المشاعر والاتهامات المضادة التي كـــانت توجهـــها إيلويـــز لأبيلار، كان أبيلار يحتفظ بقدر من المودة تجاهها يكفي لإقناعها بأن حياتها في الدير يجب ألا تكـــون سلبية ويائسه بسبب معاناتها من ناحيته ، بل يجب أن تتسم بالبهجة الإيجابية في حبها الجديد للمسـيح ، "إن المسيح المخلص هو الذي يستحق تعاطفها وليس أبيلار ، فمنذ وقت طويل كانت قد وقعـــت فـــي غرام بشر ساقط ، ومن المؤكد الآن أنها يمكن أن تقع في حب المسيح الذي هو مقدس فـــي الحقيقـــة والذي أصبحت هي عروسه عندما تعهدت بنذورها كراهبة".[٣]

ولإقناعها بذلك ، ألف أبيلار صلاة لكليهما معاً ، والتي تعد قطعة نثرية غايـــة فـــي البلاغـــة اللاتينية، وكان المقصود بها "أن تجعل إيلويز تقبل أن ما حدث لهما كان أمـــراً عـــادلاً مقـــدراً و إذا استطاعت أن تقبل هذا الآن ،فسوف يحظى كلاهما بمكافأة في الحياة الآخـــرة ، أمـــا إذا رفضـــت ،

---

(١) Duby , Op. Cit., P. 76

(٢) Robertson , Abelard and Heloise, p. 205

- في الوقت الذي أصبحت فيه إيلويز مقدمه دير أرجنتي Argenteuil ،وذلك بعد مرور حوالي عشر ســـنوات علـــي دخولها الدير،تعرضت إيلويز وبعض الراهبات للطرد بسبب عمل لا أخلاقي ،وقد تم ذلك الطرد بتصريح من المنـــدوب البابوي وأساقفة المنطقة وملك فرنسا نفسه ، وقد أنقذها أبيلار بتعيينها رئيسه لدير الباراكليت ، فقد كان كل منـــهما غير قادر علي تحمل فضيحة أخرى وعار كنسي انظر، charrier , Heloise dans l'histoire , p.239

(٣) Mclughlin,M.M.," Abelard's Rule for Religious Women "in Medieval Studies 18 (1956),p.241

فسوف تبعد أبيلار الذي كانت تدعي أنها تحبه أكثر من أي شئ – كما تبعد نفسها عن تلــك المكافــأة" وبتلك الأمنية التقية ودع أبيلار إيلويز مذكراً إياها مرة أخرى أنها كانت عروس المســيح ويجــب أن تحيا كذلك.(1)

نجح وداع أبيلار الديني فى إسكات إيلويز لدرجة أنها لم تدون أي شئ عن حبها له, بل إنــها واصلت اتصالها به علي مستوي رسمي بالسماح له بالتصرف فى بعض الأمور بوصفه أرفع مكانــاً منها من الناحية الدينية ، وقد أعرب أبيلار عن اهتمامه المتواصل بها وذلك بتوفير عدة نصوص لــها ولأخواتها فى دير الباراكليت ، وكان أبيلار أكبر مساهم بالكتب والنصوص التعبديــة للراهبــات فــى القرن الثاني عشر الميلادي(٢) وبالنظر إلى كل العمل الذي قام به فى فترة الرهبانيــة بالإضافــة إلــى ٧٠,٠٠٠ كلمة هى تلك التي كتبها لإيلويز وهي راهبة ، فكان أمراً حقيراً ومؤذياً من سان برنـــار أن يقول وقت محاكمة أبيلار فى سنس عام ١١٤٠م أن أبيلار لم يكن لديه من صفــات الراهــب ســوي الاسم والعادة ، ومع ذلك فان سان برنار ربما كان يعلم أن ذلك التوصيف قد يلمس وتراً حساساً لــدي الجمهور ، لأن عدداً قليلاً من أصدقاء أبيلار كانوا ينظرون إليه على أنه مجرد راهب(٣).

رداً علي محاكمة أبيلار ، ظهرت قصيدة شهيرة لاتينية بعنـوان **Metamorphosis Goliae** جعلت أبيلار خصماً للرهبان حيث صورته فى صحبة كبار مفكري روما القديمة وكل منهم قد أحضـر سيدته لمأدبة مقدسة من العلم ، إلا أن عروس أبيلار لا يمكنها العثور علي "بلاطين" لها وســط تلــك الصحبة وذلك لأن الشخص الكبير – يقصد برنار – قد أسكت المعلم الشهير وبعبارة أخرى فان جـدال أبيلار مع سان برنار تم تفسيره من جانب ذلك الشاعر علي أنه صراع بين أتباع الحركـــة الإنســانية الكلاسيكية بزعامة فارسهم المتودد وبين الرهبان الذين يميلون لإعاقة التقدم وانتشار المعرفة يترأســهم كبير الأساقفة الذي عين نفسه بنفسه(٤) إضافة لما سبق ، نجد أن شاعر قصيدة **M orphosis Goliae** يركز كثيراً علي عروس أبيلار .فبعد عشرين عاما أو أكثر من كونها راهبة ،لا يزال يتــم تصويــر إيلويز وهي تبحث عن حبيبها و الذى تتخيله فى قناعه الدنيوي بأنه "بلاطيــن" والقصيــدة لا تصــور إيلويز فى دور الصمت والخضوع الذى كان أبيلار يطالبها به بوصفها راهبة ، فـــهي لا تتعلــم فــى

---

(١) Muckle , J.t . " Letters of Abelard to Heloise, in Medieval Studies 15 (1953) p. 73
- جاء فى تلك الصلاة :(يا أيها الرب أتم برحمتك ما بدأته برحمتك ، واجمع بين الذين تفرقا عن بعضهما البعــض لفترة فى الدنيا معك فى السماء، فقد كنت أيها الرب معنا وافترقت عنا فى الوقت الذي تريد وبالطريقة التـــي أردت فاجمعنا معك برحمتك ولا تتركنا " . انظر Dronke, p, Abelard and Heloise in Medieval Testimonies, London, 1976 p. 36

(٢) Charrier , Op. Cit., P. 241

(٣) Pierre Lasserre, Op. Cit., P. 87

(٤) Dronke , Medieval Testimonies , P. 36

صمت وبخضوع كامل كما يقول القديس بولس أنه يجب علي كل امرأة مسيحية أن تفعله ، بل علـــي العكس ، فان عروس أبيلار لا تزال هي إيلويز التي قابلها أول مرة فى باريس، لقـــد كـــانت الســيدة المشهورة بالعلم الوثني والتي كانت لديها من العلم ما يجعلها تتخاطب مع كتاب روما القديمـــة وجـــهاً لوجه. (1)

كذلك فان إخبار إيلويز لأبيلار بمدي استمتاعها بالعلاقة الحسية التي كانت بينهما, يـــدل علـــي أنها لا ترفض الشعور بالخجل مما أسماه هو والكنيسة " شهوة" بل إن ما كانت تحاول التعبير عنه هـــو أنها لم تستطع الشعور بالخجل بعد ، لأن الرب لم يشفيها بالطريقة التي عاقب بها أبيـــلار (٢) . ولكـــن من المحتمل أيضا أن إيلويز كانت تنظر لأبيلار باعتبار أنه لن يكون قادراً علي الاستجابة لمشـــاعرها واعترافاتها ، وذلك لأنه لم يستطع تجديد العلاقة الحسية معها مرة أخري ولأنه لـــم يســتطع تغيــير رأيها، ولقد أحست إيلويز أنه من الحقارة أن تستخدم ما حدث له كوسيلة لإذلاله والضغط عليـــه لكـــي تكون مسيطرة علي تلك العلاقة ما لم تمر هي الأخرى بتجربة خصاء ذهنية, ولا يوجد دليل علي أنـــها قد مرت بمثل تلك التجربة , ستظل تروادها دائمـــا الأحـــلام والخيـــالات واتهامـــها للـــرب بـــالظلم والقسوة.(٣).

---

(١) Charrier , Op. Cit , p. 243

- يوحي وصف شاعر القصيدة بأنه كان علي علم تام بإصرار إيلويز فى خطاباتها إلى أبيلار علـــي أنـــها حبيبتـــه الوحيدة التي لا تزال واقعة فى حبه، فهو يستشهد بكثير من العبارات فى خطاباتها الدالة علي ذلك مثل :" لقد كـــانت لحظاتنا معاً حلوة جداً بكل ما فيها ، كما أنها لا يمكنها أن تتلاشى من ذاكرتي ، وإنني كلما التفت أجدها ماثلة أمـــام عيناي " ويوضح ذلك مدي انتشار تلك الأشعار والخطابات بين كثير من الشباب داخل المجتمع الباريسي فـــي ذلـــك الوقت علي نحو ظاهر لا التباس فيه . (الباحث) .

لمزيد من التفاصيل عن تلك القصيدة انظر ،

Dronke, Op. Cit.,pp. 36 – 38; Mclughlin, Op .Cit, p. 289.

(٢) Dictionnarie d'Histoire Ecclésiastiqu , 23 , p . 947

(٣) Duby , Dames du XII ' siècle , p. 82

-حظيت مسألة صدق توبة إيلويز أم لا فيما يتعلق بكلامها الدائم عن العلاقات الحسية والمشاعر مع أبيلار باهتمـــام العديد من الباحثين كان أبرزهم القس الكاثوليكي Muckle الذي قام بتحرير خطاباتها عام ١٩٥٣م ، أعرب فيها عن صدمته من عجز أبيلار عن الاعتراض على إيلويز فيما يخص دعاوى الحب الآثمة والمثيرة للعواطف التـــي كـــانت إيلويز تحدثه عنها،إلا أن ذلك القس حاول علاج ذلك الأمر بأن جعل إيلويز تتفق مع الأرثوذكسية التقليدية حول سلوك الراهبات عن طريق الحوار والجدل ، كما استبعد كل الأجزاء المسرفة والآثمة من خطاباتها بحجة أنها مزيفة علي حد زعمه . (الباحث)

لمزيد من التفاصيل راجع، Muckle , Op .Cit , P. 59

ردا علي الدعاوى بتزوير الخطابات وكثرة الكلام فى هذا الشأن ، فقد أثبت العديد من الباحثين فى السبعينات والثمانينات من القرن العشرين أن مضمون ما جاء فى تلك الخطابات يتفق والكتابات الأخرى فى ذلك الوقت الخاصة بأبيلار وإيلويز سواء الرسائل المباشرة أو المتواترة فى كتابات بعض المعاصرين لهما والتي تؤكد كثيراً من الأحداث المذكورة فى تلك الرسائل . وتقول هيلين وادل أن Chrétien de Troyes – مؤسس الكتابة الرومانسية الفرنسية – كان يمتلك نسخة من الخطابات التي ربما استطاع الحصول عليها فى منطقة Troyes حيث يقع دير الباراكليت [١] وقد ذكر كرستوفر بروك أن السيدات كانت تختلط بحرية مع رجال الدين الذين نالوا قدراً كبيراً من التعليم فى ساحة الكاتدرائية وتلك هي البيئة التي أفرزت إيلويز.[٢]

لقد وصف Peter Dronke [٣] أسلوب كتابة النساء فى العصر الوسيط ، وقد قام بتحرير النصوص اللاتينية الصعبة والتي لم يتبق منها سوي أجزاء ، منها ما يخص أبيلار وإيلويز . وتذكر إحدى القصائد خصاء أبيلار وما جاء فى خطابات إيلويز من أنها لا تتحمل أي ذنب لما حدث ،وذلك لأنها لم تُبد موافقتها عليه كذلك هناك قصيدة أخرى تربط بين إغواء أبيلار لإيلويز وبين تحول أمه إلى راهبة ، وهو أمر صحيح من حيث الترتيب الزمني للأحداث، وفي رأي ذلك الشاعر أن أبيلار لم يستحق أن يتم تسميته بالعاشق ،وذلك لأنه كان قاسيا مع إيلويز ، فى الوقت الذي عملت هي لأجله كل ما يرغب ويحب.

كانت إيلويز تطيع أبيلار لدرجة أنها أصبحت راهبة وفقا لأوامره وهي بذلك قبلت هجره رغماً عنها . ويدل وجود هاتين القصديتين علي أن علاقة أبيلار وإيلويز كانت تُبحث فى الأوساط الكنسية وأنها استمرت تُناقش حتى بعد دخول إيلويز الدير.[٤]

---

(١) Gilson ,E., Heloise et Abélard , p. 145 ; Waddell , Op , Cit , P. 46

(٢) Brooke , ch , The Medieval Idea of Marriage , Oxford , 1989 , pp . 91-92

(٣) Dronke , Testimonies , pp . 19 , 45 – 46

(٤) Mclughlin , Op. Cit., p 288

– لا يوجد دليل علي أن خطابات إيلويز لأبيلار كانت تنشر قبل أن يقوم جان دو مون Jean de Meu n بنشرها بالفرنسية فى السبعينات من القرن الثالث عشر الميلادي . والسؤال الذي يتردد كثيراً هو : كيف يعرف هؤلاء الكتاب الأوائل شعور إيلويز فى الوقت الذي لم يطلعوا فيه علي الخطابات بالصورة التي لدينا اليوم؟ والإجابة هي أن معرفة أبناء عصر أبيلار بشأنه هو وإيلويز لم تأت من النصوص الكاملة والخطابات، و إنما من خلال الأحاديث التي كانت تنشأ بأشكال مختلفة فى مختلف المحافل سواء الكنسية أو التعليمية، إضافة إلى القصائد اللاتينية والأشعار التي كان يتغني بها الطلاب فى أرجاء باريس ، والتي جمع Dronke الكثير منها ، كانت إيلويز تعد أشهر سيدة فى فرنسا كلها خاصة بين الأوساط الأدبية , وإذا كان أبيلار أشهر أستاذ فى مملكة المسيح أو أسوءهم سمعة علي حد تعبير المصادر. فإن الجميع كان يعلم بما ارتكبه الاثنان ، وكما قال الأستاذ روسلان : " إن أعمالهما التي قاموا بها معاً أو قام كل واحد منهما بها علي حدة ظلت تحظى بالاهتمام بقية حياتهم وقالت إيلويز أنها لا تبالي كثيراً بشأن ما يقال

يدل اهتمام إيلويز بما يقال عنها ، على أنها شاركت هي الأخرى فـي ذلـك الجـدل الدائـر حولهما هى وأبيلار ، فعلي الرغم من أن أبيلار كان قد انفصل عن المجتمع الباريسي منسـحباً إلـى سان جيلداس عام ١١٢٥م ، فإن إيلويز لم تنعزل جغرافياً أو اجتماعياً ، سواء عندما كانت مقدمة ديـر أرجنتي ، أو عندما كانت رئيسة دير الباراكليت . "كانت أرجنتي تبعد مسافة سفر نصف يـوم مـن وسط باريس ، كما أن موقع الباراكليت كان قريبا من مقاطعة تروي الواقعة علي الطريق الرئيسـي ، والتي كانت ملائمة لمعارض شامبني التي تقام فيها ،والتي هي أكبر سوق بفرنسا".[١]

كان الباراكليت نموذجاً للأديرة والأماكن المقدسة فى القرون الوسطي ، والتي كـانت تعتمـد علي ارتياد العديد من الزوار لها من أجل تقديم الدعم المالي والمعنـوي ، وكـانت الأديـرة مراكـز للاتصال ، وكان الرهبان متعهدي الأخبار الأساسيين. كان نظام الرسـل وكـاتبي الخطابـات لسـان برنار، يماثله نظام أخر لدي بطرس الموقر رئيس دير كلوني وباعتبارها امرأة كان مـن المتوقـع أن تكون إيلويز أكثر خجلاً واحتشاماً فى تصريحاتها ، فلم يكن لدي الراهبات مجموعة الأوامر البندكتيـة والكلونية، كذلك فهي لم يحكم عليها بالصمت ، وبمجرد أن تصبح مقدمة دير ثم رئيسـة ديـر فانـه يمكنها أن تذهب لأي مكان تريده وتتحدث إلى من تريد.[٢]

وبوصفها مقدمة دير أرجنتي وهو دير ملكي قديم ، ثم رئيسه مؤسسـة البـاراكليت الجديـدة الناجحة ، وصلت إيلويز ذروة استقلالها كامرأة .ولعل بعض الأقاويل التي تناولت حبـها المتواصـل لأبيلار قد خرجت عن إيلويز نفسها ، سواء من خلال الكلمات التي قالتها ، أو من خلال الجدل الـذى كان يحيط بها ، وقد انتقلت إيلويز إلى دير الباراكليت وهي محاطة بالسـمعة السـيئة وإن كـانت لا تستحقها ، وذلك لأنها ُطردت من دير أرجنتي.[٣]

عنها من الجميع بسبب إهمال أبيلار لها منذ تحولها للرهبنة ،ويذكر روسلان أن الطبقات المثرثرة فى باريس كـانت كثيرة ، ويدل ذلك علي أن تلك العلاقة كانت أمراً شائعاً ومعروفاً .انظر Jan de Meun , Op. Cit., P. 22

وعن أشعار أبيلار انظر ، Dronke, Op. Cit., P. 46

(١) Le Goff , Les intellectuels , P . 46

(٢) Robertson , Op. Cit., pp. 84-85

(٣) Muckle , Op. Cit., p. 88

- من المحتمل أن حكم إيلويز كمقدمة دير أرجنتي كان غير صارم ، وذلك لأن الدير كان مألوفاً لها منذ طفولتـها ، كما أنها كانت تعد عديمة الخبرة فى ذلك الشأن .كذلك فقد كان أبيلار كثيراً ما يؤنبها علي حديثها حول بعض الأشياء منها ما ذكرته حول براءتها والتزامها بالعفة ، فرد عليها أبيلار مذكراً إياها بأنه جامعها فى حجرة الطعام فى ديـر أرجنتي وهو مكان مقدس ، فى حين أنها كانت تقول له " ليس فقط الأشياء التي فعلناها ، ولكـن أيضـا الأوقـات والأماكن التي فعلناها فيها ثابتة تماماً فى ذهني لدرجة أنني أقوم بكل شئ هناك معك مرة أخري " .

مما سبق يتضح مدي ما كان يتناثر من حديث سواء فى مختلف المجالس الكنسية والأدبية ، أو من خلال الخطابات ، و هو الأمر الذي أدي إلى مطاردة الشائعات لهما حيثما ذهبا و كان دائما وبالاً عليهما . (الباحث)

وعن رد إيلويز انظر ، Duby ,Dames du XII siècle , P.87

يصف أبيلار في كتابه تاريخ المصائب ، كيف كان الناس ينشرون عنـــهم الإشـــاعات بســـبب تعيينه لإيلويز كرئيسة لدير الباراكليت[1] و أياً كان ما يفعله هو أو تفعله هي: ففي البداية كان أبيـــلار يتجاهلها ، فقال الناس عنه أنه حقير. وعندما بدأ في زيارتها ، قالوا أنه لا يزال عبـــداً لشـــهوانيته ولا يقوي علي فراق حبيبته. حتى بعد ما سافر وأكدت له إيلويز أنها لن تكتب له شيئاً آخر عن هواهـــا ، لم يكن متأكداً ما إذا كانت ستأخذ دخولها الرهبنة بشكل جدي ، كانت تستثيره بأن تكتـــب لـــه بأنـــها تعتبره رئيسها الديني وكذلك عشيقها. وكانت تسأله عن كيفية تصرف رئيسه الدير ، وهل ينبغي عليـــها أن تخالط الضيوف أم لا ؟ وهل ينبغي أن يجلس الرجال علي مائدتها مع النساء؟ ومـــاذا إذا ثملـــوا ؟ وقد ذكرها ذلك الكلام ببعض أبيات من قصيدة أوفيد " فن الحب " ، حيث استشهدت منها بستة أبيـــات، إما أنها كانت تحفظهم عن ظهر قلب لذلك الشاعر الذي اشتهر بأنه " معلم الشهوة والفجور " أو كـــان لديها نسخة فى الدير.[2]

كانت إيلويز تتصور أن وجود الرجال علي مائدة رئيسة الدير من النساء أمر طبيعـــي، فقـــد يكون من الأسوأ وجود النساء فقط ، وذلك لأن المرأة يمكن أن تنقل الأفكار السيئة بمنتـــهى الســـهولة لامرأة أخري ، وعند تلك العبارة أصبح لدي أبيلار الحق فى أن ينزعج فقد ذكرت له مراراً إلـــي أي مدي كان عقلها سيئ الفكر : فقد كانت تفكر فى الجماع حتي وقت القداس ولم تخجل أو تنـــدم علـــي ذلك . وقد أوضحت إليه أنها علي الرغم من أنها لن تكتب له أي شئ آخر عن حبها له ، فإنه لم يكـــن صعباً بقدر ما كان مستحيلاً أن تهذب حديثها فكانت تقول " إنني أعترف بأنـــه لا يمكننـــي أن أمســـك لساني فى أحيان كثيرة" [3]

---

(١) Abelard , Historia , P.43
Charrier , Op. Cit., p 229

(٢) كانت قصيدة فن الحب لأوفيد إحدى النصوص الكلاسيكية المستخدمة فى المدارس لتعلم اللاتينية ، ولـــذا ربمـــا كانت هناك نسخة منها فى مكتبة الدير حيث كان أبيلار يرغب فى تحسين مستوي اللاتينية لدي الراهبات من خـــلال مجموعة من المصادر اللاتينية وبعض كتابات آباء الكنسية والخطب والأشعار وهو الأمر الذي تحدث عنه كثيراً فـــي الخطابات . انظر ، Radice , Op. Cit., PP. 239 , 160 , 225 , 279

وعن قصيدة أوفيد وأثرها فى التعليم فى العصر الوسيط انظر،
Hexter, R.J. Ovid and Medieval Schooling, Cambridge, 1986, p. 111

(٣) Muckle , Letters , Medieval Studies , 17,p.244

– لعل إيلويز والنساء اللاتى كن يجلسن معها علي مائدة رئيسة الدير كانوا كثيراً ما يتحدثن عن أســـرار العلاقـــات الخاصة ، ولا يعني ذلك أنها كانت تروي فضائح عن أبيلار أو غيره ، ولكنها كانت علي استعداد أن تتحـــدث عـــن مشاعرها الجنسية وتناقش الأدب الكلاسيكي غير العفيف مثل فن الحب . و ما كان ذلك ليقلق الأساقفة الذين تلقـــوا تعليماً كلاسيكياً تقليدياً متقدماً مثل تعليمها أمثال مـــاربود Marbod ، أو هليدبـــرت مـــن لافـــادرين Hildbert of lavardin كذلك ما كان ذلك ليقلق أيضا رجال الكنسية المتقدمين أمثال سان برنـــار أو وليـــام أوف ســـان تـــيري St.Thierry ، الذين خصصوا آلاف الكلمات للوعظ والكتابة عن الحب والشهوة .إلا أن إيلويز كانت تصدم بذلـــك=

وفوق كل ذلك ، فقد صدمت إيلويز أبيلار نفسه بذلك الكلام فى الوقت الذى أصبح يشعر فيـــه بالاشمئزاز من الشهوة بعد حادث الخصاء. وكان رد فعله علي الخطاب الذى استشهدت فيه بقصيــــدة فن الحب أن قال لها أن تصمت . كان ذلك الرد فى الوقت الذى سألته إيلويز فيه أن يعطيــــها قانونـــاً للراهبات داخل الدير، وقد "استطاع أن يوجه طعنة خاطفة بأن القاعدة الأساسية هي الصمت".[١]

" الصمت " فى مفهوم أبيلار يحل محل " الطاعـــة " بـــإحدى الفضـــائل الثلاثـــة الرهبانيـــة فالراهبات الصامتات يكن بشكل تلقائي مطيعات ، وذلك لأنهن لا يسعهن الرد ، فالصمت كما أضـــاف ، يجب أن يُدرس ، فيجب أن نريد وننوي أن نكون صامتين , ورداً علي قول إيلويز أنـــها لا يســـعها إمساك لسانها ، استشهد أبيلار برسالة القديس James : " اللسان شديد القوة لدرجـــة أنـــه يمكنـــه أن يسبب ناراً ، وسام جداً لدرجة أنه يمكنه أن يقتل ، و ألسنه النساء لأسوأ كثيراً من ألســـنة الرجـــال" . كذلك أعطي هذا لأبيلار الفرصة أن يضيف شهادة بولس الرسول عن كيف ينبغـــي علـــي النســـاء أن يتعلمن من الرجال فى صمت وطاعة.[٢]

ربما كان ذلك الموقف من أبيلار صحيحاً ،لكن هل أرضى ذلك إيلويـــز أو أغضبـــها أنـــه رد وموقف يصدر عن الرجل الذي تعلمت منه الكثير وتعلم منها أيضاً . وقد لخص أبيلار القاعدة التـــي وضعها لراهباتها بإخبارها ما يلي : " يجب أن نروض اللسان بالصمت المتواصل وبشكل خاص فـــى هذه الأوقات والأماكن : فى المصلي والدير والمهجع وحجرة إعداد الطعام ، وعند الإعداد للطعـــام ، وفوق كل ذلك ، يجب أن يراعي الصمت من قبل الجميع بدءاً من المساء فصاعداً.[٣]

=رجال الدين المحليين والناس العاديين الذين لم يكونوا معتادين علي الحديث عن العلاقات الجنسية بصورة علنيـــة علي الملأ مصحوبة بأبيات شعر لأوفيد . انظر ، Waddell , C. ,The Paraclete Statues , Gethsemani Abbey , 1987, p. 13

(١) Mclaughlin , Letters , P. 243; Charrier, Op, Cit., P. 230

(٢) Mclaughlin , Letters , Op , Cit , P. 246

وعن نصائح بولس الرسول انظر, العهد الجديد ،رسالة بولس الرسول الأولى إلـــى تيموثـــاوس الإصحاح ٢(٩-١٥).

(٣) Mclaughlin , Letters, Op , Cit, P. 247

- لا يبدو أن إيلويز انتبهت كثيراً لكلام أبيلار ، و ذلك لأن قوانين دير الباراكليت تفرض الصمت فقط عند قراءة الكتب فى حجرة الطعام وعند المساء إضافة لذلك ، وإذا كان أبيلار قد استبدل الصمت بالطاعة فإن القوانين جددت الفضائل الرهبانية التقليدية الثلاثة وهي : الفقر والعفة والطاعة ، دون أن تذكر شيئاً عن الصمت . انظر ، Waddell Op , Cit. , P .11

- رؤيـــة بطرس الموقر لتلك العلاقـــة :-

بما أن إيلويز لم تستطع – أو لم ترغب فى – أن تمسك لسانها ، فربما واصلت الحديث عـن مشاعرها تجاه أبيلار لسنوات بعد تبادل الخطابات. ولعل مثابرتها كانت معروفة ، بل وتلقي احترامـــاً فى صفوة الأوساط الكنسية . وقد يفسر ذلك الطريقة المميزة التي اتبعها بطرس الموقــر Peter The Venerable لإخبارها بنبأ وفاة أبيلار ، بوصفه رئيس دير كلوني Cluny. ويقر بطرس بأن واجبـــه كان إخبارها وأنه قد تأخر فى إبلاغها أن زوجها السابق ورجل الدين المحسن إليها ، قد توفي فى ديــر كلوني وهو محصن بطقوس الكنسية المقدسة.[1]

كان كل المطلوب هو خطاب تعزية من رئيس الدير إلى رئيسة الدير ولكن بدلاً مـــن ذلــك كتب بطرس إلي إيلويز خطاباً شخصياً وطويلاً واصفاً بوعي وجرأة – كما جاء فى رأي Dronke – علاقتها مع أبيلار بمصطلحات الحب . فقد أصبح شائعاً بالنسبة لرجال الدين ذوي التفكير الرفيـــع أن يستخدموا ألفاظ التحبب القوية عند الكتابة لبعضهم البعض ، أقل ما يكون للتعويض عن البعد المـــادي والعاطفي الذي كان يفصلهم في الحقيقة ولكن بطرس قد تخطي ذلك وأخبر إيلويز أن الرب يقــوم الآن " بضم " أبيلار فى أحضانه بدلاً منك " وحتى لا تسرع باستنتاج أن ذلك يعني أن الرب قد أخذه منـــها ، فقد أكد لها : " أنه يحتفظ به لك ، وعند النفخ الأخير والبعث ، سوف يعاد إليك بفضل الرب.[2]

منذ أصبحـــت إيلويـــز راهبــــة، " أصبحــت عــروس المســيح"، علــى حــد وصــف أبيلار لها ، مهما كانت مترددة فى الاعتراف بذلك . ويبدو أن بطرس الموقر كان علي علم بترددهـا ، لذا يقول أنه عند البعث سوف يعيد المسيح أبيلار إليها وعلي حد تعبـــير جيلســـون ، فـــإن النظريـــة اللاهوتية تعد محيرة بالتأكيد ، إلا إنها مناسبة فى تلك الظروف كما يقول . لقد قدم بطـــرس لإيلويـــز رؤية للرب لا يمكنها أن ترفضها، مهما كان شعورها باليأس والتمرد، وخصوصاً عند تلقيها نبأ وفـــاة أبيلار. والواقع أن أبيلار ارتكب بعد تجربة خصائه, خطأ متكرراً بإخباره لها أن تقبل حـــب الـــرب بدلاً من حبه، وبفهم وذكاء شديدين وعدها بطرس بأن حب الرب سوف يقودها يقيناً لأبيلار.[3]

لقد أخبرت إيلويز أبيلار من قبل أنها قد تتبعه إلى الجحيم ، وبالتأكيد كانت ستسبقه إلى هنـــاك وقد أكد لها بطرس الموقر أن أبيلار الآن فى الجنة ، لذا فعليها الاستعداد للحاق به إلى هناك وســـوف يعيشان معاً فى سعادة أبدية , وعلي الرغم من أن إيلويز قد أخبرت أبيلار أنها لن تســـعي وراء تـــاج النصر وأنها سترضى بأي ركن يخصصه الرب لها فى الجنة ، فإن بطرس أدرك أنها لن ترغب فـــى

(١) Le Goff , Les intellectuels , P . 46

(٢) Dronke , Testimonies , P . 23

(٣) Gilson , Heloise et Abélad, P .117

الذهاب إلى الجنة ما لم يكن أبيلار هناك ويعطيها كل اهتمامه. وبجرأة أيضاً ، "لم تطالب إيلويز بأي تاج لنفسها ولكنها ستصر بالتأكيد علي أن يحظى أبيلار بواحد وان تشاركه فيه بصفتها حبيبته وزوجته التي طالت معاناتها من أجله."(١)

لم يقابل بطرس الموقر إيلويز طيلة حياة أبيلار و حتى وفاته ,كما أنه لم يراسلها من قبل ذلك ، ولكنه قال لها أنه كان يتتبع عملها منذ كان شاباً وذلك عندما سمع عن تفانيها الغير عادي للأدب الكلاسيكي والفلسفة قبل أن تقابل أبيلار وقبل أن يصل هو إلى رئاسة دير كلوني حوالي عام ١١١٥م.إن اهتمام بطرس بأبيلار من ناحية أخرى ربما كان أكثر حداثة من اهتمامه بإيلويز. لقد كان بطرس راهباً منذ صباه فى بلدته برجندي ولا يوجد دليل علي أنه كان يدرس بمدارس باريس وهو شاب – فى الفترة التي يحتمل أنه تعرف بأبيلار فيها – ومن المحتمل أن بطرس لم يقابل أبيلار قبل أن يعطيه حق اللجوء إلى كلوني بعد الحكم عليه فى مجلس سنس **sens** عام ١١٤٠م (٢) ثم طغى أبيلار علي شعبية بطرس تماماً كما يوضح بطرس فى خطابه لإيلويز, كذلك فقد كان لديه سبب آخر للدفاع عن أبيلار وهو أن بطرس، مثل أبيلار نفسه، قد تعرض للقذف علي يد سان برنار،وليس فقط علي مستوي فرنسا ,ولكن أمام المجلس البابوي فى روما. كان ذلك فى عام ١١٣٩ م، أي قبل مرور عام علي إدانه أبيلار، عندما نجح سان برنار أيضاً فى الإطاحة بالرجل الذى رشحه بطرس رئيس ديركلوني ، لرئاسة أسقفية **Longres**. (٣)

تعد رؤية بطرس الموقر لأبيلار و إيلويز وهما يتعانقان فى الجنة ذات صلة بدفاع أبيلار فى القصيدة الرمزية **Metamorphosis Goliae**، حتى وإن كانت تستحضر أساطير وثنيه. وكما سبق القول ,فإن تلك القصيدة تقارن أبيلار " البلاطين " المتودد للنساء مع الرهبان ورئيسهم الذى يرتدي القلنسوة، " سان برنار " ولعل بطرس كان علي علم بتلك القصيدة عندما كان يكتب إلى إيلويز،إذ أنها تتعلق بما حدث لأبيلار بعد مجلس سنس ، كما تحتفي بحب إيلويز الباقي له .وإذا كان بطرس يعلم بأمر القصيدة,فربما كانت إحدى نواياه أن يؤكد لإيلويز أنها هي و أبيلار كان لديهما أصدقاء بين الناس الذين يرتدون قلنسوة الراهب، وأنه هو بطرس رئيس دير كلوني كان الرئيس الحقيقي للرهبان ولم يكن سان برنار. والأهم من ذلك أن بطرس أكد لإيلويز أنها لم تعد تحتاج أن تبحث عن حبيبها لأنه وجد ملاذاً آمناً، أولاً في كلوني، ثم فى الجنة الحقيقة التي هي أفضل من قصور الآلهه القديمة(٤)

---

(١) Mcleod , E , Heloise – a Biography , London , 1971 p . 206; Waddell , The Wandeing , P . 109

(٢) Brooke , Op. Cit., pp. 103 , 107

(٣) Peter the Venerable , Letter (115) , P .308

(٤) Gilson , Heloise et Abelard P.121

يبقي السؤال الغامض وهو، لماذا ذهب بطرس الموقر لذلك المدي من أجل تهدئه إيلويز عقب إخبارها بذلك الخبر؟ كان بطرس يشبه إيلويز بالسيدات البطوليات فى قصص العهد القديم، كما أنه أخبرها أنه أعجب بها لوقت طويل، إضافة إلى أنه ذهب شخصياً إلى دير الباراكليت لتسليم جثمان أبيلار إليها حتي يتم دفنه. وكان مدحه المفرط لها يرجع لحرصه علي تنفيذ وصايا أبيلار الأخيرة بحذافيرها، وذلك بالرغم من تأخره فى ذلك الأمر.[١]

أما وقد توفي أبيلار، فقد حل بطرس محله كأب روحي لها، فكان يكتب إليها قائلاً: " لقد حفظت لك مكاناً خاصاً فى أعماق قلبي".[٢] لقد كان كبار رؤساء الأديرة مثل سان برنار وبطرس الموقر يكتبون بأسلوب متودد للسيدات اللاتي لم يكونوا يعرفونهن جيداً، وذلك لأن الرهبان كانوا ممثلي الحب فى الأدب تماماً مثل الشعراء الغنائيين. لم يكن حب الرب والعيش معه فى علاقة يومية يعتمد علي وجود إحساس قوي بحسن الأداء فى غناء الكورس، و لكن يعتمد علي علاقة حقيقة ومستديمة مع ذات لا يمكن رؤيتها أو إدراكها بالطريقة العادية, ولذا كان ذلك النوع من الحب يحتاج للتحليل , وقد قدم سان برنار شرحاً رائعاً لتلك العلاقة فى عظاته الست وثمانيين. عن قصيدة القصائد (The song of songs) وهي التي اضطر الرهبان أن يبدءوا بها مشاعرهم ورغباتهم فى الحديث عن كيفية حب الرب فى تلك الفترة.[٣]

****

(١) Brooke , Op .Cit , p.118

(٢) Peter the Venerable , Letters , P . 303

– اعتاد الرهبان علي قول مثل تلك الأشياء ، حيث كان ذلك جزءاً من الأسلوب البلاغي المعبر عن الصداقة الروحية, وكان سان برنار أهم من مارس ذلك النوع من الكتابة، فكان يكتب إلى كونتيسة Ermengard والتي كانت راهبة أرستقراطية مثل إيلويز قائلا " أتمنى أن أجد الكلمات التي تعبر عما أشعر به تجاهك ..... ابحثي فى قلبك ستجدي قلبي هناك أيضاً" . وذلك علي الرغم من عدم معرفته بتلك الكونتيسة سوي أنه رسمها راهبة . انظر ،

Leclercq , J ., Monks on Marriage : a Twelfth Century View, London , 1982, P.49

(٣) Leclercq , Op. Cit., p. 51

– كانت قصيدة القصائد تعد نص هام جداً لدارسي ومثقفي ذلك الوقت ، حيث أنها كانت تقدم لهم الكلمات والمصطلحات الجنسية التي أجازها الكتاب المقدس بصورة مبسطة تتفق والذوق العام والأخلاقيات . وكثيراً ما كان سان برنار يسأل رهبانه عن حب المسيح وكيفية التفاني فى ذلك الحب والوصول إليه، وقد وصف سان برنار الحب الطاهر قائلا " الحب الطاهر يخلو من الجشع، فهو لا يستمد القوة من الأمل ولا يضعف بسبب أي سوء ظن.وهذا الحب هو الذى تشعر به العروس. وبهذا الحب هي زاخرة وبه أيضاً يكون العريس قانعاً، فهو لا يطلب شيئاً آخر، كما أنها ليس لديها أي شئ أخر تعطيه له، ولهذا السبب تكون هي العروس ويكون هو العريس.انظر ،

Gilson, E., The Mystical Theology of St. Bernard, Cambridge, 1940, p .138

- الحب الإلهي والحب الإنساني:-

قد يقول الكافر بالرب أو بالحب في ذلك الحين، أن الرهبان الزاهدين أمثال سان برنار وبطرس الموقر كانوا يتناولون مالا يعدو عن كونه قصص ديني، حتي وإن كانوا قادرين علي بناء صروح عظيمة منها . فقصيدة القصائد تعد فى نظر البعض وثنية وليست وحياً مسيحياً، فالحب المثالي الذى ينسبه سان برنار للعروس لم يكن موجوداً سوي فى خيالاته, كذلك فإن تعبيرات الحب التي يستخدمها كلاً منهما ليست كما تبدو أن تكون، فكانت خطاباتهم الحميمة المسرفة في العاطفة تهدف لتعويض انعزالهم العاطفي والمادي عن من كانوا يراسلونهم.(١)

وقد أسرف بطرس الموقر فى شكر إيلويز بسبب زيارته السريعة لها، والتي قال عنها " أنها كانت تبدو لي أكثر بكثير من مجرد ليلة وحيدة عابرة" بيد أن إيلويز وصفت زيارته لها بأسلوب أكثر اتزاناً عندما قالت : " لقد احتفل بالقداس بوصفه رئيسنا وسيدنا ,ثم وعظ الراهبات فى الاجتماع "(٢) ومن المحتمل أيضا أن إيلويز لم تره أبداً بدون ردائه الديني أو غير مصحوباً بحاشيته، فلقد كان رغم كل شئ أعظم أسقف فى أوروبا بعد البابا.

أما بالنسبة لسان برنار وكونتيسة **Ermengard**، فيعلق الراهب **Leclercq** ,وهو محرر خطابات سان برنار قائلاً أن الغرض من كتاباته البلاغية كان جعل الكونتيسة تؤمن بحقيقة حبه، وبمجرد ما يتحقق ذلك ، لم يعد الوجود الجسدي يهم سوي بقدر ضئيل، فالذين يتمتعون بإيمان حقيقي لن يحتاجوا للوجود المادي سواء للرب أو لإنسان.(٣)

وبالنسبة لهؤلاء الرهبان، كان الحب الطاهر مبدأ ميتافيزيقى تماماً لا يمكن خلطة بالرغبة الجنسية البشرية، حتي وإن كان كلاهما يستخدم لغة جنسية، والويل لأي راهب أو راهبة تخلط بين الصداقة المقدسة أو الروحية وبين الحب الإنساني بين الرجل والمرأة(٤).

كانت إيلويز تشعر بأنها مسئولة عن خصاء حبيبها، وعلي الرغم من أنها أصرت علي أن خصاء أبيلار تم دون موافقتها بل حتي دون علمها - لأنها كانت منعزلة فى دير أرجنتي -فإنها اعترفت أنها ليست بعيدة عن الملامة الملامة، إذ أن ذلك الفعل قد تم علي أيدي عائلتها انتقاماً لشرفها : " لماذا ولدت حتي أصبح سبباً لمثل هذه الجريمة ؟ ، فحتي وإن كان ضميري مرتاح لجهلي

---

(١) Gilson , E., The Mystical Theology, p .139.

(٢) Peter the Venerable , Letter (168) , p .401;
Heloise's Letter (167) Peter The Venerable , in Radice ,Op, Cit. . , P. 285

(٣) Leclercq , Op. Cit., p.52

(٤) Weingart , The Logic of Divine Love , p. 87

بها ، لأنه لم تتم موافقة من جانبي تجعلني مذنبة فى هذه الجريمة، فقد كانت هناك آثامـــا قبــل هــذه الجريمة لدرجة لا تسمح لي أن أكون بريئة تماما من الذنب ."[١]

لعل ما كان يشكل قضايا نظرية فى الفلسفة الأخلاقية بالنسبة لأبيلار، والتي تحدث عنها فـــى كتابة الأخلاق ، كان يشكل بالنسبة لإيلويز واقعا يائسا. لقد كانت تشعر أنه بسبب ذنــب خــارج عــن إرادتها ، ارتكبت خطأ لا يمكن إصلاحه ، ولأنها عجزت عن إصلاحه، فلم يكن أمامها سبيل لكســـب المغفرة .وقد عبرت لأبيلار عن ذلك فى صورة مفارقة : " علي الرغم من أنني مذنبة ذنبـــا شـــديدا ، فإنني بريئة براءة تامة كما تعلم ".[٢]

كذلك وفي تجزئة إيلويز للوم تقول" فليس القيام بالفعل هو الذى يسبب الجريمة و إنمـــا نيــة فاعلة ، فالعدالة لا تنظر للأفعال التي تم ارتكابها ولكن للحالة الذهنية التي ارتكبت فيها" [٣] وعندمـــا تشرح لأبيلار كيف أنها مذنبة وبريئة فى آن واحد تقول : " أنت وحدك الذى يمكنك أن تحكم علي مـــا كانت عليه حالتي الذهنية تجاهك دائما لأنك أنت الذى كنت تشعر بها " ثم تستطرد قائلة : " إذا لم يكــن عقلي معك ، فهو ليس بمكان أخر ، والحقيقة أنه لا يمكن أن يكون أي شئ علي الإطلاق بدونك".[٤]

لم يكن كلام إيلويز السابق حالة رومانسية بقدر ما كان وصفا نفسيا لعدم قدرتها علي تغيـــير رأيها ، كان أبيلار علي أتم استعداد أن يرد إليها " ذهنها " وطلب منها أن توجه قلبها للمسيح عريســـها المقدس، ولكنها كانت رافضة بشكل غير مباشر ، إذ أنها كانت تردد بمنتهي البساطة أن ذهنـــها كـــان خارجا عن سيطرتها : " لا يوجد ما نستطيع السيطرة عليه أكثر من القلب ، فإننا مضطرون لإطاعتـــه أكثر بكثير مما يمكننا أن نأمره به"[٥]

لعل الأولوية التي تعطيها إيلويز لمشاعرها (حالتها الذهنية) ، تفسر تغير الأسلوب والنـــبرة فى خطاباتها إلى أبيلار فكثيرا ما كانوا يناقضون أنفسهم، إلا أن ذلك التوتر هو الذى يـــنـيـــهم القـــوة

---

(١) Wheeler, B., Listening to Heloise, Essays, Macmillan, 2000, P. 37

(٢) Mclughlin , Abelard and the Dignity of Women , p .291

(٣) Dronke , Testimonies , p . 36

– يعد فهم إيلويز لحالتها الذهنية هو أساس موقفها المعقد تجاه أبيلار فكلمة (Animus) اللاتينية التي اســـتخدمتها تعني "ذهن" ولكن ليس بمفهوم كلمة " فكر" الذى يوجه العقل مثلما تعد الروح أو القلب هما المركـــز المجـــازي للعواطف. أما بالنسبة لإيلويـــز، فإن (Animus) هي " الوعي " الذى ينشط البدن من خلال المشـــاعر، وهـــي أيضا "الضمير" الذى يدلها علي الصواب والخطأ.

انظر Truc , G , Abélard avec et sens Heloise , Paris , 1956 , p.57

(٤) Dronke , Testimonies , p . 36

(٥) Duby , Letter d'Heloise , P.77

والرنين. فكانت تبدأ بمناقضة رأيها بأن ذهنها لا يقع تحت سيطرتها، وكانت تخبر أبيلار بمـــا يلـــي : "فوراً وبناء علي أمرك قمت بتغيير عاداتي (عندما أصبحت راهبة) وذهني حتي أبين لك أنك المـــــالك الوحيد لجسدي وعقلي".(١)

هنا يتساءل ورثنجتون : إذا كانت قد غيرت ذهنها فوراً عندما أمرها أن تصبح راهبة وقـــت خصائه ، فلماذا لم تستطع تغييره مرة أخرى عندما ناشدها بعد ذلك بخمســـة عشـــر عامـــاً أن تحـــب المسيح بدلاً منه ؟ لقد كانت علي استعداد تام أن تتبعه إلى الجحيم، فلماذا لم تجد فى قلبها مـــا يجعلـــها تتبعه إلى الجنة ؟ إن ما كانت إيلويز تعنيه بقولها أنها غيرت ذهنها عندما أصبحت راهبة يعـــد أمـــراً متعذراً فهمه، لأنها باعترافها الشخصي لم تغير سوي مظهرها الخارجي. كذلك فإن ارتدائـــــها لبـــاس الراهبات لم يعن أن أبيلار كان المالك الوحيد لجسدها، بل علي العكس من ذلك، فإن المراسم العامـــــة لارتداء لباس الكهنوت والتي تمت فى حالة إيلويز علي يد أسقف باريس نفسه، جعلتها عروساً للمســـيح فى السماء وخاضعة لوصاية دير أرجنتي فى الأرض، وقانوناً فإن ذلك ينهي ملكية أبيـــلار لجســـدها باعتباره زوجها، وإن كان صحيحاً أنها أكدت له أنها بتحولها إلى راهبة فلا يستطيع أي رجل آخـــر أن يمتلكها بشكل شرعي، لقد أصبحت راهبة بناءً علي أوامر أبيلار حتي لا تزيد الطين بلة بأن يجبرهـــا أهلها علي أن تتزوج من شخصاً آخر.(٢)

لقد كانت المفارقة – كما أوضحت إيلويز – أن الحب دفعها إلى مثل ذلك الجنـــون لدرجـــة أنها تخلت عن أكثر الأشياء التي كانت تتوق إليها دون وجود أي أمل فى اســـتعادتها ، فقـــد حرمـــها الخصاء من قدرة أبيلار الجنسية. فلم يكن هناك داعي فى أن يحرمها من وجوده جانبها، ومن المؤكـــد أنه لم يكن ينبغي أن يحرمها من حبه كذلك.(٣)

كانت إيلويز تفسر تحولها لراهبة فى إطار حبها الخالص لأبيلار : " الرب يعلم أنني لم أســـع إلي أي شئ فيك سوي شخصك أنت فقط ، ولم أشتهي أي شئ ولم أتطلع لرباط زواج أو حتي مـــــهر، ففوق كل شئ وكما تعلم أنت، إنني لم أدرس لكي أحقق رغباتي أنا ، بل لأحقق رغباتك أنت ".

ومثل نموذج سان برنار فى قصيدة القصائد فى وصفه للعروس وأملها الوحيد الكـــــامن فـــي الحب، الذى يكون العريس به قانعاً، إلا أن أبيلار لم يكن قانعاً بتلك التضحية التـــي تقدمـــها عروســـه فكثيراً ما كانت إيلويز تلومه علي الكلام الغير صحيح الذى كتبه عن مشـــاعرها فـــي كتابـــه تـــاريخ

---

(١) Worthington ,Op.Cit., p. 94; Mcleod , OP.Cit. , p 209

(٢) Dronke , p , Women writers of the Middle Ages , Cambridge , 1984 , p .11

(٣) Heloise , Letter (1) in Radice , Op. Cit., p .113

المصائب قائلة : " لقد التزمت الصمت بشأن معظم أسباب تفضيلي العشق علي الزواج التي ذكرتـــــها في كتابك وتفضيلي للحرية علي قيود الزواج، وأشهد الرب أنه إذا كان الامـــبراطور أغســطس قـد عرض عليّ الزواج وقدم لي العالم كله للأبد , فسيكون أحب إلى قلبي وأكثر شرفاً لي أن يطلق علـــي معشوقتك بدلاً من لقب الامبراطورة".[١]

لقد كانت إيلويز تحكي بالفعل أحداثاً حقيقية، وذلك لأنها كانت تتظاهر مؤكدة أنـــها مجــرد عشيقة لأبيلار في حين أنها كانت في الحقيقة زوجته، وللإبقاء علي سرية زواجهما وحمايـــة ســمعة أبيلار الكنسية، أقسمت أنهما لم يكونا متزوجين، علي الرغم من أن عائلة فولبير Fulbert وأصدقائــه كانوا قد حضروا مراسم زواجهما في الكنيسة، وبإنكارها حقيقة ســر الــزواج كــانت إيلويــز تنكــر مصداقية القسم الذي أقسمت به أمام الرب، إضافة إلى اتهام عائلتها باطلاً بالكذب ، وانتقاماً لإنكارهـــا الزواج بتلك الطريقة المهينة قامت عائلة فولبير بخصاء أبيلار.[٢]

****

ـ ديـــن أبيـــــلار لإيلويـــز ـ

إذا كانت إيلويز تصر علي أنها أحبت أبيلار حبا نقياً لشخصه فقط ، وكأنـــها مثـــال يجســد نموذج العروس في قصيدة القصائد لسان برنار ، إلا أنها كانت تردد في نفس الوقت أنه مديــــن لـــها فتقول "تذكر، أتوسل إليك ما قد فعلته وانتبه إلى ما تدين به إليّ " .وكما اختتمت خطابــــها الأول لـــه قائلة: "تذكر افتقارك للعدل فعندما استحق المزيد لا تمنحني سوي الأقل – أو بالأحرى لا تمنحنــــي أي شئ علي الإطلاق ... تذكر، أتوسل إليــك، ما تدين به لي ، وانتبه إلى الحقوق التي أطالب بها".[٣]

توضح إيلويز أنها كانت تطالب بحقها من أبيلار لأقصى درجة، وان كانت تقول أن هذا ليـس سوي قدر ضئيل تطالب به وهو أقل من حقها. ولقد طرحت موضوع دينه لها أول مــرة فـــي ســياق

---

(١) Ibid , p.114

– يؤكد هذا الكلام ما قالته إيلويز من قبل من أنه علي الرغم من أن لقب زوجة قد يبدو مقدساً ومثالياً ، فإن كلمة صديقة (amica) كانت دائماً أكثر إرضاءً لها وكذلك لقب المحظية فهي بذلك تحاول أن توضح لأبيلار كيف أنه كان قاسياً معها حينما أمرها أن تتجنب الحديث عن حبهما مرة أخرى حتي لا تلوث معني الحب الطاهر ، غير أن إيلويز كانت تحاول أن تظهر له لأي مدي كانت علي استعداد لأن تذل نفسها من أجله (الباحث) .

(٢) Jean de Meun , Op. Cit., p 82 ; Duby , Op Cit , p 86 ; Le Goff , les intellectuels , p 46 ; D.H.G.E, Heloise , p . 951; Mculghlin , Op. Cit. p 292.

– ليس من المعروف لماذا لم يقم فولبير بمهاجمة إيلويز أيضا فلعلها كانت تحت حماية شديدة في دير أرجنتي ، أو ربما قال فولبير أنها لا يجب أن تمس بسوء لأنها لم تكن تفعل سوي ما كان يأمرها به أبيلار ، كذلك فهناك سبب آخر لترسيمها راهبة بشكل سريع في دير أرجنتي ، وهو أنها إذا كانت خرجت من الدير لكانت عائلتها انتقمت منها لقيامها بلعنهم واتهامهم بالكذب . انظر ، Mcleod , Heloise : a Biography , p . 215

(٣) Helois , Letter (1) in Radice , p .117

كتاب تاريخ المصائب ، وكانت مجروحه لأن أبيلار كان يكتب إلى ذلك المراسل المجهول ولم يكن يكتب لها : " أنت تسدد دين الصداقة لهذا الصديق ، ولكنك ملزماً تجاهنا بدين أعظم بكثير جداً لدرجة أنه لا يحتاج لحجج إثبات أو شهود" . وأكثر من ذلك ،فقد قالت لأبيلار أن إهدائه دير الباراكليت إليها جعله مديوناً لها، ولكي تسبقه قبل أن يجيب أن العكس هو الصحيح وأنها هي التي تدين له لإنقاذه إياها من دير أرجنتي قالت " وبخلاف أي شئ أخر ، تذكر حجم الدين الذى تدين به لي بشكل خاص".[١]

كيف قامت إيلويز بالتوفيق بين نموذج الحب النقي لأبيلار، و بين إصرارها علي كونه ملتزماً تجاهها؟ من بين الإجابات علي هذا السؤال هو أنها كانت تتحدث عن الحب النقي فى إطار زمني يسبق زواجهما . إن زواجهما الذي تم برغبة أبيلار ومعارضه إيلويز، أنهي حبهما النقي لبعضهما البعض، وذلك لأن نقائه حلت محله القيود الشرعية.[٢]

أوضح أبيلار في تاريخ المصائب كيف كانت إيلويز تريد الحفاظ علي " حب كان حر ولم يكن مقرر له أن يتقيد بفعل أية قوة لأي رباط زواجي". إلا أنه فور زواجها لم يكن من غير المنطقي أن تصر علي حقوقها الشرعية ، وبشكل خاص كانت فى حاجة إلى دحض أي رأي يفيد بأن زواجهما انتهي إما بسبب خصاء أبيلار أو دخولهما فى حياة الدين. وفي إحدى مواعظه للرهبان تحدث أبيلار بازدراء عن " الرباط الزواجي " مما يوحي بأنه لم يعد يعتبر نفسه متزوجاً. من ناحية أخرى، كانت إيلويز تجادل فى نفس الوقت قائلة :" يجب أن تعلم أنك ملزم تجاهي بالتزام أهم من أي التزام نظراً لرباط الزواج الوثيق المقدس ".[٣]

بذلك القول أصبح أبيلار ملزماً تجاه إيلويز كنتيجة لذلك الزواج، كما تزيد إيلويز كلامها قائلة" وإنك دائماً مديناً لي ، كما هو واضح للجميع ,بالحب الذى لا حدود له الذى غمرتك به " إن حبها الذى لا حدود له خلق التزامات تتخطي حتى رباط الزواج . والواقع أن الكلمة التي كانت تستخدمها إيلويز باستمرار للتعبير عن كلمة مدين هي Obnoxious وهي أقوي من كلمة ملزم Obligatus ، فالمدين يصبح مذعن أو حتي عاجز بسبب دينه.[٤]

---

(١) Heloise , in Mclughlin , p . 292 ; Muckle , Op , Cit , p. 84

- ركزت الباحثة شاريية علي مسألة دين أبيلار لإيلويز بشكل كبير علي مدار رسالة الدكتوراه التي وضعتها عن إيلويز ، وكانت فى كثير من الأحيان تتحامل علي إيلويز نظراً لمبالغتها فى الهجوم علي أبيلار ، والتي هي أيضا طرفاً فيه ، انظر ، Charrier, Op. Cit., passim

(٢) Jeandet, y . Heloise et l'Amour , Lausanne , 1966 , p.37

(٣) Abelard , Historia , p.33 ; Jean de Meun , Op. Cit., pp. 86-87

(٤) Worthington , Op.Cit , p.97

حقيقة إن حب إيلويز قد أعجز أبيلار, ولكن من وجهة نظر إيلويـــز تـــري أن خصائـــه قـــد ضاعف دينه لها ، لأنه جعل حزنها أعظم بكثير ، فنجدها تقول : " أنت وحدك سبب حزني ، و أنـــت وحدك يمكنك أن تواسيني، وأنت وحدك الذى تدين لي بالكثير جداً وخصوصاً الآن ". (١) لقد تجـــاوز أبيلار الآثار النفسية المترتبة علي خصائه بقبوله ما حدث علي أنه إرادة الرب لتحرير روحه ، غـــير أن إيلويز لم تستطع أن تتجاوز ذلك بسهولة، لأن ما حـــدث دمر إيمانها بالرب ، وهـــذا مـــا كـــانت تردده: " لأننـــي إذا اعترفـــت بصـــدق بسقـــم روحـــي البائســـة، لا أجـــد فيها أي توبة يمكننـــي أن أرضى الرب بها، لأنني أتهمه دائماً بأشد القســـوة بسبـــب هـــذا الحـــادث الظالـــم" .(٢)

لقد سبب خصـــاء أبيـــلار جرحاً لـــروح إيلويـــز لأنها شعـــرت أنـــه كـــان خطأها ومنـــذ ذلك الحادث كانت تعانـــي مما وصفته بأنه " مرض داخلي " ، فكان قلبها أو ذهنـــها غيـــــر متصـــل بجسدهـــا، وكما قالت لأبيـــلار: "يا ليت قلبي المتألم علي استعداد للطاعة مثل اليد التي تكتـــــب هـــذا الكلام"(٣). وقد عبرت عن حزنها باقتباس قطعة من الشاعر اللاتيني Lucan يتحدث فيها عن كورنيليـــا Cornelia وهي تلوم نفسها علي هزيمة بومبي Pompey قائلة :" يا أعظم الأزواج ، أنا لست جديـــرة بفراشك ! هل للقدر سلطة علي شخص بعظمتك ؟ لماذا ارتكبت هذا الخطأ الشنيع وتزوجتك وجلبـــت عليك المصيبة؟ والآن أقبل العقاب الذى أصبحت مستعدة لأن أناله " .ويقول أبيلار أن إيلويـــز كـــانت تصرخ بتلك الكلمات أمام الحضور وهي تندفع إلى المذبح لتلقي حجاب الرهبنة الخـــاص بـــها الـــذى ألبسها إياه أسقف باريس.(٤)

ويعلق كلاً من Muckle ، Georgianna علي ذلك قائلين :إذا كانت الظروف كذلـــك ، كـــان ينبغي علي الأسقف أن يوقف الإجراءات ، ليس لأن إيلويز اقتبست قول شاعر وثنـــي بـــدلاً مـــن أن تقتبس صلاة مسيحية، بل لأنها لم تكن علي ما يبدو في حالة ذهنية تسمح لها بقراءة نذورها الأخيرة.

وماذا كانت إيلويز تعني بمقارنة نفسها بـــ Cornelia ؟ كان عمـــل Lucan مشـــهوراً فـــي المنهج اللاتيني ، وفي هذه الحالة يمكننا أن نفترض أن أبيلار وبقية الجمهور الكنسي لإيلويـــز كـــانوا علي علم بالسياق . لقد عاد بومبي لوطنه بعد الهزيمة وهو مجهد تماماً بصورة جعلت كورنيليا يغمـــي عليها فور رؤيته فهل أصيبت إيلويز بالإغماء عند رؤية أبيلار بعد خصائه ؟ كذلـــك فـــإن كورنيليـــا كانت تود أن تموت وتطلب من بومبي أن يبعثر أطرافها في البحـــر لكـــي تجلـــب عليـــه النصـــر

---

(١) Heloise , in Mclughlin , p .292

(٢) Robertson , Op Cit , p . 122

(٣) Heloise , in Mcleod , P. 217

(٤) Muckle , Op. Cit. , P. 92

باسترضاء الآلهة، فهل كانت إيلويز تود أن تموت هي أيضاً ؟ وفى تلك الحالة فـــإن تلقيـــها حجـــاب الرهبنة كان يرمز لوفاة روحها ، وتلك كانت تضحيتها.[1]

يتضح لنا كذلك أن إيلويز كانت تهتم بالفعل بشهرة أبيلار أكثر من اهتمامها به ، وذلك علـــي الرغم من توكيدات الحب النقي ،وهذه الفكرة بارزة فى خطابها الأول : " أي ملك أو فيلسوف يمكـــن أن يضاريك فى شهرتك؟... وأية سيدة عظيمة لم تحسدني علي مباهجي وفراشي ؟" لم تقـــو إيلويـــز علي رؤية أبيلار مهاناً إلى جانب انتهاء مباهجها ، لأن ذلك الأمر قد دمر ســـمعتها كـــامرأة واســـعة الخبرة بالحياة وتذكرت نجاحها السابق قائلة " كيف يمكن للقدر أن يجعل أية ســـيدة عظيمـــة أو نبيلـــة أكرم مني أو يجعلها نداً لي ثم يدمرني نهائياً بعد أن أوهن الحزن عزيمتي؟ ما المجد الذى أتـــاني بـــه القدر فيك ,وما الخراب الذى جلبه عليّ بك ؟ [2]

تدل تلك المشاعر علي أن إيلويز كانت متعلقة بقدر أبيلار، لأن الخراب الذى حل بها لم يكـــن بدنياً و إنما كان ذهنياً. ولم تجد إيلويز طريقة للتعامل مع ذلك الخراب لأن مركزه كان أبيـــلار. لقـــد كان أملها الوحيد أن يرتقي بها بطريقه ما، ولكن كيف يتسنى له ذلك؟ ماذا لديـــه الآن حتـــى يعطيـــها إياه؟ حتى وإن وافق علي حقها فى دينه لها، فلن يستطيعا أن يعودا للعيش معاً كزوج وزوجة، بغـــض النظر عن الخصاء ، فكلاهما قد تعهد بنذور رهبانية لا رجعة فيها.[3]

نستشف ما سبق، لم تكن ردود أبيلار المتكررة لإيلويـــز ،والتي يطلب منها فيـــها أن تصلـــي لكليهما معاً وأن تحب المسيح بدلاً منه، تنم بالضرورة عن عدم اهتمامه بها. لم يكن أمامهما أي بديـــل أخر، بخلاف الانتحار أو الهروب سوياً . لقد اتبع أبيلار أسلوباً حاداً يماثل كلام إيلويز له، حيث كـــان يقول: "انتبهي إلى هذا، أتوسل إليك واحمري خجلاً... تقبلي يا أختي ,أتوسل إليك ، بصبر ما قد ألـــمّ بنا من باب الرحمة- فهذه عصا الأب وليست سيف الجلاد".[3]

علي الرغم من أن أبيلار استمر يدعوها " أخت " ، استطاعت إيلويز علي الأقل أن تقنعـــه أن زواجهما لا يزال واقع وقد حول هو ذلك لمصلحتهم الروحية إذ قال لها أن شرع الزواج قـــد جعلـــهما الآن واحداً فى المسيح. ولأنه صار راهباً - كما يقول أبيلار - فقد صار بالنسبة لها : " خادمـــاً فـــى

---

(1) Muckle , Op , Cit , p. 93 ; Georgianna , L , " Any corner of Heaven : Heloise's Critique of Monasticism ", Medieval Studies, 49 (1987) , p. 221

(2) Heloise , in Chatillon , Op ,Cit , p, 322

(3) Jeandet , Op.Cit , p . 72

(3) Jeandet , Op.Cit , p . 72

حين أنك كنت تنظرين إلىّ فى السابق علي أنني سيدك ، فإنني ارتبط بك الآن من خلال الحــب, بمـــا أنه روحانياً ,أكثر من إخضاعي لك من خلال الخوف".[1]

كان أبيلار فى ذلك الوقت يصف الحب الميتافيزيقي الذى يشعر به الراهـــب أو تشــعر بـــه الراهبة تجاه الرب ، وهو نوع من الحب بعيداً تماماً عن واقع العلاقات البشرية العاديـــة . ولكـــن لأن إيلويز لم تستطع أن تقبل كرم الرب، فإنها لم تستطع المشاركة فى حبه. [2]

وعلي الرغم من أن إيلويز كانت تقول الافتراءات علي الرب ولم تتصرف بإيمــــان ، فإنـــها كانت تتوقع أن تذهب إلى الجنة ، إذ قالت لأبيلار أنها سترضى بأي ركن يخصصه الرب لــــها فـــى الجنة .فهل تعني ثقتها فى نوع ما من الخلاص فى الجنة أنها لم تر نفسها وثنيـــة أو رواقيـــة ؟ ليـس بالضرورة ، لأنها ربما كانت تعتقد أن الوثنيين الأخيار كانوا يستحقون الخلاص وأنهم سيكونوا كذلـــك عند ربٍ عادل، فعندما كتبت أن Lucan " يدعو إلي الرب "، لعلها كانت تعني ذلك حرفيـــاً ، فعلـــي الرغم من أن Lucan كان رواقياً، إلا أنه كان يعرف الرب. تقول إيلويز: " في أي شعب سواء كــــان وثني أو يهودي أو مسيحي ، يبرز دائماً بعض الرجال بإيمانـــهم أو اســـتقامة أخلاقـــهم ، فالفلاســـفة الوثنيون لم ينالوا لقب الحكماء أو محبي الحكمة لأنهم كانوا أذكياء، بل لأنهم كــــانوا أخيـــاراً بشـــكل واضح من حيث الأخلاق ". وحول تلك النقطة تستشهد إيلويز بالقديس أوغسطين الذى كتب " مدينـــة الله " والتي كانت بمثابة مقدمة للعالم القديم بالنسبة للقراء فى العصور الوسطي ، كان هـــدف القديـــس أوغسطين هو أن يبين أنه حتى أعظم الفلاسفة الوثنيين أمثال أفلاطون ، لـــم يكونـــوا أخيـــاراً مثـــل المسيحيين المؤمنين ، فى حين استخدمت إيلويز المعلومات التـــي قدمـــها أوغســـطين لكـــي تجـــادل وتعارض بأن المسيحيين لم يحتكروا الحكمة ، وأن أفضل الوثنيين مثلهم مثل المسيحيين مـــن حيـــث الخير والصلاح . وكانت أمثلة الفلاسفة الرومان واليونانيين الذين ذكرتـــهم إيلويـــز لأبيـــلار هـــم ، فيثاغورث وسقراط و شيشرون.[3]

---

(1) Truc, Op Cit , p 124 ; Gilson , Heloise et Abélard p . 120 ;Mclaughlin , Op , Cit. , 252

(2) Geargianna, Op ,Cit , p .227

– يمكن تفسير موقف إيلويز على أنه موقف فلسفي رواقي أكثر منه مسيحي. فكان Seneca , Lucan من بين الكتـــاب المفضلين لديها . لم يكن أكثر أقوالها فظاظة تكرارها بأن الرب قاسي ، وإنما كان أملها فى أن تكون نهاية أبيـــلار مثـــل نهايتها مفاجئة، وقد استشهدت بـــLucan فى هذا السياق : " يدعو الشاعر للرب قائلاً : أياً كان ما تعده لنا ، فاجعلـــه مفاجئاً، فيجب أن تكون عقول الرجال غافلة عن المستقبل " وهذا تحدي مقصود لفكرة العناية الإلهية التي يضع فيها أبيلار ثقته . فالمسيحي يأمل فى أن يموت فى سلام وهو محصن بطقوس الكنيسة ، مثلما وصف بطرس الموقر أبيـــــلار وهـــو يموت ، وألا يموت فجأة دون أن ينال فرصة التوبة , وكان الرهبان يؤدون جولتهم الدينية التي تضم الصلـــوات اليوميـــة لضمان الخلاص لأنفسهم والمحسنين إليهم بعد الوفاة . فإذا لم تكن إيلويز تتطلع إلى وفاة دينية لنفسها أو أبيلار، فإنها لم تكن فى حالة مناسبة لقيادة راهباتها فى صلواتهن فى دير الباراكليت, فكانت وكان أصدق تعبير عبرت به عن نفسها " أنها تعد نفسها منافقة" . انظر ، Dronke , Op , Cit , p . 122

(3) Georgianna, Op, Cit, 229 ; Truc , Op .Cit , p.130 ; Chatillon , Op , Cit , p.328 ; Jeandet , Op. Cit., p 87

- تأثير إيلويز علي كتابات أبيلار:

يعد دفاع إيلويز عن الفلاسفة الوثنيين أقدم موضوع فكري لدينا منها، إذ يشكل جزءاً من الجدال الذى استخدمته لمعارضة زواج أبيلار منها (ولكن دون نجاح) ,وقد سجل أبيلار جدالها في كتابه تاريخ المصائب ، وإن كانت إيلويز تشتكي منه أنه التزم الصمت إزاء أغلب مجادلاتها.

كان أبيلار فى أعماله عن الأخلاق واللاهوت - والتي تأتي كلها بعد زواجه من إيلويز - يتبنى فكرة أن الفلاسفة الوثنيين كانوا علي نفس القدر من الصلاح والخير مثل المسيحيين، بل تخطى ذلك بأسلوب مثير للجدل عندما قال أنهم كانوا يعلمون حتي بشأن الثالوث . لذلك السبب ، وفي مجلس سنس عام ١١٤٠م ، اتهم سان برنار أبيلار " بالتطاول لجعل أفلاطون مسيحياً " (١)

إضافة إلى ذلك ، وقبل ذلك بحوالي عشرين عاماً ،وقت زواج أبيلار من إيلويز ، لعل معرفته بالفلسفة القديمة والتاريخ الكلاسيكي كانت أقل بكثير من علم إيلويز بهما. فمنذ صباه كان متخصصاً فى علم المنطق ، فقد كان يعلم الكثير بشأن تعاليم أرسطو، إلا أنه لم يكن عالماً بالضرورة بأعماله الموسوعية ككل أو عالماً بالرواقية والفلسفة الأخلاقية اليونانية والرومانية اللاحقة وكتابات الفلسفة الإنسانية.(٢)

بعبارة أخري، ربما يمكن القول بأن إيلويز هي التي أضفت علي كتابات أبيلار طابعها المميز. لعلها علمته أن الأدب الكلاسيكي كان يجسد نموذجاً للحياة وليس مجرد حروف يتعلمها في المدرسة ، وبوصفها صاحبة أسلوب مميز ومتفرد ، لعلها قد أوضحت له أيضاً- من خلال خطاباتها الأولية - كيف يمكن أن تكون كتابه النثر اللاتيني مميزة ومتفردة مع الحفاظ علي كلاسيكيتها فى نفس الوقت ، كان أبيلار وقت زواجه يدرس لإنهاء تعليقه عن النبي حزقيال ، والذي كان قد بدأه في لاون، ولعله قد نشر بعض محاضراته عن المنطق. مثل أساتذته - وليام دوشامبو وأنسيلم من لاون - كان نجاحه حتى تلك المرحلة قائماً بشكل أساسي علي شهرة تعليمه الشفهي ولعل إيلويز - نظراً لتعليمها الأدبي - ألهمت أبيلار أن يصبح كاتباً، يكتب أعمالاً كبري يتركها للأجيال التالية ، وجعلته متحدثاً وأستاذاً لامعاً.(٣)

كذلك يمكن القول بأنه لولا تأثير أزمة خصاء أبيلار عليه وتأثير إيلويز أيضاً ، لبقي أبيلار شخصية غامضة نسبياً ، ولبقي معروفاً بشكل رئيسي بوصفه أستاذاً كبيراً وبارزاً في المدارس

(١) Leclercq , J ., " Les From successives de la lettre – traité de St. Bernard contre Aélard , Revue Bénédictine 78 (1968), p.87.

(٢) Jolivet , Aspects de la pensé médiéval , p.112

(٣) Dronke , Women Writers , p . 111

الباريسية ، كذلك فإن بعض كتاباته التي أُلفت فى مجلدات مكتوبة ، كـــانت موجهـــة بشـــكل خـــاص لإيلويز بعد أن عُينت رئيسه لدير الباراكليت ، وذلك بخلاف الأبحـــاث التـــي خصصـــها للاســـتخدام الفوري لطلابه، إضافة إلى المكتبة الكاملة التي أودعها فى الباراكليت.

ويري الناقد الأدبي Robertson أنه ينبغي علينا أن نرجع بعض الفضل لإيلويـــز ، وذلـــك نظراً لتغذيتها طموحات أبيلار الأدبية وتشجيعها إنتاج أعماله ، فلولا علاقة أبيلار بإيلويز لما وصلنـــا عنه إلا القليل مثلما نعرف القليل عن أساتذة كانوا فى شهرته فى تلك الفترة وما قبلها أمثال وليـــام دو شامبو ،وأنسيلم من لاون . إن حب أبيلار لها قد حول حياته كلها وفاق تـــاريخ المصـــائب الخـــاص به.(١)

أما بخصوص تأثير أبيلار وإيلويز علي بعضهما البعض ، فان أغلب النقـــاد والدارســـين لا يتفقون حول هذا الأمر ، وذلك لأن عدد كبير يعتمد علي التكهن بخصوص أفكارهما الداخلية . وفـــور الاعتراف بأن إيلويز تلقت تعليماً عالياً فى الأدب، يزداد دورها تعقيداً, فالشخصية التي تتطور ســـطراً بعد سطر فى خطاباتها الغرامية تتسم بالقوة الفائقة وتحفيز الفكر، إذا أن أبرز ملامح شخصية إيلويـــز التي تظهر فى خطاباتها هي أنها كاتبة واعية. فهي كاتبة بالمعني الحديث للكاتب المبـــدع وبمعنـــي الكاتب صاحب الأسلوب وكذلك الخطيب الذى تلقي تعليمه ويستمتع بممارسة تغيـــيرات واســـتحضار لأكثر القطع اللاتينية تقدما.(٢)

لقد استوعبت إيلويز الأدب اللاتيني ، من حيث أساليب التعبير الخاصة بالكتاب الكلاســـيكيين وموضوعاته ، وبالأخص مناقشات وحوارات الأبطال والبطلات المثاليين. كانت إيلويز قريبة من ذلـــك العالم الكلاسيكي لدرجة أنها لم تر شيئاً سخيفاً فى مقارنة نفسها بالإمبراطور أغســـطس قيصـــر، ولا بكورنيليا زوجة بومبى العظيم, فبالنسبة لها يعد هؤلاء الرومان النبلاء شخصيات حية ومصدر إلـــهام لها حتى وإن كانوا وثنيين.(٣)

---

(١) Robertson , Op , Cit ., p. XIII

- سيتم مناقشة تأثير إيلويز المتغلغل علي أفكار أبيلار فى فصل تالي عن دور أبيلار كعالم لاهوت حيث يظهر هـــذا الدور بشكل أكثر وضوحاً. (الباحث).

(٢) Truc , Op .Cit , p. 137 ; Georgianna, Op. Cit. p .223

(٣) Chatillon , Op . Cit , p . 326

أما بعد انفصالهما ، فقد تسامي أبيلار و إيلويز بحبهما بطــــرق متناقضــــة فقــد وجــه هــو عاطفتـــه وعقله تجاه تحليل نموذج المسيح الذى قال عنه: " أنه ربطنا بنفسه فى الحـــب مـــن خـــلال معاناتـــه علي الصليب، لدرجـــة أننـــا لم نعد نخشى تحمل أي شئ لأجله "(١)

ولأن إيلويز لم تستطع أن تقبل عدالة خصاء أبيلار . فبالتالي لم تستطع أن تلجا للمسيح مـــن أجل السلوان . ولكنها بدلاً من ذلك اتخذت موقفها مع كورنيليا والرواقييـــن الرومـــان, القـــائم علـــي التضحية بالـــذات واللجوء النهائى لليأس . من المؤكد أن إيلويز التي تكشف عنها الخطابات الغراميـــة تتحدث بنبرة شخصية وثنية تواجه الحظ العاثر بكبرياء وليس بنبرة شخصية مسيحية تقـــر بتواضـــع بفضل الرب. وكما جاء فى تعليق أول ناشر لتلك الخطابات جـــان دون مـــون : " يقـــول الكثـــير أن خطاباتها تكشف عن جنون ، ولكنها كانت تكتب بأسلوب رائع ".(٢)

تقول إيلويـــز: " أننا لا نمنح الاحترام والحب إلا لمن لا نستطيع الاستغناء عنهم، وهـــذا مـــا يجعل الحب أساس الأسرة والمجتمع والدين ". ولعل إيلويز التي كشفت عنها الخطابات الغرامية كـــانت قادرة علي الاستغناء عن الرب، ولكنها لم تقدر علي الاستغناء عن أبيلار. من ناحية أخرى، اســـتطاع أبيلار أن يستغني عنها ولكن لم يستطع أن يستغني عن فكرته عن حب المسيح ، كما قـــام بتهميشـــها بكتابة " تاريخ المصائب " لمواساة شخص غريب. كانت إيلويز توبخه قائلة : " لم يدفعك تبجيل الـــرب أو حبنا أو قدوة أباء الكنسية أن تحاول مواساتي، علي الرغم من أنني كنت مضطربة ومجهدة بفعـــل حزني العظيم ". وفى أول سنواتها كراهبة و أصعبها لم يقدم لها أبيلار أي شئ ، كما كـــانت تقـــول ، ولا حتى كلمة مواساة أو خطاب.(٣)

وفى النهاية لاقي اللوم المتكرر من جانب ايلويز صداه عندما رد أبيلار في الثلاثينـــات مـــن القرن الثاني عشر الميلادي بإرسال ترانيمة وعظاته وغيرها من الكتابات لدير الباراكليت . وبالنســـبة لإيلويز وبصفة شخصية منفصلة عن دورها الرسمي كرئيسة دير الباراكليت، ربما كان كل ذلك فـــى نظرها قدر ضئيل جداً وبعد فوات الأوان . إن خطابات أبيلار وقصائده أصبحت تتعلق الآن بحياتـــهما النموذجية المستقبلية كرئيس دير ورئيسة دير ولا تتعلق بالحب الفعلي الذى عرفاه.(٤)

---

(١) Ablcard to Heloise , in Muckel , Op. Cit., p. 261

(٢) Jean de Meun , Op. Cit., p. 161

(٣) Heloise , in Muckle , p 242 ; Luscombe , From Paris to the paraclete , p .270

(٤) Jeandet , Op. Cit., P. 235

وحينما وصل الأمر إلى النهاية المرة - لآخر مراسلة مسجلة لأبيلار معها وقت مجلس سنس عام ١١٤٠م - لم يختتم أبيلار اعترافه بالإيمان بالكلمة التقليدية للصلاة " آمين " A men، ولكنه اختتمه بخاتمة كلاسيكية أخذت عليه بعد ذلك، وكما جاء علي لسان Gilson، فان عالم الفلسفة الإنسانية الغير تائب لم يرغب فى اختتام إعترافه بالإيمان الذى كتبه أثناء ساعات المحاكمة ، دون ذكر وحوش الإنيادة. أكد أبيلار لإيلويز أنه لم يخش تلك الوحوش لأنه كان محصناً بالإيمان. ويقترح Gilson أن أبيلار فى إشارته للإنيادة ، لعله كان لديه غرض آخر فى ذهنه ، حيث يختتم اعترافه بالإيمان بالاستشهاد ببطل كلاسيكي Ulgsses ولعله كان يحاول أن يهدي إيلويز مجاملة أخيرة بالتأكيد لها علي أن شجاعته الوثنية فى المحنة كانت معادلة لشجاعتها.(١)

---

(١) Gilson , Heloise et Abélard , p.118

وعن خطاب اعتراف الإيمان الذى كتبه أبيلار انظر ، Radice ., The Letters, pp. 270 – 271

ثالثاً: الإنسان:

الشباب والهيئة

كان أبيلار وقت إغوائه لإيلويز يصف نفسه بأنه "مليء بالشباب وحسن الهيئة، في حين كانت إيلويز ما تزال مراهقة"(١) كان ذلك عام ١١١٧م تقريباً، حيث كان أبيلار في أواخر الثلاثينات من عمرة، في الوقت الذي كانت إيلويز تصغره سناً، وإن لم يكن فارق السن بينهما كبير ويري Sears أن أبيلار في استخدامه للفظي الشباب والمراهقة، فإنه بذلك كان يستدعي المراحل السبعة من عمر الإنسان. فبداية من الطفولة يتطور الإنسان إلي الصبا، ثم يمر خلال مرحلة المراهقة ويليها الشباب حتى يصل للنضج في مرحلة الرجولة، بعد ذلك تأتي المرحلة السادسة من العمر متمثلة في الشيخوخة وأخيراً يكون العجز "بدون أسنان، بدون أعين، بدون تذوق، بدون أي شئ" (٢).

والمراحل العمرية من حياة الإنسان لا توافق بالضرورة أعداداً مكافئة لها من حيث السنوات، فالمراحل المبكرة تأتي عادةً متأخرة عقد من الزمان أو ما يقاربه عن التقسيم المعاصر الذي نعتاد عليه. لذا فإن أبيلار قال عن نفسه أنه "مراهق" عندما تولي مسئولية مدرسته الأولي في ميلون عام ١١٠٢م أو ١١٠٣م، حتى وإن كان يبلغ من العمر وقتها الثانية والعشرين أو الثالثة والعشرين علي الأقل. لذا فإنه لم يكن بالضرورة مزهواً بنفسه عندما وصف نفسه أنه كان شاباً عندما قابل إيلويز للمرة الأولي. كان ذلك في الوقت الذي أخبرته فيه إيلويز أنه كان لا يزال مراهقاً في تلك المرحلة من حياته، فكثير من النساء حسدنها، وكانت هي تدرك ذلك فتقول"فأي كمال في الذهن والبدن لم يكن يزين مراهقتك؟"(٣).

لعل وصف أبيلار لإيلويز علي أنها مراهقة لا يعني أنها كانت في سن المراهقة بالفعل، فيقول هو عندما قابلها "كانت شهرة علمها قد جعلتها الأكثر شهرة في كل أرجاء مملكة فرنسا"(٤). ويؤكد بطرس الموقر صحة ذلك قائلاً "فلم أكن قد تعديت بعد حدود المراهقة ولم أكن قد دخلت في سنوات الشباب، عندما وصل لمسامعي صيتك الذائع. فكنت أسمع في ذلك الوقت عن المرأة التي كرست كل حماستها للعلوم الإنسانية (٥).

ولأن كل مرحلة من مراحل العمر السبعة تعد مرحلة في رحلة حياة الإنسان، فإنها تشكل موقفاً تجاه الحياة أكثر من كونها فترة زمنية محددة. ولهذا السبب كانت إيلويز تصف أبيلار بأنه كان

(١) Abelard, Historia, P.3

(٢) Sears,e., The Ages of Man, Oxford, 1986, P.71

(٣) Ibid, p.74

(٤) Abelard, Historia, p.3

(٥) Peter the venerable, Letter 115, vol.1, P.303

مراهقاً عندما قابلته لأول مرة، كما ذكرت عن نفسها أنها كانت مراهقـة أيضـاً، وعلـي هـذا فـإن شخصيته توافق شخصيتها. فالمراهقة والشباب هما ربيع العمر، وإن كانا في نفس الوقت همـا وقـت الإسراف والحماقة بالتناقض مع الحكمة الناضجة التي تتميز بها الرجولة والشيخوخة(١).

كان ينبغي علي أبيلار بوصفه رجل دين ذي مكانة مرموقة لسنوات عديدة، وأستاذاً لمدرسـة نوتردام في باريس، أن يترك الشباب وراء ظهره، إلا أنه بتودده إلي إيلويز كان يخسر مجـده الـذي بناه شيئاً فشيئاً، كما أنه أراد تغيير نمط حياته بشكل فجائي وربما متأخر بعض الشـيء عـن أوانـه. وتؤكد الباحثة هيلين وادل أن كثيراً من الأبيات الواردة في Carmina Burana كانت تخاطب فكـرة الحياة الزائلة أو المتأخرة عن أوانها بعض الشئ، كما أنها تعطينا فكرة عـن شـكل قصـائد الحـب المفقودة والتي كتبها أبيلار لإيلويز. وتؤكد الباحثة أن قصائد أبيلار قد تم إدراجها دون أن يعلم كاتبـها في Carmina Burana، وذلك نظراً لسعة انتشارها وتداولها بين الشباب آنذاك(٢).

وللمرة الأولي والوحيدة في حياتـه، أعطي أبيلار إجازة لذهنه بعيداً عن المـدارس متعمـداً ذلك "كان أمراً بالغ الملل أن أذهب للمدرسة، وكان أمراً شاقاً جداً أيضـاً أن أبقـي هنـاك وأواصـل الدراسة في النهار بينما كنت أسهر الليالي أمارس الحب. وبينما كان اهتمـامي وتركـيزي يفـتران، افتقرت محاضراتي إلي الإلهام وأصبحت متسمة بالتكرار"(٣).

في وصفه لشبابه، أكد أبيلار علي جمال هيئته وسلامة بدنه، كما ذكرت إيلويز ذلـك أيضـاً. وتعد تلك مشكلة، وذلك لأنه لا توجد أوصاف محددة ودقيقة تصف هيئة أبيلار. وعندما تم نقل رفـات أبيلار وإيلويز من دير الباراكليت إلي باريس عام ١٧٩٢م أثناء الثورة الفرنسية، وصفت عظـام كـل منهما بأنها كانت ضخمة.(٤)

---

(١) Mclughline, Op. Cit., P. 297

(٢) Waddell, Medieval Latin Lyrics, p.215

(٣) Abelard, Historia, P.11

(٤) Mcleod, Heloise, P.34

– ذكرت آخر رئيسات دير الباراكليت Charlotte de Roucy عام ١٧٨٧ أن عظام أبيلار قد تحولت كلية إلي الـتراب عدا الجمجمة التي كانت بالفعل كبيرة، بينما كانت عظام إيلويز في حالة أفضل، وكانت جمجمتها أقل في الحجـم وبها الأسنان ناصعة البياض بشكل ملحوظ. غير أنه لم يتم اتخاذ أي إجراء في ذلك الحين بشـأن قيـاس حجـم الهياكل العظمية لهما بهدف تقدير أعمارهما عندما وافتهم المنية باستخدام فحص الأسنان، وذلـك لعـدم توافـر الاهتمام بذلك الأمر حينئذ انظر، Mcleod, Op. Cit., P.233

لعل توصيفات العصر الوسيط عن المظهر الخارجي للأشخاص تتسم بعدم مصداقية شديدة، وينطبق ذلك علي أبيلار وإيلويز. وبخصوص إيلويز، لا يتوافر لدينا سوي عبارة أبيلار التي جاء فيها "أنها لم تكن علي قدر كبير من الجمال، بل إنها كانت علي أدني قدر منه، غير أنها اتسمت بسعة العلم الذي تتفوق فيه علي الرجال[1].

وتدل التوصيفات المعاصرة التي تصف أبيلار علي أنه كان رجلاً ضخماً، ولعله كان بديناً، إن التفسير الوحيد لاسم "أبيلار" هو أنه كان يعني "آكل الدهن" وقد استخدم أبيلار اسمه مرتين في كتابه "الجدل" ليفسر بعض النقاط المنطقية فمثلاً لتوضيح الحجة الاسمية التي تقول بأن الكلمات والأسماء هي تراكيب جزافية ولكنها في نفس الوقت تحمل معاني خاصة بها، يقول أبيلار "هذا الاسم "أبيلار" قد خصص لي حتى يمكن الإحالة إلي جزء من هيئتي من خلاله[2].

ويأتي مثاله الثاني ليوضح حجة اسمية أخري: أن السمة التي تتسم بها اللغة تتضح من خلال الطريقة التي تجعلنا نربط معاني كثيرة بكلمة محددة. ويعطي أبيلار أمثلة يوضح بها مراده من خلال جعل الأفعال اللاتينية مجهولة الصيغة معلومة المعني، حيث يمكن فهمها سواء بالصيغة المعلومة أو بالصيغة المجهولة حسب السياق ،ولتوضيح مفهوم بؤثيوس الذي يقول أن مثل تلك الأفعال والكلمات يجب أن تشير إلي حقيقة منطقية واحدة في كل حالة، يضيف أبيلار: "لذا أعتقد أن اسم أبيلار لا يزال يناسبني أنا دون غيري"[3].

علي عكس تلك الصورة الضخمة المنقولة عن أبيلار، هناك من يقول أنه كان ضئيل الجسم بشكل ملحوظ، وهؤلاء يستبعدون الدليل المأخوذ من آثار العظام، والتي لا يمكن فحصها الآن بطريقة علمية أو يمكن إثبات أنها رفات أبيلار وإيلويز.

وقد طابقت الباحثة Landgraf بين أبيلار وبين الأستاذ الذي لقبه طلابه بالأستاذ الصغير: ففي كتاب أبيلار عن اللاهوت، يصف أبيلار نفسه بأنه "داود الصغير" يواجه جالوت[4].

---

(١) Jeandet, Op. Cit., p.42

(٢) Mews, C.J." IN search of a name and its significance: a twelfth century anecdote about Thierry and peter Abelard", Traditio, 44 (1988), p. 172

(٣) Ibid, p.173

- من الممكن أن تكون تلك المقولة مزحة من أبيلار بشأن جسمه الضخم، حيث اعتاد الطلاب علي سخرية أبيلار من الجميع ومن نفسه أحياناً. وربما كانت تشير إلي آثار خصائه، إذ أنه كان يوحي بأنه لا يزال في جوهره أبيلار، حتى وإن كان قد فقد رجولته بتعرضه للاتهام بالجريمة والخصاء. (الباحث)

(٤) Mews, in search of a name, p.173

وعندما ذهب St. Goswin ليواجه أبيلار في فصله، قام كاتب سيرته الذاتية بوصف أبيلار بأنــه "ذا بنية نحيلة وليس بقوام ضخم"(١).

لعــل وصــف أبيلار لجمال شبابه وهيئته لا يتعارض بالضرورة مع كونه بديناً، وقد شــبه كاتب سيرة Goswin أبيلار مرة أخري بــproteus، إله البحار الهوميرى، الذي يغير شكله بشــكل متكرر لتجنب الإجابة علي الأسئلة الموجهة له. كذلك قال عنه سان برنار "أنه كان غير متشابه حتــى مع نفسه". فإذا كان مظهره متنوع بهذه الدرجة في نظر شهود العيان وأبناء جيله من المتحيزين ضــده باعتراف الجميع، فلن يكون من السهل الاتفاق علي مظهره بعد رحيله بتسعمائة عام.(٢)

وقد وضع Rémusat أول وأفضل كاتب سيرة ذاتية يتناول حياة أبيلار وصفاً تخيلياً مقبــولاً عام ١٨٤٥م بقوله: "كان أبيلار رجلاً ذا هيئة ضخمة، يتمتع بمظهر مزهو ومفعم بالحياة، وصــاحب سلوك نبيل، وكانت قسماته لا تزال تحمل وتحتفظ ببعض بهاء شبابه" (٣).

وبعد مرحلة الشباب في المراحل السبعة من حياة الإنسان تــأتي مرحلــة "الرجولــة"، ذروة الإنجاز والسلطة، وفيها ينبغي علي الرجل أن يزين بالمناصب والسلطات. ولأن أبيلار كــان رجــل دين، فالرجولة بالنسبة له. بعيداً عن النساء. كانت تعني ضرورة الحصول علي منصب كنسي، وهــو ما حققه عندما تم تعيينه أستاذاً بمدرسة باريس في الوقت الذي قابل فيه إيلويز.إضافة لذلك، فقد أبــدي نضجه الرجولي في موقفه تجاه عائلته في بريتاني حيث قام بتسوية شئونهم عندما تقاعد والــداه فــي الأديرة(٤).

لقد حرم الخصاء أبيلار من رجولته بكل ما فى الكلمة من معنى، ليس بدنياً فقط، وإنما اجتماعياً وثقافياً أيضاً. لقد انتقل فجأة وبشكل فاجع من مرحلة الشباب إلى الشيخوخة. وقد ذكر Fulk of Deuil بأسلوب أدبي عن أبيلار أنه كان يحدث نفسه قائلاً؟ "إن شيمة الرجولة عادة ما تبقى مع الرجــل طــوال حياته. ولكن وجنتاي أصبحتا جرداءين، ولم يتبق بهما سوى خصلات من الشعر التي تزينهما، وقد ذبلت بشرتي البهية وتحولت إلى تجاعيد، وأصبح الشحوب الغير عادى يشوه وجهي".(٥). غير أن أوتو الفريزي

---

(١) St.Goswin, Op. Cit., p.443

– يرى سايكس أن الاحتمال الأقرب للحقيقة هو أن كاتب السيرة الذاتية كان يشير هنا إلى Goswin نفسه، ويشــبه جسده النحيل بجسد داود وهو يواجه جالوت العملاق. كذلك فقد شبه سان برنار أيضا أبيلار بجالوت.إن الإشارة إلــي داود وجالوت التي تم استخدامها كثيرا لا تلقى الضوء بوضوح على تلك المشكلة المحيرة. فذلك التشبيه كان شــائعا فى كتابات العصر الوسيط .كذلك ومن ناحية أخرى , إذا كان أبيلار بالفعل ضئيل الحجم , فربما كــان أكــثر فعاليــة بالنسبة لخصومه أن يدعوه جالوت, وذلك فى محاولة منهم للاستهزاء به . انظر، Sikes,Op.Cit,P.6

(٢) Goswin, p.445; Leclerc,la lettre traité de St. Bernard contre Abelard, revue Bénédictine 78 (1968), p.87

(٣) Rémusat, ch., vie d'Abélard, Paris, 1845, p.43

(٤) Sears, Op. Cit., p.143

(٥) Fulk of Deuil, Op.Cit.,706

يري من وجهة نظره أن أبيلار بلغ قمة نضجه الإنتاجي نتيجة لخصائه، وذلك لأنه تسبب في جعله راهب وجعله يركز علي الكتابات الجدية(١).

ويري Sears أن التغير الواضح في جسد أبيلار، والذي تم التعبير عنه بمرور الوقت عبر المراحل السبعة لحياة الإنسان، ومن خلال تنوع أراء أبناء جيله، يطرح أسئلة فلسفية بشأن ماهية الإنسان. فهل يعد تشبيه كاتب سيرة St.Goswin الذاتية لأبيلار بأنه كإله البحار Proteus الذي يغير شكله باستمرار، مجرد فكرة أدبية، أم أنه يدل علي أن الناس في العصور الوسطي كانوا يؤمنون بالأساطير والسحر. وما هو الخط الفاصل بين الدين والأساطير، أو بين السحر والعلم، ومن الذي يضع مثل ذلك الخط: الكهنة أم العلماء؟ مثل تلك التساؤلات كانت تثير اهتمام أبيلار المهني، لأنه كان يطمح أن يصبح أرسطو جديد(٢).

- صورة آدم وحواء:

تعد نقطة البداية التي وجه إليها القارئ في العصر الوسيط أسئلته بخصوص العلم، كانت الكتاب المقدس وعلي وجه الخصوص سفر التكوين، فقد أعطاه ذلك وجهة نظر ترفع من مكانة الإنسان في العالم، حيث أن الرب أعطي لآدم السيادة علي الأرض وعلي كل المخلوقات(٣).

ومثل بقية الأشخاص الذين يرغبوا في أن يصبحوا علماء في المستقبل، كتب أبيلار تعليقاً علي أيام الخلق الستة مثلما جاء في سفر التكوين. وكما هو غالب علي مثل تلك التعليقات، فقد أوضح أبيلار التطابق بين أيام الخلق الستة والمراحل الستة من عمر العالم كما جاء وصفها في كتب التاريخ في العصر الوسيط: "بداية الطفولة من آدم إلي نوح، ثم الصبا من الطوفان إلي إبراهيم، فالمراهقة من إبراهيم إلي الملك داود، فالشباب أثناء أسر شعب الرب في بابل، ثم الشيخوخة وهي حتى مجيء المسيح، يلي ذلك المرحلة الأخيرة وهي العجز، حيث تنتظر الإنسانية نهاية العالم والحساب الكبير."(٤).

كان أبيلار مثل الكثير من المسيحيين في العصر الوسيط يشعر أن الأيام الأخيرة من عمر العالم كانت وشيكة. فبكتابته لكتاب" اللاهوت المسيحيTheologia christiana "بعد إدانته في سواسون عام١١٢١م بوقت قصير، شبه أبيلار جلاديه بالمشعوذين الذين يسبقون المسيح الدجال،

(١) Otto of Freising, Op. Cit., p.226

(٢) Sears, Op. Cit., p.145

- عن الفرق بين السحر والعلم، راجع الفصل الأول من هذه الدراسة.

(٣) Sikes, op. Cit., p.133

(٤) Abelard, Expositio in Hexameron, in Migne, PL, Vol. 178, cols771-772

مستخدماً مجموعة من الاستشهادات الإنجيلية، حيث حذر قراؤه من الاستعداد للأسوأ. وكان أبيلار يغلب عليه التشاؤم الشديد في تعليقه عن الخلق، وذلك عندما وازي بين المرحلة الرابعة من العمر "الشباب" مع الأسر البابلي لليهود، وفي ذلك ربط بين شهوانية الشباب وبين العبودية والأسر.(١).

ومن ناحية أخري، يري أبيلار أنه يمكن تفسير أيام الخلق الستة بطريقة متفائلة أيضاً بنفس الدرجة، فيقول: "إن الغرض من الموازنة بين مراحل عمر الدنيا ومراحل عمر الإنسان، كان تبيان كيف خلق الله الإنسان بوصفه صورة مصغرة عن العالم، فالإنسان باعتباره المخلوق المتوج للخلق، يختص بمصير له يمتد عبر الزمان والمكان، في حين يخصص لكل فرد من هذه السلالة مصير خاص به يمتد خلال فترة حياته المقدرة".(٢).

كذلك يري أبيلار أن التعليق الذي كتبه حول أيام الخلق الستة، يصور الروح الإنسانية بوصفها أقوي بطبيعتها الفطرية من كل شئ آخر، وأنها الوحيدة القادرة علي التفكير والحكمة والمشاركة في الحب الإلهي(٣).

إن المعتقد القائل بأن الإنسان يختلف ويتفوق علي كل المخلوقات الأخرى، لأنه هو وحده الذي يمتلك ملكة العقل يشكل الأساس المشترك للديانات الثلاثة: اليهودية والمسيحية والإسلام. وقد تحري أبيلار بعضاً من ذلك التراث المشترك في حوار تخيله بين فيلسوف ويهودي ومسيحي. وفي كتابه اللاهوت، أكد أبيلار علي أن ذلك المعتقد كان فكرة مألوفة في الفلسفة اليونانية الكلاسيكية، وذلك لأن الإنسان خلّق في صورة الرب. ويتابع أبيلار قائلاً: "إن الأشخاص الإلهية الثلاثة التي تكون الثالوث تغلف السمات المميزة للإنسان الذي قيل أنه مخلوق مثل الأب نظراً للسلطة التي يحظي بها فوق بقية المخلوقات. وهو أيضاً يشبه الابن من خلال العقل، كما أنه يشبه الروح القدس من خلال البراءة التي فقدها بعد ذلك من خلال خطأه".(٤).

لعل أول نقطتين- تلك التي تقول أن الإنسان لديه السيادة فوق كل المخلوقات الأخرى وأنه وحده المميز بملكة العقل- لا تزالان المبرر في ذلك الوقت وراء المطالبة باستغلال الطبيعة لمصلحة الإنسان. وعلي هذا الأساس يظل سفر التكوين هو أساس العلم. وعلي عكس العصر الحديث، كان المفكرون في العصور الوسطي قلقون بشدة بخصوص النقطة الثالثة: وهي أن الإنسان قد سقط من

(١) Jolivet, La Théologie d'Abélard, p.42

(٢) Abelard, Expositio, p.772

(٣) Ibid, p.761

(٤) Abelard, Theologia Christiana, in Jolivet, La théologie d'Abelard, p.54

حالة البراءة الأصلية التي كان يحظي بها بسبب خطيئته فكل فرد في العصور الوسطي كان يعرف أن تلك الخطيئة كانت قيام آدم وحواء بأكل التفاحة المحرمة في الجنة، وأن حواء تذوقتها أولاً.(1).

كانت إيلويز تشبه نفسها بحواء في التأثير المهلك الذي مارسته علي أبيلار: "إن المرأة الأولي أغوت الرجل فوراً للخروج من الفردوس وهي التي خلقها الرب لتكون زوجة له، إلا أنها أصبحت وسيلة سقوطه التام".(2).

لعل الإيمان بالسقوط كان له فائدة واحدة علي الأقل، إذ أنه قد مكن الإنسانية من أن تبدو مزيجاً من الخير والشر في آن واحد. كان مصير آدم وحواء يؤكد البعد الأخلاقي لطبيعة الإنسان. وبخلاف المخلوقات الأخرى، فقد كان لآدم فرصة الاختيار وقد تحمل المسئولية عن أفعاله، فكان سيد المخلوقات علي الأرض، إلا أنه علي الرغم من ذلك، باختياره خطأ واحد من جانبه، استطاع أن يكشف عريه وضعفه.(3).

ويتساءل أبيلار: "هل كان الإنسان الساقط يحظي بنفس المكانة الرفيعة التي كان يحظي بها آدم وحواء عندما كانا يسكنان الجنة؟ وهل ظل الإنسان يشبه الرب في قدرته علي التفكير، أم أنه كشف عن نفسه في قصور تفكيره الشديد؟ كذلك لم يقم أي من الحيوانات التي كان يدعي أنه يحظي بالسيادة علي حياتهم بارتكاب مثل هذه الخطيئة المهينة، أو عاني من مثل ذلك الجزاء. لقد ضلل آدم بسهولة علي يد امرأة، والتي تعرضت للخديعة بدورها علي يد الأفعى ذات الكلام المعسول. لذا فإن آدم وحواء لم يكونا أذكي المخلوقات في حديقة الجنة".(4).

ويشير أبيلار أيضاً للصور التي تمثل آدم وحواء المرسومة علي جدران ونوافذ الكنائس، والتي يظهر فيها الاثنان وهما نادمين علي جريمتهما وقد أخذا يواريان عوراتهما بأوراق الشجر، كما كانا يترنحان في ذهول من عقاب الرب لهما.(5)

---

(1) Charrier, Op. Cit., p.493

(2) Heloise, in Muckle, Medieval Studies 17, p.252

(3) Marenbon, The philosophy of Abelerd, p.95

(4) Abelard, Theologia Christiana, p.56

(5) Abelard, Theologia Christiana, Book1, ch.12, in Buytaert, E.M, CCCM, Vol.11, Brepols,(1969),P.354

- تمثل معظم الصور الموجودة علي جدران الكنائس معاني عديدة، لعل أهمها كان توضيح استمرار تأثير الوثنية والفلكلور علي المسيحية في العصور الوسطي. وأيا كان معناها- سواء كان وثنيا أم مسيحيا- فإن أغلب هذه الصور كانت مبنية علي الفكرة التي تقول بأن هناك سلسلة من المخلوقات في العالم وأن الإنسان يقف علي رأس هذه

تعد رواية أبيلار عن سقوطه من النعمة في كتابه" تاريخ المصائب "مثالاً علي التزامه بتعــاليم القديس أوغسطين الذي كان يقتبس منه كثيراً. ويقول أبيلار أن نجاحه كأستاذ في باريس أضعف قــوة ذهنه ويتابع قائلاً: "ولذا، عندما كنت منغمساً تماماً في الكبر والفسق، رزقني الفضل الإلــهي بــالعلاج لكل مرض من هذه الأمراض، وإن لم تكن من اختياري: أولاً علاج فسقي من خلال حرمــاني مــن الأعضاء التي كنت أمارس بها هذا الفسق، ثم علاج كبري بإذلالي عن طريق حرق كتابي في مجلــس سواسون عام ١١٢١م.[١]

ويصف أبيلار الكبر والفسق بأنهما أمراض لأن ذلك ما يقال عن الخطايا بمفهوم أوغســطين. فكانت الخطايا أمراض الروح والتي أصبح الإنسان عرضة لها بسبب خطيئة آدم الأصلية. ومثــل آدم في جنة عدن، فقد قام أبيلار بإشباع رغبته ووضع رأيه الخاطئ أمام وصايا الرب. ومثل آدم أيضــاً، فقد عاني من عقاب رهيب حيث تعلم عن طريق الألم كيف يتقبل حكم الــرب العــادل بكــل الصــبر والرضا.[٢]

ومثــل الإنسانية جمعاء، كان أبيلار بفكره المسيحي علي استعداد للخلاص، ولــهذا الســبب اجتهد لكي يوضح في تعليقة علي رسالة بولس الرسول إلي الرومــان، أن الخــلاص يعنــي إظــهار المسيح للحب والتواضــع في حياته ومماته علي الأرض، فمثال المسيــح يعطي الإنسان الساقط القــوة للتغلب علي الكبر والفســق وتحمل كل الأشياء. إن تعاليــم الإنجيــل وتفكيــر أبيلار اللاهوتــي قــد مكناه من تفسير علاقته بإيلويــز بمفاهيم بطولية. فلم يكن رجلاً عجوزاً فاســقاً قــام بــإغواء طالبــة أودعت تحت رعايته، لكنه قديس يخــوض رحلتــه المقدســة نحو معرفة الذات عبر طريق الخــبرة

السلسلة رغم سقوطه ورغم كل الخطايا التي ارتكبها. وقد جادل المفكرون من أمثال أبيلار بأن مثل تلك التصويــرات ينبغي أن تفهم بشكل رمزي، فهي لا تصور مخلوقات حقيقية . فمثلاً الجحيم ما هو إلا وسيلة رمزية لوصف العقاب. وقد أجمع معظــم المفكرون علي أن أقدم أعداء الإنسان من الحيوانات هي الأفعي التي سببت السقوط في جنة عدن. ووفقاً لسفر التكوين، فقد لعنها الرب وحكم عليها بالزحف علي الأرض بوصفها أدني وأحقر المخلوقــات. وتصــور بعض الرســوم حواء وهي منبطحة علي الأرض وجسدها مغطي بأوراق الشجر وهي تزحف مثل الأفعي نحــو آدم، بينما تظهر في صورة أخري وهي تهمس في أذن آدم وهي تغطي فمها بيدها اليمني، بينما تقطف بيدهــا اليســرى التفاحة المهلكــة. ولعــل أحسن تحليل كلاسيكي للسقوط هو تحليل القديس أوغسطين، الذي جادل بأن آدم بمجرد أن فقد السيطرة علــي نفسه من خلال الخطيئة، انتقل ذلك إلي الأجيال ممثلاً في عدم قدرة الإنسان في أحيان كثيرة علي التحكم في شهوته. ويعد القديس أوغسطين الوحيد الذي فسر نقائص الإنسان الجنسية كدليل علي السلسلة الكاملــة للخطايا التي صاحبت سقوطه. انظر، Camille,m., Image on The Edge, Oxford, 1992,pp.66-70
وانظر كذلك Butts,r. A Culture History of Education, New York, 1947,pp.150-152

(١) Abelard, Historia, p.8

(٢) Clanchy, M.T., Abelard: A Medieval Life, Oxford, 1999,p.183

الشديد الانحدار. ولم يتردد أبيلار في تشبيه نفسه بالمسيح حين استشهد في كتابه" تـــاريخ المصـــائب" وهو يخبر أحد الأصدقاء بقصته بإنجيل يوحنا: "إن كانوا قد اضطهدوني، فسيضطهدونكـم[1].

روايـة أبيـلار لزواجـه:

افترض المؤرخون الذين اطلعوا علي كتاب تاريخ المصائب لأبيلار أن روايته لزواجه تعـــد موثوقة وخالية من التحيز. فهو يخبر صديقه ومراسله أنه يريده أن يعلم القصة الحقيقية لذلك الحـــدث "وفقاً للحقيقة وليس الإشاعات" ولكن الكلمة الهامة هنا هي "الإشاعات"، فأبيلار يفسر أن الناس كـــانوا لا يزالون يتحدثون عنه هو وإيلويز قائلين أنه لا يزال عبداً لشهوتـــه، وذلك علي الرغم مـــن مـــرور خمسة عشر عاماً علي خصائه[2].

عندما أعاد أبيلار إثبات ذاته كأستاذ في باريس، كان يحتاج أن يوضح فـــي كتابـــه "تـــاريخ المصائب "أنه قد تصرف بطريقة صحيحة وشريفة فيما يتعلق بموضوع زواجه. وفي الوقـــت الـــذي استطاع فيه أن يكشف عن فشله كراهب تقليدي وهو يغادر سان جيلداس، لم يستطيع أن يعترف مـــن ناحية أخري بأن خصومه كانوا علي حق في وصفه بأنه مفسد الشباب، إذ أن ذلك يجعله غير صـــالح في عمله كأستاذ. وفي روايته عن بداية علاقته مع إيلويز، كان أبيلار يبذل جـــهداً عظيمـــاً ليبيـــن أن فولبير كان علي خطأ، أو علي الأقل أنه تصرف بأنانية وسذاجة ولم ينظر لتلك المشكلة نظرة بعيـــدة، في حين كان أبيلار رجلاً واسع الخبرة بالحياة. وقد تراجع دور فولبير عام ١١٣٢م، إما أنه قد تّوفـــي أو تقاعد، ويأتي آخر ذكر لاسمه في نوتردام عام ١١٢٤م[3].

لم يستطع أبيلار أن ينكر جوانب عديدة من العلاقة مع إيلويز، والتي كانت لا تزال معروفـــة تماماً رغم مرور ما يقرب من خمسة عشر عاماً علي حدوثها، إلا أنه يّعَد هو الوحيد الذي يســـتطيع أن يفسر تلك الأشياء التي لم تكن معروفة إلا له هو وفولبير فقط. وكان أكثر تلـــك الأشـــياء حساســـية: الطبيعة المحددة لعقد الزواج الذي تفاوض الاثنان بشأنه. فحتى إيلويز لم تكن لديـــها معرفـــة مباشـــرة

(١) Jolivet, La théologie d'Abelard, p.64

العهد الجديد . إنجيل يوحنا . إصحاح ١٥ ,آية ٢٠

(٢) Abelard, Historia, p.8

-يعد السبب فى هذا الكلام, هو أن أبيلار عندما كان يكتب تاريخ المصائب عام ١١٣٢م . كان فى حاجة ماسة للتخلى عن منصبه كرئيس لدير سان جيلداس . وذلك للعداء الشديد الذي وجده من الرهبان هناك. كذلك وفى نفس الوقت كان أبيلار يساعد إيلويز فى تعيين راهباتها فى دير الباراكليت بعد طردها من دير أرجنتى . إضافة إلى الزيارات التي كان يقوم بها إلى إيلويز فى الباراكليت. والتي جعلت الكثير ينظرون إليه باعتباره راهب مخل بالنظام . انظر

, Mcluglin,Abelard and the dignity of Women,P.291

(٣) Mcleod, Heloise, p.53

بذلك الأمر، إذ أنها كانت محتجزة كرهينة في منزل أبيلار في بريتاني عندما كان يتعامل مع فولبيــر في باريس.(١).

يقول أبيلار: "إذا كان سيقتلني، أو سيؤذيني بدنياً بأية طريقة كانت، فعليه أن يخشــي أبغـض الأشياء، وهي أن تعاني ابنة أخته الأقرب لنفسه من جراء هذا الفعل في بلدتي"(٢). بهذه الجملة أوضــح أبيلار أنه تسبب في عداء دموي أو في حرب خاصة ضد فولبير.

ويصف أبيلار كيف أنه لعب مباراة انتظار مع فولبير الذي كان في حالة قلق مفرط: "وأخيراً بعد ذلك عقدت اجتماعاً مع الرجل، واتهمت نفسي بشدة بالخيانة العظمي". كان متهماً بالخيانـــة لأنــه خان ثقة فولبير في عقر داره. ويستخدم أبيلار نفس كلمة "الخيانة" فيما بعد ليصف جريمة خادمه الـذي سمح لرجال فولبير بدخول الحجرة الخاصة لأبيلار في بيته لإجراء عملية الخصاء فقد أخــذ الخــادم رشوة- كما يقول أبيلار- لذا عند إلقاء القبض عليه، تم إعمائه وإخصائه. وكان الإعمــاء والإخصــاء قد فُرضا كعقوبة للجرائم غير الجنسية، مثل جريمة خادم أبيلار، وذلك كتخفيف لعقوبة المــوت. أمــا في الجرائم الجنسية، فكان يُعتقد أنه من الأفضل أن يكون العقاب بناء علي مبدأ العضو بالعضو.(٣).

كان أبيلار عرضة للإعماء والخصاء، وذلك لأنه ضاعف من جرائمه في نظــر معاصريــه. أولاً أنه قد أفسد عذراء وهو ما يعد جريمة لا يمكن التسامح فيها، إضافة لأنه خان كرم ضيافة فولبـير له حيث قام بذلك الفعل داخل بيته. وثانياً أنه قد خان ثقة فولبير للمرة الثانية عندما اختطـــف إيلويــز عندما أصبحت حاملاً: "قمت بخطفها سراً من بيت خالها وأرسلتها دون أي تأخير إلي بلدتي" (٤).

كان الاختطاف الذي يتضمن استعمال القوة والخداع يعادل الاغتصاب أيضاً، فقد كانت تلــك أخطر جريمة ارتكبها أبيلار، ولكنها كانت أيضاً أفضل خطوة قام بها لأنها مكنته من استغلال إيلويــز كرهينة. فإن لم يقم أبيلار بتلك الخطوة، لكان في موقف ضعيف في اتفاقه مع فولبير، وذلك لأنــه لــم يكن لديه أقرباء في باريس يحتمي بهم مقارنة بأقارب فولبير وذويــه(٥).

---

(١) Jeandet, Op.Cit., p.45

(٢) Abelard, Historia, p.12

- لم يكن كلام أبيلار السابق مبالغ فيه في ذلك الوقت طبقاً للعرف، فقد كان متعارف عليــه وفقــاً لتقــاليد الحــرب التقليديــة: ففــي الحرب آنذاك يعد أخذ الرهائن خطوة عاقلة تضمن الرد علي العنف الذي قد يقدم عليه الطــرف الأخر. فــإذا كــان رجــال فولبيــر سوف يؤذون أبيلار بأية طريقة كانت، فقد يرد أهل بلدته في لوباليه بعقــاب إيلويز العقاب المماثل، وذلك لأن الترهيب المتبادل كان هو المنطق الذي يحكم الثأر الدموي شأنه شأن أي حــرب أخري. انظر، Mcleod, Op. Cit., p.56

(٣) Worthington, Op. Cit., p.88

(٤) Abelard, Historia, p.13

(٥) Truc, Op. Cit., p.103

تعد السيرة الذاتية للويس السادس Louis VI التي كتبها سوجيه Suger of st.Denis، كتالوجاً سنوياً يمثل محاولات الملك الفرنسي للثأر لرجال الكنيسة مما كانوا يتعرضون له من عنف. وربما لم يحظ أبيلار رجل الدين ذو المكانة الأقل شأناً والمشاغب المعروف بالأولوية الكبرى. وقد ذكر سوجيه أن أحد أفراد أسرة مونتمورنسي ويدعى Burchard كان حليفاً للويس السادس في ذلك الوقت[1].

برغم ذلك، فإن أبيلار قد حظي بالورقة الرابحة طالما كانت أسرته تحتفظ بـإيلويز تحت سيطرتها. وكانت لو باليه بعيدة عن باريس لدرجة تسمح له أن يعطي الإيحاء بأنه هو أيضاً ينحدر من أسرة عريقة في مسقط رأسه، فلا يمكن لأي رجل فرنسي أن يصل إلي إيلويز هناك ولا حتى مونتمورنسي نفسه[2].

يصف أبيلار توسله إلي فولبير بأنه جلس علي يديه وركبتيه، ووعده بتقديم كل أنواع التعويضات التي قد يراها مناسبة. وكان أبيلار مضطراً لتقديم تنازلات ضخمة، وذلك لأن امتيازه لا يستمر إلا طوال الفترة التي تظل فيها إيلويز تحت سيطرة عائلته. ولهذا السبب يقول أنه اتهم نفسه بشدة بالخيانة، علي الرغم من أنه التمس العذر بعض الشيء فيقول مذكراً فولبير: "منذ بدء الخليقة والنساء تجلب الخراب علي أنبل الرجال"[4].

بعد أن توسل أبيلار ببلاغة لينال غفران فولبير، تطرق إلي صلب الموضوع قائلاً: "عرضت عليه أن أعوضه بتزويجي إياها تلك التي أفسدتها، وأظن أن هذا كان أكثر مما تمناه".[5]

– هناك بعض الدلائل علي أن فولبير كان ينتمي لعائلة مونتمورنسي Montmorency ا الشهيرة، والتي تعد من أقوي الأسر الفرنسية حينئذ. ويري شاتيون Chatillon أن فولبير غالباً ما استعان بأفراد تلك الأسرة في معاقبة أبيلار. فإذا ما تم القبض علي أبيلار وتم إخصائه، أو إذا مات أيضاً، فربما كان أسقف باريس سيكتب خطاباً يحث فيه الملك علي معاقبة مرتكبي الجريمة، وذلك كل ما في الأمر. انظر،

Chatillon,f., "Abelard avant Heloise", Revue du moyen âge 20 (1964),pp.318-319

(1) Suger, Louis VI,ch. 26, p. 196

(2) Chatillon, Op. Cit., p. 320

– ربما كان ذلك في الوقت الذي كان أبيلار يشعر فيه بالعظمة والزهو لأنه Bulatinus، وسيداً له أعوان ذوي سلطة في وطنه. وقد كان البريتانيون مشهورون بالعنف البدائي، والذي لابد وأنه كان في صالح أبيلار في ذلك الحادث. (الباحث)

(4) Abelard, Historia, p.13

– مثلما يفعل أبيلار غالباً فإنه يلوم شخصاً آخر علي كوارثه، وتلك المرة كان الذنب ذنب آدم وحواء، إضافة إلي قوة الحب بينهما. (الباحث)

(5) Abelard, Historia, p.13

– لم يقل فولبير نفس الشئ؛ إما لأنه من عائلة مونتمورنسي بالفعل وهي عائلة عريقة، كما أنه ربما لم يكن يري أن أبيلار كفئاً لإيلويز ليتزوجها. (الباحث)

ومن ناحية أخري ذكرت إيلويز لأبيلار قائلة: "لقد عوضتني بسخاء بإذلال نفسك ورفعتني وكل عائلتي إلي مستواك" (١). بهذا الإسهاب في إذلال النفس أمام فولبير، فإن أبيلار قد رفع من شأنهم جميعاً، ومع ذلك كان رد فولبير علي ذلك بنفس الوضاعة وبخيانة الثقة التي وضعها فيه أبيلار، وهي الثقة التي خانها أبيلار من قبل. وبالتأكيد علي أن فولبير خان أبيلار، كانت إيلويز تكرر النقطة الرئيسية التي يذكرها في روايته لزواجه في كتاب" تاريخ المصائب "حيث يصف فولبير وأهله بأنهم: "دخلوا معي في اتفاق بخصوص الزواج الذي عززوه بعهود حُسن النوايا وقبلات السلام"(٢).

يقول أبيلار: "ومثل يهوذا وهو يقبل المسيح، كان فولبير يفعل هذا معي بكل سهولة لكي يخونني. لقد كان ينوي أن يعيد إيلويز إلي باريس ثم ينكث باتفاقه معي وينتقم مني"(٣)

كانت إيلويز تحذر أبيلار دائماً من أن فولبير لا يمكن استرضائه بأي نوع من التعويض أو الإرضاء، وذلك كما اتضح بالفعل. لقد كان أبيلار محقاً في اعتقاده بأن فولبير قد دبر من البداية لخداعه، وأنه خطط لذلك الخداع. وتتضح المرارة التي يشعر بها أبيلار من التماسه لروما ضد التساهل الذي تم إبدائه تجاه فولبير، والذي لم يُعاقب إلا بمصادرة أملاكه(٤) بيد أن عجز أبيلار عن مواصلة ذلك الالتماس وإعادة فولبير إلي منصبه في نوتردام عام ١١١٩م تقريباً، يدلان علي أن أسقف باريس وشمامستها لم يروا أنه قد ارتكب إثماً بتلك الجريمة، وأن أبيلار من وجهة نظرهم يستحق مثل ذلك العقاب.(٥)

بين الزواج والانفصال:

لا يُخفي أبيلار أن الكرم الواضح الذي اتسم به عرضه المقدم إلي فولبير قد تناقص باشتراطه علي أن الزواج "يتم بسرية، حتي لا أحدث أي ضرر لسمعتي" (٦) ومن بين المحامين الذين نالوا شهرة واحترام شديد في عهد أبيلار كان إيفو أسقف شارتر IVO، والذي كان صاحب نفوذ كبير

---

(١) Mcleod, Op. Cit. , p. 56

يدل ذلك علي أن إيلويز وفولبير لم يكونا كفئاً لأبيلار من حيث المستوي الاجتماعي، إلا أن ذلك أمراً يصعب تصديقه، وذلك لأن شمامسة كبري الكنائس مثل نوتردام عادة ما يتم اختيارهم من النبلاء. وربما لم تكن إيلويز تشير هنا إلي المرتبة الاجتماعية لأهلها، وإنما إلي مكانتهم الأخلاقية والثقافية والتي تري أن أبيلار يتفوق فيها عليهم. (الباحث)

(٢) Abelard, Historia, p.14; Mcleod, Op. Cit., pp.56-57

(٣) Abelard, Historia, p.14

(٤) Worthinglon, Op. Cit., p. 91

(٥) Luscombe, From Paris to The Paraclete, p.261

(٦) Abelard, Historia, p.15

في باريس، كما أنه لعب دوراً كبيراً في ارتقاء لويس السادس للعرش عام ١١٠٨م. وقد اشتّهر إيفو بشكل خاص بأرائه عن الزواج نظراً لأنه كان قد اعترض علي جمع الملك فيليب الأول بين زوجتين عام ١٠٩٢م. ويعد أهم عمل لإيفو هو Decretum، والذي يعرض المصادر الموثوقة التي تقول بعدم شرعية الزواج سراً. فمثل هذا الزواج لابد وأنه سيجلب المتاعب والعقوبات علي صاحبه، وذلك في الوقت الذي لا يّعَدّ فيه هذا الزواج باطلاً من الناحية القانونية[١]

أما هيو دو سان فيكتور Hugh de St.Victor، وهو الأستاذ الزميل لأبيلار في باريس في الثلاثينات من القرن الثاني عشر، فقد كتب عن الزواج واصفاً إياه بأنه"سر مقدس سواء كان الاتفاق عليه قد تم علناً أو سراً، فإنه برغم كل شيء يعد رباط زواج كامل"[٢] ومع ذلك،فإن الزواج السري قد سبب نزاعات كثيرة لدرجة أن جراشيان Gratian توصل إلي أن الزيجات المحرمة والسرية ينبغي أن تكون باطلة وغير شرعية ولكن كتاب Decretum لجراشيان لم يتم نشره إلا في أوائل الأربعينات من القرن الثاني عشر، إلا أن ما كان يهم أبيلار عام ١١١٧م هو أراء إيفو أوف شارتر.[٣]

لم يكن الزواج السري يلقي قبولاً بالتحديد في المجتمعات التي تعتمد علي عقود الزواج في نقل الملكيات، وذلك لأنه يبدو كالمؤامرة لسلب الحق بالاحتيال. فالسرية التي اشترطها أبيلار كانت بالتأكيد تهدف للاحتيال علي شخص ما، إن لم يكن فولبير، فأسقفه وزملائه من الشمامسة في نوتردام، أو الطلاب الذين تم إرسالهم من الكنائس من كل مكان في أوروبا بسبب شهرته بالصرامة والألمعية. لقد كانت شهرته بقدرته علي كبح جماح نفسه عن الشهوة هي التي جعلت فولبير مقتنعاً باصطحابه إلي منزله في المقام الأول. وتلك هي السمعة fama التي لم يقدر أبيلار علي تحمل الإضرار بها[٥].

---

(١) Clanchy, Abelard, p. 187

وعن مؤلفات إيفو أوف شارتر أنظر،

Migne, pL.,(161) decretum, ch. 141, p.616; Ives de Chartres, Les correspndance, éd. Leclercq, Paris, 1949

(٢) Baron, r. Sience et Sagesse de H.de St. Victor, pairs, 1957, p.131

– كان هيومقدم دير سان فيكتور من عام ١١١٥م أو بعد ذلك بقليل, وهو الخليفة الروحي لوليام دو شامبو أشهر معلمى باريس فى القرن الثاني عشر. كان هيو معلم ومؤلف من الطراز الأول, وقد اشتّهر بسعة علمه واطلاعه. وقد كان ابيلار هو هدف كثير من ملحوظات كتابه Didascalicon وقد جمع بينه وبين أبيلار فى ذكرى وفاتهما بأنهما مصباحى النور اللاتينى فى فرنسا. وعن آراء هيو ومؤلفاته انظر,

Hugh de St.Victor,PL.175,Paris,1886,P.550

وانظر كذلك يوسف كرم, المرجع السابق, ص. ١٠٠-١٠١

(٣) Robertson, Op. Cit., p.70

– يعد جراشيان من أشهر المشرعين الكنسيين فى القرن الثاني عشر, وهو الذي ترك أعمق الأثر على الفكر والقانون الكنسي فى زمانه . ويكتسب مرسوم جراشيان المعروف باسم Decretum الذي صدر فى أربعينات القرن

ووفقاً لإيفو أوف شارتر، فإن الشخص سيئ السمعة لا يمكنه الشهادة في المحكمـــة كشـــاهد موثوق فيه، ولا يمكنه كذلك أن يتولي منصباً كنسياً. وقد عرض هذا أســـتاذية أبيـــلار فـــي مـــدارس نوتردام للخطر، فقد تحمل خسران حياته المهنية والعمل الذي قام به خلال عشرين عاما مضت[1].

وهنـــاك أيضـــاً قضيـــة ما إذا كـــان أمـــراً قانونيـــاً أن يتزوج الرجـــل بمحظيتـــه، وهـــو الأمر الذي ينطبق علي إيلويز، فقد أدرج أبيلار رأي إيفو أوف شارتر حول تلك المسألة فـــي كتابـــه "نعم ولا" تحت العنوان الرئيسي: "ليس مسموحاً لأحد أن يتزوج من محظيته" فأوجه الاعـــتراض تعـــد مماثلة لتلك التي تعارض الزواج السري، فقد يتآمر الرجل مع محظية ذات ثـــروة ضخمـــة وبالتـــالي يسلب ممتلكات والديها وكذلك طالب الزواج الشرعي منها بالاحتيال. إلا أن القديـــس أوغسطيـــن كان يري أنه من المسموح أن يتزوج الرجل محظيته. وقد أدي ذلك بإيفـــو أوف شارتر إلي التوصـــل لكيفية تفسير ذلك القانون، وهل ينبغي تطبيقه بصرامة أم يجب إبداء الرحمـــة فـــي بعـــض الحـــالات الفردية.[2]

وقبل ذلـــك ببضـــع سنـــوات، كان إيفو أوف شارتر قد حكم في أسقفية باريس نفسها بـــأن "الشماس الذي تزوج يجب أن يفقـــد منصبـــه حتى وإن كان زواجه شرعياً، وذلك لأنه سقط عن كبـــح جماح نفسه عن الشهوة إلي شهوانية الزواج. فالشمـــاس ينحدر بذلك من مرتبة رفيعة إلي مرتبة دنيـــا في السلك الإكليروسي. لقد أُنشئ النظام الكنسي لخدمة الرب، ويتم تمويله من جانب العامة علي هـــذا الأساس فقط، فرجل الدين المتزوج يعد "منتهكاً للمؤسســـة الكهنوتية".[3]

لقد وجـــد أبيلار نفسه في وقت ومكان بالغ الحساسية فيما يخص العلاقات الجنســـية لرجـــال الدين، وذلك بعد نزاعه مع فولبير في باريس عام ١١١٧م وفي الوصول إلي قرار بشأن أبيلار، كـــان لدي أسقف باريس وشمامسه نوتردام خيارات متعددة فلم يكونوا ملزَمين باتبـــاع نصـــائح إيفـــو أوف شارتر، فمن بين كبار الشمامسة، كان رئيس الشمامسة ستيفن دو جارلاند Stephen de garlande،

=الثاني عشر أهمية خاصة فهو لم يصدر فى شكل مجموعة قانونية بالمعنى المفهوم، وإنما فى شكل مرجع للطـلاب امتاز بطابعه المدرسي. وكان هذا المرسوم سنداً للبابوية فى صراعها مع الإمبراطورية. انظر،

Coulton,G.G., Medieval Panprama,New York,1955,PP.272,332 ; Painter, Op.Cit.,PP.138,268

وانظر كذلك، جوزيف نسيم يوسف ، نشأة الجامعات ، ص. ١١٢

Chatillon, Op. Cit. , p. 322

(١) Ibid, p. 323

(٢) Abelard, Sic et Non, in Ouvragn inedits, question 131, p.162; Robertson, Op. Cit. , p.71

(٣) Ive de Chartres, pL. 161, p.563

الذي انتقده إيفو بقسوة عام ١١٠١م، وذلك لأنه ثابت عليه جريمة الزنا ومحروم كنسياً، إلا أنه لا يزال يشغل منصبه، ولعله كان أيضاً سند أبيلار القوي داخل كتدرائية نوترادم[1]

ولأن ستيفن كان مستشاراً للملك لويس السادس، وأخوه كان هو المسئول عن إقطاعيات الملك، فقد كان من بين أقوي الرجال في فرنسا. وتتبدى مكانته البارزة في جماعة أكليروس نوتردام في منزله الفخم والكنيسة التي بناها لنفسه أيضاً، ومثل الحياة العلمانية لستيفن، فإن زواج أبيلار يمكن أن يكون سراً أيضاً داخل الدوائر الرسمية في نوتردام، حيث كان يعتزم أبيلار وإيلويز وفولبير أن يسكنوا متقاربين لبعضهم البعض مرة أخري. ولعل الغرباء أمثال إيفو أوف شارتر (وسان برنار في عشرينات القرن الثاني عشر) كانوا يرددون دائماً أن ستيفن كان عاراً علي النظام الأكليروسي، إلا أن زملائه في باريس تعاموا عن ذلك بشكلٍ مستمر، فكان الوضع أكثر أمناً هكذا بالنسبة لهم.[2]

كذلك وعندما عهد أحد الأساقفة الجدد عام ١١٣٣م إلي مقدم دير سان فيكتور للتحري بخصوص رؤساء دير باريس، اقترب الرجل تماماً من قلعة ستيفن دوجارلاند وتعرض للقتل وتوفي بين أيدي أسقف باريس أسفل جدران قلعة ستيفن ولم يتم مقاضاة أحد. ولكن لكون ستيفن قد أفلت من جريمة القتل تلك، فإن ذلك لا يعني بالضرورة أن يفلت أبيلار أيضاً من جريمة اختطاف ابنة أحد زملائه من الشمامسة[3]

وبرغم قرب أبيلار من ستيفن، فإنه لم يستطع إنقاذه من انتقام فولبير، ففي ليلة خصائه لم يحظ أبيلار بحراسة ولم يكن يحميه سوي خادمه الذي خانه علي حد زعمه. ولعل فرسان ستيفن قد قدموا يد المساعدة بعد حادثة الخصاء، وذلك بإعماء وإخصاء خادم أبيلار وأحد رجال فولبير الذي تم القبض عليه.[4]

لم يكن الإبقاء علي سرية الزواج ليستمر إلا إذا كان فولبير وأبيلار قد تعاونوا بشأن كل تفاصيل الخطة فإيلويز قد اضطرت إلي مواصلة العيش مع فولبير وكأنها لا تزال تحت وصايته، في

---

(١) Brooke, The Medieval Idea of Marriage, p.84

- ستيفن دوجارلاند هو واحد من خمسة أخوة كلهم علي صلة بالبلاط الملكي، كان رجل دين وفارس، بني منزلاً عظيماً وكنيسة علي الجانب الشمالي لنوتردام ،عمل شماساً، فرئيساً للشمامسة في نوترادم عام ١١٠٤م. كذلك فقد عمل مستشاراً للملك فيليب الأول من عام ١١٠١-١١٠٦م، ومستشاراً للويس السادس عام ١١٠٨م. ودافع عن أبيلار في مناقشاته مع سوجيه رئيس دير سان دينيس عام ١١٢٢م وفي مواقف أخري مشابهة وفقد سلطته بعد موت لويس السادس عام ١١٣٧م، حيث أوي إلي دير سان فيكتور عام ١١٤٠م، وهو العام الذي سهل فيه أيضاً محاكمة أبيلار في سينس عام ١١٤٠م أنظر عنه، Clanchy, Abelard, pp. 142-144, 193-194, 342-343; Marenbon, Op. Cit., p.17- 20; Robertson, Op. Cit. , p.74

(٢) Charrier, Op. Cit., p. 262

(٣) D.H.G.E.,P.78

(٤) Abelard, Historia, p.17

الوقت الذي سمح فيه فولبير لأبيلار بالقيام بزيارات خاصة لإيلويز برغم غضبه الشـــديد مــن ذلــك الأمر،إلا أنهما منذ ذلك الحين، تبادل هو وأبيلار عهود السلام وأقسما علي الصداقة الأبديـــة. عندئــذ كان من الممكن إنجاح سرية الزواج(١).

ومع مرور الوقت شهراً ثم عاماً، أصبح الإبقاء علي سرية الزواج يزداد صعوبة، كمــا أنــه أصبح أكثر ضرورية، خاصة إذا كان أبيلار يريد الحفاظ علي سمعته كأستاذ صارم وغــير مــتزوج. في ذلك الوقت كان المصلحون الكنسيون يزدادون صخباً ونفوذاً وبشكل خاص سان برنار الذي ارتفــع صوته بأكثر ما يكون في العشرينات من القرن الثاني عشر الميلادى.(٢)

ربما بالغ أبيلار في سرية زواجه لكي يضع اللوم علي فولبير في إفشاءه لأمـــر الــزواج. فهو يصر علي أنه هو وإيلويز عادا إلي باريس سراً تاركين ولدهم الصغير المسكين في رعاية أختــه في لوباليه. لقد ظلت إيلويز بعيدة عن باريس لمدة ستة أشهر أو أكـــثر، ويمكــن لعودتــها أن تثــير التكهنات حولها، في الوقت الذي كان يصعب فيه إخفاء كربها، فقد تم تهديدها بالعنف وأجبرت علـــي ترك ولدها الصغير في بريتاني ومنتظر منها الآن أن تبدأ حياتها مع خالها مرة أخري وكأن شيئاً لـــم يكن(٣)

---

(١) Clanchy, Op. Cit., p. 190

-كان بعض رجال الدين مثل الأساقفة النورمان والشمامسة في إنجلترا يحتفظون بزوجات ومحظيات بشكل رسـمي وسري لسنوات، إلا أن موقفهم كان أقوي من أبيلار، وذلك لأنهم هم أنفسهــم مطبقي القانون، في حين أن أبيلار لم يكن حتى رئيساً للشمامسة. وعلي ذلك تعد سرية الزواج مهانة لكل الأطراف المعنية خصوصاً فولبير الذي لم ينــل تعويضاً علنياً بسبب الخزي الذي عاني منه. فكل ما حققه باتفاقه مع أبيلار كان عودة إيلويز إلي منزله. انظر،

Jolivet, Aspects de la pensée médiéval, p. 143

(٢) Le Goff, Les intellectuels au moyen âge, p.50

-لعــل إيلويــز قد تعرضت في ذلك الوقت لضغوط من جانب عائلتها أو معجبيها، وذلك لكي تتزوج مــن شــخص آخر، ولعلها وجدت صعوبة في تفسير عدم استطاعتها الزواج. وبمرور الوقت أيضاً قد يقوم أحد شمامسة نوتردام أو غيره بالخروج عن الجماعــة والقيام بإفشاء السر. فكبار الشمامسة الذين يذكرون أبيلار وهو يضايق أستاذه وليـام دو شامبو باستمرار، أو الذين يوافقون St.Goswin الرأي في أنه كان مجرد مهرج، سيشعرون بالســعادة عندمــا يرونه مطروداً. وعلي عكس ستيفن دوجارلاند، لم يكن أبيلار عضواً أساسياً في مجتمعهم، كما أنه لم يكن موظـــف ملكي، ولا قائداً للفرسان، ولا فرنسي الأصل. ولكن مغامر بريتاني يستحق أن يحكم عليه بسوء السمعة ويطــــرد. (الباحــث)

وعن معاناة إيلويز من جراء سرية الزواج بالتفصيل، انظــر،

Gilson, Heloise et Abelard, pp.121- 125; Robertson, Op. Cit. , pp.110-114

(٣) Le Goff, Les intellectuels au Moyen âge, p.46

ويصف أبيلار كيف احتفل هو وإيلويز ليلة الزفاف "بصلاة سرية أجريناها في كنيسة معينة" ولا يذكر أبيلار عن الاحتفال أكثر من ذلك، غير أنه قال"أن المراسم تمت عند الفجر لتطابق القاعدة التي تقول بأن الزفاف يجب أن يتم في ضوء النهار". كما ذكر أن الذين حضروا كان خالها وأصدقاء معينين لنا وله. فالزواج تم وفقا للشروط الدينية والقانونية التي وضعتها الكنيسة.[١]

بعد ذلك مباشرة يصف أبيلار كيف انفصلا عن بعضهما البعض فور خروجهما من الكنيسة قائلا: "ولم ير بعضنا بعضا بعد ذلك إلا في بعض المناسبات وبشكل سري لكي نخفي بأقصى درجة ما كنا قد فعلناه".[٢]. إن الشيء الذي فعلوه ولا يغتفر هو زواجهما، فبالنسبة لرجل الدين، يعد الزواج جريمة أكثر خطورة من الزنا، وذلك لأن الزواج لا يلغي وهو أمر يمكن إثباته رسميا. ففي أعين رجال الدين، يعد العنصر الجنسي في الزواج شيئا فادحا يكرسون أنفسهم للتغلب عليه. ولهذا السبب أطلق إيفو أوف شارتر علي حالة الزواج "الشهوانية الزواجية" فقد كتب في خطاب له إلي أسقف باريس أن الزواج يحط من قدر رجال الأكليروس، لأنهم فريق الصفوة في الكفاح اليومي ضد الشهوانية وكل الشرور الدنيوية التي تتضمنها[٣].

كانت إيلويز تضع تلك الكلمات التي كتبها إيفو في ذهنها عندما كانت تقول دائما لأبيلار أنه باعتباره رجل دين وشماس، ينبغي عليه أن يعلو فوق الشهوانية الحقيرة، وألا ينشغل في ذلك الفحش بالخزي وبشكل نهائي لا رجعة فيه. لقد تبين بعد ذلك أن إيلويز كانت علي حق في إصرارها علي أنه كان أشرف لها أن يطلق عليها عشيقة أبيلار أو صديقته بدلا من أن يطلق عليها زوجته. وسرعان ما اتضح الخزي من زواجهما، فقد بدأ فولبير وعائلته في الإعلان عنه علي عكس الوعد الذي قطعوه – كما يقول أبيلار – لأنهم لم يتحملوا خزي موقفهم . وبدلا من إنقاذ فولبير والعائلة من

---

(١) Abelard, Historia, p.17

–يعبر حرصهم علي إقامة تلك الصلاة المسائية عن مدي جديتهم في تناولهم للجانب الديني للزواج. أما فيما يتعلق بالسرية فلا تتماشى معها طقوس إقامة صلاة الاحتفال، وذلك لأنها تتطلب إضاءة الشموع والإنشاد. أما الكنيسة المعينة التي تم فيها الزفاف فلم يتم تحديدها، غير أنه من المحتمل أن يكون أبيلار وإيلويز قد تزوجا في كنيسة ستيفن دوجارلاند الجديدة التي ربما أنهي بناؤها عام ١١١٨م، والتي كانت تتميز بالقرب من دير نوتردام. كذلك يذكر أبيلار أن الحفل حضره شهود من الجانبين لكي يتماشى مع القانون الكنسي، وهو الأمر الذي ينم عن مراعاتهم للشروط الدينية والقانونية في الكنيسة، وطبيعي أن الذي عقد الزواج بينهما كان أحد الكهنة المعروفين في نوتردام. (الباحث)

لمزيد من المعلومات عن تقاليد الزواج والأعراف المتبعة في ظل القوانين الكنسية انظر،

Brundage, j., Law, Sex, and Christian Society, Oxford, 1987, pp. 187 ff.

(٢) Abelard, Historia, p.17

(٣) Ive de Chartres, pL. 162, Letter 218, p.42

انظر كذلك ، Brundage, Op. Cit., p. 162

الإذلال الذي يعانوه من جراء زواجها بأبيلار، أنكرت إيلويز أمر زواجها، كما أنكرت شهادة فولبـــير والآخرين، وأقسمت علي أن الأمر لا يعدو كذبة كبرى.(١)

لعل قيام إيلويز بإهانة أهلها بمثل تلك الأكاذيب الصارخة، قد أثار حفيظة فولبير بشـــدة ممـــا جعله يقوم بطردها من منزله، وقد أدى ذلك بأبيلار إلى الظهور علناً وتولى مسئوليتها. يقول أبيـــلار: "لقد أرسلتها إلى دير للراهبات بالقرب من باريس يدعى أرجينتى Argenteuil، وهو الـــدير الـــذي تربت وتعلمت فيه عندما كانت لا تزال فتاة صغيرة".(٢) لقد أرسلها أبيلار قبـــل ذلـــك لعائلتـــه فـــى بريتانى كخطوة أولى فى ثأره مع فولبير ، إلا أنه بعد ذلك، وبعد الإعلان عن الزواج، كـــان مخـــولاً لإخراجها من بيت أهلها والتصرف فيها كيفما يشاء. يقول أبيلار: "عند انفصالنا عن بعضنـــا البعـــض أمرتك بالذهاب إلى أرجينتى، حتى يمكنك أن تدرسي فى المدارس، ولكي تصبح لـــدى حريـــة أكـــثر لكي أكرس وقتي للصلاة والتأمل في الكتب المقدســـة".(٣)

على الرغم من أن أبيلار كان يتمتع بسلطة أمر إيلويز بأن تغادر منزل فولبير، إلا أنـــــه قـــد تجاوز سلطاته كزوج فى إدخالها الدير، إذ أن ذلك كان يعادل إنهاء زواجهما. فقد ينفصـــل الزوجـــان باتفاق متبادل بينهما عندما يختار كلاهما دخول الدير للرهبنة، مثلما فعل ولدا أبيلار عنـــد تقاعدهمـــا، إلا أن أبيلار لم يفعل ذلك. كذلك لم تكن لدى أبيلار أية رغبة فى دخول الدير فى ذلـــك الوقـــت، لأن حياته المهنية ستتعرض للخطر حينئذ.(٤)

ومن ناحية أخرى، وكمـــا أوضحت إيلويز لأبيلار، فإن حياتهما كانت تتماشى مـــع القـــانون الكنسي، لأن انفصالهما كان يعنى أنهما كانا على نفس القدر من القدسية والعفـــة. غـــير أنـــه أفســـد الصورة الجميلة لإيلويز بتذكيرها فى رسائله كيف كان يمارس معها الحب فى حجرة طعام الراهبـــات فى أرجينتى. ويدل ذلك على أنه فى ذكره لحجرة الطعام فى أرجينتى، فإنه لم يكن فى أغلـــب الظـــن لديه مكان آخر يذهب إليه – على حد قوله – فقد سُمح له أن يزور إيلويز، بشـــرط أن يتواجـــد فـــى الأماكن العامة فى الدير.(٥)

---

(١) Abelard, Historia, p.16; Worthington, Op. Cit., p. 112

(٢) Abelard , Historia , P. 17

(٣) Ibid, P. 17

(٤) Truc, Op. Cit., P. 167

–تعرض البعض لضرورة رفض دير أرجينتى لقبول إيلويز، وذلك لأنها لم تكن آتيه بمحض إرادتها، إلا أن أسباب موافقة الدير غير معلومة، وكذلك الاتصالات التي جرت للاتفاق مع الدير على دخولها، ولعل ذلك ما سوف ينم عنـــه طردها بعد ذلك دون معرفة الأسباب أيضاً. (الباحث)

وعن الحياة فى دير أرجينتى بالتفصيل أنظر،

Charrier, Op.Cit., PP. 141 FF ;Macleod, Op.Cit. PP. 208 - 213

(٥) Chatillon, Op.Cit., P. 328

يقر أبيلار أن فولبير وعائلته عندما سمعوا خبر دخول إيلويز الديـــر، كـــانوا يظنـــون أنـــه خدعهم وأنه لم يرد سوى أن يجد مخرجاً سهلاً لنفسه بجعل إيلويز راهبة. وبما أنـــه اعـــترف قـــائلاً "كان لدى الرداء الرهباني المناسب لها وقمت بإلباسها إياه"، فكان ذلك هو الاســـتنتاج الواضـــح أمـــام فولبير، إذ أن ترسيم شخص ما بزي معين يشكل طقوس الانتقال من مرتبة ما فى المجتمع إلى مرتبـــة أخرى. وفى خطاباتهم اللاحقة، لم يقدم أبيلار أو إيلويز أى تفسير آخر لذلك.(١)

وقبل الأخذ فى الاعتبار رد فولبير بإخصاء أبيلار، فمن المهم التساؤل: لماذا اعترض علـــى تحول إيلويز إلى راهبة؟ لقد كان الدخول فى الدير بمثابة الحل الأفضل لها، شـــريطة أن تفعـــل ذلـــك بمحض إرادتها. وبالعودة إلى دير أرجينتى، كانت إيلويز تستقر مرة أخرى فى منزل طفولتـــها. فـــلا يمكنها أن تظل فى منزل فولبير فى نوتردام بشكل نهائي، إذ أنه كان سيخضع إلى الضغوط المـــتزايدة الواقعة عليه سواء من عائلته أو من أساقفة وشمامسة نوتردام وما يجاورها!. كذلك فإن تعليـــم إيلويـــز السابق لم يُعدها إلى القيام بأي دور سوى دور الراهبة. فقد انتهت الأيام التي يمكن لرجل دين طمـــوح مثل أبيلار أن يعيش مع امرأة بوصفها نداً له من الناحية الفكرية والاجتماعيـــة، وإن كـــانت لا تـــزال لديه عشيقة على حد تعبيرها.(٢)

هل يعنى ذلك أن أبيلار وإيلويز لم يكن لديهما أي مخرج من تلك المشكلة؟ أو هـــل يمكنـــهما الزواج بموافقة فولبير ويعيشا معاً كزوج وزوجة علنياً؟ من المؤكد أنه كان بإمكانـــهما القيـــام بذلـــك، شريطة أن يستقيل أبيلار من منصبه كأستاذ فى نوتردام. وقد يجد وظيفة أخرى شـــريفة ســـواء فـــى باريس أو فى أي مكان آخر وإذا كان أبيلار ربيب ستيفن دو جارلاند، فربما حظى بوظيفة فى البـــلاط الملكي أو يجد منصب له راتب فى أي مكان آخر فى فرنسا تكـــون فيه قوانين التبتل أقـــل تشـــدداً.(٤) وإذا كان أبيلار موظف ملكى، لكان قد حقق تقدماً أسرع فى حياته المهنية للوصـــــول إلـــى منصـــب الأسقف عنه فى كفاحه فى مدارس نوتردام. كذلك كان بإمكانه أن ينال رتبة ذات دخـــل فـــى مســـقط

- سألت إيلويز بعد ذلك أبيلار فى إحدى الخطابـــات عن السلوك الرهباني اللائق لاجتماع الرجال مع النســـاء علـــى مائدة رئيسة الدير. ولعل إيلويز كان مسموحاً لها استقبال الزوار في دير أرجينتى، وذلك لأن مكانتها لم تكن مكانـــة راهبة كاملة الرتبة، وإنما مساعدة تشارك في حياة الدير أو مترهبنة مساعدة (conversant) وهى الكلمـــة التـــي استخدمها أبيلار وإيلويز في هذا الشأن. لقد كانـــت إيلويز ترتدى رداء الراهبة عدا غطاء الرأس الذي يـــدل علـــى النذور النهائية. انظر، Charrier, Op. Cit., P. 147

(١) Bourgain, P. , "Heloise" in Abélard en son temps, P.211

أنظر كذلك Georgianna, Heloise's Critique of Monasticism, PP. 225 - 226

(٢) Charrier, Op.Cit., P. 148

(٤) Worthington, Op.Cit., P. 177

كان ستيفن دوجارلاند مشهوراً بسوء السمعة فيما يتعلق بالاتجار فى الرتب الكنسية ذات الراتب العالي. انظر، Jeandet , Heloise, P. 158

رأسه بريتاني من خلال معارف عائلته واتصالاتها (استطاع ابنه اسطرالاب أن ينال بعد ذلك منصب الشماس في نانت). حتى وإن لم يكن لأبيلار أية رتبة كنسية على الإطلاق، فكـــان بإمكانــه العــودة للتدريس في المدارس، مثلما فعل في بداية حياته المهنية عندما أخرجه وليام دو شامبو مــن بــاريس. وفي المدرسة الإقليمية المعزولة، ربما كانت ستساعده إيلويز في التدريس إذا سمحت لـــها الظــروف بذلك.(١)

أما المؤرخ Le Goff، فيرى أن ما سبق من تكهنات تعد غير مناسبة لأبيلار، وذلك لأنه لـم يكن ينظر لنفسه على أنه إنسان عادي، ينبغي أن يتولى القيام بأي عمل متاح له ليعول زوجته وطفلــه، حيث يقول "كنت أرى نفسي الفيلسوف الوحيد في العالم"، وهكذا يصف أبيلار حالته الذهنية في ذلــك الوقت. فلم تكن لديه أية طموحات دنيوية من رتب كنسية أو أموال، ولكنه كان ينتظر أن يشهد الجميـع بتفرد مواهبه وعبقريته. تلك هي الشخصية التي وقعت إيلويز في حبها. كانت تؤمــن بــدور الرجـل الخارق مثلما يؤمن هو، فتقول "أي ملك أو فيلسوف يمكن أن يضـاهيك فــي شـهرتك؟". لقـد كـان إمبراطورها وكانت تفضل أن تكون خادمته أو حتى عشيقته. فعلاقتها لم تبدأ كعلاقة شراكه بين نديـن، وإنما جمعهما حب العلم والحكمة، إلا أن احتمالات تحول تلك العلاقة إلى علاقة أسرية ناجحة كــانت تعد ضئيلة.(٢)

مما سبق يظهــر مــدى وقــوع أبيلار وإيلويز في كاريزما شخصيته. فكانــت تقــول لــه: "أن الطبيعة خلقتك لجميع الناس، لذا لا يجب ألا تقصر نفسك على امرأة واحدة، فــإن قيـامك بذلــك سيكون فساد خلقي فادح".(٣) كذلك فقــد ذكرته إيلويز بأن الحكماء العظام من العـــالم القديـم، مثـل فيثاغورث وسقراط وشيشرون وسينيكا، عاشوا وماتوا لأجل فلسفتهم. فالرواقية لم تكن وظيفة نصــف يومية، ولكنها مهنة تتطلب الوحدة وتستغرق الانتباه بشكل تام. لهذا السبب اختلف هؤلاء الحكماء مــع زوجاتهم أو طلقوهن. فالحياة العائلية أحطت من قدر سقراط ويمكن لها أن تدمر أبيلار. وقــد حذرتــه

---

(١) Bourgain , Op. Cit., P. 212

لقد قيل أيضاً عن الأستاذ Manegold المعاصر لأبيلار أن بناته كن يساعدنه في التدريس بمدرسته، ولعل ذلك كان سيزيد من ترجيح كفة إيلويز في التدريس، والتي قيل عنها آنذاك أنها تفوق أعلى رجال عصرها سواء في المدارس أو الكنيسة في الثقافة والمقدرة العلمية. أنظر، Chatillon , Op. Cit. P. 329

(٢) Le Goff, Pour un autre moyen âge, P. 184

أنظر كذلك، Philipp Wolff, L'Eveil Intellectuel de L'Europe, P. 208

(٣) Heloise, Letter II, in Monfrin, Historia calamitatum d'Abelard, text critique avec introduction, Paris, 1962, P. 120

إيلويز بأنه إن لم يكن مهتماً برتبته كرجل ديـــن، فينبغـــي عليـــه علـــى الأقـــل أن يحتفـــظ بكرامـــة الفيلسوف.(١)

بعد أن أصبح أبيلار راهباً، قام بشن هجوم على الزواج يتوافق مـــع الكتابـــات المعاديـــة للمرأة منذ قرون مضت. فقد أخبر بعض الرهبان فى إحدى وعظاته أنه لا يوجد قيد أثقل مـــن ربـــاط الزواج، وذلك لأنه يسلب الرجل سيطرته الكاملة. فقد ذكر فى كتابه اللاهوت المسيحي قـــائلاً: "إننـــا نعلم من شهادات وتجارب الزلات السابقة مدى عظم العقبات والأعباء والأخطار التـــي يزخـــر بـــها الزواج".(٢)

ويعد كلام أبيلار هاماً فى ذلك المقام، إذ أنه يرجع تاريخه إلى بضع سنوات بعد خصائـــــه، كما أنه فى إشارته لكلمة "تجارب سابقة"، كان يعنى بالضرورة حالته الشخصية. فهجوم أبيلار علـــى الزواج يدل على أنه كان يظن أن خصائه قد حرره تماماً من قيود الزواج. وعندمـــا وصـــل لكتابـــه تاريخ المصائب بعد حقبـــة من كتاب اللاهوت المسيحى، كان يصف إيلويز وقتها بأنـــها "أختنـــا فـــى المسيح" وليست زوجـــة.(٣)

ويقول كرستوفر بروك أنه عندما جعل أبيلار إيلويز راهبة، كـــان يّصـــر علـــى أن يلغـــى زواجهما روحياً وبدنياً. لعل هذا ما كان يدور في خلد أبيلار، على الرغم من أنه كان لابـــد أن يكـــون مدركاً أن يظلا متزوجين بموجب القانون الكنسي، لأن الانفصال لا يُلغى الزواج بعد إتمامـــه. ولذلـــك أصرت إيلويز بعد ذلك بخمسة عشر عاماً عندما تبادلا الخطابات التي أعقبت" تاريخ المصائب"، أنـــه يجب عليه أن يسدد دينه لها وفقاً للرباط الوثيق للزواج المقدس الذي لا فِكـــاك منـــه. فكانـــا متحديـــن روحياً وإن كانا منفصلين جسدياً، مثل كل الأزواج الذين انفصلوا ليحيوا حياة رهبانية. فهذا مـــا فعلـــه

---

(١) Truc , Op. Cit., P. 206

-أكدت إيلويـــز لأبيلار قبـــل ذلك أن الزواج لا يمكنه أن يقرب بينهما، بل أنه فى أفضل حالاتـــه يمكن أن يباعد بينهما ويُزلهما، بينما فى أسوأ حالاته يمكن أن يُدمرهما. ولأن تلك النبوءة تحققت بالفعل، كـــان أبيلار يظن أن إيلويز تتمتع بمهارات التنبؤ، في حين أنها كانت فقط تتبع عواقب اعتقاده بأنـــه فـــوق التقـــاليد العادية للمجتمع الإنساني. (الباحث)

(٢) Abelard, Theologia Christiana, in Mews, J., Petri Abaelard, Opera theologica, cccm, vol. 13 (1987) , P.198

انظر كذلك، Jolivet,La Theologie d'Abelard ,P.56

(٣) Georgiana, Op. Cit., P. 247

والدا أبيلار عند تقاعدهما. وقال أبيلار أن زواجه من إيلويز، عروس المسيح (وهو ما أصبحت عليه بعد أن صارت راهبة)، قد رفع من قدر حبهما إلى مكان أسمى.(١)

- العقاب العادل لأبيلار.

كان لخصاء أبيلار عواقب متناقضة بالنسبة له ولإيلويز مثلما كان لزواجهما. فالزواج أدى بشكل حتمي إلى انفصالهما الفوري. ومن ناحية أخرى، فقد قربهما الخصاء من بعضهما البعض: أولاً في المحنة، وثانياً في الحب الروحي، ذلك هو تفسير أبيلار للأحداث. إن أبيلار لم يوجه بيانه المدون الأخير، اعتراف الإيمان Confession of Faith، إلى سان برنار والأساقفة في مجلس سنس Sens عام ١١٤٠ م الذين كانوا يطالبون به، ولكنه وجهه إلى إيلويز التي كانت على حد قوله "عزيزة على قلبي في العالم، وهي الآن الأقرب إلى قلبي في المسيح".(٢)

كذلك فقد اعترف في خطابات سابقة أنه كان عنيفاً معها ومستغلاً لها بشدة "لأنك كنت أضعف بطبيعتك، فغالباً ما كنت أدفعك إلى الموافقة عن طريق التهديد والضرب". ومن الواضح أنها كانت تتقبل ذلك، فقد كان يضربها عندما كان مدرساً لها، وذلك لكي يتحاشى الشبهات على حد قوله.(٣)

يقدم أبيلار في كتابه تاريخ المصائب السبب المباشر لعملية الخصاء، وهو أن فولبير وعائلته كانوا يظنون أنه سيتخلص من زواجه بجعل إيلويز راهبة. فحتى أبيلار اعترف أن خصائه لم يكن عملاً عنيفاً بلا سبب معقول، وإنما كان عقاب، وقد كان اختلافه مع عائلة فولبير في موقفهم من مدى فداحة العقاب. يقول أبيلار: "إنهم عاقبوني بأقسى أنواع الانتقام وأكثرها خزياً".وفي هذا مبالغة لأنه يصف بعد ذلك كيف عاني اثنين من مرتكبي الحادث ضده من عقاب أكثر ضراوة، حيث تم إعمائهم وخصائهم أيضاً، أحد هؤلاء كان خادم أبيلار الذي خانه ولعله تلقي عقاباً مناسباً لخيانته، وآخر من المحتمل أنه أحد أقارب فولبير، والذي لم يكن يؤدي سوي واجبه الأسري من خلال تواجده في حفلة الخصاء(٤).

---

(١) Brook, The Medieval Idea of Marriage, P. 107

تعلق إحدى القصائد المعاصرة لأبيلار أنه كان من الصواب أن تترهبن والدته لأنها كانت عجوز، في حين أنه أجبر إيلويز على دخول الدير وتركها هناك وهي لا تزال شابة. انظر عن ذلك،

Dronke, P., Poetic Individuality in the Middle Ages, Oxford, 1970 , P. 122

(٢) Abelard, Confession of Faith, in Radice, The Letters, PP. 270 - 271

(٣) Dronke, Testimonics, P. 45

قد يكون الأمر كذلك، لأن العقاب الجسدي كان جزءاً مكملاً للتعليم في العصر الوسيط. وقد اتفق معها أبيلار على ذلك حتى يتحاشى الشبهات خاصة أمام فولبير. ولعل عنفه الموجه ضد إيلويز كان سبباً إضافياً وراء ممارسة عائلة فولبير العنف ضده بعد ذلك خاصة بعد اكتشاف فولبير أن الضرب والصراخ أثناء الدروس العامة كان محض تمثيل لإخفاء الأمر بينهما. انظر، Gilson, Heloise et Abélard , P. 52

(٤) Abelard, Historia, p.18; Brooke, Op. Cit. , P. 105

ليس من الغريب أيضاً أن تتفق إيلويز مع أبيلار في أن عقابه كان مبالغاً فيه فتقول "إن العقوبة التي عانيتها كانت تكفي لعقاب كل الرجال الذين يتم ضبطهم في فعل فاضح. لعل ما يستحقه الآخرين بسبب فحشهم، جلبته علي نفسك من خلال زواج كنت تثق أنه عوضك عن كل الأخطاء السابقة. إن ما تجلبه النساء الفاسقات علي أخلائهن، جلبته عليك زوجتك الشرعية[1]

يتفق كثير من أبناء جيل أبيلار علي أن خصائه كان عقاباً مبالغاً فيه، وهم في ذلك متفقين مع وصف أبيلار نفسه عندما ذكر تلقي الجماهير لذلك الخبر أنه أدي إلي " أقصي حالة من الرعب"، وهو رد فعل يؤيده أيضاً Fulk of deuil، الذي يصف أسقف باريس وهو مجهد من كثرة القضايا التي كان يحكم فيها بين الشمامسة وباقي رجال الدين ،في الوقت الذي يشتكي فيه المواطنين من أن سفك الدماء قد انتهك الاسم الجميل لباريس.[2]

كذلك فقد اتفق فولك علي أن الخصاء نفسه كان عملاً خادعاً، وليس خطوة شرعية في سبيل الثأر، وهو في ذلك يؤيد كلام أبيلار وإيلويز، حيث يوجه كلامه لأبيلار قائلاً: "إنك لم تكن تنوي الضرر لأحد، إلا أن الأيدي الآثمة امتدت فجأة إليك ولم تتردد في سفك دمك البريء"[3].

ولكن فولك لم يوافق أبيلار في أن فولبير تم التعامل معه بمنتهى التساهل وأوضح أنه علي الرغم من أن فولبير أنكر قيامه بذلك العمل، إلا أن أسقف نوتردام وشمامستها قد طردوه وقاموا

---

(١) Heloise, Letter II, in Monfrin, p.120

- بشكل ما كانت إيلويز تتحدث بسذاجة، لأنها لم تضع في اعتبارها الأخطاء التي ارتكبها كل منهما في حق عائلتها منذ زواجهما: هي من خلال إنكارها أن الزواج قد تم ، وهو من خلال اختطافه إياها إلي دير أرجنتي. وقد ظهرت في ذلك الوقت قصيدة لاتينية مجهولة المؤلف تقارن بين خصاء أبيلار مع خصاء شخص بريتاني آخر وهو ابن دوق بريتاني المدعو Mattew، فقد تمت معاقبته بعدل علي جريمة الزنا، في حين كان خصاء أبيلار خيانة عظمي. كذلك فإن القصيدة تبرئ إيلويز من الذنب لأنها لم توجد أية موافقة من جانبها تجعلها ملومة. ويبدو من تلك القصيدة أن مؤلفها كان أحد الأساتذة في باريس، وأنه لم يكن يحتاج أن يقرأ رسائل أبيلار، وذلك لأن الشائعات كانت منتشرة في أرجاء باريس. ولعل هدف الشاعر كان طمأنة الناس في أعقاب الخصاء مباشرة أن إيلويز لم تكن طرفاً فيه بالرغم من كونها أحد أفراد عائلة فولبير. ولهذا السبب كانت تصف نفسها بأنها "مذنبة جداً .. وبريئة جداً" في نفس الوقت . انظر، Dronk,Testimonies,p.46

وعن شعور إيلويز واتهامها لنفسها بالذنب انظر Charrier, op. Cit. , p. 192

(٢) Dronke, Testimonies, p.46

لا توجد لدينا كتب قانونية من شمال فرنسا من تلك الفترة توضح العُرف المتبع إزاء مثل تلك القضايا، غير أنه هناك ما يكفي من دلائل قصصية غير مشكوك في صحتها، والتي تؤكد علي حق العائلة المحزونة في المقاضاة، والتي غالباً ما كانت تلجأ إلي الثأر الدموي. انظر، Bourgaine, Op. Cit. , p.221

(٣) Fulk of Deuil, Op. Cit. , p.706

بمصادرة كل ممتلكاته، ثم يعلق قائلاً "لذا لا تقول عن الأسقف والشمامسة أنهم مدمروك وسافكو دمك، لأنهم كانوا ينوون تحقيق العدالة وقد فعلوا ما يقدرون عليه سواء لمصلحتك أو لمصلحتهم(١).

لعل إنكار فولبير مسئوليته عن الخصاء جرد تلك العملية من أية شرعية يمكن أن تنسب له، وذلك لأنه كان الطرف المجني عليه الذي أقسم مع أهله علي تنفيذ العقاب. كذلك فإن إنكاره هذا من جانبه ترك الرجال الذين أجروا عملية الخصاء بدون أي دفاع قانوني، ولكنه في نفس الوقت أنقذ منصبه كشماس من الضياع وكذلك ممتلكاته، والذين كانوا سيذهبون سدىً بالتأكيد لو كان قد اشترك في التخطيط للثأر الدموي ضد أحد زملائه من الشمامسة داخل حدود نوتردام.(٢).

ويؤكد فولك علي أن بعض الرجال (يقول أبيلار أنهم اثنان) من الذين قاموا بعملية الخصاء قد تعرضوا للإعماء والخصاء، ولكن لا يذكر أي من فولك أو أبيلار من قام بتنفيذ ذلك. وتشير أحد التخمينات إلي أن ذلك الأمر قد تم علي أيدي فرسان ستيفن دوجارلاند الذي كان عميداً لنوتردام، إضافة لكونه ولياً لأبيلار. أما السؤال بشأن كيفية إثارة ذلك الهجوم المباغت بهذه السرعة، ولماذا عجز بعض رجال فولبير عن الفرار فهذا أمر غير معلوم(٣).

لقد كان فولبير صادقاً عندما قال أن الخصاء لم يتم علي يديه، كما أنه لم يكن حاضراً وقتها. ولكن لعل فريق الخصاء كان مختفياً في منزله داخل نوتردام حتى حل الظلام، وعندها تلقوا إشارة من خادم أبيلار بأن أستاذه قد غلبه النعاس. أما فولبير ففي الغالب أنه كان عليه أن يضمن ألا يتم قتل أبيلار أثناء العملية، لأن ذلك كان سيعرض بالتأكيد منصبه وربما أيضاً حياته للخطر(٤).

---

(١) Ibid, p.707

تؤكد سجلات نوتردام علي أنه تم بالفعل إبداء التساهل تجاه فولبير، إذ أعيد إليه منصبه كشماس في أول أبريل عام ١١١٩م، ويظهر ذلك من خلال شهادته علي أحد العقود، وأنه لم يستمر طرده من منصبه لأكثر من عام أو عامين. انظر، Mews, "On Dating" ,p.97

(٢) Verger, Abelard et Les milieux socieux, p.116

(٣) Fulk of Deuil, Op. Cit. ., p. 707; D.H.G.E., p.87

(٤) Luscombe, From Paris to The Paraclete, p.279

– لم يكن من المفروض علي رجال الدين أن يسفكوا الدماء مهما كانت الظروف، وإن كان وجود ستيفن دوجارلاند كرئيس للشمامسة وعميد في نوتردام قد جعل هذه القاعدة هباءً في باريس. (الباحث)

وعن عمليات الخصاء وكيفية الجراحة وبعض الأمثلة عليها انظر، مقدمة عن الجراحة في،

Linda, p. The world of the Troubadours, Oxford, 1993, pp.208-214

ويبدو أن خصاء أبيلار قد تم تحت رعاية طبية. فكما يقول أبيلار "كـــانت العمليـــة قصـــيرة ومفاجئة لدرجة أنني لم أشعر بأي ألم تقريباً". وربما أعطاه خادمه نوعاً ما من أنواع الأدوية المخـــدرة سراً، لأن أبيلار يقول "أنه قد غلبه النوم بشدة"(١) بالإضافة إلي المخدر، يبدو أنه كـــان هنـــاك أيضـــاً تدابير مطهرة، إذ يقول أبيلار أن الجّرح لم يسبب له أي ألم أو أذىً بقدر الألم النفسي الذي شـــعر بـــه بسبب مواساة طلابه له والذي كان ألماً أكثر بكثير من ألم الجرح(٢)

من المؤكد أن تعليقات أبيلار تتسم بالذاتية، وأن هدفه في كتابه "تاريخ المصائب "هو توضيـــح أن الألم البدني الذي تعرض له لم يكن شيئاً مقارناً بالعذاب النفسي الذي شـــعر بـــه. إن اعترافـــه أن الخصاء لم يكن مؤلماً بدنياً يؤكد أنه كان من المبالغة أن يطلق عليه "أقسى عقاب" كان أبيـــلار يبـــالغ لأنه كان يتذكر بعد فترة من الزمان مشاعر قوية ومتضاربة، كان يتذكر كل أنواع الأفكار التـــي تـــرد إلي ذهنه وقت خصائه: فقد كان أمس في ذروة مجده وقد أصبح اليوم مّدمراً تماماً. فبحكم الرب- كمـــا يقول- تمت معاقبته بعدل في نفس العضو الذي أجرم به(٣)

كان أبيلار يستحضر مدي ما سيشعر به منافسوه من راحة وفرح من جراء مـــا حـــدث لـــه. وهناك أيضاً أمراً أكيداً، وهو أن عائلته في بريتاني سوف يترامي إلي مسامعها ذلك الخبر وســـيصبح العار الذي يشعر به هو وحده- علي حد قوله- "حديث العالم كله"(٤)

كان أبيلار يسأل نفسه عن المخرج من ذلك!، ويبدو أن Gilbert أسقف باريس هـــو الـــذي وجد مخرجاً لأبيلار. ومثلما قال فولك أوف دويل، فإن أسقف باريس كان يفعل مـــا فـــي اســـتطاعته "ليفسح مكاناً للعدالة". ويعني ذلك ضرورة التوصل إلي الحلول الوسط وعدم الإصرار علـــي حرفيـــة القانون. فمن ناحية، كان الأسقف يساند أبيلار بمباركته للرداء الرهباني الذي كان يمثل النذور النهائيـــة لإيلويز في دير أرجنتي (وهو الأمر غير اللائق وغير القانوني أيضاً لأنها لم تأخذ نذورهـــا بمحـــض إرادتها كما أنها لم تكمل الترهبن). ومن ناحية أخري، ولتعويض فولبير عن خسارته في ابنـــة أختـــه،

---

(١) Abelard, Historia, p.44; Clanchy, Abelard, p.199

- كانت لدي فولبير بوصفه شماس في نوتردام الفرصة في الحصول علي أفضل الخدمات الجراحية والدوائية في باريس فلم يكن في حاجة أن يكشف عن نيته في طلب هذه الخدمات، وذلك لأنه ربما كان يريد مساعدة أحد الفرسان المصابين أو أي شخص آخر مريض. (الباحث)

(٢) Abelard, Historia, p.44

(٣) Clanchy, Op. Cit. , p.199

(٤) Abelard, Historia, p.45

قام الأسقف بمعاقبته عقاباً مخففاً نسبياً، وهذا التساهل كان بمثابة تقدير للاستفزاز الذي تعرض له فولبير ولإنكاره مسئوليته عن الخصاء[١]

ربما كان غرض فولبير من الخصاء حل الزواج وإجبار إيلويز بعد ذلك علي مغادرة أرجنتي والعودة للمنزل. غير أن أبيلار بمساعدة أسقف باريس، أحبط مناورات فولبير حينما دفع بإيلويز إلي الرهبنة. أما بالنسبة لأبيلار نفسه، فقد تم إبعاده عن الأنظار بتحويله إلي راهب في سان دينيس. ولم يكن هناك سبب في أن يشعر بالمهانة هناك، وذلك لأن الدير كان يّعد أحد أهم الأديرة في فرنسا، كما أنه كان علي مقربة شديدة من باريس، وذلك حتى يظل علي اتصال بالمدارس هناك، وقريباً جداً من أرجنتي إذا كان لا يزال مهتماً بإيلويز [٢]

هل كان رئيس الدير آدم والرهبان في سان دينيس يتمنون انضمام أبيلار إليهم؟ ذلك موضوع مختلف، ربما كانوا يعتقدون أن الخصاء قد طهره أو أنهم قد خضعوا لضغوط الأسقف Gilbert ومؤيدي أبيلار الآخرين من الباريسيين ، فقد كان له أصدقاء دائماً في مناصب رفيعة. كيف كان أبيلار سيتعامل مع ذلك العالم الجديد، هذا هو موضوع الفصل التالي.

الخّلاصة أن الخصاء لم يقهر أبيلار لفترة طويلة. أولاً حاول (ولكن دون أن ينجح) أن يقاضي أسقف وشمامسة باريس في المجلس البابوي في روما لإظهارهم التساهل تجاه فولبير. ثم بدأ أبيلار بشكل متكرر وشديد في إخبار رّهبان سان دينيس إلي أي مدىً اتسموا بالانحلال والخزي، وبشكل خاص كيف كان تفوق رئيس الدير Adam لا يضاهيه شئ سوي سوء سمعته في حياته.

ويّقدم روسلان (عدو أبيلار باعتراف الجميع) رواية مختلفة تماماً عن آدم وكيف أنه كان أحكم رؤساء الأديرة. وبدافع الشفقة تجاه أبيلار وبالنظر إلي ضعفه، أعفي أبيلار من صرامة القانون الرهباني.[٣] إن ما كان يحدث حقيقة في سان دينيس يستحيل إثباته، ولكن النقطة الهامة هي أن رواية أبيلار تّبين أنه دخل في الحياة الرهبانية وهو يتحلي بنفس روح التنافس والنقد الذي كان يبديها في المدارس: فزملائه من الرّهبان كانوا حمقي، أو أسوأ من ذلك، وكان رئيسهم نذل علي حد تعبير أبيلار. هذا تماماً ما كان ينظر به أبيلار إلي نفسه على أنه الفيلسوف الوحيد في العالم عندما كان يترأس مدارس باريس، فكذلك الآن هو الراهب الحقيقي الوحيد. وبينما ازدادت كوارثه سرعة، تضخم غروره ليدعمه. وبينما كان يّسرع لاستعادة احترامه لذاته بإخبار من أحسنوا إليه في سان دينيس أنهم كانوا جميعاً حمقي ومخطئين، كانت أسوأ الكوارث في حياته قادمة بعد بضع سنوات فقط. كانت عذاباته في ازدياد تأتيه من الداخل والخارج: من المخاوف التي تتحرك في اهتياج بداخله، ومن النزاع الخارجي الذي كان يحيطه باستمرار.

---

(١) Le Goff, Les intellectuels au moyen âge , p.50

(٢) Luscombe, Op. Cit. , p.281

(٣) Roscelin, Op. Cit., p.79



الفصل الرابع

أبيلار وحياة الدين

(الراهب، عالم اللاهوت، المهرطق)

أولاً: الراهب:

- مقدمة
- الرهبان والخصاء
- دور الرهبان كمعلمين
- الهروب من سان دينيس
- أبيلار في دير الباراكليت
- دير سان جيلداس
- أبيلار وإيلويز الراهبة
- إنجازات أبيلار كراهب

ثانياً: عالم اللاهوت:

- مقدمة
- تطور لاهوت أبيلار.
- اختيار الثالوث موضوعاً للاهوت
- معنى الخلاص

ثالثاً: المهرطق:

- مقدمة
- أبيلار ورسلان
- بدعة أبيلار ومحاكمة سنس،
- دور سان برنار
- الإدانة في روما
- دور بطرس الموقر.

أولا: الراهـــب:

على الرغم من اعتراف أبيلار بان الحيرة والخجل بسبب عملية خصاؤه كانـــا السـبب وراء دخوله الدير، وأن تغير نشاطه أو عمله لا يجب أن يؤخذ ضده سواء مادياً أو روحياً،وبمـــا أن الديـر الذي دخله كان دير سان دينيس بكل ماله من صلات بباريس والمملكة الفرنسية؛فان تطلعـــات أبيـــلار بقيت أيضاً في ازدياد وأمل كما كانت من قبل.(١)

لقد كان الرهبان من أكثر الرجال إعجاباً وتأثيراً في مجتمع القرون الوسطى،وبالأحرى كمـــا كان الحال مع رؤساء الأديرة،الذين لم يكن هناك من هو أعلى منهم شأناً،والذين كانوا يقضون معظـــم وقتهم خارج الأديرة ينشرون كلمة الرب للأغنياء وذوى الســـلطة الذيـــن كـــانوا بدورهـــم يقومـــون بحمايتهم. لقد كان رؤساء الأديرة الأكثر بروزاً وأهمية في عشرينات وثلاثينات القرن الثـــانى عشـــر الميلادى هم سوجيه Suger رئيس سان دينيس (١١٢٢-١١٥١م)وسان برنار رئيس ديـــر كلـــيرفوه (١١١٥-١١٥٣م)، وبطرس الموقر رئيس دير كلونى (١١٢٢-١١٥٦م).

وعلى الرغم من انشغالهم بالعمل في كل مجال،خاصة فـــي تعيينـــات وترشـــيحات الكنيســـة الرئيسية،إلا أنهم حافظوا على مثلهم الدينية وأبقوها محل اعتبار : فقد أعاد سوجيه بناء وتجديد كنيســـة ديره كما وصف ذلك في كتاب له،بينما أخرج برنار خطبه الخاصة بالوحي وأبحاثـــه الأخـــرى إلـــي رهبانه فى كليرفوه وشدد على تعلمها، فى الوقت الذى أعاد فيه بطرس الموقر السلطة والكرامة لديـــر كلونى أعظم الأديرة فى أوروبا الغربية بعد كنيسة القديس بطرس فى روما.(٢)

وقد عبر سان برنار فى كتاباته عن المميزات التى تجمعهم جميعاً فى اعترافه لأحد الرهبـــان بأنه لم يكن رجل دين عادى وإنما " أنا أبقى على عادة الراهب فقط،إلا أنني هجرت الحياة ومباهجـــها منذ زمن بعيد ".(٣)

لعل الرهبان لن يتمكنوا من البقاء بسلام في أديرتهم طالمـــا كـــانوا مشـــغولين بـــأى شـــيء أخر.وفى القرن الثانى عشر الميلادى، استمر بقاء المحسنون الجدد فى الاهتمام بالإنفاق على الأديـــرة نظير ما كانت تقدمه تلك الأديرة لراعيها من صلوات تؤدى بانتظام وبطريقـــة ترضـــي الـــرب أشـــد الرضا. ذلك هو السبب فى إنفاق مثل تلك المبالغ الضخمة على أديرة مثل دير كلونـــي وديـــر ســـان دينيس وما حصلت عليه تلك الأديرة من ثروات لا يزال أثرها باقي حتى اليوم.(٤)

---

(١) Verger, Abelard et les milieux socieux , P. 111

(٢) Pierre Lasserre,un Conflit religieux au XII siècle,P.46

(٣) Bernard (St.), Letter 250,Vol .8, P.147

(٤) Southern, R., Western Society and The Church in The Middle Ages, London, 1970,P .227

- كانت أحجار كنائس تلك الأديرة مزينة بالذهب والفضة،وقد أخبر سوجيه المتبرعين بأن كل تلك الأشياء الكريمـــة تسعد الرب .وعلى الرغم من أن السسترشيان أرادوا ازدراء مثل تلك المظاهر؛ إلا أنهم خلقوا فن جمالي خاص بهم

كان كثيراً من الرهبان يدخلون فى صراعات بسبب محاولاتهم لكسب مؤيدين مـــن الأثريـــاء والحماة، كما كانوا يدخلون أيضاً فى خصومات عديدة، ومن هؤلاء كان سان برنار وبطرس الموقـــر . فبعد أن أصبح سان برنار رئيساً لدير كليرفوه، لم يهدأ للحظة فى صراعه مع الرهبان المنافســـين لـــه فى كسب ود أصحاب الثروات.(١)

لعل ثبات أبيلار فى مثل تلك البيئة لم يكن دائما ناجحا على الرغم من عقدين الخـــبرة الذيـــن قضاهما فى المدارس وصراعه هناك، كما أنه لم يكن من السهل كســـب التـــأييد الملكـــى والداخلـــى وتوديعه لخصومه أيضا و بعد أن أصبح راهباً أعطاه ذلك فرصة عظيمة ترقى إلى كونه سيداً. كذلـــك وإذا نجح رئيس دير فى ظل وجود بطرس الموقر وسان برنار، فإنه بذلك يمكنه تعويـــض أو مكافئـــة أصدقائه وعائلته بالفوائد والأرباح الكنسية، وأن يسترجع الثروة والمكانة التى ضحى بها فـــى ذهابـــه إلى المدارس فى المقام الأول. لقد كان لدى رؤساء الأديرة أصحاب وملاك إقطاعيات وعبيـــد، كمـــا كان لهم شبكة من المعارف والتأثير الذى تعدى كل شىء. وقد نجح أبيلار فى أن يصبح رئيـــس ديـــر بالفعل ومن الطراز الأول عندما دخل دير سان جيلداس عام ١١٢٥م أو قبل ذلك بقليل.(٢)

لقد كانت إيلويز هى التى أنقذت حياة أبيلار ككاتب، وذلك عندما دعته لكتابة القواعد وبعـــض الأعمال الأخرى الضخمة، وعلى وجه الخصوص ترنيماته الموجهة لراهباتها فى دير الباراكليت. لقـــد كانت تعلم جيداً أنه يستطيع الكتابة عن أى شىء يخطه بيمينه، حتى لو كان غير قادر علـــى العنايـــة بنفسه أو بها وبراهباتها .(٣) وتظهر تلك الكتابات مناطق القدرة والعجز فى أبيلار .إن كتابة القـــاعدة أو الأساس الذى طلبته إيلويز يبدو كوثيقة غير ذات جدوى، وذلك نظراً لطولها واستطرادها ويبـــدو أن إيلويز وراهباتها قد غضوا الطرف عنها لأسباب عملية. ولكن لم تدل أى وثيقة من وثـــائق ســـجلات دير الباراكليت أو حتى أى مصدر أخر معاصر يشير صراحة أو ضمناً إلى قاعدة أبيلار تلـــك.ومـــع ذلك، فقد كانت مؤثرة إذا اعتبرت كدراسة تعليمية و أخلاقية (فهى تحوى أكثر من أو ما يقارب مـــن ٤٠٠ استشهاد) فى نوع القواعد التى تقوم عليها الأديرة . لقد كان مقال أبيلار عـــن نشـــأة أو أصـــل

= لقد كانت حياة الدير تبدو متناقضة، فقد هجر الرهبان العالم وعاشوا حياة الزهد ليصلوا بطهارة ونقاء إلى الـــرب، ولكنهم في الوقت نفسه أكدوا على أن مجهوداتهم ممثلة فيما تركوه لا يمكن أن تنسى .انظر،

Delhaye , Ph. , Enseignement et Morale au XII Siècle , Paris,1988,P.117

ويرى سوذرن أن أهمية الحياة الرهبانية ازدادت بنظام الإبدال أو التفويـــض، حيـــث كـــان كـــل ســـيد أو أرستقراطي يندب راهـــب أو أكثر من أجل الصلاة له كما يندب المقاتل للحرب بدلاً من فارس أخـــر، فكـــان يمكـــن الاعتماد على الرهبان في عملية الإبدال تلك ليؤدوا الخدمة الدينية بدلاً من أسيادهم، وذلك مقابل الأموال والتبرعـــات التي كانوا يغرقون بها تلك الأديرة .انظر، Southern, OP. Cit., P. 228

(١) Pacaut , M ., Les Ordrs Monastiques et Religieuxs, Paris, 1970, P .184

(٢) Berliere , V. , Lordre monastique des Originen au XII Siècle, Paris, 1921,P. 214

(٣) Luscombe ,From Paris to The Paraclete ,P.273

الراهبات الذى طلبته منه إيلويز ممتازاً كبحث تاريخى يأخذ من كتابى العهد القديـم والعـهد الجديـد، إضافة لآباء الكنيسة وكذلك الأدب اللاتينى، راجياً فى ذلك إظهار كرامة النساء.(١)

لقد كانت أعمال أبيلار فى الباراكليت تعد من أفضل ما كتبة ناسك فى القرن الثـانى عشـر الميلادى، وتعد أيضا من الكتابات الأكثر جوهرية عن النساء فى الدين المسيحى .وحينما عـاد جسـد أبيلار إلى إيلويز لكى يدفن فى الباراكليت، أقر بطرس الموقر بإنجازات أبيلار فى الباراكليت، والتـى لا يضارعها أية كتابات أخرى فى المهارة والصدق.(٢)

.الرهبـــان والخصـــاء:

بعد أن أصبح أبيلار راهباً، كانت أولى أولوياته هى أن يستعيد سمعته عـن الزهـد والتـى تشوهت عندما انكشفت حكايته مع إيلويز .لكنه اضطر أن يستفيد كل الاستفادة مـن عمليـة خصـاؤه بالرغم من علمه بأن الله يمقت المخصيين كما هو مكتوب فى العهد القديم .لقـد كـان أبيـلار يريـد استرجاع سمعته بكل طاقة ممكنة، وهو بذلك يتفوق على الرهبان أنفسهم .وقد أجـاب أبيـلار علـى معارضيه بشأن خصاؤه بأن النبى إشعياء، وإنجيل متى قد استحسنوا الخصاء فى سبيل مملكة الـرب، وأنهم محمودين بذلك الفعل.(٣)

لقد وعظ أبيلار الراهبان بأن يبقوا على الرهبان الصغار الجدد فى حالة من الخصاء الروحـى لا المادى، ولعله نال بعض الفوز بمجادلته تلك، وذلك لأن كل راهب كان يفضل الخصاء الروحـى لا الجسدى.وكثير من القصص المذكورة فى أدبيات العصور الوسطى تشتمل عن الحديث عـن رهبـان قاموا بخصاء أنفسهم أو قام رؤساء الأديرة بخصائهم كعلاج روحى وجسدى لـهم.(٤) كذلـك أبيـلار، حيث يصف عملية خصاؤه بأنها علاج لمرضه، وقد طمأن إيلويز أن النعمة الإلهية قد طهرته بإزالـة الأجزاء القذرة منه والمشينة لكى يحتفظ بنقاء الطهارة .وقد استجابت إيلويز لذلك التشخيص بدورهـا فهنئته على إيجاده لطبيب أكثر إخلاصاً وقالت له "بمعالجة هذه الأشياء الملحة، فإن هذا الجرح الواحـد قد داوى جراحاً عديدة فى روحك ".(٥)

لعل أبيلار لم ير شيئًا فى حياته اكثر إحباطاً من عملية خصاؤه، غير أنه أوضح أنه لم يشـعر بشىء أثناء تلك العملية، بينما الذى سبب له الرعب هو الخزى لا العملية البدنية .وبعد أن أصبح قسـاً

(١) Waddell, C., The Paraclet Statutes, P.32

(٢) Le Goff ,Les Intellectuuels au moyen âge, P.48

(٣) العهد القديم، إشعياء ٥٦، أية ٤ &العهد الجديد، متى ١٩، أية ١٢ Abelard , Historia,P.11

(٤) Luscombe,OP. Cit., P.274

(٥) Heloise ,Letters ,ed . Muckle, P.89

تغلب على ذلك الخزى باللحاق بأخوته الذين كرسوا أنفسهم لإتمام عملية الخصاء فـــى ســبيل رضـــا الرب.(١)

لقد ذكر فولك أوف دويل لأبيلار قائلا "إنك راهب، ولابد للرهبان أن يكونوا فخورين بالإهانـــة والتقليل الجنسى على أيدى الناس فى العالم ".(٢) كما نصحه فولك قائلا "إنك تحتاج إلى أن تعود إلـــى نفسك، و الآن قد هدأت النار الغاضبة، فعليك أن تمسك بزمام رشدك الذى انفلت منك بـــالركض وراء تفاهات وجنون الشهوة "(٣). ويستمر فولك قائلا "والآن سوف تقدر على أن تكون حراً فى فـــهم كـل الطرق والأسباب التى تؤدى إلى الفكر والعقل دون إعاقة الرغبة الجنسية لك ".(٤)

كذلك وصف القديس أنسيلم كيف أن الله خلق الإنسان كمخلوق عاقل، وقبل سقوط أدم وحـــواء من الجنة، لم ينجذب أدم بالشهوة البهيمية اللاعقلانية، وإنما بالقيم الإنسانية الراقية .لقد اعتبر القديـــس أنسيلم أن الرغبة الجنسية هى الشر فوق كل شر، والذى لازمه منذ طفولته وخلال مراحل حياته كلــها، وذلك ما جعل روحه ضعيفة وفارغة.(٥)

لعل الخصاء قد حرر زوح أبيلار وعقله، كما جعله يستطيع أن يرقى إلـــى درجـــات فكريـــة أعظم مما كان عليه سالفا، بل حتى أعظم من القديس أنسليم .وبالفعل فإن ذلك ما حـــدث، لأن حجـــم كتابات أبيلار (باستثناء أعماله عن علم المنطق)يرجع تاريخها إلى ما بعد عملية خصاؤه (٦). لقد قـــدر لأبيلار أن يصبح كاتباً مسيحياً مفعماً ومؤثراً، وربما أن فولك قد انزعج عندما ســـمع عـــن عـــرض أبيلار المثير للخلاف بأنه سيكتب كتاباً عن علم اللاهوت، على الرغم من أنه تم طرده من قبـــل مـــن مدرسة الأستاذ أنسيلم من لاون، وهى المدرسة الشهيرة فى اللاهوت.(٧)

عاد فولك مرة أخرى يكرر لأبيلار الفوائد الاجتماعية التى ستعود عليه من عملية خصـــاؤه إذ يقول: "ولابد أن تعتبرها ميزة وفرصة عظيمة لك، لأنه لن يشك فيك أحد بعد الأن، كما أنـــك ســتقابل أفضل النساء، كفتيات الجوقة الأبكار مثلاً، الذين يستثيرون أفضل الرجال، وستكون آمنا من الخطيئـــة

---

(١) D.H.G.E.,P.86

(٢) Fulk of Deuil,OP.Cit .,P.706

(٣) Ibid , P. 706

(٤) Ibid , P. 707

(٥) Southern ,Western Society , P.246

عن القديس أنسيلم وسيرته وحياته ومؤلفاته الفلسفية واللاهوتية، انظر، حسن حنفي حسنين، نماذج مـــن الفلسفة المسيحية، ص ١٠٣-١٧٧

(٦) Brundage , Law , Sex and Christian Society ,P .187

(٧) Munk-Olsen, L Etude des Classiques Latins aux. XI et XII siècles, Paris, 1982, P.117

ولن تخش شيئاً .إنك تستطيع بخبرتك لمثل هذه الأشياء أن تعرف أكثر مما لا أستطيع تفسيره لك بالكلمات ".(١)

ولقد تحدث أبيلار فى كتابة الأخلاق عن تجربته تلك متخذاً موقفاً عقلانياً منها قائلا "لأن الشعور الجنسى يعد من الوظائف البدنية، لذلك فإن أى شعور طبيعى للجسد لابد ألا يؤخذ على أنه خطيئة، وهى لا تعد خطيئة إذا استمتعنا بها–ويعترف أبيلار –وهذا رأياً جريئاً لا تسمح به الديانة المسيحية".(٢)

يذكر أبيلار أن السلطة الرئيسية التى يجب الرجوع إليها فى تلك القضية هو القديس أوغسطين، والذى تحدث عن سقوط أدم وحواء على أنه بسبب الجنس، وأن الخطيئة تورث عن طريق الأعضاء التناسلية وقد قوى القديس أوغسطين ذلك بالربط النفسى بين شعور البدن والذنب .وقد اتفق أبيلار مع أستاذه أنسيلم على أن الرغبة الجنسية هى أساس كل شر، بل إن القديس أوغسطين عندما سئل عن كيفية كون الجنس أشر من كل شيء مثل الحرب أو التعذيب أو القسوة، رد بأن الرغبة الجنسية هى أساس كل الشرور بما فيها جميع الخطايا المذكورة، وذلك لأنها ذات قدرة جبارة.(٣)

إذا كان الجنس هو أساس كل هذا الشر، فمن الأفضل نزع ذلك الأساس لنزع الشر .تلك هى المحاولة التى كرس رهبان العصور الوسطى أنفسهم من أجلها . وكما قالت إيلويز لأبيلار "إن هذا الجرح البدنى يداوى جروحاً كثيرة روحية ".وقد أثبتت تلك النزعة الزهدية جاذبيتها على مدار ألفية العصور الوسطى (٥٠٠–١٥٠٠م)، على أن تلك المحاولات الزهدية قد وصلت أعلى مستوياتها فى جذب الشباب فى أوروبا الغربية على زمن أبيلار.(٤)

---

(١) Fulk of Deuil, OP. Cit., P.706

يعلق بيتر درونك على ذلك بقولة أن فولك تناول عملية خصاء أبيلار كمسرحية هزلية أو حكاية من حكايات العصور الوسطى. ولعله في ذلك كان متحيزاً لعائلة فولبير لكي يشهر ويسوء سمعة أبيلار .لقد اختار فولك أيضاً أن يتم خصاؤه باعتباره راهب، فكيف إذن يسخر من أبيلار ؟ انظر، Dronke, Testimonies, P.27

(٢) Luscombe, From Paris to The Paraclete, P.255

(٣) Abelard, Letter in Muckle ,P.89

(٤) Delhaye ,Ph., Enseignement et Moral au XII Siècle, Paris, 1988,P.92

-دور الرهبــان كمعلمـــين:

عندما لحق أبيلار بدير دينيس بعد عملية الخصاء، ذكر أن بعض الرهبان والأصدقاء أيضـــا ناشدوه أن يبقى كمعلم، فيقول "وكما حررت نفسى من إغراءات الجسد ومشــاكل الحيــاة، فعلــى أن أخلص وجهى للرب ولدراسة الفلسفة، حتى أصبح فيلسوف الرب عن أن أصبح فيلسوف العـــالم "(1). لقد أراد أبيلار أن يرقى مثل القديس جيروم St.Jerome عن طريق اتباعه الفلسفة اليونانيـــة، وقــد ناشدته إيلويز أيضا أن يترك الشهوانية ويصبح راهباً فيلسوفاً مثل الحكماء القدماء .كذلك فقد أكد أوتــو الفريزى أن أبيلار كرس نفسه لدراسة الفلسفة لاكتساب الحكمة، وأنه أصبـــح كذلــك بـــالفعل بســبب تركيزه الشديد على القراءة صباح مساء.(2)

لعل إتقان أبيلار وكفاءته فى أعمال أباء الكنيسة اللاتينية كما أظهر هو ذلك فى كتابـــه نعــم ولا، ربما بدأت بعد دخوله فى دراسة الفلسفة فى مكتبة دير سان دينيس، ولعلها كانت المرة الأولـــى التى استطاع فيها الوصول إلى مكتبة عظيمة كتلك، إذا أن المدارس العليا التى كان بها من قبل، حتـــى فى نوتردام بباريس، لم يكن بها ذلك الكم الهائل من الكتب .لقد كان دير سان دينيس هـــو الأول مــن نوعه الذى وجد فيه أساليب الكتابة المنظمة داخل حجرة النساخ، وأصبح بعد ذلك قادراً على أن يطلــق عنان أفكاره سواء بتدوينهم أو بنشرهم.(3) ويعد كتاب نعم ولا لأبيلار عملاً كبيراً حقاً كان فى حاجـــة ماسة إلى مكتبة عظيمة وحجرة نسخ مجهزة بمجموعة كبيرة من الكتاب والنساخ .فـــالألفي استشـــهاد المأخوذة من أباء الكنيسة المستخدمة فى ذلك الكتاب مأخوذة من كتب كثيرة تم تجميعها حسب خطـــة أبيلار نفسه .والآن وبعد أن أصبح أبيلار يمتلك تلك الكتب والوسائل (وسائل الكتابة والنســـخ)، فإنـــه يستطيع أن يكتب مثل الفلاسفة وعلماء المسيحية الكبار الذين أعجب بهم كثيراً مثل القديس أوغســطين وجيروم وبيده الموقر.(4)

---

(1) Abelard , Hisoria, P.15

(2) Jean de Meun, OP.Cit., P.107; Otto of Freising, OP.Cit.,P.226

القديس جيروم (٣٤٦-٤٢٠م)هو أحد الكتاب المسيحيين، عاش داخل صومعته في فلسطين وله مؤلفـــات عديدة من أهمها ترجمته لحياة الرهبان المصريين وأنظمتهم إلى اللاتينية، وذلك بعد أن زارهم في مصر في أوديتـهم ومغاراتهم في الصحراوات الشرقية والغربية، وقد ساعدت كتاباته اللاتينية على سرعة انتشار الرهبنة فـــي الغــرب .انظر، كولتون، عالم العصور الوسطى، ص ٥٣، وانظر كذلك،

Duroselle,J.,Histoire de Catheolicisme,Paris,1949,p.21

(3) Luscombe ,OP.Cit.,P.280

(4) Landgraf , Ecrits Théologique du L'école d' Abélard,P.84

يعد بيده الموقر Bede (٦٧٥-٧٣٥م)أحد مشاهير المؤرخين الإنجليز في القرن الثامن الميلادي، والــذي يمثل خلاصـــة النتاج الفكري لغرب أوروبا في الفترة الواقعة بين زوال الحضارة والتراث الرومـــاني القديــم عقــب غزوات البرابرة وبين قيام النهضة الكارولنجية بإحياء الإمبراطورية الرومانية في مستهل القرن التاسع أيام شارلمان .وقد امتاز بحاسة تاريخية أصيلة لم تكن معروفة في ذلك العصر المبكر، ويعد كتابه المسمى التاريخ الكنسي للأمـــة الإنجليزية من أهم أعماله .انظر، Coulton, G., Medieval Panorama,PP.34-36

Lamonte,J,The World of The Middle Ages ,New york,1949,P.242

ولكن السؤال الذى يطرح نفسه هو، هل ذلك ما يجب أن يفعله أبيلار كراهب ؟إن رهبان العصور الوسطى يتم ذكرهم فى ظل مؤلفاتهم وعلمهم الواسع :من زمن أوغسطين وجيروم ثم بيده حتى القديس أنسيلم فى القرن الحادى عشر الميلادى .هؤلاء العلماء قد جعلوا من العلم كل شيء فى الأديرة، على أن الإصلاحيين من جيل أبيلار قد طرحوا السؤال عما إذا كان الرهبان لابد أن ينشغلوا بالعلم أم لا ؟ ويأتى الرد واضحاً من خلال كلام سان برنار حيث يقول "إنك يمكنك أن تتعلم الكثير فى الغابات عما تتعلمه فى الكلمات، فإن الغابات والأحجار ستفيدك أكثر من إفادة المعلمين ".(١)

لم يرفض سان برنار العلم عموماً، ولكنه رفض العلم الذى يشبه علم أبيلار عندما يتم إساءة استخدامه .لقد كانت قضية برنار هى أن المعلمين فى المدارس العليا -مثل أبيلار فى نوتردام - أصبحوا متكبرين ومعجبين بأنفسهم بدلاً من اعترافهم بأنه كلما ازدادت الحكمة، كلما ازداد الحزن، فيقول برنار "إننى أتساءل من الذى سينجو: أهو الأكثر كبراً وافتخاراً أم الأكثر حزنا ؟"(٢) مثل تلك الكلمات للمجادلة هى التى جعلت روسلان من قبل يحذر أبيلار بأن دور الراهب هو أن يبكى ثم يعلم، وهى أيضا الاعتراضات التى ساقها هيو دو سان فيكتور فى كتابه Diolascalicon قائلا: "إذا كنت راهباً، فماذا تفعل فى الناس ؟و إذا أحببت صمت الرهبان، فلماذا قضيت وقتك فى المناقشات؟ لابد أن تكرس نفسك للصوم والبكاء، أتفكر وتبحث عما يجعلك فيلسوفاً ؟ إن بساطة الراهب هى فلسفته".(٣)

تعد كلمات هيو دو سان فيكتور رداً على هجوم أبيلار المستمر على وليام دو شامبو مؤسس مدرسة سان فيكتور، وأيضا على رجال الكنيسة عموماً .إن فكرة هيو هى أن يتخلى أبيلار عن التدريس، وذلك لأنه اختار أن يكون راهباً من النوع التقليدى، وعليه أن يعيش حياة الرهبان النساك من صلاة وصيام وانعزال عن العالم .وعلى الجانب الأخر، كان على هيو وأصحابه فى دير سان فيكتور أن يدرسوا، لأن ذلك ما كرسوا أنفسهم له، ولأن رجال الدين المصلحين عليهم أن يتعلموا ويعلموا، فى حين أن الرهبان التقليديين عليهم ألا يفعلوا ذلك-تلك كانت وجهة نظره.(٤)

---

(١) Berliere,V.,L'ordre monastique des Origines à XII siécle,Paris,1921,P.108

(٢) Pierre Lasserre, OP.Cit.,P.79

(٣) Hugh de St.Victor,Didascalicon,éd.Buttimer, Washington,1939,P.109

(٤) Hugh de St. . Victor, Didascalicon, P.110

يؤكد هيو مثل سان برنار، كيف يمكن الوصول إلى المعرفة التي تعد مهمة، فدراسة النصوص المقدسة لابد وألا تؤخذ كعمل، لأن ذلك سيؤدى إلى الكبرياء .ولعل أبيلار في كتابه نعم ولا استخدم تلك الطريقة في معالجة النصوص الدينية عن طريق إظهار التناقضات في المعتقدات المسيحية الأساسية بدءاً من مفهوم الإيمان نفسه .ويعد كتاب نعم ولا كتاباً نصياً جامعياً وهو غير مناسب بالكلية للاستخدام الديني، ولذلك فإنه ليس من شأن الراهب أن يكتب مثل ذلك الكتاب .إن الكتاب الديني لابد وأن يكون عملاً للعبادة في فحواه ومحتواه، فكتاب هيو Didascalicon مكتوب بتلك الطريقة التعبدية على الرغم من أنه يتحدث عن الفنون والآداب، إلا أنه يختتم كتابه بالدعاء من أجل العلم والتنوير؛ في حين أن كتاب أبيلار "علم اللاهوت" قائم في الأساس على المناقشة والجدل، والذي يبدو فيه أبيلار مغروراً جداً وهو يتحدث عن فضائله واصفاً إياها بأنها ذروة عبقريته .وبالرغم من ذلك، فإنه يرى أنه من الصعب اكتشاف أية إهانة للدين أو العقائد الدينية في كتابات أبيلار سواء الفلسفية أو اللاهوتية .انظر،

BAROn, Science et Sagesse chez H.de St.Victor,P.212

ويزودنا أبيلار بتقرير عن أحداث تلك الفترة بشأن تعليمه كراهب، وكذلك حكايته مع آدم Adam رئيس دير سان دينيس والرهبان الذين أرادوا التخلص منه لأنه نقد بشدة حياتهم الفاضحة. لذلك تم السماح له بالانسحاب إلى صومعة صغيرة فى الدير حيث أدار مدرسة صغيرة بطريقته المعتادة، وقد استطاع من خلالها أن يجتذب كثيراً من الشباب الذين تركهم قبل ترهبنه .يقول أبيلار: "الحمد لله الذى أنعم على بنعمة ترجمة النصوص الدينية التى تعلو الأدب الدنيوى، ولذلك فإن مدرستى ستذرهر في كلاهما وستتلاشى المدارس الأخرى، وهذا الجو يناسب باريس جيداً، والتى بها العديد من المدارس المتنافسة".[1]

كذلك يشرح روسلان تلك الفترة من حياة أبيلار قائلا: "لقد كان لديه جموع من البربر الذين علمهم التفاهات سواء فى المنطق أو النحو، فقد رفض أبيلار أن يكون راهباً رغم انغراسه فى الحياة الدينية"[2]. ويعطى روسلان بعض التفاصيل مثل جمع أبيلار المال -كما سمع -الذى هو ثمن أكاذيبه التى يعلمها لطلابه، لكى يرسلها إلى عشيقته [3] ربما ما قاله رهبان سان دينيس بشأن أبيلار صحيحاً، بيد أن ذلك لا يشوه سمعة أبيلار، ولا يعد ذلك مشيناً فى حقه أن يرسل المال إلى إيلويز، إذ أنه كان مسئولاً عنها حتى بعد أن أصبحت راهبة .كذلك فإن دير دينيس طويلا ما تاق إلى أن يجعل دير أرجنتى تحت سيطرته وكانت تلك المحاولات مع إيلويز خطوة فى ذلك الاتجاه.[4]

كذلك وفى خطوة أخرى يتهم روسلان أبيلار باستخدام ختم منقوش عليه رأس رجل وامرأة، إلا أن حقيقة كون أبيلار يحمل ختم تدل على أنه كان رجلاً موثوقاً به فى دير سان دينيس كراهب متميز .وتشير تلك الدلائل وغيرها بأنه فى خلال عام أو عامين من عملية الخصاء، أرسى أبيلار لنفسه دور السيد أو الزعيم لمدرسة عظيمة، وكان ذلك الوقت هو وقت استعادة مجد دير سان دينيس.[5]

---

(١) Ablard, Historia, P.32

يفترض المؤرخ Benton أن مدرسة أبيلار الصغيرة كانت في مقاطعة نوجنت Nogent التي أسس بالقرب منها ديره الباراكليت، والتي كانت قريبة أيضاً من دير دينيس .ويرى أن نوجنت هي مكان المدرسة الشهيرة لأبيلار خلال تلك الفترة في كتابات المؤرخين، وهي التي وصفها بأن الشباب أقبل عليها بشدة وأن الطعام والمأوى لم يكن يكفي الوفود التي تأتيه .انظر،

Benton, Culture, Power and Personality in Medieval France, P.434

(٢) Roscelin, OP.Cit., P.79

(٣) Ibid, P.80

(٤) Benton, OP.Cit.,P.434

(٥) Gerson, P.L.,Abot suger and St.Denis, Oxford, 1986,P.17

لقد تشاجر أبيلار مع آدم رئيس الدير والرهبان الأخرين عندما كان يعيش فى الديـــر، إلا أن الأمر تغير لأبيلار بعد ذلك؛ فهو الذى تزعم الصومعة والمدرسة، وهو الذى يبعث لهم بالمـــال، وهـــم جميعا سعداء بذلك الازدهار .لقد رأى أبيلار أنه كان سببا فى صعـــود رهبـــان ســـان دينيـــس، بـــل وارتقائهم المقام العالى، وكان ينظر لأبيلار على أنه زعيم أو رئيس للدير.(١)

لقد كان نجاح كتاب أبيلار "تاريخ المصائب" هو مقدمة الكارثة التى أتت بعـــد ذلـــك .ولأن أعدائه فشلوا فى أن يبعدوه عن أن يكون سيداً أو راهباً؛ فقد رموه بالبدعة في مجلس سواســـون عـــام ١١٢١م .ونتيجة لتلك المحاكمة؛ فإن النظام الديرى قد فرض على أبيلار ذلك الشيء الذى قلص مـــن حريته، ألا وهو وضعه تحت الإقامة الجبرية فى دير سان ميدار St .Medard فى سواسون تحـــت حماية رئيس الدير المتنسك سان جوسوين St .Goswin(٢). ويقول أبيلار أنه لقى معاملة حسنة فـــى ميدار، إلا أن كاتب السيرة الذاتية لسان جوسوين يفسر أن الدير كان متخصص فى معاملة القساوســـة أو الرهبان المتمردين، ولذلك فقد تم الحكم على أبيلار بالصمت .وتم وصف سان جوسوين بـــأن لـــه العديد من المشادات الكلامية والصراع مع أبيلار، وأنه هدد أبيلار بالجلد.(٣)

على أية حال، فإن إقامة أبيلار هناك كانت عدة أيام كما يقول هو نفسه، وبعد ذلك أفرج عنـــه المبعوث البابوى الذى حضر محاكمته فى سواسون وأعاده إلى دير دينيس .ولكن أبيـــلار لـــم يســـعد بذلك، لأنه سيعود إلى الرهبان والقساوسة الذين تشاجر معهم مراراً وأرادوا قبل ذلك أن يخرجوه مـــن ديرهم .لذلك عاد أبيلار من حيث أتى، فلم يعد يدير صومعة أو يرأس مدرسة، وإنما أصبـــح راهبـــاً عادياً لدير دينيس آملا فى بعض الترقية أو إطلاق سراحه .لقد كان هرطيقاً مداناً وتـــم الحكـــم عليـــه بالصمت، وأصبح رد فعله جريئاً عندما سب ذكرياته تلك، وهرب من دير دينيس فى جنح الليل مـــن مقاطعة شامبنى.(٤)

(١) Ibid, P.19

(٢) Delhay, OP. Cit., P .219

(٣) Abelard, Historia, P.33 ;St.Goswin, OP.Cit.,P.445

ربما يعد الاختلاف بين أقوال أبيلار وكاتب السيرة الذاتية لسان جوسوين نابعاً من رغبة أبيلار فـــي نســـيان الإهانات التـــي حدثت له في دير ميدار، أو أن سان جوسوين أراد المبالغة ليحتفل بانتصاره على أبيـــلار فـــي تلـــك الأزمة. (الباحث)

(٤) Jolivet, Abelard en son Temps ,P.164

- الهروب من سان دينيس:

وصف أبيلار ماحدث فى دير سان دينيس بأنه "سوء فهم سيىء ": كان أبيلار يقرأ تعليقات بيده الوقور على أعمال الرسل، ووجد أن ديونيسيوس الأريوباغى The Dionysiusn Areopagite كان أسقفا لكورنثوس،وذلك ما يعارض بشدة ما يقوله رهبان سان دينيس من أنه كان أسقفا لأثينا، وذلك قبل استشهاده في فرنسا، وقبل أن يصبح قسيسهم الراعى (الروحى) ،وقد جعل ذلك الاكتشاف بمثابة أن أبيلار يغيظ أصحابه رهبان دينيس .ويقول أبيلار فى تاريخ المصائب "ليست إلا مزحة أردت أن أريها للإخوان الذين كانوا يقفون وراء شهادة بيدة ".[١]

لقد كان الرهبان غاضبون من أبيلار، وقد أخبروه أنه فى الوقت الذى يعدونه من أفضل الكتاب، إلا أنه لا يحق له أن يشكك في الأدلة والبراهين التى ساقها هيلدوين Hildwin الرئيسالأسبق للدير والذي حقق في تلك المسألة ووجد أن ديونيسيوس كان في أثينا. وقد أجابهم أبيلار بأنه يفضل تعليقات بيده الوقور الذي تحترم جميع كتابته في الكنيسة اللاتينية عن كتابات هيلدوين .لقد كان أبيلار يبحث في الأجزاء الشائكة من حياة القديسين، خاصة الثقات منهم .وكانة هيلدبون Hildbon الذي عمل رئيسا لدير سان دينيس في الفترة (٨١٤-٨٤٠ م) قد أعطى ديونيسيوس راعى الدير وحامية مكانة عظيمة .أما أبيلار، فقد شك فى تزوير تاريخ ووثائق دير دينيس في زمن هيلدوين وما بعده، كما أنه قلل من عبقرية مناقشات هيلديون الذي كان يطلع على مصادر يونانية بلغة يجهلها أبيلار.[٢]

أما في المرحلة التالية من القضية الخلافية لأبيلار، فقد كتب خطابا لأدم رئيس الدير والرهبان، وهو خطاب مصالحة، حيث استشهد بمؤلفين أخرين وأظهر أنه أعطى المسألة فكرا طويلا، وختم بطريقة علمية قائلا :"كحل لكل تلك النقاط، فإننا نفترض بأن هذا ملخصا :فعلينا أن نرضى إما بأن بيده أخطأ، أو أنه قدم لنا رأى شخصا أخر، أو أنه كان هناك أسقفين لكوزنثوس وأثينا يدعوان ديونيسيوس"[٣]. لم تكن الأطروحات تلك أو التنازلات إذا جاز التعبير في صالح أبيلار على

---

(١) Abelrd, Historia,P.35 ;see also, Poole, OP.Cit.,P.133

- ديونيسيوس الأريوباغى هو تلميذ بولس الرسول، له أربعة كتب شهيرة هي :الأسماء الإلهية، اللاهوت الصوفي، المراتب السماوية أو الملائكة، والمراتب الكنسية والذي أهداه إلى تيموثاوس تلميذ بولس .ولم يرد ذكر لتلك الكتب قبل القرن السادس الميلادي، والتي ذاعت باسم ديونيسيوس (أريوس باغوس) عضو المحكمة العليا بأثينا. وعن كتبه وفلسفته انظر، يوسف كرم، المرجع السابق، ص ٥٠-٥٥

- يبدو من كلام أبيلار مدى الكرم الذي سمح له به رهبان سان دينيس حيث أنه بعد عودته من سان ميدار، وإدانته في سواسون، تم السماح له بالتصفح في المكتبة والإطلاع على ما يريد، بل وبالعودة مرة أخرى للنقاش والجدل الذي تعود عليه طيلة حياته (الباحث) .

(٢) Jolivet, Abelard en son Temps, P. 165

(٣) Clanchy, Abelard, P.233

المدى القصير، إذ أنه رأى أن سلطة بيده كانت أعظم من هيلدوين كذلك فقد وضـــع أبيـــلار مبـــادئ مشابهة في مقدمة كتابة نعم ولا حيث قال :"يجب علينا ألا نخدع بغزو عملية التأليف الزائفة أو النـــص الفاسد إلى بعض الأقوال غير الصحيحة أو المتعارضة للقساوسة، فإذا وجدنا هذه الأشياء فـــي أقـــوال القساوسة، فعلينا أن نعترف بأننا لم نفهمهم".[١]

وفي خطابة لأدم رئيس الدير، لم يكن أبيلار مستعدا لأن يعترف بجهله، فقـــد كـــان موقفـــه موقف السيد الذي أتي بحل أو ملخص عن كونه راهب يستعطف العفو .لم تكن المفارقات التي قالـــها أبيلار عن أباء الكنيسة أصلية أو تقال لأول مرة، إذ أن القديس أوغسطين قد أرسى قواعد حـــل مثـــل تلك المشكلات، وحتى أنسيلم أستاذ أبيلار نفسه قد ناقش تلك الاختلافـــات بيـــن الســـلطات المتنوعـــة والمتنازعة .وربما صادف أبيلار تلك المشاكل لأول مرة في مدرسة أنسيلم في لاون عندما بدأ تعليقـــة على النبي حزقيال.[٢]

لعل ما يجعل كتاب نعم ولا غريبا، هو أنه لم يقدم حلولا لمئات المشـــكلات الموجـــودة فـــي كتابات أباء الكنيسة القديمة، والتي ازداد الاهتمام بها بسبب ذلك الكتاب، كما أنه لا يوجـــد أي عمـــل قبل ذلك العمل يقدم كل هذه الأسئلة التي يحتاج الإجابة عليها علم الدفاع عن المسيحية.[٣]

لم يطل أبيلار فى كتابة ذلك الكتاب، لأنه كانت لديه انشغالات تفوق مثل ذلك الكتاب والتـــي تمثلت في تصميمه على إعادة كتابة الكتاب الذي تم حرقه في سواسون، بل وأعطاه عنوانا أكثر حـــدة وهو "اللاهوت المسيحي " بدلا من علم اللاهوت .إن إثبات المنطق أو اللاهوت للثالوث المقدس كـــان أهم عند أبيلار من ما إذا كان ديونيسيوس هو قس أثينا أم كوزنثوس.[٤]

كذلك فقد ظهر غضب أبيلار من الرهبان بقوله "أنه لا تعنى سواء أكان ديونيس الأريوبـــاغى أو شخصا أخر فإنه على أي حال كسب مكانة عالية مع الله ". وقد أثار ذلك الكلام الرهبان أكثر ممـــا قاله على بيده، وسرعان ما ذهبوا إلي أدم رئيس الدير ورفعوا دعوى ضده، وقد أخبر أنه سيحول إلـــي الملك الفرنسي .يقول أبيلار "وكأن الملك سينتقم منى وكأنني سرقت تاجه ومجد مملكته ".[٥]

---

(١) Abelard, Ouvrages inédits, Sic et Non, P.5

(٢) Poole, OP.Cit.,P.134

(٣) Sikes, Peter Abailard, P.78

(٤) Jolivet, Abelard en son temps , P. 166

(٥) Abelard, Historia, P.36

وبكلام أخر، فقد تم اتهام أبيلار بالخيانة العظمى، ولعل مصائبه السابقة من خصاء وإدانة قــد ضعفت الأن بمقارنتها بانتقام الملك منه لخيانته مملكة فرنسا .ولعل السؤال الـــهام هــو :لــم جلبــت ملاحظات أبيلار عن ديونيس ردود الفعل تلك ؟وتأتي الإجابة واضحة من خلال ظهور أنشــودة رولان Chanson de Roland، والتي عاصرت أبيلار في شكلها المكتوب وأظهرت ما يعتــبره الجمــهور الفرنسي مهما من الفرسان .وقد جاء ذكر دير دينيس في الأنشودة في أكثر من موضع أهمها ما جـــاء علي لسان رولان حول احتفاظه ببعض شعارات من سيده وأستاذه دينيس، والذي يمثــل ديــره قلــب فرنسا النابض .لقد أظهر أن رولان يهتم بشدة بسان دينيس الذي يمثل كــل شــئ لمــا يكــافح رورن والفرسان الفرنسيين من أجله .لقد كان رسول فرنسا الذي استشهد ببطولة مثل رولان نفســه ومــازال يعيش في المعجزات التي عملها سان دينيس هو وأصحابه والذين يرقدون جنبا إلي جنب فــي القبــور بجوار ملوك فرنسا السابقين.[١]

لذلك فعندما شك أبيلار في تاريخ دير سان دينيس، فإنه بذلك كان يتحدى شيئا متــأصلا فــي الثقافة والسياسة الفرنسية .إن أبيلار كمفكر يقول أن الأمر ليس مهما، إلا أن الرهبان الأخرين يـــرون أن الماهية الحقيقية والصحيحة للقديس شيئا مهما للغاية .إن فرسان فرنسا ورولان خــاطروا بأنفســهم في سبيل دير دينيس، فلا يعنى ذلك أن براعة سان دينيس كانت هشــة أو ضعيفــة، ولكــن الرهبــان يعرفون أن النصوص المقدسة لحاميهم تحتاج إيمانا من أتباعه كنصوص الكتاب المقدس، أمــا الأدلــة الوثائقية عند هؤلاء الرهبان فتأتي في المرتبة الثانية.[٢]

كان علي أبيلار أن يلحق بواحد من التنظيمات الدينية الجديدة مثل السسترشيان مثلا، التــي لا ترجع الفضل في تأسيسها لأحد بعينه، وذلك في الوقت الذي يعد فيه نظر الرهبان غير محــافظ علــي حرمة الدير وتاريخه، بل ويتهكم علي الأب الروحي لهم وحامي ديرهم .من أجل ذلك اعتبره الرهبــان أنه خانهم وخان ديرهم، بل وخان فرنسا[٣] وربما كون أبيلار بريتانيا قد قوى ذلك الاتهام إلي، حيــث أنه أشار بالفعل في كتابه تاريخ المصائب أنه أتهم بالخيانة العظمى [٤]. وفــي أحيــان أخــرى، كــان

---

(١) D.H.G.E., P.87;Le Goff, Pour un autre, P.187

وعن أنشودة رولان وأهميتها انظر البحث المتميــز للدكتور جوزيف نسيم يوسف، "أنشــودة رولان" فــي ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط، المجلد الأول، القاهرة، ١٩٨٢م، ص٧٧-٩٧

في عام ١١٢٤م، عرض سان سوجيه متعلقات لسان دينيس على المحراب العلوي للدير، وقد حشد الملك الفرنسي لويس السادس جنوده في شكل استعراض وحفل استحضار بركة سان دينيــس، وهو ما كان يقــوم بــه الملك كل عام مما يدخل هذا الدير في اعتبارات سياسية .انظر، Delhay, OP.Cit.,P.222

(٢) Le Goff, Les intellctuels, P.47

(٣) D.H.G.E., P.88

(٤) Abelard, Historia, P.36

لأبيلار مؤيدين مثلم كان له معارضين في ذلك الصراع :لقد هرب من الدير ليـــلا بمســـاعدة بعـــض الرهبان من تلاميذه، وقد عرف الرهبان كيف يخرجوه ثم انتظره تلاميذه عند بوابـــة الديـــر وأركبـــوه ليلا، حيث كان قد تعدى الأربعين ومنهكا، كما أنه لا يستطيع الفرار من فوق الأسوار بما يحمله مـــن كتب وأبحاث كثيرة .ويظهر ذلك من خلال خطابه إلي أدم رئيس الدير، والذي يحتوى علـــي أســـماء الكتب التي أخذها من مكتبة الدير وهو يهرب، والتي مكنته بعد ذلك من تدريـــس المنطـــق والجـــدل وكتابة كتابه اللاهوت، وهى المؤلفات التي أجبر علي حرقها في سواســـون عـــام ١١٢١م . ويذكـــر أبيلار أنه في كل تنقلاته ومصائبه، كان أعدائه يحاولون أن يخرسوه بشتى السبل، كما يعـــترف بـــأن أشد كتاباته تأثيرا كانت نعم ولا، واللاهـــوت.(١)

لعـــل هروب أبيلار من الدير جعله راهبا لاجئا من الناحية القانونيـــة، الأمـــر الـــذي جعلـــه عرضة للحرمان الكنسي هو وكل من يؤويه، إلا أنه يصف الأمر بأنه لم يجد صعوبة فـــي الحصـــول علي الحماية من الكونت تايبود Thibaud زعيم شامبنى، حيث أتخذ من قلعته ملجأ .وقال أبيـــلار أن الكونت كان يعرفه وتعاطف معه لما سمع حكايته، وربما أن الكونت تايبود قد ساعد أبيـــلار لأســـباب سياسية حيث كان علي خلاف مع ملك فرنسا، إلا أنه لا يشك في ولاءه لفرنسا، كما أنه كـــان منعمـــا علي كثير من الأديرة بما فيها دير سان دينيس ودير برنار دوكليرفوه.(٢)

استمر الكونت تايبود في حماية أبيلار حتى بعد أن زاره أدم رئيـــس ديـــر دينيـــس وهـــدده بالحرمان الكنسي .وكما جاء في قانون القديس بندكت أن الراهب الذي يريـــد الرجـــوع ولا يريـــد أن يحرم كنسيا، فإن عليه أن يؤدي بعض الفروض المهينة، كأن يركع علي الأرض تحت أقدام كل فـــرد من الجوقة حتى يرضى عنه رئيس الدير .وأنه من الصعب تخيل أبيلار في هـــذا الوضـــع .ولحســـن حظه فقد مات أدم بعد ذلك بعدة أيام، وبعد تعيين ســـوجيه Suger أو بعـــد انتخابـــه (١٢ مـــارس ١١٢٢م) اجتمع مع أبيلار لتسوية هذا الأمر .ويضيف أبيلار قائلا أنه توسط له بعض الأصدقاء لـــدى ملك فرنسا ومجلسه، وقد تفاوض علي تلك الصفقة صديقه ستيفن دوجارلاند الذي كان أشد أصحـــاب أبيلار تأثيرا في المحكمة، حيث ذكر أن أبيلار بماله من سجل جدلي وخلافي، إلا أن موهبته لا يمكـــن إنكارها .لذلك أسقط دير دينيس التهديد بالحرمان الكنسي بشرط ألا يخضع أبيلار لأي دير أخـــر، وأن يذهب لمكان عزله .وقال أبيلار "أن الاتفاق علي ذلك تم في حضرة الملك وحشيته، وفي ذلك الوقـــت فقط ارتاح الخصوم بابتعادي عنهم وذهابي إلي مكان منعزل" (٣)

(١) Clanchy, OP. Cit .,P.234

(٢) Abelard, Historia, P. 37

– يعد سبب مساعدة الكونت تايبود لأبيلار الذي كان في نظر الجميع قساً هارباً وهرطيقاً من الأسرار التي حيرت معظم المؤرخين، حيث لم يتوصل لمعرفة السبب الحقيقي في ذلك حتى الآن.(الباحث)

(٣) Abelard, Historia, P.38 ;See also ,Vogel,C., Le Pecheur et la Penitence au moyen âge, Paris, 1982,P.182

ـ أبيلار فـي ديـــر الباراكليـــت:

نتيجة لاتفاق دير دينيس، فإن أبيلار أصبح ناسكا شاء ذلك أم أبى .وكما يحدث دائمـــا، فإنـــه التزم بالتماشي مع العادة، حيث كان التنسك ينتشر في أرجاء فرنسا حينئذ .كذلك فإن العزلة لا تعنـــي بالضرورة الحياة وسط الأحراش والغابات، وذلك لأن كثيرا من النساك عاشوا بجوار الكنـــائس فـــي مساكن متجاورة .فالناســـك هو شكل يشبه ما كان عليه المسيح، فقد كانوا أكثر من الرهبان في أنـــهم لا يملكون شيئا، كمـــا كانوا يعيشون حياة التقشف، وبكونهم مستشـــارين روحييـــن للنـــاس، فبذلـــك أصبحوا مؤثرين بشدة بالرغم من عزلتهم .وقد عبر أبيلار عن استحسانه لبعض الدعاة النساك الذيـــن كانوا يجذبون النـــاس ويؤثرون فيهم بالفضيلة والقدوة الحسنة والأسلوب المقنع، أولئـــك هـــم الدعـــاة البارزين المخلصين للمسيح.(١)

لقد كان النساك أحـــرارا أكثـــر من الرهبـــان، فقد كانت تحركهم الروح لا الجســـد، وعـــن طريق تنظيم الحياة، وبقدر ما يتيح ذلك الرغبة في السلام والهدوء، فإن ذلك ما جذب أبيـــلار خاصـــة بعد تجربته للحياة الدينية التقليدية في دير سان دينيـــس .كذلك فلا يمكن لأي ناسك أن يكون مســـتقلا عن العالم أو السلطة، إذ أنه في احتياج مستمر لراعيه لتلبية احتياجاته المادية والبدنية وللتصديق عليـــه ككاهن أو ناسك، وبدون ذلك التوثيق، سيعتبره الناس مجرد شحاذ أو مجنون .إن النساك يحتاجون إلـــي التوثيق أو الترسيم وإلي الاستحسان من جانب الكنيسة، والاعتراف بهم أيضا مثل أي شخص يعيـــش بمفرده، فالتنسك لابد وأن يكون متصلا بالجمهور.(٢)

وصف أبيلار مجيئه إلي العزلة أنه أول ما أتي بني مصلاه الخاص مـــن القصـــب والقـــش مستحضرا ترانيم داود النبي وأقوال القديس جيروم قائلا "لقد سئمت من الذهاب بعيدا، ولذلك أركـــض الأن في الأحراش "، ويؤكد وحدته بوصف جيروم كيف هجر الفلاسفة اليونانحضـــارة المـــدن إلـــي الصحراء، فيقول "لقد تركوا المروج الماطرة، والأشـــجار الوراقـــة، والطيـــور المغـــردة، والينـــابيع الصافية، والأغادير الهامسة "(٣) غير أن إيلويز شددت علي وحشة المكان قائلة :" إن كل ذلـــك مـــن

---

(١) Leyser, H., Hermist and New Monasticism, London, 1984,P.12

(٢) Paré, La Renaissance du XII siècle, P.290

لم يختلف تنسك أبيلار عن ذلك الشكل، حيث كان على بعد أقل من خمسة أميال من مدينة نوجين على نهر السين في وسط منطقة المعارض بشامبنى، وهى واحدة من أهم مناطق فرنسا نمواً وازدهـــاراً .ورغـــم مـــا حـــول الباراكليت من مناطق نائية ومهجورة وغابات، إلا أنه بعد خمسة وعشرين عاماً، استعمرت الباراكليت كل المنـــاطق الملتفة حول نهر السين خاصة بين تروى وبروفانس، في الوقت الذي قام فيه بعض الملاك بإصلاح الأراضي وتوزيع السكان عليها من أجل زيادة العائد الإنتاجي، والذي أسهم في النهاية في ازدهار تلك المنطقة .انظر،

Georgianna, OP .Cit .,P.248

(٣) Smits,E.R. , Peter Abelard, Letters IX-XIV, Oxford, 1983,P.153

نسج خيالك، تلك الأحراش المحاطة بالبهائم والحيوانات الضارية وقطاع الطرق، تلك الأرض البعيدة عن أي عمران إنساني، وفي مخابئ اللصوص لم يسمع أبدا ذكر للرب، ووسط ذلك كله اتخذت أنت سكنا دينيا لك ".(١)

لقد أوضح أبيلار منذ البداية أنه لم يكن بمفرده تماما، فقد كان معه في صحبته أحد تابعيه من تلاميذه المخلصين، غير أنه ذكر أن تلاميذه بمجرد أن علموا بمكانه الجديد، أقبلوا عليه من كل مكان .لقد بنوا مصليات خاصة بهم وعاشوا علي الأعشاب والخبز الخشن، وهم الذين قال عنهم أبيلار "هؤلاء هم تلاميذنا الذين بنوا الأكواخ، وعمروا المكان، والذين أظهروا أنهم نساك لا تلاميذ(٢). لعل السرعة التي وصل بها طلاب أبيلار إلي ذلك المكان البعيد ربما كانت من خلال قربة من طريق التجارة في شامبني، علاوة علي أن أبيلار ذكر أنه كان يعرف ذلك المكان من قبل، وأنه في السنة السابقة عندما كان تحت سلطة دير دينيس، بنى مدرسة هناك، لذلك أسرع إلية الطلاب مرة أخرى، والذين كانوا مشتاقين إلي تعليمه.(٣)

يعترف أبيلار أن تلك الحياة المقررة له ملم تدم طويلا، إذ أنه عاد مرة أخرى إلي حقيقته التي لم يستطع أن يغيرها أبدا، فقد قرر أن يعود إلي التدريس حيث أدار مدرسته مرة أخرى .وربما قال أبيلار ذلك الكلام لكي يرد على النقاد الذين يعتبرونه لابد وألا يدرس لأنه راهب، فما القول في النساك؟ وقد طلب أبيلار من تلاميذة أن يبدأوا في بناء مساكنهم، والعمل على توفير الغذاء المناسب لهم، وكذلك تنظيم الأراضي، حتى يمارس التدريس لهم وهو هادئ النفس قرير السريرة.(٤)

---

(١) Heloise, Letter in, Mcleod, OP.Cit .P.270

لم تكن إيلويز تصف شيئا رأته، إذ أنها لم تصل إلى مكان أبيلار هذا إلا بعد ست سنوات من إقامته فيه. أما بخصوص وصفها للحيوانات واللصوص، فقد كانت تصف الصورة الشائعة عن غابات العصور الوسطى .انظر،
Charrier, OP .Cit .,P.337

(٢) Abelard, Historia, P.41

(٣) Evergates, T.,Feudal Society in the Baillage of Troyes, Cambridge,1975, P.15

(٤) Delhay, OP .Cit .,P.228

- توجد قصيدة منشورة لأحد طلاب أبيلار واسمه هيلارى Hiharii من أورليان، وهى مكتوبة بالفرنسية القديمة التي كان الطلاب يحبونها، والتي كان أبيلار يضجر منهم حينما يتحدثون بها نظراً لحبه للثقافة اللاتينية .يقول هيلارى في بداية قصيدته "نحن الطلاب الذين أتينا من كل مكان لنأخذ من نبع المنطق الأستاذ أبيلار " .وهذه القصيدة توضح مدى ما وصل إلية أبيلار في قلوب طلابه، وإلحاحهم عليه بألا يعتزل تدريس المنطق الذي جاءوا جميعاً من أجله .انظر،

Hilarii Aurelianensis, Versus et Ludi, Epistolae ed W.Blust, Paris, 1989,PP.30-31

أما بالنسبة لإنجازات أبيلار في الباراكليت، فيقول في كتابه تاريخ المصائب أنــه لــم يحقــق الكثير من الإنجازات في الباراكليت، وأن خصومه استمروا في الوشاية ضده .وعلي الجانب الأخـــر، فقد أنهى أبيلار كتابه اللاهوت المسيحي "Theolgia christiana" الذي كان بمثابة إنجاز عظيمــا، إلا أنه لم يذكر ذلك في تاريخ المصائب(1). لقد كان كتاب اللاهوت المسيحي نسخة منقحة مــن كتابــه اللاهوت Theolgia الذي أجبر علي حرقه بعد محاكمته في سواسون، ويصر أبيلار علـــي أن هــذا الكتاب كان دراسة مسيحية أرثوذكسية .إن بعض فقرات من ذلك الكتاب ربما تدل وتشـــير بســهولة إلي أن أبيلار كان يعي تماما بخصومه واتهاماتهم له، لذلك تجرد من اللهجـــة الأكاديميـــة وخاطبــهم بلهجة تحذيرية قائلا "إن هذه الأيام الأخيرة قبل مجئ المسيح الدجال، وأن كل من يهاجمني لابد وأنـــه قد تغافــل عن الحريق الهائل الذي هو علي وشك الحدوث ".(2)

يتوقف ما أنجزه أبيلار في دير الباراكليت علي المدة التي قضاهـــا هنـــاك حيــث أن الأراء تختلف حولها، فربما أنه استقر هناك في عام ١١٢٣م ثم تركها إلي دير سان جيلــداس عــام ١١٢٥م، أي أنه قد مكث في الباراكليت ما يقرب من عامين أو ثلاثة .وبالتناوب ربما ذهب إلي هنـــاك عندمــا تولى سوجيه رئاسة دير دينيس ثم عاد بعد أن رحل حتي عام ١١٢٧م(3). لقد كتب أبيلار العديد مـــن كتاباته في الباراكليت مثل " اللاهوت المسيحي "، وفي الفكر" De intellectibus "، ومجموعة مـــن الأبحاث حول مقدمة بورفيرى للمنطق، وكذلك الحوار بين الفيلسوف واليهودي والمســـيحي، إضافـــة لبعض الأعمال عن النحو والبلاغة، ثم يأتي أهم أعماله في "نعم ولا " الذي أثار ضجة كــبري .علـــي السبب في إرجاع كل تلك الكتابات إلى تلك الفترة بالتحديد يرجع إلى صعوبة كتابتها فـــي أي مكـــان أخر، وذلك لأن الأحوال لم تكن مواتية في دير جيلداس أو حتى عندما رجع إلى باريس بعد ذلك.(4)

إذا كان أبيلار قد كتب كل هذا الكم من الكتب في الباراكليت، فإنه كان يحتاج بالضرورة إلـــى حجرة نسخ مجهزة ومكتبة، وإذا اعتبرنا أن مكتبته هي المذكرات التي أحضرها من دير سان دبنيــس، فإنه بالطبع لن يستطيع أن يكتب ويقرأ في كوخ ضعيف .إن مفكرا مثل أبيلار، والذي قضى حياته فـــي

---

(1) Jolivet, La Théologie d'Abélard ,P.61

- بالرغــم من اعتراف أبيلار في كتابه تاريخ المصائب بأنه لم يحقق الكثير من الإنجازات فـــي البـــاراكليت، إلا أن معظم وأهم أعماله قد قام بكتابتها في الباراكليت، وهى الأعمال التي أحدثت دوياً كبيراً .(الباحث)

(2) Abelard, Theologia Christiana, ed .E.M.,Buytaert, CCCM 12, Paris, 1969,P.27

- كان أبيلار يسخر من خصومه السابقين وعلى رأسهم ألبريك Alberic من ريمز، الذي كان يقاضى أبيلار فـــي سواسون، وقد ذكر أبيلار عنه أنه كان من أكثر الشخصيات المتغطرسة في فرنســا، وقد أصبح معلماً في ريمـــز عام ١١١٨-١١٣٦م، ثم رئيساً لأساقفة بورج من ١١٣٦-١١٤١م .انظر، Clanchy, Abelard, P.337

(3) Jolivet, Abelard en son Temps ,P.113

(4) Mews, CCCM, Vol.13,P.21

مناقشات ومجادلات مع خصومه، ربما يجد الدائرة اليومية من الصلوات المكررة والأعمال المكــــررة شيئا صعبا في بادئ الأمر يبعث على الملل .غير أن قدوم طلابه إليه كان بمثابة نهاية كونــــه ناســكا وبداية لكونه سيدا وكاتبا .ينبغي أن يكون لأستاذ مثل أبيلار وسائل الكتابة من حجرة للنسخ ومكتبــــة، ومن المرجح أن طلابه قد جلبوا له الأخشاب من الغابات القريبة وبنوا له بناء مخصص لذلك.(١)

ويخصص أبيلار مساحة كبيرة من كتابه تاريخ المصائب ليدافع عن قــــراره بتكريـــس اســـم الباراكليت للدير دون اسم الأقنومين الأول والثاني من الثالوث :فهو يـــري أن اســـم " روح القـــدس " بمثابة المعزى أو المواسى له في الشدائد التي تعرض لها، وربما أرتاح أبيلار لأسم البـــاراكليت لأنـــه يمثل له معنى عظيم كبقية الأسماء التي أختارها لكتبه مثـــل " اللاهـــوت المســـيحي "، " الأخــــلاق "، وغيرها من أسماء أعماله المتميزة .كذلك فإن اختيار أبيلار لاسم الباراكليت ربما يـــدل أيضـــا علـــى روح التحدي التي كان يتمتع بها، حيث لم يسبقه أحد في اختيار مثل ذلك الاسم في الكنيسة اللاتينيـــة، وقد دافع عن ذلك بالإشارة إلي وعد المسيح "وسأدعو الأب أن يعطيك براكليت أخـــر، ولعلـــه يســـكن معك فيه للأبد".(٢)

لقد قال أبيلار أثناء محاكمته في سواسون لألبريك " إن شئت سأريك الحجة فـــي ذلـــك مـــن الإنجيل "، فأجابه ألبريك " نحن لا نأبه بحجة البشر، إنما نأبه لكلمات السلطة "(٣). ويتحدث أبيلار عـــن ذلك أيضا في الفصل الأول من كتابه نعم ولا " بأن الإيمان يبنى بالعقل وليس بالعكس " .ويبـــدو مـــن كتاب اللاهوت المسيحي أن أبيلار كان يريد أن ينتصر لنفسه من ألبريك في ذلك الوقت،فإطلاقه اســـم الباراكليت علي مصلاه كان إعادة لتأكيد أفكاره حول الثالوث مرة أخرى.(٤)

قال أبيلار أن تكريسه لمصلاه اسم الباراكليت قد أثار ثائرة خصوم أكثر مـــن لســـابقين وقـــد سماهم "الرسل الجدد" .ولاشك أن تلك الإشارة هي إشارة لسان برنار والقـــس نوربـــير Norbert، وهي الإشارة التي كان يفضلها أبيلار حينما يريد السخرية من أحد .كذلك فقد ذهبت إيلويز لأكثر مـــن ذلك حينما أسمتهم " بالرسل الزانفين "، وربما تدل تلك التسميات على نجاحهم الكبير كدعاة وزعمـــاء لحركة الإصلاح الديني(٥). ولا غرابة في هجوم أبيلار على نوربير بقوله "الرسل الجدد"، فلقد هاجمـــه

(١) Luscombe ,Pierre Abelaed et Le monachisssme ,in Cluny Conferance ,P .274

(٢) Abelard ,Hisoria, P .42; Benton, in Cluny Conference,P.489

(٣) Poole, OP.Cit.,P.131

(٤) Paré, OP .Cit., P .289

(٥) Abelard, Historia, P .43; Helois ,in Cluny Conference, ed .Mclughlin, P .292

– كان نوربير مصلحاً وداعية، وقد سماه أبيلار في تاريخ المصائب بالرسول الجديد، كمـــا وصفـــه بأنـــه منفـــوخ باسم تدينه الزائف .وقد اتهم بالوشاية بأبيلار في منتصف عشرينات القرن الثاني عشـــر. عين رئيساً للأســـاقفة في ألمانيا عام ١١٢٦م، ثم أصبح بعد ذلك مستشاراً ملكياً في إيطاليا حتى موته .انظـــر،

Clanchy, OP.Cit.,P.341

قبل ذلك في إحدى خطبه .أما بالنسبة لسان برنار، فلم يعرف بينهم عداوة حتى عام ١١٢٠م .وعلى الجانب الأخر، كتب أبيلار خطابا يناسب ذلك السياق-الرسول الجديد-موجها خطابه لبرنار والنظام الرهباني البندكتي كله قائلا "يا من طلعت مجددا، ويا من يستمتع بالحداثة، إن قراراتك هذه تخرج عن العرف الراسخ منذ زمن بعيد عن النظام الديني ونظام الرهبان كله " .وليست هذه هي المرة الأولى التي يقف فيها أبيلار مدافعا عن القيم التراثية والتقليدية للدين المسيحي ضد المحدثين، فقد هاجم برنار في خطبة أيضا متخذا منه موقفا أكثر تحفظا وجادل بأن الرهبان هم رجال الدين حقا، وأنه بذلك يفضلهم على رجال الكنيسة أو الأساقفة.(١)

ويعترف أبيلار أنه كان مهزوماً فلا تلك الفترة (فترة الباراكليت) ،وقد أتت معرفته عن المقللين من شأنه من طلابه وزائريه، وقال أبيلار أنه خسر أفضل أصحابه المقربين لأن كلا منهم كان يخاف أن يتكلم .ولما نشر سان برنار كتابه الاعتذار Apologia حوالي عام ١١٢٧م، كان بمثابة هجوم على خصومه البندكتيين والكلونيين، على الرغم من أنه لم يصرح بأسمائهم في كتابه .وجاء هذا الكتاب في أشد أحوال أبيلار تعاسة وقلق، إذ أنه لما سمع بذلك الكتاب تسرع إلى القول بأن برنار يهاجمه خصيصا، وأن الكتاب يبدأ بهجاء هؤلاء الرهبان الذين يختالون ويتفاخرون وأن فقرهم وزهدهم زائف.(٢)

عندما تحول أبيلار من باريس إلي شامبنى، كان لا يزال في نطاق سان برنار، والذي كان يبعد ديره في كليرفوه عنه بخمسين ميلا فقط .لقد كان دير البارقليت في تنافس مع الأديرة البندكتية المجاورة لاجتذاب المتطوعين، إلا أن كلاهما كانا يشتركان في أن لهم حامي أو راعى واحد وهو الكونت تايبود صاحب شامبنى(٣). لقد كان أبيلار يقلق للغاية عندما يعقد أي اجتماع لأعضاء الهيئة الكنسية لأنه كان يتصور أنهم مجتمعون من أجل إدانته .وفي ضوء ما حدث في سواسون عام ١١٢١م من قبل، كان الخوف مبررا تجاه برنار الذي كان أبيلار على تيقن تام بأنه هو الواشي، ولعله كان في انتظار محاكمة أخرى من جراء ذلك الرجل.(٤)

---

(١) Pierre Lasserre ,OP .Cit.,P.147

(٢) Jolivet, J., " Abelard entre Chien et Loup" ,CCCM, 20(1971),P .310

(٣) Verger-Jolivet, Bernard ,Abélard, P.114

(٤) Luscombe, Cluny Coference, P .276

في الوقت الذي كان فيه أبيلار خائفاً وساخطاً، كان يجلب لنفسه المشاكل .بأن خصص مصلاه باسم الباراكليت، وتسميته لكتابه باسم "اللاهوت المسيحي"، فقد كان دائما يبحث عن ما هو غريب ومثير .(الباحث)

إضافة لما سبق، يضع أبيلار ملاحظة هامة وهى أنه كان يائسا بشدة، وأنه ربما يفكـــر فـــي الذهاب وراء حدود البلاد المسيحية إلى غير المؤمنين لكي يعيش هنـــاك أمنـــا مـــع أعـــداء المســـيح كمسيحي يدفع الجزية المطلوبة منه .وكان أبيلار يقصد بغير المؤمنين مسلمو أسبانيا، إذ أن المســـلمين قد سمحوا للمسيحيين أنذاك بحرية إقامة شعائرهم الدينية، على أن الشئ الذي جعل أبيلار ميالا لتلـــك الفكرة هو أنه قد تم اتهامه بأنه ليس مسيحيا.(١)

ديـــر ســـــان جيلداس:

إنـــه لمن الصعب تقدير معرفة أو اهتمام أبيلار بتاريخ سان دينيس، فعندما كان أبيـــلار فـــي دير دينيس، كان يغضب الرهبان بقوله أنه ليس من المهم معرفة هوية سان دينيس مادام الرجل كـــان على الدوام في معية الله. وقد كان دير جيلداس مثل دير دينيس حيث كان بمثابة مركزا يحـــج النـــاس إليه، ولعل ذلك ما أعطى أبيلار الفرصة في تطوير مذهب القديس نفسه، غير أن كتاباته ركزت كمـــا هي العادة على قضايا العالم المسيحي الرئيسية ممثلة في الثالوث والخـــلاص. (٢)

لقـــد نظـــم أبيـــلار ترنيمة لجيلداس تمدح حياة الدير ونظامه وتشيد بسان جليداس كمحـــارب مثل سان دينيس يقود أمته إلي المجد .وقد ختم أبيـــلار الترنيمـــة بما ذكره في تاريخ المصائب مـــن أنـــه هجـــر وطنـــه بريتانى الذي كان يتميز بالهمجية، وأنه كان مجرد فتى قروي أتى إلـــي بـــاريس لكي ينجح فيها، كما أنه لم يترك باريـــس ويرجـــع إلي وطنه إلا لأن حقد الفرنسيين هو الـــذي دفعـــه لذلك، إضافة لأن أمال الرهبان كانت تتعـــارض مع أماله، فقد كانوا يأملون في رئيس ديـــر يفهمـــهم، ولأنه كان بريتانيا، فقـــد كان يائسا من أنه سيتم قبولـــه كرجـــل فرنســـي.(٣)

لقد عمل أبيلار في دير جبلداس كعميل للمركزية الفرنســـية ضـــد الطموحـــات الانفصاليـــة لبريتانى مسقط رأسه، فقد كان هناك صراعا سياسيا في مطلع الغزو النورمانى بين هنري الأول ملـــك

(١) Abelard, Historia, P .45; See also, Kritzeck,J., Pierre Abélard et Pierre Le Vénérable, Cluny Conference, P.208

- كان بطرس الموقر رئيس دير كلونى هو الشخص الذي اختتم أبيلار عنده بقية حياته حينما استضافه في ديـــره الشهير بعد محاكمته في سنس .وعلى العكس من بطرس الموقر الذي كان يهتم كثيراً بالإسلام بسبب الأديـــرة الكلونية الموجودة في أسبانيا، والذي كان يمتلك أول نسخة من القرآن مترجمة إلى اللاتينية، فقد كـــان أبيـــلار يجهل الدين الإسلامي، رغم اهتمامه الشديد بالمعتقدات غير المسيحية مثل كتابه اللاهوت ومـــا ورد بـــه عـــن اليونان القدماء، وتعليقه على رسالة بولس الرسول إلى الرومان مع اليهود .وقد تأكد في كتـــاب أبيـــلار عـــن الحوار بين الفيلسوف واليهودي والمسيحي عدم ذكره لأي شئ عن الإسلام، وأن ذكره للوثنيـــين فـــي كتابـــه تاريـــخ المصائب كان لغرض بلاغي .انظر عن ذلك،

Abelard, Dialogus inter Philosophum ,Iudaem et Christianum, ed.R.Thomas, Paris, 1970,P.23

(٢) La Pidge, M., Giladas:New approaches , London , 1984, P .187

(٣) Abelard, Historia P .44

إنجلترا (١١٠٠م-١١٣٥م) ولويس السادس ملك فرنسا (١١٠٨م-١١٣٧م) .وفي ذلــك الوقــت كـــان أبيلار رئيسا لدير سان جيلداس، وقد ظهر أن الأمور كانت في صالح فرنســــا، ' أن كـــانون الثـــالث CANON دوق بريتانى قد أظهر ولائه للويس السادس الملك الفرنسي، ولعل إرساله أسقف شـــارتر لدير جيلداس هي واحدة من الكثير الذي عمله لتقوية الفرنسيين في بريتانى .وقد كـــانت اســـتراتيجية كانون الثالث كدوق تتمثل في إثارة السلطة الفرنسية ضد الخصوم الداخليين، وذلك يفسر قبوله ترشـــيح أبيلار لرتبة رئيس دير في المقام الأول .إن المعرفة القليلة لنشاطات أبيلار في دير جيلـــداس تظـــهره بأنه كان مؤيدا لكانون الثالث، وذلك يلائم أصول عائلته في الجزء الذي يتحدث الفرنسية في مقاطعـــة نانت.(١)

لقد أرجع أبيلار كتابته " تاريخ المصائب "في سان جيلداس، ليس إلى الظروف السياسية، بـــل إلى إخلاصه في إصلاح مجتمع غير منظم .ويقول أبيلار أن الرهبان قد تآمروا لقتله كما حـــدث مـــن قبل مع القديس بندكت نفسه ومن المحتمل أن يكون أبيلار قد بالغ في تلك التهديدات التي تعرض لـــها، وذلك لأنه كان يائسا من تبرير هجره لديره واضطر إلى تفسير فشله لنفسه كما يفسره للآخرين.(٢)

لقد كان أبيلار بالفعل في دولة بربرية غلب عليها ضجيج الحرب، وربما كان حقيقيا ما قالـــه من أن جيفرى أسقف شارتر والمبعوث البابوي، لم يؤثر كثيرا في سان جيلـــداس .وفـــي الحضـــور المبجل لكانون الثالث واجتماع الرهبان، استطاع جيفرى أن يستخلص بعـــض الوعـــود مـــن بعـــض الرهبان بأنهم سيغادرون الدير، إلا أن الباقين أرادوا قتل أبيلار على حد تعبيره.(٣)

ولعل الذي يؤيد مخاوف أبيلار تلك هو إعلان كانون الثالث عام ١١٢٦م أنه غير قادر علـــى حماية دير ريدون Redon القريب من سان جيلداس، لأنه لم يكن يستطيع أن يسيطر علـــى فرســـانه الذين اجتاحوه (الدير) .ونتيجة لكثرة شغب البريتانيين، فقد اعترف الدوق بأنه غير قادر على حمايتـــه بالطريقة التي يجب اتباعها، واضطر إلى تسليمه للبابا لحمايته .وربما كتـــب رهبـــان ريـــدون ذلـــك بأنفسهم لكي يبرروا العلاقات المتقطعة مع الدوق، وحتى إذا كانـــالأمر كذلـــك، فيظـــهر ذلـــك مـــدى ازدرائهم له.(٤)

---

(١) Clanchy, Abelard, P .247

(٢) Abelard, Historia , P .47

- لعل نغمة كلام أبيلار في كتابه تاريخ المصائب تصل إلى ذروة الأســى عندما يصف الموقف المتدهور فـــي ديـــر جيلداس .وقد ذكرت الكاتبة ماكلولين في مقالها عن أبيلار ككاتب سيـــرة ذاتيـــة، أنـــه أصبـــح مختـــلا عقليـــا قائلـــة:"لقد تعرض لأصعب الأشياء ولأزمة حياة نضجه الكبرى، وسقط في هوة الكبت أكثر فأكثر، والذي تجلـــت أعراضه في الخوف البدني الذي استحوذ علية من الجرح القديم والخوف من الموت " .ولعل اعتقاد أبيلار بـــأن الرهبـــان يريدون وضع السم له ربما تكون إحدى المخاوف الناتجة عن مرض الاكتئاب والذي يصعب تشـــخيصه من كلام المريض وحده .انظر، Mclaughlin, Abelard as Autobiographer, SP., 42(1967), p.476

(٣) Abelacd ,Historia,P .47

(٤) Mclaughlin, OP.Cit.,P .477

وإذا لم يستطيع رئيس الدير توقع الحماية من الدوق، فإنه بالضرورة سيلجأ للأقوياء الداخليين.لقد كـــان أبيلار دخيلا وله من الذكاء الكافي ما يظهر به ضعفه، فيقول "ولأن جميع السكان همجيون خـــارجون عن القانون، فلن أستطيـــع أن ألجأ إلى أي فرد طالبا المساعدة.(١)

أبيلار وإيلويز الراهبـــة:

نال سوجيـــه رئاسة دير أرجنتى في عام ١١٢٩م والذي كانت إيلويز راهبة فيه .وقد حـــدث أن اتهم المبعوث البابوي والمقدمين المحليين بل والملك نفسه الراهبات بالأخلاق الفاســـدة والانحـــلال .لقد كان سوجيه رجل واسع السلطة في فرنسا، ويمكن القول أن إيلويز في تلك الأونـــة فقـــد فقـــدت السيطرة على راهباتهـــا، كما فقد أبيلار السيطرة رهبانه في سان جيلداس(٢). ولم يذكر أبيـــلار شـــيئا عن تلك الأخلاق الفاسدة للراهبات في كتابه تاريخ المصائب، ولم يقل غير أن ديرا أرجنتى كان تابعـــا لدير دينيس القديم، كما اعترف بسلطة دير دينيس على مصلاه فـــي البـــاراكليت، وأن مـــخ أبيـــلار الباراكليت لإيلويز وراهباتها، لابد وأن يؤخذ على أنه بإذن دير دينيس . تلك المقولة هي التي جعلـــت سوجيه أقل عنفا، كما أعطت أبيلار سلطة على الراهبات أو كراعي وحامى للراهبات حينئذ.(٣)

لقد كان واضحا في طرد إيلويز الشئ الذي أعطى أبيلار العذر في مغادرة ســـان جيلـــداس، فيقول "أدركت أن الفرصة التي قدمها لي السيد بزيارة مصلاي في الباراكليت وتجـــهيزه مـــن أجـــل الراهبات كانت مناسبة فذهبت على الفور"(٤). حدث ذلك عامي ١١٢٩، ١١٣٠م وقال أنه دعي إيلويـــز وراهباتها وأعطاها كل شئ هناك وقد تأكد ذلك بمعرفة الأسقف المحلى والبابا انوسنت الثاني نفســـه، وتم ذلك في إصدار البابا خطابا في نوفمبر ١١٣١ميشتمل على ذلك، حيث كان يجوب فرنســـا أنـــذاك من أجل حشد التأييد ضد أناكليتس الثاني (١١٣٠-١١٣٨م) ند البابا في روما.(٥)

لقد تم انتقاد أبيلار لعدم فعله شيئا تجاه إيلويز في تلك الفترة، فيقول البعض أنه كان عليـــه أن يقطع رحلة من سان جيلداس إلى الباراكليت تقدر بحوالي ٣٥٠ميلا، في حين قال البعض الأخر أنـــه انشغل بمقاضاة بعض الرهبان له، وأنه كان فوق الخمسين في ذلك الوقت وهو السن الذي لا يسمح لـــه

(١) Abelard , Historia, p.47

(٢) Mcleod, Helois, PP .93-94

- غير معروف حتى الأن سبب طرد إيلويز وراهباتها من دير أرجنتى، حيث أجمع كل المؤرخين الذين دونوا ســـيرة أبيلار وإيلويز عن عدم معرفتهم لأسباب فساد الراهبات، كما أن المصادر لم تشر إلا إلى مسألة طردهم فقط دون الإشارة للأسباب .(الباحث)

(٣) Bautier, in Abelard en son Temps , Nantes Conference,PP.71-72

(٤) Waldman ,T.G.,"Abbot Suger and The Nums of Argenteuil.",Traditio 41 (1985), p.239

(٥) Abelard, Historia, p .48 ; see also , Benton, OP.Cit.,p .20

بما كان أيام شبابه .ربما أراد أبيلار أن يلعب دور الناسك كما كان يفعل في الباراكليت مــن قبــل، إلا أنه في الشتاء كان يذهب إلى نانت أو يتجول داخل فرنسا وعلى وجـــه الخصـــوص يراقــب إيلويــز وراهباتها.(١)

ولعل عنايـــة أبيلار بالراهبات تبرر سفره لنيل التأييد لهم، وقد قال منتقدوه أن أقل ما يفعـــل من أجلهم هو الوعظ .وقد خطب أبيلار خطبة مدوية من أجل زيادة المعونـــات لـــهذا المكــان، كمــا أسهمت إيلويز في إنشاء مزرعة متميزة بجانب الدير .لقد كان أبيلار قادرا مثل سان برنار في صنـــع سمعة عظيمة له كمصلح، وذلك عن طريق الوعظ وأحيانا الهجوم على الأخريـــن أكــثر مــن كونـــه منعزلا في ديره .فحملة زيادة المعونات الناجحة التي قام بها كانت بالضرورة تستلزم شـــعبية مدويـــة وواسعة كما كان الحال مع سان برنار .وقد ظهر نجاح أبيلار في زيارته لدير مورينى عـــام ١١٣١م عندما وصف بأنه خير مثال لرجل الدين، وحتى في بريتانى تم وصفه بالراهب ذو الزهـــد العجيــب بالرغم من فشله في جيلداس.(٢)

في تلك الآونة كان لازما على أبيلار أن يعود إلى سان جيلداس، وذلك لأن رحلة الدبلوماســية كانت في منتهى النجاح عام ١١٣١م، وقد تم في ذلك الوقت تلبية طلبه بإرسال مبعوث بابوي إلى ديــو جيلداس .وعند هذه النقطة ينتهي كتاب تاريخ المصائب إذ يعلن أبيلار فشل المبعوث البـــابوي ويقـــوم أبيلار بالفرار من أولئك الرهبان القتلة، حيث يقول أنه معرض للموت في ذلك الدير في أية لحظـــة(٣). لقد وجه أبيلار كتابه تاريخ المصائب إلى أحد زملائه الرهبان ووصف بأنـــــه أحــب الإخـــوان فـــي المسيح، وأنه صاحبه الحميم، إلا أن أبيلار لم يسميه ولم يعرف ذلك الراهب أبـــدا .وتنتـــهي فصـــول كتاب تاريخ المصائب بتبرير أبيلار لعملية هروبه من سان جيلداس، إذ أنه عاد مرة أخرى لكي يعلـــم في باريس عام ١١٣٢م.(٤)

على الرغم من أن كتاب أبيلار تاريخ المصائب ربما يكون قد برر هروبه من سان جيلـــداس، إلا أنه أهان إيلويز بشدة لأنه كتب عنها لشخص غريب وكأن ليس لها أي مشاعر .تقول إيلويز "كتبــت خطابا لصديقك لكي تعزيه بسبب مشكلاته، بل هي في الحقيقة مشكلاتك أنت .لقد أضفت إلى متـــاعبك أيضا، وبدلا أن تداوى جراحه، أضفت جراحا جديدة علينا بالإضافة إلى فتح الجراح القديمة .أتوســـل إليك أن تداوى الجراح التي أصبتنا بها أنت" (٥). وتلك الكلمات أخذت إيلويز المبـــادرة فـــي مراســـلة

---

(١) Luscombe, Abelard et Le monachisme, p.277

(٢) Verger et Jolivet, Bernaerd et Abelard, p.282

(٣) Abelard, Historia, p.49

(٤) Poole, Illustrations, p.136

(٥) Heloise, Letter I, in Monfrin,p.112

أبيلار وكان الموضوع خطاباتها ضرورة تذكركم الدين الذي يطوق أبيلار، وكثيرا مـــا كـــانت تذكــر كلمة " أتوسل إليك " .على أن الشئ الذي ضايقها بشدة كان ما فعله أبيلار بتوجيه كتابه لصديقه بـــدلا منها، وإن كان قد أرسل لها هي الأخرى نسخة من ذلك الكتاب مع رسول خاص.(١)

لم تُبد إيلويز لأبيلار أي عرفان بالجميل وهو الذي أنقذهـــا مـــن ديـــر أرجنتـــي وأعطاهـــا الباراكليت، بل كانت أفعاله سببا في لومه .ولعلها فسرت كرمه بهذه الطريقة لأنها لم تكن لها القـــدرة على التحكم في حياتها ولا راهباتها .لقد كانت خاضعة ومطيعة لأبيلار ورغباته بشـــكل كبـــير، فقـد جعلها منذ البداية راهبة ثم هو الأن يجعلها رئيسة الباراكليت .وحينما دعاها أبيلار إلـــى البـــاراكليت قالت إن هذه الدعوة هي امتحان أخر لطاعتها، وقالت أنه لم يفعل شيئا من أجلها، وقللت مـــن أفعالـــه وذكرت أنها ليست بذات قيمة مقارنة بما ألحقه بها.(٢)

وجهت إيلويز كثيرا من اللوم لأبيلار قائلة "لماذا نسيتني بعد أن دخلنا حيـــاة الديـــن ســـويا، وأهملتني بعد أن أطعتك، ولم تبعث لي بخطاب تعزية إلا متأخرا ؟ " .وعندما ؟أجابـــها أبيـــلار علـــى خطابها وافقها على أنه لم يلعث لها بكلمة واحدة أنه كان مقتنعا أنها تسير على ما يرام كراهبة، وقـــال أنه بعد أتن سلمها الباراكليت لم يزورها كثيرا لحمايتها من القذف والتشهير، إلا أنها لم تكـــن مقتنعـــة بكل ذلك.(٣)

ولعل أبيلار في قراره بمراقبة نشاطات إيلويز وراهباتها لم يكن متحيزا ضد النســـاء، ولكنـــه كان قرارا رئيسيا لماربود الذي كان يعلو بسلطة عليهم جميعا وكان ذلك النظام متبعا في معظم أديـــرة ومدارس العصـــور الوسطى من خلال تفسيرهم لقصة أدم وحواء وأن حواء هي سبب كل الشـــرور في هذا العالم .فكـــان من الضروري إشراف الرجال على تعليم النساء سواء في المدارس أو الأديـــرة، فكان القس نوربيـــر وســـان برنار وبطرس الموقر يشرفون على أديرة للنساء .غير أن أبيـــلار كـــان يرى أن النساء جـــزء لا ينفصل عن المسيح وهى الملاحظة التي استوحاها من القديـــس أوغســـطين حتى في الدعـــوة والوعـــظ، إلا أنـــه بالرغم من ذلك أنكر نقاء أي إنســـان يصاحـــب النســـاء.(٤)

استمـــر الجـــدل حـــول تطـــور خطابـــات أبيلار وإيلويز، والذي توج في النهايـــة بهدايـــة إيلويز لتصبح راهبة جيدة .ولعل إيلويز هي التي حولت أبيلار من نفوره من النساء إلـــى احترامـــهن،

---

(١) Dronke, Women Writers , p .115

(٢) Mcleod, Heloise,p.250

(٣) Dronke,Testimonies,pp.33-34

(٤) Luscombe, From Paris to the paraclete,p.263

حيث بدأ يقول بأن كرامة النساء أرفع من كرامة الرجال، إذ أن حواء مخلوقة في الجنة وأدم مخلوق خارج الجنة، إذن فإن الجنة هي موطن النساء الأصلي.(١)

وفي مقالة له عن أصل الراهبات، أعطى أبيلار سلطة كنيسة للنساء ودافع عنهم ضد من هم ضد النساء، وقال أن المسيح قد أعطى السلطات التبشيرية للرجال والنساء على حد سواء، كما أن النساء كانت تذكر في العهد الجديد كالرجال، بل إنه توجد نساء قد تركوا كل المتع الدنيوية ورضوا بالمسيح فقط مثل مريم المجدلية التي جعلت من المسيح قديسا وملكا وراهبا .ويقول أيضا أن ثمة رسل نساء تفوق الرسل الرجال، فمريم المجدلية كانت رسولة الرسل، وبمعنى أخر اعتبر أبيلار أن مريم المجدلية هي المبعوثة الأعلى لأي مبعوث بعثة المسيح في النظام البابوي لروما.(٢)

لم ترضى تلك الأفكار بالضرورة إيلويز على الرغم من موقفها الأنثوي، بل قالت أن الدين ليس قاصرا على أحد، أي أن الصفوة ليست قاصرة على الرهبان فقط، وأن وصف الرهبان بأنهم هم رجال الدين فقط لهو أمر مشكوك فيه، إذ أن كثيرا من الناس العاديين هم أيضا متدينيين، كما أن إبراهيم النبي وداود ويعقوب كلهم كانوا رجال عاديين (٣). ولم يتبع أبيلار ما قالت إيلويز، إذ أنه رجل دين وراهب وقال في خطاب له أن اسم الراهب هو اسم للدين نفسه، كما أن الرهبان والراهبات لهما سلطة بابوية من الكنيسة وعليهم أن يتعاونوا. ودعي أبيلار لأن يكون هناك أديرة مزدوجة للرجال والنساء، يرأس الدير رجل في حين ترأس الراهبات شماسة، على أن سلطة رئيس الدير تكون على الراهبان والراهبات.(٤)

كانت كتابات أبيلار لدير الباراكليت عباة عن بعض الترانيم والخطب التي زادت عن السبعين ألف كلمة كلها موجهة لهم ليقولوها في الأعياد والمناسبات كما كانت تضم إجابات وردود لمسائل لاهوتية وتعليق على افتتاحية سفر التكوين فى العهد القديم .وعلق Luscombe في تقديره لمكانة الحياة الدينية الديرية لأبيلار وإيلويز قائلا "لا أعتقد أن هناك في ذلك الزمن كتابات حديثة أعظم من كتابات أبيلار، كما أنني مازلت أتعجب من صمت إيلويز الشديد تجاه تلك الكتابات وعدم ذكرها لكلمة شكر واحدة "(٥). لعل ردود إيلويز على تلك الخطابات قد ضاعت في حياة أبيلار المليئة بالسفر والترحال، أو أن إيلويز توقفت عن الكتابة له زاعمة أنه من واجبه أن يفعل

(١) Mcleod,OP.Cit.,P.255

(٢) Mclaughlin,Abelard's Rule for Religious Women, p.243

(٣) Chrrier,Op.Cit.,P.392

(٤) Luscombe, Op.Cit.,P.276

(٥) Luscombe,From Paris to the Paraclete, P.277

ذلك، كما أنه من الواضح أن نصائح أبيلار لها ولديرها كثيرا ما تم تجاهلها من جانب إيلويز، حيـــث نصحها بأن يكون رئيس الدير رجلا وأن تكون هي شماسة، إلا أنها رفضت ذلك بشدة وذكرتـــه بـــأن الرجل العادي قد يكون أفضل من الراهب.(١)

ولأن أبيلار كان معلمها فقد كان ينظر إليها ليس على أنها شخص مستقل بالرغم مـــن أنـــها دفعته للدفاع عن المرأة بصورة نظريه، وإنما كان ينظر إليها باعتبارها زوجته وأختـــه فـــي المســـيح وصاحبته التي لا يمكن فصلها عنه .ويقول أبيلار أن تكريس حياتهم للدين قد وضـــع زواجـــهم فـــي مرتبة عليا لأنهما أصبحا واحدا في المسيح بالروح وواحدا في عقد الزواج بالجسد(٢). وتشـــير إحـــدى الباحثات إلى أن العلاقة بين أبيلار وإيلويز كرهبان كانت مقبولة من كلا الطرفين وأن جوهر الـــزواج قائم في الأساس على الإخلاص والصحبة والحب والاشتراك في أمور الحياة في الســـرور والبـــؤس، غير أنها ترى أن كلمات أبيلار كانت عبارة عن تسلية لإيلويز أكثر من كونها معالجة للوضـــع القـــائم وأن أبيلار كان ما يزال يتمتع بدهاء كبير.(٣)

- إنجـــازات أبيـــلار كراهـــب:

لعل إنجازات أبيلار كراهب تتمثل في الكتابات الدينية التي ألفها أكثر من الأفعال التي قام بـــها .كانت حياته الديرية مفككة ومدمرة كما كانت حياته كأستاذ في باريس .لقد ترك ديـــر ســـان دينيـــس البيت الأم للمملكة الفرنسية والذي أواه مرتين، وبعد ذلك ترك دير الباراكليت الذي أسسه بنفســـه، ثـــم فعل نفس الشئ في سان جيلداس الذي كرمه وجعله رئيسا للدير قرب موطنه الأصلي بريتاني .وبعـــد أن عاد ليراقب إيلويز وراهباتها في الباراكليت، هجر الفكرة أيضا وعاد للظهور مرة أخـــرى كأســـتاذ في باريس بعد عام ١١٣٢م مباشرة ومازال له اللقب الرهباني والديرى .وقال سان برنار عنـــه أنـــه ليس له من صفات الراهب سوى الإسم والعادة (التقليد)، وكانت إشارة برنار بالاسم هي أمله فـــي أن يعتقد الإسميون (أصحاب الفلسفة الاسمية) أن أبيلار لم يكن راهبا بالفعل.(٤)

وفي دفاع أبيلار يمكن القول بأن التدين الديرى وكذلك الحياة العلمية كانا في حالة من التفكـــك في مطلع القرن الثاني عشر، وقد كان هنا فشل كما كان هناك أيضا نجاح .وقـــد دخـــل أبيـــلار تلـــك المعمعة الدينية واثق النفس وقد ظهر ذلك في مواجهته لأستاذة وليام دوشامبو وكذلك أنسيلم مـــن لاون .والعجيب أن فشل أبيلار المتكرر لم يسوء سمعته، فقد فشل في دينيس ثم نجح في الباراكليت، وبعـــد

(١) Dronke,Women Writers, P.128

(٢) Brooke,The Medieval Idea of Marriage ,P.116

(٣) Elliott,D., Spiritual Marriage, New York, 1993,P.137

(٤) Luscombe, Abelard et le momachism,P.273

فشله في باريس مع وليام عاد ليصبح أستاذا في نوتر دام بعد عشر سنوات، ثم سقط على وجهه ثانيـــة عندما أغرى إيلويز وحتى فشله في دير جيلداس، إلا أنه في كل تلك المراحل تم وصفـــة بـــالمتدين[١]. لقد كانت الأديرة بمثابة ملجأ للاستقرار والوقار فـــي المجتمـــع فـــي تلـــك البيئـــة الهمجيـــة، وجـــاء الإصلاحيون أمثال سان برنار وأبيلار ليقلقوا ذلك الاستقرار ويخاطروا أيضا بقلقلـــة أنفســـهم، ولعـــل وصف أبيلار بالمتدين من جانب خصومه وحتى المعجبين به لا يلغى كونه منتقداً.[٢]

لقد قام بطرس الموقر بالمحاولة الأخيرة لإنقاذ سمعة أبيلار الدينية أولا بإعطائه حق اللجـــوء إلى دير كلونى بعد محاكمته في سنس، وأخيرا بكتابته للقطعة التأبينية وخطاب التعزية لإيلويـــز .ولـــم يذكر بطرس في قطعته التأبينية عن حياة أبيلار أنها كانت غير مستقرة، وقال أن أبيلار وجد خلاصـــة في دير كلونى ومات كراهب عظيم.[٣]

وصف بطرس حياة أبيلار في كلونى إلى إيلويز على أنه "عـــاش حيـــاة خاضعـــة طـــاهرة ومخلصة بيننا، ولم يفعل أي عادة غريبة ولم يطلب طعاما خاصا، كما أنه رفض كل شئ إلا ما كـــان ضروريا بالفعل، كذلك كان لا يهتم بالأشياء الدنيوية التي لام عليها أصحابه منذ دخل دير دينيـــس"[٤]. لعل وصف بطرس لأبيلار في خطاب التعزية الذي بعثه لإيلويز لم يكن حقيقيا من أن حياتـــه مثاليـــة، إلا أنه قال ذلك ليخفف عن إيلويز الصدمة من موت أبيلار، وقال لها أنه بعث بـــأبيلار إلـــى كنيســـة تابعة حيث كان المناخ ملائما لصحته، إلا أن بطرس فعل ذلك لكي يبعد أبيلار عـــن كلونـــى لتجنـــب المشاكل التي من الممكن أن يحدثها .[٥]

لا يمكن لنا أ، نعرف ما يكنه أبيلار لبطرس :فبطرس هذا هو الذي أنقذ أبيلار مـــن الســـجن وأواه في كلونى، وبذل كل المهارة الدبلوماسية لديه ليعطيه بيت أمنا .وكانت أفعال بطرس نابعة مـــن

---

(١) Pierre Lasserre, OP.Cit.,P.79

(٢) Vogle , OP . Cit., P .127

(٣) Poole, OP. Cit., P.145

الشئ الذي يذكره بطرس الموقر هو أن أبيلار كان تحت الاعتقال في دير كلونى، وأنه توصل إلى تسوية في أن ينهي أبيلار أيامه في دير كبير مثل دير كلونى. (الباحث)

(٤) Peter the Venerable, Letter (115), P.306

– على نفس هذا النمط، ذكر أبيلار في كلامه عن قواعد الراهبات الذي وجهه إلى إيلويز أن كل ما نمتلكه لابـــد وأن يكون ضرورياً بالفعل، وأن الشئ الزائد يعد سرقة وسبباً في موت الفقراء، وأن عمل الرهبان والراهبات هو مـــن اختصاص الرب لا من اختصاص الناس .انظـــر،

Abelard, The Letter, in Mclaughlin ,Abelard's Rule for Religious Women, P.282

(٥) Verger, Abelard et les milieux sociaux, in, Abelard en son Tembs,P.117

رأفته، إذ أنه لم يستفيد شيئا من عزل برنار ولا مجابهة حكم البابا في مثل هذه المسألة وهـــي البدعـــة التي أتهم بها أبيلار .لقد كان بطرس من الناحية النظرية أقوى رئيس دير فـــي الأمـــة المسـيحية، إذ تؤول إلى طاعته مئات الأديرة .لقد ساعده أيضا حينما أعاد جسده إلى إيلويز بعد وفاته فـــي الخفـــاء، كما أنه أتى بنفسه مع الجثمان لأنه لا يثق في أي شخص أخر، كما أنه وصفه بالراهب العظيـــم فـــي خطاب التعزية، كما أنه ساهم في أن يدفن أبيلار في الباراكليت وهى الأمنية التي تمناها قبل موته.[١]

بإعادة جسد أبيلار إلى دير الباراكليت، يعترف بطرس الموقر "بـــأن ديـــر البـــاراكليت هـــو الإنجاز الديني الأساس لأبيلار وهو منزله الروحي". وكما قالت إيلويز أيضا " أن أبيلار بعـــد الـــرب كان هو المؤسس الوحيد لهذا المكان والباني الوحيد لهذا المصلى"[٢]. وعندما ماتت إيلويز تم دفنها فـــي قبر أبيلار بجواره عام ١١٦٤م لينطبق عليهما كلام أبيلار من أنهما واحدا في الجسد والـــروح ســـواء في الحياة أو الممات، وقد ذكر بطرس الموقر لإيلويز في خطابه أن الرب سيحفظ لـــها أبيـــلار وأنـــه عندما يبعث سيعود إليها مرة أخرى.[٣]

ثانيا: أبيـــلار عالم اللاهـــوت:

دعا سان برنار أبيلار مراراً بعالمنا اللاهوتى، وهو في ذلك لم يكن يقصد المجاملة بـــالطبع، ولكنه دعاه كذلك بسبب كتابة "علم اللاهوت". وقال أبيلار: "سميته علم اللاهوت لأن الرب هـــو الـــذى ألهمنى تأليفه، لقد كان عمل الرب بكل معنى"[٤]. لقد كانت الكلمة التقليدية لدراسة الفكرية للـــرب هـــو الربوبية أو الإلهية Divinity ، وقد استخدم أبيلار كلمة القراءة أى قراءة الكتب الربانية والنصـــوص المقدسة وهى تلك الأشياء التى يتبعها طلاب علم الربوبية، أما عالم اللاهوت من جهة أخـــرى، فكـــان يتبع استخلاص الأفكار والأسباب من المبادئ الأولية للأشياء.[٥]

أشار سان برنار إلى أن كلمة Theology أو علم اللاهوت بها شيئاً من الوثنية والريبـــة، إذ أن هدفها هو معرفة أو الإحساس بالرب. وقد حذر برنار من أن أبيـــلار وعـــد مســـتمعيه بإفهامـــهم المسائل الخافية التى تكمن في قاع الدين المقدس. وقد عمق برنار أخطار علم اللاهوت، فـــي الوقـــت الذى تكلف أبيلار فيه الحداثة أيضاً، فأبيلار لم يكن مخترعاً لعلم اللاهوت كما تظهر كتاباتـــه، ولكنـــه كان من مطورى ذلك العلم. ومن المحتمل أن ذلك العلم أنبثق مـــن كتابـــات أنســـيلم رئيـــس أســـاقفة

---

(١) Dronke, Testimonies,P.51

(٢) Peter The Venrable, Letter(115),P.307;Heloise,Letter in , Monfrin, P.113

(٣) Peter The Venerable , OP.Cit.,308

(٤) Abelard, Historia, P. 44

(٥) Marrnbon, The philosophy of Abelard, P.55

كانتربورى عام ١١٠٠م أو قبله بقليل، ويظهر من كتاباته أنه نـــاقش وجـود الكـائن الأعظـم فـي كتاباته[١].

ويعد أول ما كتب أبيلار في علم اللاهوت عندما كان راهباً في دير سان دنيس، ولعل أول مـا قابل هذا المصطلح عندما كان يبحث في أعمال هيلدوين لمعرفة ماهية سان دينيس، لأن هيلدويـن قـد أعطى العنوان أسرار علم اللاهوت De theologia Mystica. وهناك احتمال آخر وهو اقتراح تقدم به توماس قس مورنى Morigny بأن أبيلار قد أوصى بقراءة كتاب فيلسوف القرن التاسع الميـلادى جون سكوتس إريجينا John scotus Erigina الذى ترجم حياة سان دينيس عـن اليونانيـة. وفـي الواقع فإن أبيلار كان لا يحتاج لكتب أخرى عما كان يحتاجه أى مفكر آخر لتعريف علم اللاهوت فـي العصور الوسطى، خاصة كتب القديس أوغسطين مثل كتاب "مدينة الرب" ، وتعليق بوئثيـوس علـى بورفيرى وإيزدور. ومن المرجح أيضاً أن التأثيرات التى حدثت لفكر أبيلار وفهمه عن معنـى علـم اللاهوت ترجع إلى وليام دوشامبو وأنسيلم من لاون، إلا أنه لم يعترف بفضلهما فـي كتابـه تـاريخ المصائب.[٢]

على الرغم من أن أنسيلم لم يكتب شيئاً يسمى بعلم اللاهون، إلا أن حنـا السـالزبورى قـد وصفه بأنه عالماً للاهوت، وذلك لأنه فسر النصوص المقدسة بطريقة عقلية، وهذا النـوع مـن علـم اللاهوت قد جذب الطلاب بشدة لما فيه من أعمال للعقل وتدريب علـى خلاصـة العقيـدة المسـيحية والقانون الكنسى. وأصبح من الواضح أن هؤلاء المتدربين أضحوا قادرين على المنافسة والمحـاورة أكثر من زملائهم الرهبان الذين كانوا يرددون النصوص المقدسة في المناسبات الكنسـية وحسـب [٣]. وعلى مر القرون الست أو السبع السالفة، كانت الصلوات الكنسية والاحتفالات الدينية هما الطريقتيـن اللتين تعبران عن الكنيسة، وأن الخطر الذى يكمن في علم اللاهوت هو المجادلة والسببية فـي الديـن المسيحى، وهو الاتهام الذى ساقه سان برنار في هجومه على أبيلار.[٤]

-تطـور لاهوت أبـيلار:

كان التفسير الذى أعطاه أبيلار في كتابه تاريخ المصائب لكتابته مقالة علم اللاهوت، كان فـي المقام الأول للطلاب الذين يريدون تفسيرات عقلية، وكان ذلك عندما كان راهباً لديـر دينيـس وقبـل إدانته في سواسون عام ١١٢١م. وقال أبيلار أن الطلاب يريدون أشياء ملموسة عنـها مـن مجـرد

---

(١) Southern, R.W., Scholastic Humanism and the unification of Europe, Vol. I, New York, 1995, P.207

(٢) Evans, G.R., Old Arts and New theology, Cambridge, 1980, P. 34

(٣) Mews, cccm. P.19

(٤) Ibid, P. 51

الكلمات بل أنهم قالوا أن مجرد النطق للكلمات فقط لهو شئ بلا هدف إذا لم يتبع ذلك فـهما، وأنـه لا يمكن تصديق شئ إذا لم يكن مفهوما أولا.(١)

كانت المقولة الأخيرة تلك تمثل تناقضا للقديس أنسيلم في قاعدته بأنه إن لم يؤمن أولا فإنـه لن يفهـم. ومن خلال طلابه كان أبيلار يتحدى أو يعارض قاعدة أنسيلم للبحث المهذب داخل الديـن، ويقول أن ذلك شئ يستحق السخرية. وقد أصر أبيلار على طريقة بحثه تلك في تبريره لكتابـة علـم اللاهوت حتى النهاية، وذلك على الرغم من إدانة الكتاب في سواسون وكذلك التهديدات اللاحقـة لـها من محاكمتـه في مجلس سنس عام ١١٤٠م.(٢)

كانت افتتاحية أبيلار في مقدمته للنسخة الأخيرة من كتابه علـم اللاهـوت، والتـى سـماها اللاهوت المدرس Theologia scholanain عام ١١٣٠م، كتـب أبيلار "بطلب من طلابنا"، وقـال أنه وضع لهم ملخصا للتعليم المقدس كنوع من المقدمة للنصوص المقدسة. وقال أبيـلار أيضـا أنـه "سيتخلل داخل معنى النص الربانى لديننا المقدس الذى أنهك أعظم الفلاسفة المسيحيين. لقد كان طلابـه واثقون من أن ذكائه سيحل جميع الاختلافات القائمة في الدين المسيحى، والتى يظـهر كثيـر مـن الناس لقبولها كمسلمات غيبية دون التفكير فيها أو الاقتناع بها كما تطلب منهم الكنيسة ذلك.(٣)

كان غرور أبيلار واضحا في إجاباته عن الأسئلة التى وجهت له بشأن كتابه عن اللاهـوت. لقد كان الثالوث هو الموضوع الأساسى لكتاب أبيلار، والذى أدعى في كتابـه تـاريخ المصـائب أن كتابه عن اللاهوت يبدو أنه يجيب عن كل المسائل حول هذا الموضوع، وأضاف أبيلار قـائلا: "ولأن هذه المسائل هى أصعب المسائل، فإن الشئ المجتمع عليه هو أن الأهميـة العظمـى للمشـكلات قـد قوبلت بفطنة حلولى".(٤)

ولقد أصر أبيلار على عظم علم اللاهوت، وذلك بسبب إدانتهم له بكل الوحشـية، وكـان رد فعله على تلك الإدانة كتابة لنسخة أخرى منه، ومن المؤكد أنه أنقذ إحدى النسخ من هذا الكتـاب قبـل أن يتم حرقها، حيث رجع بعد ذلك لأخذ قطع كاملة منها. وأشار Mews إلى أن النسخة التى أحرقـت في سواسون لم يكن عنوانها علم اللاهوت في الأساس، إنمـا كـان عنوانـها "عـن الثـالوث" De

(١) Abelard, Historia, P. 46

(٢) Clanchy, in J.E.H., 41 , P.17

- عن رأى القديس أنسيلم في أهمية أن يسبق الإيمان العقل أو الفهم راجع حسن حسنين، نمـاذج مـن الفلسـفة المسيحية في العصر الوسيط. ص.

(٣) Anelard, Theologia scholarium , in Mews, cccm, P.313

(٤) Abelard, Historia , P. 47

trinitate. وفى النسخة الثانية أحل أبيلار كلمة إلهى Divine بلاهوتى في عدد من القطع وأعطـــى الكتاب اسم "اللاهوت المسيحى" theologia christiana متعمداً، ويدل العنوان الجديد للكتاب علـــى أنه ينظر في التفكير المسيحى كعالم لاهوت.(١)

لقد كان كتابه مسيحياً إذ أنه فيلسوف المسيح كما دعاه بطرس الموقر. وقال أبيلار أنه شـــرع في نقل نفسه إلى الرب وترك العالم وراء ظهره. "لقد بدأت دراستى لأجمع المال ولكنـــى الآن أعمـــل في حديقة الرب لكسب الأرواح على الرغم من كونى في اللحظات الأخيرة". ويعلق Jolivet قـــائلاً بأن أبيلار كان بطلاً لا يُظهر حتى وإن تم مقاضاته وإهانته.(٢)

يتكون كتاب أبيلار عن اللاهوت من ثلاث نسخ: النسخة الأولى "اللاهـــوت" وهـــى الأكـــثر وضوحاً وكفاءة وهى التى تم إدانتها في سواسون، والنسخة الثانية وهى "اللاهوت المسيحى) وتتمـــيز بحجمها الضخم والذى يفوق النسخة الأولى ثلاث مرات، وذلك لأنها تشمل ردود أبيلار على محاكمتـــه في سواسون، وقد خص أبيلار في تلك النسخة جزءاً لهجومه على خصومه يوضح فيها حسب قولـــه تفوقه عليهم، وخاصة ألبريك صاحب ريمز الذى حمله أبيلار مسئولية محاكمته في سواسون.(٣)

أما في النسخة الثالثة "اللاهوت المدرسى" والتـــى ألفها عام ١١٣٠م، أعاد أبيـــــلار تنظيـــم عمله هذا ليجعله أكثر صحة وتماسكاً، كما أنه عمل على تعديل الفصول المسيئة إلى زملائه، علـــى أن تلك النسخة تبدو وكأنها غير كاملة حيث أنها تنتهى بأسئلة كثيرة عن معنى الخلاص وهـــو موضـــوع جميع أفكار أبيلار في ثلاثينات القرن الثانى عشر. لقد كان دائماً حساساً للأشياء الفكرية، وقـــد كـــانت السمة المميزة لكتاب اللاهوت المدرسى هى الانتهاء بالأسئلة بدلاً من الإجابات، ولعـــل ذلـــك نتيجـــة اختلاف وســـوء الظـــروف التى عاشها أبيلار في تلك الفترة.(٤)

---

(١) Mews, cccm, P. 314

(٢) Jolivet , La theologie d'Abélard, P.55

- علـــى الرغـــم مـــن أنه تم إحراق نسخة الكتاب في سواسون ، إلا أنه ظهرت العديد من الطبقات لهذا الكتاب في وقتهـــا، وأخيراً أنجـــز المـــؤرخ Mews نســـخ الكتـــاب وحققها، غير أن يعترف بأن أبيلار حـــير المحـــررون الحاليون كما حير مقاضـــوه، إذ أنه التزم التغيير والتبديل كثيراً فـــي أجـــزاء الكتاب، إلا أنه تم الوقوف عليـــها والتأكد من صحتهـــا. (الباحث)

(٣) Chanchy, J.E.H., 41, P. 15

- كانت ردود أبيلار تتميز بالإسهاب نظراً لأنه كان يرد على خصومه الذين أدانوه في سواسون، كما كان يحاول دفع تهمة الخيانة العظمى عن نفسه وذلك في الوقت الذى ترأس فيه دير دينيـــس عام ١١٢٢م. في الوقت نفسه كان يحاول أن يصنع حياة جديدة لنفسه كراهب، ولعل ذلك التشتت في الأفكار والمواقف قد ظهر واضحاً في كتاباته في تلك الفترة. (الباحث)

(٤) D.T.C, tome II, P. 48

ويُنتقد أبيلار على عدم صنعه عملاً متكاملاً أو وضعه لنمـــوذج كـــامل لاتباعـــه فـــي علـــم اللاهوت، فقد كان واحداً من الأكاديميين الذين لا يستطيعون إنهاء العمل الـــذى بـدءوه، إلا أن هـــذا الحكم الحديث لا يأخذ بعين الاعتبار الاضطهاد الذى تعرض له أبيلار، وقد وصفه سودرن بأنه كـــان يعانى من فقدان الأمل.(١)

.اختيـــار الثالوث موضوعا للاهوت.

يطبق أبيلار خبرته وحنكته في المنطق على أى مذهب أو نص في الدين المســـيحى يحتـــاج إلى تحليل لغوى، وقد استعمل أبيلار تلك الطريقة على القربان المقدس والثالوث، وذلك منـــذ أن كـــان في مدرسة لاون. وفى اختياره لتناوله الثالوث كأول مقاله في كتاب علم اللاهوت، والتى تميزت عـــن تعليقاته الإنجيلية على حزقيال في العهد القديم، فقد دخل أبيلار بذلك قلب الخطر. كان ذلك أيضاً هـــو الموضوع الذى اتهم فيه أستاذه روسلان بالبدعة عام ١٠٩٠م.(٢)

وقد وجه التدريس أنسيلم دحضه لروسلان إلى البابا أوربان الثانى عم ١٠٩٨وذلك بكى ينظـــر هذا الموضوع ويفصل فيه. تلك كانت المرة الأولى التى يُوجه فيها مناشدة للسلطة البابوية في دحـــض هرطيقى (مبتدع)، وكان ذلك تحذيراً لمن يفعل ذلك بعده. وبالمساعدة البابوية أخـــبر القديـــس أنسـيلم الجميع وخاصة المجترئين على النص المقدس والمجادلين المعاصرين أن يتحروا ذلـــك بكـــل حـــذر ودقة.(٣)

لم يكن الحذر طرقة أبيلار، إذ أنه طلب من الباب ترخيصاً لمقالته عن اللاهوت، مذكراً بأنـــه الطريقة الجدلية هى المفتاح لفهم الثالوث. وأنهى أبيلار كتابه الأخير بقوله أنه لا يمكـــن لأى شـــخص أن يفهم هذه الأشياء إلا إذا قضى الليل في دراسة الفلسفة وخاصة الجدلية منها. لعل هدف أبيلار هـــو أن ينأى نفسه عن أساتذة روسلان بإنتاج ماله خاصة عن الثالوث. لقد وصف أبيلار الرب بأنه ثلاثـــة أشخاص، وقد عرضه ذلك لمسئوليته تقليل الأشخاص إلى أسماء مجردة، كما أنه أعطـــى الأشـــخاص خصائص متغيرة نسبياً وهى القوة والحكمة والخير، في حين أن المسيحية لم تؤيد مثل ذلـــك القـــول، ولعل أبيلار أخذ الرأى من أقوال أستاذه روسلان.(٤)

---

(١) Southern, Scholastic Hummanism , P. 51

(٢) Clanchy, Op. Cit., P. 16

(٣) Sickes, Op. Cit., P. 146

(٤) Jolivet , La théologie d'Abéelard, P. 59

- وعن أقوال دوسلان في الثالوث وتطبيقه للفلسفة الإسمية، والتى يحتمل أن أبيلار أخذ منها أنظر، يوسف كـــرم، المرجع السابق ، ص ٧٥

إن الاعتقاد المسيحى يقول بأن الأب هو القادر وكذلك الابن والروح القـــدس، إلا أن تميـيز أبيلار للثلاثة بصفات مختلفة جلب عليه اتهامه بالهرطقة. وكان تمييز أبيلار هذا وسـيلة تقـود إلـى غاية، وذلك حين قال أن كل فرد يعرف الله أنه حكيم وقوى وخير، إذن فإنه يعرف الثالوث، حيـث أن الفكر والعقل يخبر الإنسان عن وجود الرب. ودلل أبيلار على ذلك أيضاً من العهد القديم ومـن كتـب الفلاسفة اليونان والرومان، فيقول أن موسى – الذى يعتقد علماء العصور الوسطى أنه مؤلـف سـفر التكوين – عرف الثالوث، وذلك لأنه استخدم لفظه الجمع بالنسبة للرب، كما أن الـترانيم والصلـوات تثلث الدعاء للرب. وفى نهاية الجزء الأول من كتابه "اللاهوت" جمع أبيلار معظم الحجيج فيما يلـى: "لأن الرب أعلن دينه لليهود عن طريق الأنبياء، وإلى غير اليهود عن طريق الفلاسفة، فلا يُسمح بعفـو أو معذرة لليهود أو غيرهم لعدم سماعهم بخلاص الروح".(١)

وفى نهاية النسخة الأولى "اللاهوت" قدم أبيلار شيئاً مستحباً لبرنار فاستشهد بقول أوغسـطين أن ذلك هو معرفة الإنسان الطبيعية عن الرب، والمقصود بالرب هنا الكلمة وليس سر التجسـد. ومـا ذكره أبيلار في هذا الموضع يناقض ما قاله سالفاً حيث أشار إلى أن فلاسفة اليونان مثـل الأنبيـاء أو يكادون يرتقون إلى درجة الأنبياء لما تكشف لهم من حقائق الأمور، إلا أنهم لـم يعرفـوا بالتجسـد، وبذلك ينقصون من جوهر الدين المسيحى، إذن فمعلوماتهم غير كافية.(٢)

أما في كتابه الأخلاق Ethics، يناول أبيلار بالتحليل مصير الأطفال غير المعمديـن الذيـن ماتوا قبل التعميد، أو أولئك الذين لم يصل إليهم معرفة بالدين المسيحى، ويقول أنه من الخطأ وصفـهم بالكفر. وفى تعليقه على رسالة بولس الرسول للرومان، قال أبيلار أن كل إنسـان ذو طبيعـة خـيرة سيؤتيه الرب الفرصة لكى يهديه إليه، وأن كل نفس هى نفس طيبة حتى قبل عملية التعميـد نفسـها. وأنهى أبيلار كلامه بالقول بأن الحب هو المقوم الأساسى وليست مناسك الكنيسة، فإذا تاب المذنب فـي أى وقت فله الخلاص.(٣)

يذكر أن أبيلار كان أعظم منطقى في عصره، ويتساءل ذلك الغموض والتناقض الـذى كـان يغلف كتاباته. يبدو أن أبيلار لم يترك مذهب أو قانون مسيحى واحد إلا وخاض فيه بأبحاثـه. ويقـول أبيلار إن التناقض موجود في النصوص وذلك راجع بالضرورة إلى أن الذى نقله إلينا بشـر، والـذى

(١) Sikes, Op. Cit., P. 147

– يرى clanchy أن أبيلار في ذلك كان مبتدعاً وغامضاً حول الدين، إذ أنه يعتبر عاماً لكل فرد، في حين تعتبره الكنيسة نظاماً للعقيدة والتشريع، أنظر، Clanchy, Abelard, P. 270

(٢) Paré, Op. Cit., P.281

(٣) Abelard, Ethics, P.66

سجله كتبه بشر، ثم فسر لنا أيضاً ليسو منزهين عن الخطأ، وذلك لأن اللغة ما هـــى إلا آداه عــاجزة للتعبير وهى عرضه للتعبير والتأويل.[1]

لقد وقع أبيلار في الصعوبات لأنه قلل من شأن علم اللاهوت، إذ أنه يقول بأنه علم أسهل مـــن الفلسفة. وكان من الخطأ أيضاً أن يحكم على اللاهوت بالتفكير العلى فقط كما هو الحال فـــي المنطـــق الذى برع فيه. وقد تبين له أن علم اللاهوت يخص مشاعر الناس وعقائدهم الراسخة عن كونه أفكـــاراً مجردة كان يناقشها في محاضراته في المنطق، وذلك ما جعل أى خطأ في اللاهوت ينظر إليـــه علـــى أنه بدعة وجريمة، في الوقت الذى ينظر فيه إلى الاختلاف في المنطق على أنه اختلاف في وجـــهات النظر بين الأساتذة والخصوم. ولعله من الواضح أن الاختلاف بين علماء اللاهوت والمنطـــق يرجـــع لمصادر هؤلاء وأولئك: فاستشهاد علماء اللاهوت يكون نابعاً من الإنجيل وكتابات آباء الكنيســـة، فـــي الوقت الذى يعتمد فيه علماء المنطق على قضايا ومسائل جدلية.[2]

بينما تناول علماء اللاهوت المسيح في نصوصهم بطريقة مليئة بـــالاحترام والخشـــية، فـــإن المنطقيين قد جعلوا من سقراط المعادل الوثنى للمسيح. ففى كتاب الجدل يقول أبيلار "إذا كـــا ســـقراط حمار، فإن ذلك ينطبق على كل إنسان". أما في كتابه اللاهوت، فقد غير مـــن موقفـــه تجـــاه ســـقراط بالكامل إذ قال بأن سقراط يمثل نُبل فلاسفة اليونان حتى وإن كان وثنياً [3].

إن الفكرة بأن الفلاسفة اليونان الوثنين كانوا حكماء تمثل في أنـــهم يعـــبرون عـــن الأخـــلاق والحكمة في ذلك الزمان. كذلك فإن إيلويز تستشهد من خلال تعميقها في الكلاسيكيات القديمة قائلة بـــأن كتاب أبيلار "اللاهوت" كان تأبيناً لسقراط، وأن هؤلاء الأبطال الكلاسيكيين والحكماء يمثلون حـــاضراً وليس ماضياً، وأن حكمتهم ما زالت تهدينا إلى الآن. كذلك وعند زواج أبيـــلار وإيلويـــز قـــالت لـــه عبارتها المشهورة: "إذا لم تهتم بمزايا الرجل كرجل دين، فعليـــك علـــى الأقـــل أن تحـــترم كرامـــة الفيلسوف".[4]

يقول أبيلار في كتابه اللاهوت أن الفلاسفة القدماء كانوا يعرفون الثالوث أكثر مـــن الأنبيـــاء، بل وبشروا به، وقد ظهرت تلك الفكرة واضحة جلية أكثر في كتابه التالى "اللاهوت المسيحى" وهـــى

---

(١) اسحق عبيد، أبيلار اللاهوتي الحر ، ص ٤٣

(٢) Moore, R.I., The Birth of Popular Heresy, London, 1975, P. 49

(٣) Abelard, ouvrages inèdits, P. 92

(٤) Heloise, in chatillon, P. 328

أن الفلاسفة كانوا من المسيحيين تماماً في تعاليمهم، بل ولا ينقصون عنهم في شيء [١]. ولأن الكلاسيكيات الوثنية القديمة كانت موصوفة أساساً للرهبان ورجال الدين، فقد كافح المعلمون من أجل التركيز على المظاهر الأخلاقية لهم، حتى كتب أوفيد عن الحب فقد قبلتها الكنيسة لأنهم يقولون أن لها هدف أخلاقى بشرط أن تفهم بالطريقة الصحيحة. كان أبيلار واثقاً من عدم وجود صعوبة في فهم علم اللاهوت لأنه يعتقد أنه مثل المنطق، وفى الوقت الذى طبق فيه علم المنطق نظراتهم على الكلاسيكيات القديمة والمعاصرة، طبق أبيلار نظرياته المنطقية على الإنجيل بكل الجرأة والثقة.[٢]

- معنى الخلاص:

قال أبيلار بأن القديس أنسيلم هو طيب الكنيسة الأكبر، ولكنه هاجم علمه اللاهوتى مراراً. فعل ذلك بوضوح في كتابه "اللاهوت المسيحى" عندما أنكر أنسيلم محاولته تشبيه الثالوث بأى شيء، حيث أن ذلك يعد بدعة. في نفس الوقت وقع هو في ذلك الخطأ حينما شبه الثالوث بالختم (لعل ذلك يرجع لانتشار استعمال الأختام في شمال فرنسا، وأن أبيلار أراد أن يقرب الصورة للناس بشيء يعرفوه.

لم يكن أبيلار عبقرياً في تشبيه الختم بالثالوث والذى ركز فيه على الختم والشمع والقالب النحاسى: فقد شبه الأب الرب بالشمع والابن الرب بالصورة المطبوعة على الشمع، ولكنه وجد صعوبة في وجود مثال أو تشبيه ثالث للروح القدس فجعله بالقالب النحاس. كل تلك التناقضات قد عرضت أبيلار للنقد الشديد وبينت نقاط الضعف في كتابه اللاهوت المسيحى.[٣]

إن خروج أبيلار على القديس أنسيلم واضح في نقده للاهوت أنسيلم وخاصة ما يتعلق بمعنى الخلاص، وهو أيضاً الموضوع الذى استخدمه برنار بشدة ووحشية في مقاضاة أبيلار. ويذكر السيد سوذرن أن وجهة نظر أبيلار تعارض كل ما يعتقده القديس أنسيلم في هذا الموضوع، فلم يتم الاتفاق على معنى الخلاص قبل أن يفتح أنسيلم الموضوع بخمسين عاماً، حيث طرح أنسيلم السؤال "لماذا أصبح الرب إنساناً؟".[٤]

كان عمل المسيح في خلاص البشرية يُفسر عادة عن طريق التشبيه بالسيد الذى يُطلق عبيده من الرق. وبسبب الخطيئة الأولى لآدم، فإن الشيطان يستبعد الإنسان، ويُخلص المسيح الإنسان بتحمله

---

(١) Abelard, Théologia christiana, P. 149

(٢) Poole, Op. Cit. P. 153

(٣) Mews , The lists of Here sies Imputed to Abelard, P. 110

(٤) Southern, scholastic Humanism, P. 58

العناء والغذاء له. وكانت تلك المشابهة جيدة إذ أن مجتمع العبيد في الإمبراطورية الرومانية. حيث كان المسيحيون عبيداً – يشبه مجتمع القرن الثانى عشر حيث ما يزال العديد من الفلاحين المسيحيين عبيدا لأسيادهم. وقد تم اتهام أبيلار في مجلس سنس عام ١١٤٠م لأنه أنكر أن يكون المسيح في الحالة الجسدية لكى يحررنا من قيد الشيطان، وإن لم يؤد الإنسان حقه من العبودية، فإنه بذلك لن يستطيع أن يسدد دينه ويكسب الخلاص.(١)

لقد جعل هيو دوسان فيكتور الخلاص قضية لها ثلاث أطراف وهم الإنسان والرب والشيطان. فالإنسان حُرم من عطف ونعمة الرب لأنه ذهب إلى الشيطان وأطاعه بذلك نقض الرب عهده مع ابن آدم. إذاً فعلى الإنسان أن يرضى الرب لكى يدافع عن من أسر الشيطان، وبعد أن هدأ الرب من غضبه أرسل المسيح إلى الأرض بكونه إنساناً ليدفع ثمن خطيئة الإنسان بدمه هو، وبذلك أطلق سراح كل المأسورين وأولهم آدم وحواء.

هذا الوصف الذى وضعه هيو قد عارض ما قاله القديس أنسيلم قبل ذلك بأربعين عاماً، وذلك بتصويره الرب على أنه غضبان، وبتصويره بأن الشيطان له قدر أكبر من الإنسان وبقوله بأن الخلاص يأتى بدم المسيح.(٢)

أما أبيلار قد أخذ جانباً آخر في تلك المعالجة للقضية، حيث تحدث عن الحب أى الحب بين الإنسان والرب وهو ما لم يذكره هيو مطلقاً. وطرح أبيلار عدة مجادلات منها أن الرب لا يـد فديه، وكيف يتحمل إنساناً واحداً كل العناء للبشرية وأن ذلك ليس عدلاً، كما جاء على حد قوله في كتابه اللاهوت المدرسى الذى هو النسخة الأخيرة مكن كتاب اللاهوت. وقد أنهى أبيلار كتابه بالتساؤلات عن معنى الخلاص، ولكنه لم يعطى إجابته لذلك إلا أن أبيلار في نهاية عمله قائلاً:

"إن خلاصنا عن طريق عناء المسيح وآلامه هو الحب الأسمى الذى يحررنا من الخطيئة ويهب الحياة والحرية الحقيقية لنا كأبناء للرب، إذن فنحن بالفعل كل شئ بسبب حبنا للرب لا الخوف منه. وتكمن تلك الفكرة في الخطاب الذى بعثه إلى إيلويز عام ١١٣٢م يناشدها أن تفتح قلبها لآلام المسيح وأن تحب المسيح لا تحبه هو الذى أخضعها له بالخوف.(٣)

****

(١) Mews, Lists of Heresies, P. 111

(٢) Sikes op. Cit. P. 149

(٣) Jolivet, La théologie d'Abélard, P. 66

ثالثا: أبيــــــلار المهرطـــــق:

تمت محاكمة أبيلار بسبب الهرطقة مرتين: كانت الأولى في سواسون عام ١١٢١م والثانيــة في سنس عام ١١٤٠م. وكان أبيلار منذ بداياته تلميذاً لروسلان الــذى تمـت محاكمتــه أيضـاً فــي سواسون عام ١٠٩٢م، وبذلك صاحبت البدعة أبيلار طوال حياته.[١] وقد كان ذلك غريباً، إذ أنه مـــن النادر أن يحاكم الأساتذة بتهمة البدعة حتى لو اتهمهم خصومهم بذلك بين الحين والآخر. وكمـــا كـــان الأمر بالنسبة للأساتذة، كان كذلك بالنسبة لرجال الدين الآخرين وعوام النـــاس فيمـــا يتعلـــق بتهمـــة البدعة.[٢]

وبسبب الانتشار الشديد للبدعة وتعددها، حارت السلطات في كيفية التعامل معها، ولعل ذلـــك يفسر نجاة أبيلار من محاكمتين بشأن الثالوث، وكيف أنه نال أيضاً إعجاب رجال الديـــن المتحفظيـــن ذوى الشأن العالى أمثال بطرس الموقر، ويوحنا السالزبورى، وذلك على الرغم من أنـــه يعـــد أشـــهر تلاميذ روسلان المتهم بالبدعة من قبل بشأن الثالوث أيضاً.[٣]

كذلك لم يتم البت في مسألة محاكمة المتهم بالبدعة فيما يتعلق بحقه في إعطاءه جلسة استماع أو لا ! وكيف يمكن إعطاؤه جلسة استماع يتحدث فيها عن إجحافه بالرب؟ ومن المعلوم أن أبيلار لـــم يُمنح جلسة استماع في سواسون أيضاً. كذلك كيف يمكن إثبات البدعة على رجل مثـــل أبيـــلار وهـــو الذى يناقش ويجادل بطريقة أفضل من القضاة أنفسهم؟ وهل إذا اعترف المتهم بأخطائه، أيتـــم إطـــلاق سراحه بعد أن يعلن توبته؟ أم أنه سيعود لنشر بدعته ثانية؟[٤]

لقد أخبر جيوبرت دو نوجنت عن محاكمة بالهرطقة عام ١١١٤م، أى قبل محاكمة أبيلار فـــي سواسون بسبع سنوات، ولعله كان يجيب على الأسئلة السابقة وما يدور حولها من علامـــات اســـتفهام عديدة. فقد حكى عن اتهام اثنين من السكان المحليين بنشر جميع أنواع البـــدع، وإنكارهمـــا للتعميـــد والقربان المقدس، وانغماسهما في الخلاعة ووأد الأطفال وغير ذلك من الأمور المســـتهجنة. وصـــرح جيوبرت أنه عند استجواب الرجلين بواسطة الأسقف، جـــاءا بإجابـــات مســـيحية خالصـــة، وحينمـــا استجوبهما جيوبرت نفسه، قالا له أنهما يؤمنان بكل ما يقول، غير أن جيوبرت نفسه كان يعلم أنـــهما مذنبين، في الوقت الذى لم يشهد أحد ضدهما في أية قضية. لذلك قرر أن يبعث بـــهما إلـــى اختبـــار

(١) Clanchy, Abelard, P. 288

(٢) Pierre, Lasserr, Op. Cit., 210

(٣) Verger& Jolivet, Bernard, Abelard, P.219

(٤) D.T.C., P.51

الماء، والذى أثبت أنهما كانا مذنبين. لذلك تم الحكم عليهما بالسجن، كما اقتحم سكان سواسون السجن وأحرقوهما.(١)

كان قول جيوبرت عن قتل الهرطقة بواسطة السكان أنفسهم يعد سابقة إنذار لأبيلار: فأثناء محاكمته في سواسون عام ١١٢١م، وصف أبيلار كيفية رجم الناس له وهم الذين أخبرهم القضاة أن ذلك الرجل قال وكتب عن وجود ثلاثة آلهة. لم يكن تهديد الأهالي لصاحب البدعة شيئاً خيالياً، وإنما كان حقيقة يخشاها أبيلار، وذلك ما أكده أيضاً إيفو أسقف شارتر في تبريره لرجم الهراطقة في قضية روسلان الذى أصر على بدعته.(٢)

ويصف إيفو العنف ضد صحاب البدعة بأنه حكمة الرب العادلة، ويحذر روسلان من المجيء لشارتر لأن الناس ربما يرجموه بمجرد سماع اسمه، ويتبع إيفو تهديده الواضح لروسلان بأن يرجع عما قاله وإلا فإن الكنيسة نفسها سوف تتدخل لتصحيح أخطاءه.(٣)

كان إيفو أسقف شارتر أعظم محامى كنسى في عصره، وتكمن جميع آرائه في كتابه Libre pancrisis أو الكتاب الذهبى. ويشاركه الرأى في ضرورة قتل الهراطقة بواسطة الناس وأن ذلك تنفيذاً لمشيئة الرب كل من جيوبير وأنسيلم من كانتربورى، والذين قالا بأن روسلان لم يرجع عما كان فيه إلا من خوفه من أن يرجمه الناس. وقد أكد أبيلار أن روسلان قد قُتل بالفعل في إنجلترا عام ١٠٩٣م.(٤)

ويقول أوتو الفريزى أن التهديد بقتل المهرطق عن طريق الناس يفسر ما فعله أبيلار عام ١١٢١م أثناء محاكمته في سواسون عندما القى بكتبه في النار، كما تم سجنه في دير سان ميدار. فكان صاحب البدعة المدان يأوى إلى أحد الأديرة ليحتمى بها من هجوم الأهالى عليه، إضافة إلى أن

---

(١) Gubiret de Nogent, Op. Cit., P. 428

- يتألف اختبار الماء من بئر ماء يُلقى فيه المتهمون موثوقى الأيدي فإذا أطفأ أحدهم على الماء دل على أن الماء الطاهر قد رفضه فبذلك يصبح مذنباً، أما إذا غرق فيدل على أن الماء قد قبله فهو برئ بشرط أن يتم إخراجه في الوقت المناسب على وجه السرعة. وكمثل الاختبارات الأخرى، فإن تلك الطريقة صممت لكى يكون الغرض منها إرهاب المذنب لكى يعترف بالتهم المنسوبة إليه أو يدل على المحرض عليها فينجو بذلك من هذا الاختبار الشديد.

عن ذلك أنظر، Ibid, P. 229

(٢) D.H.G.E., P. 87

(٣) Ivo of Chartres, letter 7, PL.. 8, 162, P. 17

وانظر الترجمة في Leclercq, Op. Cit., P.23

(٤) Ibid, P. 24

الرهبان يقومون بمراقبته حتى يرجع عن أفكاره. وبعد محاكمة أبيلار في سنس عام ١١٤٠م، وفر بطرس الموقر المأوى لأبيلار في دير كلوني. ويؤكد أوتو على أن أبيلار رفض الرد أثناء المحاكمة في سنس وناشد روما لأنه خاف من إثارة وهياج الناس.[١]

كان التهديد بالقتل واضحاً تماماً في خطابات سان برنار التى بعث بها إلى روما أثناء مناشدة أبيلار لروما عام ١١٤٠م: فقال بأن أبيلار قد أوقد نار الرب، وأضاف بأن أبيلار ما هو إلا أداة للشيطان، وقد كتب إلى البابا قائلاً: "ألا يجب تمزيق الفم الذى قال هذه الأشياء عن الرب بدلاً من محاجاته ومجادلته؟". ويقول في موضع آخر: "ألا يجب لهذا الرجل الذى حارب جميع الرجال المخلصين أن يحارب بأيدى أولئك الرجال؟". لعل تلك العبارات تلقى الضوء على العقاب الذى كان برنار يريد إنزاله بأبيلار.[٢] وحينما ناشد أبيلار برنار أن يستخدم معه الرحمة الكنيسية، رد برنار الذى كان يقاضيه بأن الهراطقة لا يستحقون الرحمة الكنسية، وذلك لأنهم معزولين عن المجتمع المسيحى.

من ناحية أخرى، كان التعصب الواضح والخوف الشديد من محاكمات الهرطقة يتمثل في وجود مؤيدين كثيرين للمتهم بالبدعة، إضافة إلى الحماية التى كانت لهم إلى الحد الذى يشجعهم على الاستمرار في بدعتهم. كانت التجربة التى مر بها روسلان هى نفسها التى يمر بها أبيلار، مع ملاحظة التمييز بين محاكمة الأساتذة الذين أتو من نفس بيئة مقاضوهم، وبين الأهالى أو المزارعين أمثال الذين حكم عليهم جيوبرت دونوجنت. فالطبقات الأخرى كان يتم احتقارهم وتخويفهم من جانب رجال الدين، في حين كان للأساتذة فرصة أكبر في عقد جلسة استماع عادلة لهم. وكان الطلاب الصغار بمثابة الحراس لهؤلاء الأساتذة، كما كان الكبار يبذلون الكثير من الضغط على القضاة.[٣]

وفى عام ١١٤٠م، استدعى أبيلار مؤيديه أثناء مجلس سنس ليساعدوه ضد سان برنار، وكانت لهجة خطابات برنار المثيرة تلك التى تبعث بها إلى روما، إنما لعلمه بأن أبيلار له متعاطفين معه في روما، حيث كان أحد الكرادلة لديه نسختان من كتب أبيلار وهما اللاهوت، نعم ولا، كما أنه لم يسلم تلك النسخ عندما أمر البابا بإحراق كتب أبيلار.[٤]

لعل المشاهدون لتلك المحاكمات والتى تبدو فيه مسألة الثالوث والمخلص مبهمة لديهم، ربما يعتبرون تلك المحاكمات بمثابة مشاجرة أو نزاع فكرى بين أصدقاء أو زملاء، وذلك ما فسره بطرس

---

(١) Otto of Freising, Op. Cit., P. 228

(٢) Bernard, (St.) letter in Leclercq, in R.B.,P.88

(٣) Mews, "St .Anselm and Roscelin" in Archive d'Histoire, 58 (1991), P. 64

(٤) Verger, Op.Cit., P. 233

الموقر وقت محاكمة أبيلار في سنس. فعلى الرغم من جميع ما قدمه سان برنار من بلاغة قوية، فقد بعث بطرس بأخبار إلى البابا بأن أبيلار وبرنار قد تركوا نزاعاتهم القديمة جانباً. يفهم من ذلك أن رؤية بطرس لقضية أبيلار لا تعدو مجرد "نزاعات" لا "بدع"، والتى يمكن حلها بالوفاق لا باللعنات والحرق.(١)

أبيلار وروسلان:

لعل الطرق المتناقضة التى تم التعامل بها في قضية أبيلار هى نفسها التى جرى اتخاذها مع سابقيه أمثال روسلان وبرنجار قس تور وذلك في نهايات القرن الحادى عشر. فقد تم استجواب برنجار على أيدى البابا ليو التاسع (١٠٤٨-١٠٥٤) والكاردينال الشهير هيومبرت عام ١٠٥٤ ثم استجوابه أيضاً البابا جريجورى السابع عام ١٠٧٨م ، وبالرغم من محاكماته المتعددة، إلا أنه لم يتم حرمانه من الكنيسة. وينطبق هذا الأمر كذلك على روسلان الذى اعترف بأنه لم يتم إدانته ولو لمرة واحدة قائلاً "إن هذا العار الذى يلصقوه بى هو عار زائف، ولعل الكنائس التى تربيت وتعلمت بها تشهد لى بالإخلاص".(٢)

يقول أنسليم أن إنكار روسلان ليس بذات اعتبار: "فمثل هذا المجدف على الرب لا يجب إعطاءه جلسة استماع، فليبقى ملعوناً ما دام يُصر على هذا العناد، فإنه ليس مسيحياً على الإطلاق" ويعتقد أنسليم أن روسلان استمر على البدعة، ويفسر ذلك سبب إرساله بخطاب إلى البابا أوربان الثانى عام ١٠٩٥ يشرح فيه ما قاله روسلان ويستحث البابوية على أخذ إجراءات مشددة ضده.(٣)

في الوقت الذى ازدادت الشكوك والاتهامات فيه حول روسلان كان أبيلار تلميذاً له في ذلك الوقت، غير أن التساؤل هو: لماذا كان أبيلار تلميذاً لمعلم ذا سمعة مشبوهة كروسلان؟ لا توجد إجابة واضحة على ذلك. وحتى وإن لم يكن روسلان قد أدين بالفعل في سواسون عام ١٠٩٢م، فإنه أُتهم بإصراره على البدعة. لم يتهمه بذلك القديس أنسليم فقط، وإنما شاركه الاتهام أيضاً إيفو أسقف شارتر، الذى يعد أكبر وأعظم محامى عصره. وتتضح خطورة البدعة من خلال تصديق إيفو لعملية

---

(١) Peter The Venerable, Letter 98, P. 259

- لا يوجد بين أيدينا أى أخبار عن رد فعل البابا تجاه هذا الخطاب (خطاب بطرس)، كما أنه لا يوجد أى دليل سوى نسخة خطاب بطرس الذى أرسله إلى البابا، على أن خطابات بطرس الموقر تعد من المصادر الموثوقة في هذا الشأن. (الباحث)

(٢) Rosclin, Op. Cit., P. 65

(٣) Southern, St. Anselm, P. 176

رجم روسلان إذا زار شارتر، ويفسر أيضاً سبب طرد أنسليم له من إنجلترا عام ١٠٩٣م، واســـتثاره المساعدة البابوية ضده.[١]

ويصف روسلان كونه مُعلم أبيلار لفترة طويلة تمتد من المهد إلى الصبا والشــباب، ويؤكـد أوتو الفريزى أن روسلان كان المعلم الأول لأبيلار، على الرغم من أن أبيلار لم يورد اسم روســـلان في كتابه تاريخ المصائب، غير أنه في كتابه الجدل Dialectica يقول: "لقد كان ذلك على ما أذكـــر رأياً مجنوناً لمعلمنا روسلان". وبذلك يؤكد أبيلار أنه كان بالفعل تلميذاً لروسلان، غير أن لغة الســـب تلك وتبادل الشتائم كانت جزءاً من البلاغة اللاتينية المدرسية وهى الطريقة التى كان يستخدمها أيضـــاً سان برنار.[٢]

ويذكر Mews أن أبيلار فى تلك الفترة قد مل روسلان شأنه شأن كل أساتذة أبيـــلار الذيـــن انقلب عليهم، فالمعروف عن أبيلار أنه ينجذب بشدة لأى أستاذ ذا سمعة كبيرة ويلبث معه فـــترة مـــن الوقت، ثـــم ما يلبث أن ينقلب عليه ويهاجمه بشدة في آرائه وتعاليمه كما كان الحـــال مـــع روســـلان ووليام دوشامبـــو.[٣]

لعل نمط تاريخ روسلان يشبه كثيراً تاريخ أبيلار تلميذه، فكلاهما أتـــهم بالبدعـــة مرتيـــن أو أكثر، ويبدو في كل محاكمة الشك فيما يحدث فيها وكلاهما تم اتهامه أيضاً بنفس الطريقة حيث أنـــهم طبقوا المنطق العلمانى على الثالوث، وكلاهما أتهمهما معظم المفكرين في عصرهما واللذين يتجـــهان للبابا في كل محاكمة طلباً للمساعدة. فناشد أنسليم البابا أوربان الثانى، في حين ناشـــد أبيـــلار البابـــا انوسنت الثانى، وكلاهما تم طردهما من المملكة الفرنسية، حيث طُرد روسلان بعد مجلـــس سواســـون ١٠٩٢م، وأبيلار بعد مهاجمته سان دينيس عام ١١٢٢م، وكلاهما دخل في مـــأوى وملجـــأ، فذهـــب روسلان إلى تور، في حين دخل أبيلار في ملجأ بطرس الموقر عام ١١٤٠م وكلاهما ادعـــى أن لـــه أصدقاء في روما، كما كان الاثنان معلمان للمنطق، كما أنهما نجحا بعد ذلك في جذب طلبة جدد حتـــى بعد محاكمتهما بالبدعة.[٤]

ادعى روسلان بأن له تأثيراً كبيراً على أبيلار ـــ غير أنه من الصعوبة القول بالأشـــياء التـــى تعلمها أبيلار من روسلان تحديداً. فأبيلار لم يعترف بمصادر أعماله وأفكاره التى أخذها عـــن أنســـليم

---

(١) Mews, St. Anselm and Roscelin, A.H.D.L. M.A., P.66

(٢) Rosceline, Op. Cit., P.63; Otto of Freising, Op.Cit., P. 224; Abelard, Dialectica, P. 19

(٣) Mews, in Search of A Name, P. 172

(٤) Marenbon, Early Medieval philosophy, P. 134

ووليام دو شامبو، ويؤكد ذلك الاحتمال أن أبيلار كان متأثراً بشدة بروسلان، خاصـــة فـــي المنطــق وكيفية تطبيقه على المسائل اللاهوتية.(١)

ولما ذهب أبيلار إلى باريس عام ١١٠٠م وبدأ سريعاً في تحدي وليام فإنه لم ينجـــح بســبب عبقريته، وإنما بالتدريب الذى تلقاه على يد روسلان ولعل من الأهمية أنه ربما يكون روسلان قد أثـــر في أبيلار بأن غرس فيه الكراهية والتعصب ضد أنسليم وإيفو قس شارتر. ويعد الشئ الذى يبـــدو أن أبيلار لم يتعلمه من روسلان هو حاسة الحذر في المسائل التى تتعلق بـــالمذهب نفســه بـــالرغم مـــن معرفته بل ورؤيته لما حدث لروسلان.(٢)

وغير معروف على وجه التحديد وقت خصومة أبيلار وروسلان، فلا يوجد ما يوضح ذلـــك إلى أن وصلت خطاباتهم عام ١١٢٠م بشكوى بعضهم البعض على أن ذكر أبيلار المبكـــر مـــن أنـــه شعر بالملل من روسلان يدل على أن الخصومة قد حدثت قبل عام ١١٢٠م. وفى العـــام ذاتـــه كتـــب أبيلار لأسقف باريس شاكياً هجوم روسلان عليه بأنه يكتب مقال بدعى عن الثالوث. وطلـــب أبيـــلار من الأسقف أن يدعو لجلسة للبت في هذا الموضوع سواء بتأديبه هو أو تأديب روسلان.(٣) غـــير أن كل المحاولات والوشايات انعكست على أبيلار لا على روسلان، كما أن الذى تمـــت محاكمتـــه فـــي سواسون كان أبيلار وليس روسلان، ويعلق أبيلار على ذلك في كتابه تاريخ المصائب بأن محاكمتـــه تلك كانت بسبب الإثارات والوشايات التى حرض عليها زملائه السابقين في لاون وريمز.(٤)

كان وليام من ألد خصوم أبيلار لأكثر من عشرة أعوام في باريس حتى اشـــتغل بعـــد ذلـــك بالسياسة الدولية، فأصبح في عام ١١٢١م أى وقت محاكمة أبيلار مستشاراً خاصاً للبابـــا، كمـــا كـــان راعياً وحامياً لسان برنار. وفى الوقت الذى كان برنار فيه غائباً عن محاكمة أبيلار فـــي سواســـون، كان وليام سان تيرى حاضراً وشاهداً على براءة أبيلار، غير أنه في محاكمة سنس عام ١١٤٠م كـــان هو البادئ في محاكمة أبيلار. كتب وليام خطاباً تحذيرياً إلى جيفرى أسقف شارتر وسان برنار قـــائلاً "لقد عاد أبيلار يعلم البدع ثانية"، وبالطبع كان برنار وجيفرى يعلمان ما يقصده بكلمة "ثانية".(٥)

---

(١) D.H.G.E., Vol. 13 P. 461

(٢) Pare, Op.Cit., P. 283

(٣) Abelard, in Muckle, P. 77

- استخدم أبيلار نفس الأسلوب والطريقة أيضاً بعد ذلك مع سان برنار عندما طلب من رئيس أساقفه سنس استدعاء برنار للرد عليه. (الباحث)

(٤) Abelard, Historia, P. 21

(٥) D.H.G.E., P. 464

وكما هو الأمر في أية محاكمة في تلك الفترة، فإن القرارات الصادرة في قضية أبيلار لم تتم بمنتهى الحيادية أو الدقة سواء له أو لكتبه، فالحكم على أبيلار كان يرتكز في المقام الأول على ما إذا كان أبيلار يمثل تهديداً للكنيسة أو النظام العام في فرنسا أم لا ؟ وقد راعى المبعوث البابوى في مجمع سواسون آراء أسقف باريس وروسلان ووليام دوسان تيرى فيما يخص كتابات أبيلار، كما نزل على رأيهم جميعاً في ضرورة إدانة أبيلار وحرق كتبه التى تنشر البدع بين الناس.[١]

- بدعة أبيلار ومحاكمة سنس:

يقول أبيلار في كتابه الذى تم إحراقه في سواسون: "ليس الجهل هو الذى يصنع صاحب البدعة وإنما الكبر، وذلك حينما يريد الشخص فعل شئ جديد أو أن يصنع لنفسه اسماً فيطرح شيئاً، غريباً ويحاول الدفاع عنه لكى يبدو أعلى شأناً ومكانة من الذين يهاجموه".[٢] ويضيف أبيلار قائلاً: "إذن فلن يكون أى شخص صاحب بدعة إلا إذا كان تقديره لنفسه أكبر ويتجاوز تقدير الناس له ... إذن ففى الأساس ما البدعة إلا كبراً فكرياً".[٣]

علاوة على ما سبق، فإن أبيلار يعترف بأنه عانى كثيراً من التكبر، غير أن أنه لا يستطيع أحد لومه لأنه أعظم فيلسوف في العالم، ولكنه شُفى من ذلك عن طريق إهانته علناً وحرق كتبه في سواسون عام ١١٢١م.[٤]

ولأن البدعة كانت قريبة من الإجحاف بالرب ومن الصعب إثباتها، فقد كان التحريض على القتل بواسطة الناس هو الوسيلة المتبعة في مثل تلك الحالات، وقد تم تهديد أبيلار بذلك في كلا المحاكمتين. وقد استخدم برنار لغة قاسية في التعامل مع أبيلار ، وذلك لأن عملية التخويف كانت أساس أى محاكمة ناجحة، وقد جمع برنار ومساعديه بعض الكتابات التى يظنون أنها بدعة من كتب أبيلار، وقد تم إرسال تلك الاتهامات إلى البابا في روما.[٥]

تلك الكتابات التى جمعها برنار كانت تثبت أن أبيلار أخطأ ولكنها لا تثبت أنه صاحب بدعة، فهو يصبح صاحب بدعة إذا دافع بإصرار عن تلك الأخطاء، كذلك فقد تم توجيه اتهامات الكبر والغرور والتى ضاعفت من ذنبه أمام هيئة المحاكمة.[٦]

---

(١) Benton, Op. Cit., P. 486

(٢) Abelard, Theologia Christiana, P. 204

(٣) Ibid, P. 205

(٤) Abelard, Historia, P. 26

(٥) Mews, CCCM, P. 283

(٦) D.T.C., P. 53

لقد تم التضييق على أبيلار في كلا المحاكمتين حتى لا يتسنى له فرصة استخدام مهاراته الجدلية، فقد أراد مقاضوه تخطى تلك المرحلة من الجدل مع أبيلار إلى مرحلة إعلان أنه صاحب بدعة. ويصف أبيلار كيف اعترض ألبريك على مطالبة جيفرى أسقف شارتر بالسماح لأبيلار بالحصول على جلسة استماع حُرة، حيث قال "كيف نجادل رجلاً لعله يتفوق على العالم أجمع إذا جادله".[١]

يقول أبيلار أن محاكمة سواسون والإهانة التى تعرض لها هناك كانت أشد من عملية خصيه، حيث أثرت الأولى في سمعته والثانية في بدنه. ويصف أبيلار كيف طمأنه جيفرى أسقف شارتر بأن المبعوث البابوى سيفرج عنه بعد أيام من السجن. وعندما قال جيفرى ذلك، استسلم أبيلار واعترف بالذنب وقال جيفرى أن سلوك أبيلار كان حسناً. لذلك قام أبيلار بوضع كتابه في النار.[٢]

لعل الهدف الأساسى لم يأت في محاكمة سواسون، وذلك لأن أبيلار كان مستعداً لحرق كتابه، بيد أن الهدف من حرق الكتاب كان هدفاً معنوياً كرمز لحسن النية، وقد جاء ذلك الأمر من البابا إنوسنت الثانى عام ١١٤٠م. وقد طُلب من أبيلار بعد حرق كتابه أن يتلو العقيدة الأثناسيوسية بصوت مرتفع، فتلاهما وعيناه مغرورقتان بالدموع.[٣] وفى النهاية هُزم أبيلار ولو حتى بطريقة نفسية، وانتهت المحاكمة باعترافه الذليل، وتم أخذه إلى دير سان ميدار في سواسون. وبعد عدة أيام تم الإفراج عنه كما وعده جيفرى وعاد إلى دير سان دينيس، ولم يغب عن مخيلته الأيام المريرة التى مر بها في سان ميدار.[٤]

وصف أبيلار حالته النفسية في ذلك الوقت بأنها كانت يائسة وتذهب العقل. وقد ذكر سان جوسوين أحد محاكمى أبيلار أنه قد هاج وكاد يدمر نفسه، غير أنه سرعان ما تغلب على تلك الحالة، بل وبدأ في وصف كل شئ بما فيه سب وإهانة محاكميه[٥] وهناك مصدرين فقط لمحاكمة أبيلار في سواسون وهما بعض سطور قليلة كتبها أوتو الفريزى، وما ذكره أبيلار في تاريخ المصائب. أما فيما

---

(١) Abelard, Historia, P.28

- من الواضح مبالغة أبيلار في هذا الكلام وهو الذى وصفه برنار من قبل بأنه مجرد طفل صغير وسط العلماء، غير أن النزعة الذاتية تتضح بشدة في ثنايا كلامه. (الباحث)

(٢) Abelard, Historia, P. 30

- لعل أبيلار وضع في ذهنه ثورة الناس على الهراطقة وقتلهم، لذلك ألقى كتابه في النار طواعيه منه قبل الحكم عليه بالقتل. (الباحث)

(٣) Poole, Op. Cit., P. 130

(٤) Marenbon, The philosophy, P. 29

(٥) Abelard, Historia, P. 26; Goswin, Op.cit., P. 445

يتعلق بمحاكمته في سنس عام ١١٤٠م، فهناك وجهات نظر مختلفة أشهرها مــا كتبــه جيفــرى أوف أكسير Geoffrey of Auxerre (مؤيد متحــيز لبرنــار)، وبرنجــار دو بواتيــه Berengar de poitiers (مؤيد متحيز لأبيلار)، وأوتو الفريزى (محايد). كما بعث رؤساء أســاقفة ســنس وريمــز تقريراً للبابا أنوسنت الثانى يبرر وسيلة محاكمته أبيلار، وذلك في الوقت الذى لم يكتــب فيــه أبيــلار سرداً لمحاكمة سنس كما فعل بشأن محاكمته في سواسون من قبل. وجــاءت إجاباتــه علــى أســئلة اتهامات برنار على ثلاثة أشكال :

أ- الاعتذار **Aplogia** وهو غير مكتمل ويجيب فيه عن الاتهامات اللاهوتية مسألة مسألة.

ب- الاعتراف **Confession** وهو أكثر عمومية وموجه لجميع رجال الدين.

جـ- **اعتراف الإيمان لإيلويز**، والذى نشره برنجار لصالح أبيلار. وقد كان أبيلار يدافع بشــدة عــن وجهة نظره، كما كان دائماً يتهم برنار بتحوير وقلب العدالة.[١]

هناك بعض التقارير من جانب برنار وهى عبارة عن جملة اتهاماته ضد أبيلار وهى عبــارة عن خطاب أرسله إلى البابا يحثه فيه على إدانة أبيلار في روما، وقد تحمــس لبرنــار أيضــاً وليــام دوسان تيرى، إضافة لاتهامات توما قس مورينى، مما جعل محاكمة سنس من أكثر المحاكمات توثيقــاً وإثباتاً في القرن الثانى عشر. لقد كان برنار بمثابة شيشرون الكنيسة، هو قاض ومحامى ذو فصاحـــة كلامية وعبقرية، وكان يرى أن أبيلار منافقاً وأنه حتماً صاحب بدعة ســواء فــي المنطــق أو فــي اللاهوت..[٢]

لقد قُدر لمحاكمة أبيلار أن تكون علنية وأمام الملأ في يونيه عام ١١٤٠م ومثــل مــا كــانت عليه فى سواسون، إلا أن تلك الطرق لم تكن كما أمل المحاكمون: فقد رفض أبيلار أن يجيــب كمــا سُمح له بمناشدة روما فوراً . فقد انجذب الناس لتلك المحاكمة وكان من بين الناس الكثير من رجـــال الدين وكان على رأس الجميع الملك لويس السابع نفسه، وتايبود كونت شامبنى، والعديد مـــن النبــلاء والرجال العاديين. أما على الجانب الكنسى، فقد حضر أساقفة سنس ومعظم أساقفة ريمز والعديد مـــن رؤساء الأديرة والقساوسة الآخرين. كذلك فقد حضر رؤساء المدارس الكبـــيرة وشـــخصيات المـــدن الكبيرة، مما جعل تلك المحاكمة من أهم محاكمات المعلمين المتهمين بالبدعة، وقد أخذ كلاً من برنـــار وأبيلار موقفهما كمتخاصمين أثناء حضور الجميع.[٣]

(١) Clanchy, Abelard, P. 306

(٢) Verger& Jolivet, Abelard, Bernard, P. 227

(٣) Le Goff, Les intellectuels, P. 50

وكمحاكم لأبيلار، أخذ برنار في الإجراءات وأمسك بنسخة من كتاب أبيلار، ثم أشار إلى بعض العناوين الصغيرة من الكتاب وتحدث عنها بأسلوبه الساخر، وقد أعطى أبيلار الخيار إما أن ينكر ذلك أى يعترف بأنها ليست كتاباته، أو يعترف بأنها كتاباته فيدافع عنها أو يصحح الأخطاء. وتبدو الإجراءات إلى هذا الحد سليمة غير أن المستخرجات المأخوذة من كتاب أبيلار لم تكن حرفية ولكنها كانت تلخيصات حسب ما فهمه برنار.[1] لقد تحمل برنار ومساعديه مشقة عظيمة في الحصول على كتب أبيلار، وقد ذكر وليام دوسان تيرى أن هناك أعمالاً أخرى لأبيلار لم تر الضوء مثل Sic et Non ، Scito te Ipsum ، ولابد وأن بها هى الأخرى أخطاءً كثيرة.[2]

- دور سان برنار:

وقد ذكر برنجار دو بواتيه (تلميذ أبيلار المؤيد له) أن ذلك المجلس كان منحازاً وأنه ملىء بالكراهية والحقد. "لقد أخذ برنار كتاب أبيلار بعد انتهاء العشاء وقرأه على الملك والحاضرين بعد شرب النبيذ، وقال لهم بأسلوبه الساخر، أتدينون ذلك؟ فيجيبون بالإجماع نعم. لقد نجح برنار في استمالة عقولهم، غير أنه لم يستطع أن ينتزع اعترافاً من أبيلار على تلك العبارات".[3]

لقد تحدى أبيلار برنار في أن يأتى بدليل واحد مادى يدينه بالبدعة فقال: "لقد خرجت عن معنى كلامى كلية، وبدلاً من أن تجادل افتراءاتك أنت قم بمجادلتى فيما كتبته بالفعل".[4]

كان برنار يعرف ويقول دائماً أن الكبر والنفس الخبيثة هما اللذان يثبتان البدعة وليس الخطأ الحرفى. يقول برنار "يا بطرس أبيلار، لقد أثبتت حياتك وسلوكك وكتبك التى خرجت للنور أنك مضطهد للدين الكاثوليكى وعدو للمسيح. إنك تبدو كراهب من الخارج، غير أنك من الداخل صاحب بدعة".[5] كان أبيلار يرى أن الاتهامات الموجه له لم تكن إلا جدول أعمال بدائى لعملية المحاكمة، وسواء أثبت أبيلار ذلك أو لا، فإن شخصيته الداخلية وأسراره هى التى تثبت بدعته، وذلك على حد قول سان برنار. كانت خطة برنار تتمثل في موافقة القضاة على الاتهامات مسبقاً، وبذلك يتم تجنب طرح المسائل اللاهوتية المعقدة في المحاكمة. بعد ذلك يقوم برنار بالهجوم على أبيلار في ساحة المحكمة بقوة، الأمر الذى يجعل أعضاء المحكمة يدينوه على الفور، وبذلك ينهار ويعترف بأخطائه

---

(١) Jolivet, Le theologie, P. 117

(٢) William of St. Theirry, in Leclercq, P. 378

(٣) Bernagar de poitiers, P. 12

(٤) Abelard, in Mews, CCCM., P. 283

(٥) Bernard, (St.), letter (134) Vol. 8, P. 269

كما فعل من قبل في سواسون، مع مراعاة برنار لعدم خوض أى نقاش لاهوتي مع أبيلار بكل الطرف الممكنة.(١)

وتبدو السخرية واضحة في خطابات برنار والعبارات النارية التى كان يرمى بها أبيلار، فيقول برنار "إنك لا تعرف شيئاً عما في السماء أو في أسفل الأرض، قل لنا ما أوحى إليك ولم يوحى إلى أحد آخر". كذلك "بعد ذلك تلوم الرب بمنتهى الوقاحة وبكل هذا الجهل يا أبيلار، قل لنا ماذا تكتب .. أتكتب لنا إنجيلاً آخر، إنك لن تكون مع المخلصين لأنه فاتك الخلاص".(٢) وفى حضور كل هذا الجمع كان من الصعب على أبيلار الإجابة على ذلك الاعتداء الشرس عن طريق مناشدة برنار والمحاكمين لتوجيه تفاصيل محددة للتهم المنسوبة له. فكلام برنار لم يكن عشوائياً، بل على العكس فإن النقاط اللاهوتية التى تحدث عنها برنار بهذا الأسلوب الثورى، كانت كفيلة لأن تجعل جمهور الحاضرين مستعدين لقتل أبيلار لأنه حليف الشيطان.(٣)

وأثناء المحاكمة حُرم برنار الفرصة من الاستمرار في هجومه حيث بُغت بمناشدة أبيلار المباشرة إلى روما، كما أنه على الفور خرج وسط طلابه ومؤيديه على حصانه ولم ينتظر إهانات أكثر من ذلك، وقد قال رئيس أساقفة سنس لبرنار بأن إدارة المحاكمة لا تأخذ شكلاً قانونياً على نحو سليم.(٤)

لقد أراد برنار من تلك المحاكمة أن يثبت للناس إدانة لأبيلار لا رجعة فيها، كما أنه أظهر رغبته في استعراض استعادة قوة تأثير البابوية مرة أخرى وسلطة رجال الكنيسة على العلمانيين. كان الخوف يساور برنار من جراء أى تغيير يحدث في المواقف: فأبيلار قد ناشد روما، كما أنه كان له أصدقاء ومعارف بالطبع في البلاط البابوى. وبالرغم من أن برنار تربطه صلة وصداقة شديدة مع البابا أنوسنت الثانى، إلا أنه لم يخف توتره من أية تغييرات قد تحدث، فقد كان موت أى بابا أو كاردينال كفيلاً بأن يقلب الأمور في أية لحظة.(٥)

---

(١) Clanchy, Abelard, P. 307

(٢) Bernard, (St.), Letter (190). P. 17

(٣) Chartularium univ. Paris., No. 59

(٤) Verger, Op. Cit., P. 233

- يُبدى بعض المؤرخين ملاحظات بشأن انسحاب أبيلار على هذا النحو فيذكر تلميذه برنجار دو بواتيه أن أستاذه كان مثل المسيح في رفضه الإجابة أو التعليق على المستهزئين به وتفضله الصمت إزاء هذا السيل من الإدعاءات الزائفة، في حي يرى بعض المؤرخين كانت آخذة في التدهور، أنظر، Bernagar, Op. Cit., P. 116
وانظر كذلك، Pierre Lasserr, Op. Cit., P. 247

(٥) Poole, Op. Cit., P. 143; Jolivet, Abelard entre chien et loup, P. 319

ـ الإدانـــــة فـــى رومـــا:

أدان البابا أنوسنت الثانى أبيلار بعد مجلس سنس بحوالى ستة أسابيع، وخلال أسبوعين مـــن تسلم التقرير الرسمى لإجراءات رئيس أساقفة سنس. وقد قارن برنجار بين معاملة أبيـــلار ومعاملـــة الحاكم الرومانى للمسيح ، لقد اندفعت خطابات الإدانة من الكنيسة الرومانية إلـــى الفرنســـية، وأديـــن أبيلار غيابياً بدون جلسة استماع وبدون حكم بالإدانة. يقول أيضاً برنجار. "وبأعين مغلقة حكم القضـــاة على أبيلار وكأنهم يعرفون ما سيفعلون مسبقاً وأصدروا مرسوماً يدينه".(١)

ربما يكون كلام برنجار صحيحاً في أن المرسوم البابوى كان ظالماً، إلا أنه بـــالطبع يختلـــف مع نظرة خصوم أبيلار. ولما كانت بدعة أبيلار مثل الوباء سريع الانتشار، لذا كان لزاماً على رئيـــس الأساقفة أن يتحرك بسرعة لدرء ذلك الخطر المحدق بهم جميعاً. وقد ذكر حنا السالزبورى أن أبيـــلار لم يكن يستطيع الوصول إلى المقام البابوى لقد ناشد أبيلار روما، إلا أن مناشدته لم يتم قبولها، وذلـــك ما يفسر إدانته بدون جلسة استماع أخرى.(٢)

لقد أتت إدانة البابا أنوسنت الثانى لأبيلار على شكل خطابين: الأول يقتضى الصمـــت الدائـــم باعتباره مهرطـــق ويحرمـــه حرمانـــاً كنسياً هو واتباعه، والثانى يأمره هو وأرنولـــد أوف بريســـكيا Arnold of Brescia بأن يتم سجنهما في أماكن كنسية وبإحراق كتبهما أينمـــا وُجـــدت. لقـــد جـــاء الخطاب الأول كتبرير لسلطة البابا على البدعة والهراطقة، في حين كان الثـــانى مختصـــراً وخاصـــاً بتعليمات البابا والخاصة بتنفيذ الحكم. ويذكر جيفرى أوف أكسير أن البابا نظم محرقـــة فـــي كنيســـة القديس بطرس لإحراق نســـخ من كتاب اللاهوت لأبيلار.(٣)

قال البابا في خطابه أنه لم يتصرف بدون نصيحة ومشاورة، وأنه لو فعل غير ذلك لكان غـــير جدير بمقام عرش القديس بطرس الذى تعتمد عليه وحدة الكنيسة الكاثوليكية. إن هـــذا الخطـــاب هـــو الأول من نوعه الذى ذكر فيه البابا أنه أخذ المشاورة مع الأخوة والأساقفة والكرادلة، ويدل ذلك علـــى أن التشاور شمل الأساقفة الفرنسيين الذين أدانوا أبيلار في سنس وأيضاً شملت كرادلة رومـــا. وفـــور تلقيه تقرير رئاسة أساقفة سنس نطق البابا الحكم. كانت البدعة وبائيـــة وقـــالت رئاســـة الأســـاقفة أن

(١) Brengar, Op. Cit., P. 116

(٢) John of Salisbury, Historia pontificalis, P. 19

(٣) Innocent II's Public letter, No. 194, in St. Bernard, Vol. 8, P. 48

– يؤكد ذكر أرنولد ما قاله أبيلار في خطابه للبابا من أن كل من أبيلار وأورنولد قد تزعما مؤامـــرة عالميـــة ضـــد الكنيسة. بيد أن من الملاحظ أن أرنولد لم يؤلف شيئاً معروفاً لنا، ومن أجل ذلك يرجح الباحث أن إحراق الكتب كـــان لأبيلار فقط. (الباحث)

المجادلات اللاهوتية نشطة جداً في فرنسا. لذلك شدد البابا على ضرورة ألا يحاول أى راهب أو فارس أو أى شخص آخر أن يناقش الدين المسيحى على الملأ.(١)

- دور بطرس الموقر:

من الصعوبة بمكان معرفة سبب تدخل بطرس الموقر في قضية أبيلار فليست هناك معلومات أكيدة من الممكن الاعتماد عليها. ولعل بطرس قد دخل في صميم النزاع عام ١١٤٠م لأن البابا رخص لبرنار اعتقال أبيلار ، لقد كان من الممكن أن يقوم برنار باحتجاز أبيلار في أى دير أو منزل سسترشيانى، كما وأن أبيلار لم يكن ليستطيع الوصول إلى روما بدون الدخول عبر السسترشيان لما لهم من مكانة كبيرة في البلاط البابوى.(٢) كذلك من غير المعلوم معرفة حجم الحراسة لأبيلار في طريقه إلى روما، وربما خاف تلاميذ أبيلار وخاصة برنجار من الأخطار التى سيواجهونها فتركوه، كما أنه من المحتمل أن يكون قد تم طرد حامى وراعى أبيلار ستيفن دوجادلاند من منصب المستشار بعد وفاة لويس الخامس.إذن فبدون حماية كافية، كان أبيلار يواجه خطرين كبيرين: إما الاعتقال وإما القتل بواسطة الناس.(٣)

يقول بطرس الموقر في افتتاحية خطابه للبابا: "المعلم بطرس أبيلار ... إن قداستك تعرفه تماماً، فقد مر على كلونى مؤخراً في طريقه إلى فرنسا". توحي تلك الكلمات بأن بطرس الموقر لا يعرف شيئاً عن محاكمة أبيلار في سنس أو عن مناشدة أبيلار لروما، كما أنه تحاشى ذكر برنار في خطابه. ثم يضيف بطرس قائلاً. "إن أفعال بعض الأشخاص المشينة قد قهرته، ثم بهم يدعوه بعد ذلك بالبدعة .. هذا الاسم الذى طالما عاش يكرهه، وقد ناشد المقام البابوى المقدس لكى يعطيه حق اللجوء لكلونى، وقد طمأنته أن العدالة البابوية لن تخطئه"(٤)

لقد كان البابا يعرف من يقصدهم بطرس، فهو كرئيس لدير كلونى فقد كن يرأس شبكة لجمع المعلومات تمتد عبر مئات المنازل والأديرة الكلونية. وقد بين بطرس للبابا أن محاكمة سنس ما هى إلا منازعات شخصية، وذلك دون الإشارة لسنس، فقد كان بطرس بارعاً في استخدام الاستعارات

---

(١) Mews, CCCM, P. 285

- كان هذا التحريم بمثابة إغلاق حرية المدارس والجامعات الناشئة في أوروبا، والذى انعكس بالضرورة عل تراجع وانحسار المد الثقافي العلماني أمام الكنيسة. (الباحث)

(٢) Pierre Lasserre, Op, cit., P. 196

(٣) Sikes Op.Cit., P. 234

(٤) Peter the Venerable, letter 98, P. 259

- هذا التفاؤل من جانب بطرس الموقر كان في غير محله، فالفساد كان قد أحاط في ذلك الوقت بالمجتمع البابوى، كما أن العدالة البابوية التى يتحدث عنها كانت قد أخطئته هو من قبل كما جاء في خطابات أخرى له. (الباحث)

دون الإشارة لأسماء. أخبر بطرس البابا أن أبيلار تصالح مع خصومه في النزاع الفكرى وأن القضية أصبحت سراباً.(١)

عندما كان جيفرى يُنهى كتابه عن السيرة الذاتية لبرنار، لم يذكر شيئاً عن أية مصالحة بين أبيلار وبرنار، كما أنه تساءل في كتابه: كيف لهذا البيتر أبيلار أن يطلب اللجوء إلى كنيسة بطرس وهو يخالف تعاليم بطرس نفسه؟ وبذلك إما أن جيفرى يغفل بتعمد المصالحة أو أن برنار هو الذى أخفى ذلك الاتفاق. أما الاحتمال بأن بطرس الموقر قد أضل البابا وأنه لا يوجد مثل هذا الاتفاق أو الصلح، فهو احتمال ضئيل جداً لا يصدر من شخص مثله.(٢)

يتابع بطرس في خطابه قائلاً: "علينا أن نضيف أننا نصحناه أن يغير أى شئ قاله أو كتبه يمكن أن يكون مضراً بالكنيسة الكاثوليكية، وأن يزيل ذلك من كتبه".(٣) كانت حياة أبيلار في كلونى تقشفية ومثالية، فقراءته كانت مستمرة وصلاته مجتهدة وصمته دائم، ولم يقل بطرس الموقر أى شئ عما كتبه أبيلار. ويعلق البعض على أن هدوء أبيلار هذا في دير كلونى لم يكن طبيعياً، فلو كان في حالته الصحية، لكان قد شجب بطرس الموقر أيضاً واتهمه بالفساد والتراخى كما فعل من قبل مع رهبان سان دينيس وسان جليداس. وربما يكون بطرس قد نقله إلى كنيسة شالون سير ساؤن Chalon sur saône كإجراء وقائى ولأسباب صحية.(٤)

وفى خطاب آخر يقول بطرس: "ليست هناك حاجة لاعتقال، فقد اختار أبيلار لنفسه مقراً دائماً في مقاطعتك كلونى. وبذلك وكواحد من رعاياك أستسمحك ويستعطفك دير كلونى وأبيلار أيضاً لأجل صالحنا ولأجل أبنائك المخلصين الذين حملوا هذا الخطاب ولأجل الكلمات التى طلبها منى أبيلار، أن يقضى أبيلار بقية سنوات عمره في مقاطعتك كلونى، حيث لا يستطيع أحد أن يحول

---

(١) Mews, CCCM, P. 290

- لا يشير أى مؤرخ أو كاتب لتلك المصالحة بين أبيلار وبرنار، فلعلها كانت نوعاً من المصالحة بين أخوين راهبين، إلا أنه لا يوجد شئ موثق يمكن الاعتماد عليه في هذا الشأن سوى ما قاله بطرس الموقر.

(٢) Jolivet, Aspects de la pensé, P. 215

(٣) Peter the Venerable, Letter (115), P. 307

- تثبت مخطوطة في كلية باليول بأكسفورد بأن هناك بعض التغييرات حدثت في جمل من كتاب أبيلار اللاهوت التى ربما قام أبيلار بتغييرها، فقد وجدت أيضاً بعض عبارات متناثرة لأبيلار يقول فيها: "إنه من اللائق بى تعديل بعض أخطائى وبذلك يمكننى دفع التهم عنى". أنظر Mews, CCCM, P. 144

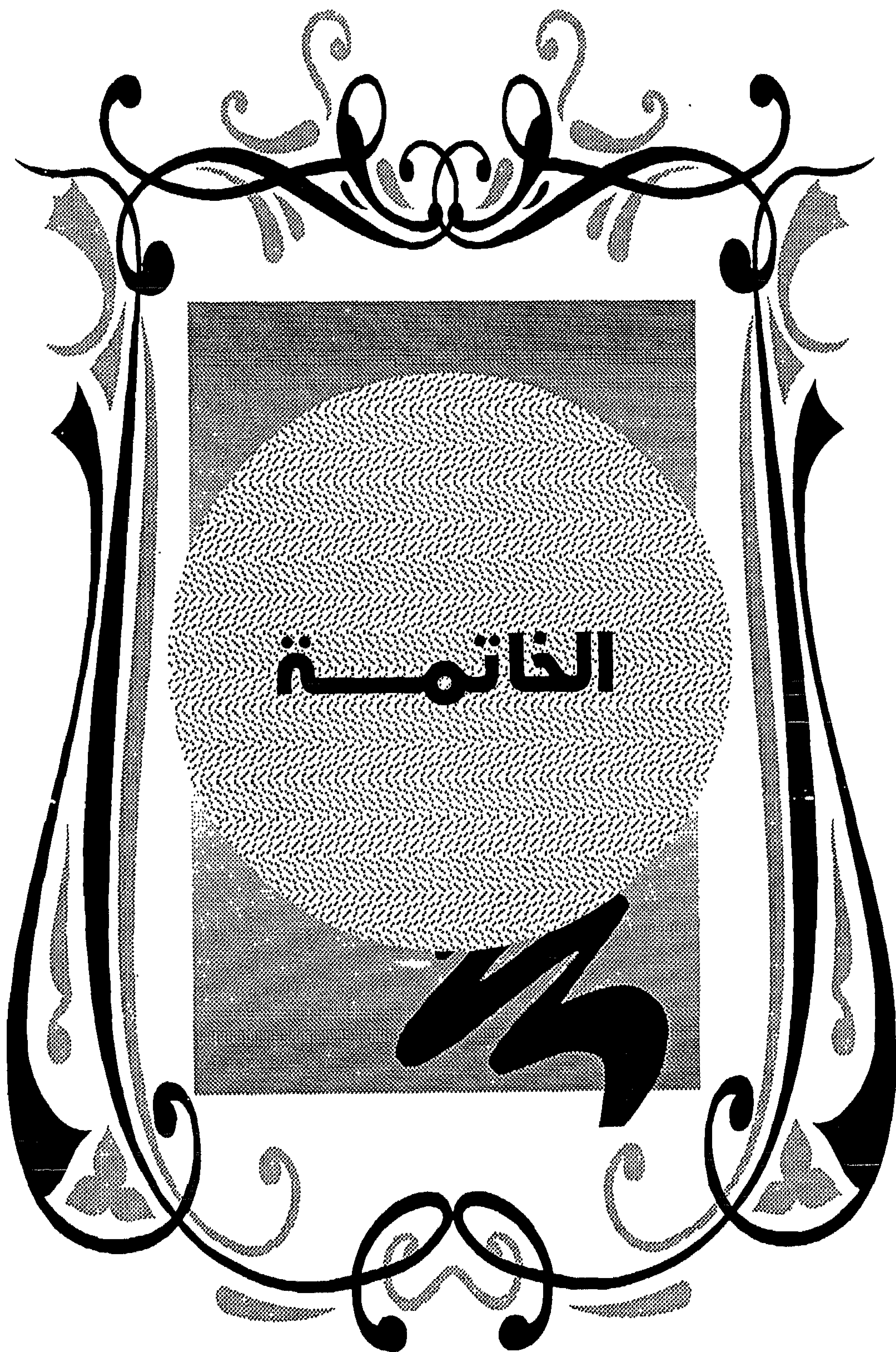
(٤) Poole, Op. Cit. P. 144

العصفور عن العش الذى اختاره. وبالشرف الذى تحمله لجميع الرجال المخلصين، أحميه بدرع الحماية الرسولية.(١)

قادت كل الاستنتاجات سواء من خطابات بطرس الموقر أو غيره من المؤرخين قادت إلى الاستنتاج بأن البابا أنوسنت الثانى قى رفع الحكم عن أبيلار غير أنه لا توجد وثيقة تثبت ذلك. إلا أن المتعارف عليه أن أبيلار قضى بقية حياته في هدوء وسكينة. وعندما مات أبيلار وجدت إيلويز أنها ينقصها وثيقة مختومة تبرئ أبيلار وتدل على العفو عنه، لذلك قدم لها بطرس الموقر تلك الوثيقة المختومة التى عُلقت على ضريحه في مقبرة الأب لاشيز La chaise والتى تقول "أنا بطرس رئيس دير كلونى الذى استقبلت أبيلار كراهب بسلطة الرب القدير، وإنى بموجب منصبى أبرأ أبيلار من جميع الخطايا، فقد كان سقراط فرنسا وأمير المعارف في أوروبا بلا منازع، والذى سوف يذكره الدهر على مر عصوره نظير ما قدم من علم وبحث وإخلاص وإيمان".(٢)

(١) Peter the Venerable, Letter 133, P. 338

(٢) Ibid, Letter 167 , P. 401


الخاتمة

بعد استعراض أهم معالم سيرة وجوانب حياة أبيلار فى ضوء ثقافة عصره وانعكاس ذلك على الأحداث الثقافية فى ذلك العصر عن طريق التأثر والتأثير، يمكننا أن نخرج ببعض الدلالات والنتائج.

- على الرغم من أن الفترة الزمنية التى عاش فيها أبيلار يطلق عليها المؤرخون أسم نهضة القرن الثانى عشر، إلا أن هذا المصطلح يعد مضللا، لأن أبيلار وزملائه كانوا يرون أنهم امتداد للماضى الكلاسيكى. ويعد مصطلح "رومانسيك" هو المصطلح الأكبر لوصف ثقافتهم بدلا من كلمة النهضة، فلا يمكن القول بأنه كان هناك إحياء للغة اللاتينية في القرن الثانى عشر، وذلك لأنها لم تكن لغة ميتة بعد، على الرغم من أنها لم تكن اللغة القومية لشعب ما في ذلك الوقت.

- إن تعلم القراءة والكتابة في العصور الوسطى كان أمرا مليئا بالمتناقضات مثل جوانب كثيرة من ثقافة العصور الوسطى، ومثلما كانت حياة أبيلار نفسه، فقد كانت القراءة والكتابة أمرا بعيد المنال غير أنه كان متاحا في نفس الوقت. كان يعتمد على لغة ميتة وحية في نفس الوقت. وفى تعلم القراءة والكتابة ، كان يتم التأكيد بشكل غير عادى على الحديث والذاكرة إلا أنه أنتج أهم الكتب. كانت القراءة أمرا مقصورا على الرجال، إلا أن أيلويز برعت فيها. كان النحو يدرس باستخدام الخوف، إلا أن كثير من الدارسين تربوا وكبروا على حب الأعمال الكلاسيكية. وعلى الرغم من تناقض هذه الخصائص إلا أنها أعطت لعملية تعلم القراءة أهمية خاصة ومكانة رفيعة خصوصا لأنها كانت لغة الأنجيل (الصفحة المقدسة). كذلك فإن تعلم القراءة والكتابة والعمل كرجل دين كان أمرا يسمح بوظيفة مرموقة في مجتمع العصر الوسيط مثل الفروسية تماما، ولقد كان هذا قدر أبيلار واختياره.

- لم تكن موضوعات أبحاث أبيلار أو طريقته في عرضها والتى تعتمد على الجدل هى التى جعلت من أبيلار شخصية مثيرة للجدل منذ أول ظهور له في مدارس باريس عام ١١٠٠م، بل كان ارتباط أسمه بروسلان وكبريائه هما اللذان اسهما في إثارة الجدل الدائر حوله.

- في الفترة أول القرن الثانى عشر الميلادى، ظهرت ثمة روح من حب الاستطلاع تطلبت تفسير عن سبب ومصدر القيم القديمة والتقاليد السائدة ، وهى العلامة المميزة للحركة الجديدة في الفكر. وإذا ما أردنا أن نتتبع أصول هذا الموقف في المجال العلمى، فإنه يجب علينا أن نغض النظر عن مراكز التعليم القديمة، أى الأديرة، لننظر إلى المدارس التى ظهرت منذ أواخر القرن الحادى عشر تحت عباءة الكاتدرائيات خاصة في شمال فرنسا. فعلى الرغم أن الحياة الروحية في الكاتدرائيات كان أقل نشاطا بشكل عام، فإنها امتازت على الأديرة بعدة مميزات بوصفها مراكز للدراسة. إذا كان مجلس الكاتدرائيات هيئة متضامنة مثل الدير، كما كان منغمسا مثله في شئون الخدمة الكنسية، وهى إدارة شئونه الخاصة. وفى كل من الدير والكاتدرائية كانت هذه الأنشطة بحد ذاتها تتطلب

قدراً من التعليم بين أعضائه. بيد أن القاعدة التى كان يعيش قس الكاتدرائية بمقتضاها كانت فضفاضة أكثر من القاعدة التى تحكم حياة الراهب، كما كانت حياته أقل استعراضاً في حياة الجماعة التى ينتمى إليها. وهكذا كانت الكاتدرائية وقساوستها بمثابة بؤرة يمكن أن يتمركز حولها النشاط المدرسى، بدون أن تعوقها بالمطالب الصارمة التى تتطلبها الحياة الديرية المنتظمة. وقد وفر هذا الفرصة للكاتدرائيات كى تتطور بحرية أكثر وفق خطوطها العامة.

- ولعل القدر الأوفر من الحرية أتاح للتعليم بالكاتدرائيات هامشاً أوسع للتأمل. وكان المنطق هما الموضوع الذى جعله مدرسو الكاتدرائيات موضوعهم الخاص، وهو موضوع لم يكن ليناسب الفكر الدينى التأملى. ولم يكن المنطق موضوعاً اهتم به آباء الكنيسة أو الكتاب المقدس. والواقع أن كل ما كان متاحاً منه كان من خلال ترجمة بؤثيوس لأعمال بورفيرى وأرسطو الفيلسوفين الوثنيين اللذين ينشران تعاليم دنياوية واضحة. ولم يكن من السهل على عقل تدرب في أروقة الأديرة أن يحيط بالإمكانيات الهائلة لمؤلفاتهما على نحو ما فعلت المدارس الكاتدرائية ولم يكن لمؤلفاتهما مكان طبيعى في المجرى الذى كانت تسير فيه القراءة داخل الأديرة. ومع ذلك فإن أرسطوا وبورفيرى قدما المنهج الذى يمكن به اختبار هذا الكم الهائل من المعارف الموروثة عن الماضى الذى تركز عليه الاهتمامات الديرية. فقد كشفا عن وسيلة يمكن بها تصنيف الأقوال والمعانى والمناقشات، وتبويبها وتقييمها. ولأول مرة خلال قرون عديدة يعتاد الدارسون مستويات فكرية علمانية وعقلانية تماماً وليست غيبية.

- إذا ما درس المنطق لذاته، فإنه سوف يبدو في النهاية ممارسة عقيمة، ولكنه يوفر أداة تحتاج إلى التطبيق. وهذا ما تدين به المدارس الكاتدرائية للماضى، وللأديرة ولعلماء العصر الكارولنجى. فقد جاهد العلماء الكارولنجيون لإنقاذ التعليم، خاصة التعليم الذى تركه آباء الكنيسة في العصور الكلاسيكية. وتركوا ورائهم للأجيال التالية ذاداً من الفكر يتأملون فيه. إذا أن الكتب الشائعة بين الرهبان كانت قد أخذت من كتابات آباء الكنيسة ومن الكتاب المقدس ما ظن الرهبان أنه أكثر الكتابات المقدسة دلالة ومغزى. وقد انصب اهتمام علماء المنطق على هذه المجموعات من النصوص المقدسة، على أمل أن يستخلصوا منها معانى جديدة بالمناهج الجديدة، ولم يستغرق الأمر منهم وقتاً طويلاً لكى يكتشفوا أن النصوص نفسها كانت أبعد ما تكون عن الاتساق.

- كان يمكن أن تعد محاولة رؤية الحقائق المقدسة في ضوء العقل البشرى العادى تجديفاً وانتقاصاً من قدر الدين. فالنسبة للعقول المحافظة بدا وكأن الأمر تشكيك في كافة التعاليم الدينية التى كان المجتمع المسيحى قد اتخذها مرشداً وهادياً لهم. إذ أن الاستفسار العقلى لم يكن ليناسب المثال الديرى عن الطاعة والتأمل والتركيز على حياة الروح، وهو المثال الذى كان يعد التعبير الأسمى عن النضال الإنسانى وكان ما يزال قوة حيوية في القرن الثانى عشر. أما حركات الزهد التى

كانت تستلهم سيرة آباء الصحراء فكانت أحد العوامل المحركة لمطالب الإصلاح في مستويات الكنيسة خلال القرن الحادى عشر. ويوضح النمو السريع لحركة الرهبان السسترشيان مدى انتشار الدوافع التى كانت الحركات الرهبانية استجابة لها. فقد أسس السسترشيان أنفسهم بصرامة تفوق كل الأنظمة الديرية التى سبقتهم، عن الدنيا والتعليم الدنيوى، على الرغم من أنهم فتحوا أبواب الحياة الديرية حتى أمام العلمانيين الأميين. وقد يبدو أن المجهودات المتناقضة لكل من الرهبان والمدرسين كانت تجتذب المجتمع في اتجاهين متعاكسين.

- هذا التوتر بين الثقافتين يكمن خلف النزاع الشهير بين أبيلار وسان بيرنار، والذى وصل قمته في مجمع سنس عام ١١٤٠م. كان أبيلار أعظم مدرس فلسفة في زمانه، ولم تكن إدانته في مجمع سواسون ١١٢١م، والنهاية المرعبة لقصة حبه مع أيلويز، لتنجح في الحد من شهرته، أو لتحول بينه وبين الطلبة الذين وفدوا من كل بقاع أوروبا لسماعه. أما برنار، يقدم دير كليرفو، فقد كان أشهر راهب سسترشيانى وأكثرهم نفوذاً في التاريخ. لقد أضفت قصة المواجهة بين هذين الرجلين مغزى رمزياً بالنسبة للمؤرخين اللذين رأوا فيها مواجهة بين بطل الديرية وممثل المدرسة القديمة من ناحية، والمد المتصاعد للتفكير الثورى من ناحية أخرى.

هذه المواجهة الخيالية مواجهة زائفة حسب اعتقاد الكثيرين الآن: فليس عدلاً بالنسبة لكل من برنار وأبيلار أن نتخيل هذه المواجهة بينهما. ذلك أن نسك السسترشيان والصرامة العقلية للمدارس لم يكونا عالمين منفصلين على هذا النحو. ومن الظلم لأبيلار أن نرسمه في صورة العبقرى الشكاك: إذ أنه كان بالفعل عبقرياً، ولكنه كان مسيحياً مخلصاً أيضاً. كما أنه ظلم لبرنار، طالما أن التركيز منصب على أخطائه البشرية لأنه بوازع من قناعته الدينية، سعى إلى إدانة أبيلار للمرة الثانية وكسر شوكته إلى الأبد. وقد تصرف على هذا النحو لأنه رأى في منطق أبيلار خطراً على العقيدة. ومع هذا فإن حمايته للفكر ساعدت على صنع مستقبل رجال أفادوا كثيراً من تعاليم أبيلار. ولم يكن الراهب وعالم المنطق فى شجار دائم أساساً ولكن الأساس كان أن كل منهما قد أساء فهم الآخر بصورة فردية.

- ويعد أبيلار مسئولاً إلى حد ما عن إساءة الآخرين فهمه، إذ لم يكن قادراً على مقاومة غريزة المدرس الموهوب في تقديم نفسه بصورة تأثيريه تمثيلية. وكان كتابه خالد الذكر "نعم ولا" الذى هو على شكل مجموعة من النصوص المتناقضة من الكتاب المقدس ومن كتابات أباء الكنيسة. وإذا ما أخذناه بقيمته الظاهرة، يبدوا هدفه كشف عدم الاتساق المطلق للتعاليم الراسخة. بيد أن ذلك لم يكن هدف أبيلار كما أوضح بنفسه في مدخل كتابه. ففى هذا الكتاب أبرز الوسيلة التى يمكن بها تحقيق التوافق بين المتناقضات الظاهرة إذ ينبغى على المرأ أن يبحث خلف كلمات النصوص عن المعانى الكامنة في أذهان مؤلفيها. فالكلمات غير دقيقة، وعدم دقتها تعطى انطباعاً زائفاً بالتناقض.

والمنطق سوف يكشف عما يمكن تحقيق التوافق فيه. فالتحليل في ضوء المعنــى الحقيقــى وليــس الكلمات وحسب، هو الذى سوف يفتح السبيل أمام التوفيق ولم يكــن أبيــلار يوضــح أن الكتــاب المقدس ليس متسقاً أو متوافقاً، ولكنه كان يبين أن اتساقه يمكن أن يتحقق فقط من خـــلال البحــث والدراسة الجادة الصارمة. لقد كان يؤكد على أن أسمى الحقائق تحتاج إلى ترسـيخها مــن خــلال أعلى مستويات البحث.

- لا يعد أبيلار بشيراً مؤذناً بعصر النهضة، بل مفكراً للعصر في القرن الثاني عشر الذى هو امتــداد لثقافة القرن الحادى عشر الذى تربى وتعلم فيه. إن عصريته الظاهرة ما هــى إلا روح مبكــرة أو انفتاح أفق عقلى لم يتطرق إليه بعد الاعتدال الدقيق الذى أدخله في حقل الفكر النسقى الــذى ظــهر واضحاً في القرن التالى. وقد عُد أبيلار متطرفاً مغالياً لأن الميدان كــان لا يــزال مفتــح الفجــاج والجنبات. ويقول جلسون إننا علينا أن ننظر إلى القرن الثانى عشر ونفهمه على الوجــه الصحيــح بوضعه جنب إلى جنب بجوار الثالث عشر وليس السادس عشر.

-ومهما تكن الزاوية التى ننظر منها إلى أبيلار ، فسنجده كثمرة باكرة النضج ، إذ أنـــه نمــا فكريــاً أسرع قليلاً مما تحتمله طاقته . فلم تنضج روحه في دفء القوى الروحية التى تشكلت في قرنـــه، فقد كان رجلاً اتجه إلى الناحية الفكرية بدرجة بالغة أشد من أن تمكنه من ان يشير لعصـــره إلــى الطريق الذى تطلبه روح وقلب ذلك العصر وتحث عليه . فضلاً عـــن ذلــك ،فــإن ، المحتــوى الإيجابي لمؤلفاته كان أضأل من أن يتيح له أن ينشئ عالماً جديداً من المعارف ، غير أن معظم مــا استشفه وتنبأ به أو توقعه، إنما استخلصه من محض خياله الذى تربى على القواعد الجدلية والحيــل المنطقية .

-كذلك لو استعرضنا تطور الفكر المسيحى من أوله إلى آخره، لوجدنا طرازين فكريين فــي صــراع دائم . وهو صراع من يحبون أن يستندوا إلى أفكار القديس جيروم ، ومن يقيمون فكرهــم تأسيســاً على آراء القديس أوغسطين ، وهو التباين بين المزاجين الدينيين اللذين ظهرا علــى لســان أبــوى الكنيسة الأولين . فجيروم كان رجل الدماثة الحضرية وكان رغم كل ما اتصف به من زهد وحيــاة ديرية متأثراً بما للثقافة من متاع : كالأدب والعلاقة القائمــة علــى التعــاطف الفكــرى والافكــار المستنيرة والحاجات التعليمية . أما أوغسطين فأمره لاشك معروف لدينـــا جميعــاً، فــهو الرجــل صاحب القلب المتأجج والإيمان المطلق .

ينتمى ابيلار إلى الفئة المنضمة إلى جيروم ، فإنه أكثر من الاقتباس منه المرة بعد الأخرى ، كما أنــه امتدحه كثيراً ، والتمس عنده ونقل عنه تفيسر الكتب المقدسة .

وانضم إلى صف أوغسطين من الناحية الاخرى كل من برنار دو كليرفو ، وهيو دو ســان فيكتــور. وبلغ الأمر بالقديس برنار أن سمى في حياته "أوغسطين المبتعث" ، كما أن هيـــو سُــمى "لســان

أوغسطين" . وكثر تردد اسم أوغسطين على الألسن حتى أصبح ككلمـــة الســر لأى مــن حــزب المحافظين ، ليس فقط بوصفه رمزاً للاحترام العميق للجدل والتقاليد الدينية ، بــل بوصفـــه رمــزاً لجوهر الإيمان . وقد تبادلت التقلبات على أبوى الكنيسة الأولين واختلف ما لهما مـــن وزن علــى الدوام في تاريخ العقيدة المسيحية . فكلما تأزمت أزمة دينية كبيرة ، رجحت كلمات أوغسطين علــى كلمات جيروم في موازين تلك العصور .

****


قائمة المصادر
والمراجع

قائمة مختصرات المصادر والمراجع:

A.H.D.L.M.A	= Archive d'Histoire doctrinal et letteraire du moyen âge
A.H.R.	= American Historical Review
C.C.C. M.	= Corpus Christianorum Comtinuatio Mediaevalis
C.C. M.	= Cahiers de Civilisation Médiéval
Cluny Conference	= Pierre Abélard – Pierre le Venerable, éd., R.Louis, J.Jolivet, J.Châtillon, Paris,1975
C.M.H	= Cambridge Medieval History
D.H.G.E.	= Dictionnaire d'Histoire et Géography Ecclesiastique
D.T.C.	= Dictionnaire de Théologie Catholique
Ethics	= Peter Abelard's Ethics
Goswin	= Vita Gosuine
Historia	= Historia Calamitatum
Nantes conference	= Abelard en son temps, ed., J.Jolivet,Paris,1982
PL	= Patrologia Latina
R.B.	= Revue Bénédictine
R.H.E.	= Revue d'Histoire Ecclesiastique
R.H.F.	= Recuiel des Historien de la France
R. M. A.	= Revue du Moyen âge
Sp.	= Speculum

****

أولا : المصـــــادر:

- الكتـــــاب المقـــدس.

-Abélard, P.,

______ Ouvrage Inedits , ed.V.Cousin, Paris,1936

______ Oeuvres Choisies, éd. M. Gandillac, Paris, 1945.

______ The Story of my Misfortunes, America, 1958.

______ Historia Calamitatum , éd. J.Monfrin, Paris, 1959.

______ Theologia Christiana, Book1, ch.12, in Buytaert, E.M, CCCM, Vol.11 ,Brepols,1969

______ Dialogus inter Philosophum,Iudaem et Christianum, ed.R.Thomas, Paris, 1970.

______ Ethics, ed. and trans. by D. E .Lusconbe, London, 1971.

______ Sic et Non, ed.,Boyer,B.et Mckeon,R., London,1977

______ "Le Dialogue" éd. J. Jolivet et M.de. Gandillac, Lussanne, 1981

______ Theologia Christiana, in Mews, J., Petri Abaelard, Opera theologica, CCCM,vol. 13 ,1987.

______ Théologia Christiana, in La théologie d'Abelard, Paris, 1997.

______ Theologia Summi Boni, in Jolivet ,la Théologie d'Abélard, Paris, 1997.

-Bernard, (St.),

______ Patrologia Latina, Vol.182,1854.

______ Oeuvres Choises ,éd. M.M.Davy, paris, 1946.

-Betty Radica,

- The letters of Abelard and Heloise, Penguin Books, 1974

- Chartulerium Universitatis Parisiensis, Tomus I, No. 1678

-Eadmer,

-Life Of St. Anselm ,ed.R.E.Southern,Oxford,1965

-Fulk Of Deuil ,

- Letters, in PL , (178) (1855)

-Goswin, (St.),

-Vita Goswini, extracts reprented by M. Bonqueted. Recueil desHistoriens de la France, (14), Paris, 1860

-Guibert de Nogent,

-Autobiographie, ed. E. R. Labande, Paris, 1981

-Hilarii Aurelianensis,

-Versus et Ludi, Epistolae ed W.Blust, Paris, 1989.

-Hugh Of St.Victor,

- PL, Vol.175, 1886.
- Didascalicon.ed.Buttimer, Washington,1939.

-Ivo Of Chartres,

- PL.161 (1884)
- Les correspndance ,éd. Leclercq ,Paris, 1949

-Jean de Mune,

- La vie et les épistres Pierre Abélard et sa fame, Geneve,1991.

-John Of Salisbury,

- PL, Vol. 199 (1855)
- Historia Pontificalis, ed.and trans. M.Chibnall, London,1956

-Otto of Freising,

- Gesta Frederici, ed. F.J. Schmale, Paris, 1965.

-Peter The Venerable,

- The letters, ed. G. Constable, London, 1967.

Roscelin,

- Letter to Abelard, ed. J. Reiners, in Der Nominalisums in der Frühscholastik, stuttgart, 1956

Suger,(St).,

-Vie de Louis VI Le gros, ed. H. Waquet, Paris, 1929.

Wiliam of St. Thierry,

- ed. Leclercq, in Revu Bénédictine 79, Paris,1969

****

ثانيا: المراجع الأجنبية:

-Balard, M.,

- Des Barbares à la renaissance, Paris, 1983.

-Baldwin, M.W.,

- The Medieval Church, New York, 1960

-Baron, R.,

- Science et Sagesse chez Hugh de St. Victor, Paris, 1955.

-Benson, R. L.,

- Renissance and Renewal in the Twelfth Century, New York ,1982.

-Berliere , V. ,

-Lordre monastique des Originen au XII Siècle, Paris, 1921.

-Bliemetzriedre, F.,

-Recherches de théologie ancienne et Médiéval, tome I, Paris, 1929.

-Blomme,R.,

-La doctrime du péché dans les écoles théologiques de la premiére du XIIe siècle, Louvain, 1958.

-Brehier, E.,

- Histoire de la philosophy, tome III, Moyen âge et Renaissance, Paris, 1994.

-Brooke, ch.,

- The Medieval Idea of Marriage, Oxford, 1989

-Brundage, j.,

- Law, Sex, and Christian Society, Oxford, 1987

-Burnett., C.S.,

- Glosses and commentaries on Aristotelian Logical Texts, New York, 1992.

−Butts, R.

- A Culture History of Education ,New York, 1947

Camille, M.,

- Image on The Edge, Oxford, 1992.

-Charrier, Ch.,

- Heloise dans l'histoire, Paris, 1933.

-Chatillon,F.,

-Abelard avant Heloise", Revue du moyen âge 20, 1964

-Chenu, M.D,

-Saint Thomas D'Aquin et la Théologie, Paris, 1959

-Chenu, M .D.,

-Nature, Man and Society, New York, 1968.

-Chodorow,S.E.,

-"Ecclesiastical Politics and The Ending of the investiture contest", SP., 46 ,1971

-Clanchy, M. T.,

- Abelard's Mockery of St. Anselm", Journal of Ecclesiastical History, 1990

-Clanchy, M.T.,

-From Memory to Writtenr Record, Oxford ,1993.

-Clanchy, M.T.,

-Abelard: A Medieval Life, Oxford, 1999.

-Cottiaux, J.,

-" La Conception de la théologie chez Abélard" R. H. E. (28) 1932.

-Coulton,G.G.,

- Medieval Panorama, New York,1955

-Delhaye , Ph. ,

- Enseignement et Morale au XII Siècle , Paris,1988.

-Delort, R.,

- Le moyen âge, Histoire Illustré de la vie quotidienne, Lausanne,1972

-De Wulf, M.,

- History of Medieval philosophy, Vol. I, London, 1952.

- **Dictionnaire d'Histoire et de géographie ecclèstiques, tome I , Paris, 1912.**

-**Dictionnaire de Théologie catholique, tome III, Paris 1923.**

-D'Irsay,S.,

- Histoire des universite francais et etrangeres des origines a nos joure, tome 1 , Paris,1933

-Dronke, P.,

-Poetic Individuality in the Middle Ages, Oxford, 1970.

-Dronke, p,

- Abelard and Heloise in Medieval Testimonies, London, 1976.

-Dronke , p ,

-Women writers of the Middle Ages, Cambridge, 1984.

-Dronke, P.,

- A History of Twelfth Century western Philosophy, New York, 1988.

-Duby ,G.,

- La Femme au temps des cathédrales, Paris, 1980.

-Duby,G.,

- Dames du XII^e siècle, Paris, 1995.

-Dunbabin,J.,

- "From Clerk To Knight: Changing Orders", In Medieval Knighthood, Vol.2, 1988

-Durkhaim, E.,

-L'evolution Pédagogique en France, tome 1, Paris, 1938

-Duroselle,J.,

-Histoire de Catheolicisme, Paris, 1949.

-Evergates, T.,

-Feudal Society in the Baillage of Troyes, Cambridge, 1975

-Elliott,D.,

- Spiritual Marriage, New York, 1993

Ferruolo, S.,

- The Origins of The University, Stanford university press,1985.

-Foreville, R. & Keir, G.,

- The Book of St. Gilbert, Oxford, 1987.

Georgianna , L.,

- " Any corner of Heaven: Heloise's Critique of Monasticism" Medieval Studies, 49, 1987

-Gerson,

- PL,Abot Suger and St. Denis, Oxford, 1986

-Ghellinck, J.de,

- Le mouvement théologique du XIIe siècle, Paris, 1946

-Gibson,M.T.,

- The Bible in The Latin West, Horfard.1993

-Gilson, E.,

- Heloise et Abelard, paris, 1938

-Gilson, E.,

- The Mystical Theology of St. Bernard, Cambridge, 1940.

-Gilson, E.,

- Hèloise et Abélard, 2éd. Paris, 1964.

-Glemission, J.,

-Le livre au moyen âge, Paris, 1988.

Guérard, A. L.,

-French Civilization, Eng., Trans. By Fisher,U., London, 1920.

-Harvey ,R.,

- Medieval knighthood, Vol. 5, Cambridge, 1995

-Haskins, Ch.,

- The Renaissance Of The Twelfth Century, Cambridge 1928

-Helen Waddell,

- Peter Abelard, New York, 1959.

-Hexter, R.J.

- Ovid and Medieval Schooling, Cambridge, 1986.

-Jeandet ,y.,

- Heloise et l'Amour , Lausanne , 1966.

-Jolivet ,J.,

- "Abélard et Loup", Cahiers De civilisation médiéval, 20, 1971.

-Jolivet, J., et delibera, A.,

- Gilbert de poitiers et ses contemporains, Napoli, 1987.

-Jolivet, J.,

- "Abelard entre Chien et Loup", CCCM, 20,1971.

-Knowles, D.,

- The Evolution of Medieval Thought, London, 1970.

-Kluge, E.,

- "Roscelin" in Journal of the History of philosophy, (14) 1976

-La Monte,J,

- The World of The Middle Ages, New york, 1949

-La Pidge, M.,

- Giladas: New approaches, London, 1984.

-Leclercq , J .,

- "Les From successives de la lettre – traité de St. Bernard contre Aélard", Revue Bénédictine 78, 1968.

-Leclercq , J .,

- Monks on Marriage: a Twelfth Century View, London, 1982.

-Le Goff. J.,

- Pour un autre moyen âge, Paris, 1977.

-Le Goff, J.,

- Les intellectuels au moyen âge, Paris, 1985

-Lemarignier, J. E.,

- La France médiéval: institutions et socité, Paris, 1971

-Léon, A.,

- Histoire de lénseignement en France, Paris 1995

-Leyser, H.,

- Hermist and New Monasticism, London, 1984

-Linda, p.,

- The world of the Troubadours, Oxford, 1993

-Longére, J.de.,

-L'abbaye Parisienne de St.Victor au moyen âge, Paris, 1991

-Lottin, O.,

-Psychologie et morale, tome V, Paris, 1942

-Mclaughlin,M.M.,

-" Abelard's Rule for Religious Women" in Medieval Studies 18,1956.

-Mclaughlin,M,M.,

-"Abelard as Autobiographer," SP., 42,1967.

-Mcleod , E ,

-Heloise – a Biography, London, 1971.

- Mews, C.J".

-"On dating the works of peter Abelard", A.H.D.L.M.A., (52), 1985.

-Mews ,C.J.,

- "IN search of a name and its significance: a twelfth century Anecdote about Thierry and peter Abelard", Traditio, 44, 1988

-Mews, C, J.,

- "Orality, Literacy and Authority in the 12th Century Schools",Exemplaria 2, New York, 1990.

- Mews, C,J.,

- "St .Anselm and Roscelin" in Archive d'Histoire,(58) 1991.

- Mews, C,J.,

- Peter Abelard, in Authors of the Middle Ages, Vol.2, London, 1995.

- Monroe, P.,

- A Text- Book in The History of Education, London, 1933.

- Moore, R.L.,

- The Birth of Popular Heresy, London, 1975.

- Muckle, J.T.,

- " Letters of Abelard to Heloise, in Medieval Studies 15, 1953

Pacaut , M .,

-Les Ordrs Monastiques et Religieuxs, Paris, 1970.

-Paré, G. & Brunet. A. & Trenplay, P.,

- La Renaissance du XIIe siècle: les écoles et l'enseignement, Paris, 1933.

-Paul, J.,

- Histoire intellectuelle do l'occident médiéval, Paris, 1971

-Payen, J.,

- Litterature Français, Le Moyen âge, Tome 1, des Origin à 1300, Paris,1970.

-Pernoud, R.,

- La Femme au temps des cathédrales, Paris, 1980.

- Philipp Wolff.,

-L'eveil intellectuel de l'Europe, Paris, 1971

-Pierre Lasserre.,

- Un Conflit religieux au XIIe siècle, Abélalard contre St. Bernard Paris,1930

-Piobetta, J. B.,

- Le Baccalouréat de L'enseignement Secondaire en France, Paris, 1937

-Poole, R.L.,

- Illustrations of the History of Medieval Thought and learning, London, 1920.

-Pranger, B.,

- St. Bernard and The Shape of Monastic Thought, London, 1994.

-Previté-Orton, C.,

- The Shorter Cambridge Medieval History, Vol.1, Cambridge, 1952

Rashdall,H.,

- The Universities of Europe in the Middle Ages, Vol. I, Oxford 1942

-Reese, G.,

- Music in the Middle Ages, London, 1940.

- Rémusat, ch.,

-Vie d'Abélard, Paris, 1845.

-Riché,p.,

- Les écoles et l'enseignement dans l'occident chrétien de la fin Du V siécle au milieux du XII siécle, Paris, 1979

-Robertson, D.W,

- Abelard and Heloise, New York, 1972.

Sears,e.,

- The Ages of Man, Oxford, 1986.

Sicard, P.,

- Hugues de St. Victor, Paris, 1991.

-Sikes, J.G.,

- Peter Abailard , Cambridge , 1932

-Smalley, B.,

- The Study of The Bible in the Middle Ages ,Oxford, 1952.

- Smalley, B.,

-The Gospels in The Schools, Oxford, 1985.

-Smits,E.R. ,

- Peter Abelard, Letters IX-XIV, Oxford, 1983.

-Southern, R.,

- Western Society and The Church in The Middle Ages, London, 1970.

-Southern, R.,

- "The Schools" in Renaissance and Renewal, ed. Benson, R. L., 1982

-Southern, R .W.,

- St. Anselm, New York, 1990

-S outhern, R.W.,

- Scholastic Humanism and unification of Europe, Vol ,I, London., 1995.

- Taylor, H.O.,

- The Medieval Mind, vol.2, London, 1930.

- Thorondike, L.,

- A History of Magic and Experimental Science Vol.1, New York,1929

- Truc, G,

- Abélard avec et sens Heloise , Paris , 1956.

-Verger,J.,

-Abelard et les milieux sociaux, in, Abelard en son Temps,

-Verger J., & Jolivet, J.,

-Bernard, Abelard, Paris, 1982.

Verger, A.,

- Histoire des bibliothèque Française, tome I, Les bibliothèque médiéval du V'siècle à 1530, Paris, 1989.

-Vogel,C.,

- Le Pecheur et la Penitence au moyen âge, Paris, 1982.

Waddell, H.,

- Medieval Latin Lyrics, London, 1933.

-Waddell, H.,

- The Wandering Scholars, Michigan Press ,1989

-Waldman ,T.G.,

- "Abbot Suger and The Nuns of Argenteuil,". Traditio 41, 1985.

-Wangar,

- The Seven Liberal Arts, Bloomington, 1983

- Wheeler, B.,

- Listening to Heloise , Essays , Macmillan , 2000.

-Worthington ,M.,

- The Immortal Lovers: Heloise and Abelard , London, 1962.

****

ثالثا: المراجع العربية والمعربة:

- اسحق عبيد، "أبيلار اللاهوتي الحر"

- مقال في المجلة التاريخية المصرية، العدد (٢٠)، القاهرة، ١٩٧٣.

- اسحق عبيد،

- الفرسان والأقنان فى مجتمع الإقطاع، بنغازي، ١٩٧٥.

- جوزيف داهموس،

- سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى، ترجمة د. محمد فتحى الشاعر، القاهرة،١٩٩٢م.

- جوزيف نسيم يوسف،

- "أنشودة رولان قيمتها التاريخية وما أثير حولها من جدل ونقاش"، ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط، المجلد الأول، القاهرة، ١٩٨٢م.

- جوزيف نسيم يوسف،

- نشأة الجامعات فى العصور الوسطى، الإسكندرية، ١٩٨٤م.

- حسن حنفي حسنين،

نماذج من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، القاهرة، ١٩٧٨م.

- **سعيد عاشور،**

- المدنية الإسلامية وأثرها فى الحضارة الأوروبية، القاهرة,, ١٩٨٢م.

- **سعيد عاشور،**

- أوربا العصور الوسطي،ج٢، القاهرة، ١٩٩١م.

- **كولتـــــون،**

- عالم العصور الوسطي في النظم والحضارة، ت/د. جوزيـــف نســيم يوسف، الإسكندرية، ١٩٨٩.

- **موريس بيشـــوب،**

- تاريخ أوروبا في العصور الوسطي، ت/ علي السيد علي، القـــاهرة، ٢٠٠٥.

- **نورمان كانتور،**

- التاريـــخ الوسيط، ج٢، ت/قاسم عبده قاسم، القاهرة، ١٩٨٦.

- **وهيب إبراهيم سمعـــــان،**

- الثقافة والتربية فى العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٦٢

- **ياسر عبد المعبود عبد الله،**

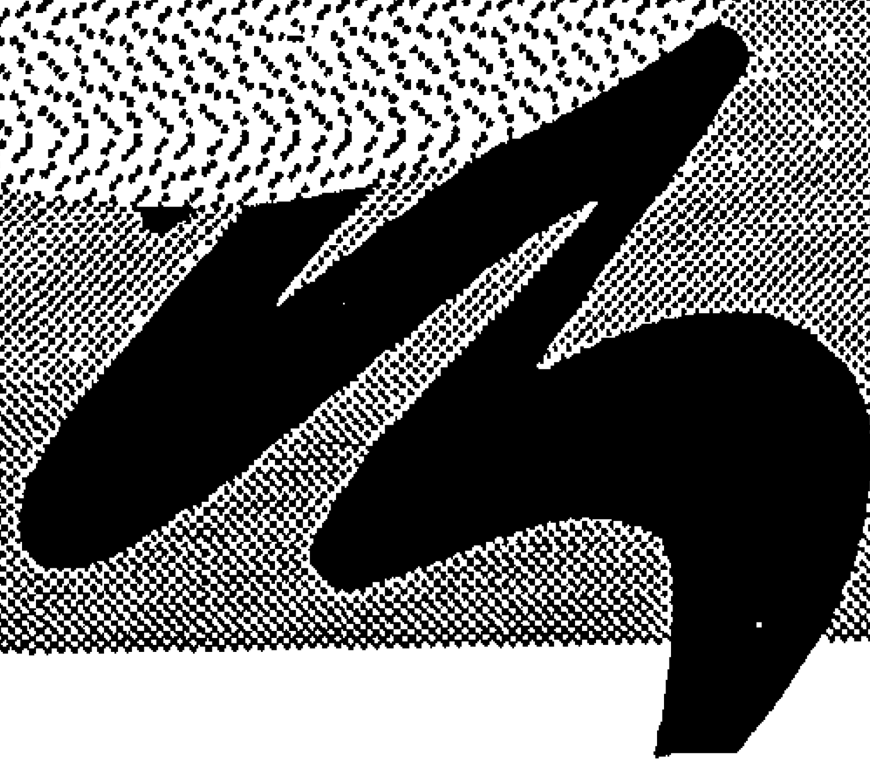
- جامعة باريس ودورها في النهضة الفكرية بأوربا في العصر الوسيط، رسالة ماجستير – غير منشورة آداب عين شمس، القاهرة،٢٠٠٣.

- **يوســـــــف كـــرم،**

تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط ,القاهرة، ١٩٥٧م.

****

ملخص البحث
باللغة العربية



يعد القرن الثاني عشر الميلادي من أهم الفترات التى شهدها الغـــرب الأوربـــي فـــى العصر الوسيط وخاصة فى الناحية الفكرية. فاعتباراً من القرن الحادي عشر ، بـــدأت أوربـــا تدخل فى فترة استقرار جديدة فى النواحى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وذلك بعـــد أن خفت غزوات الجرمان وبعد أن استرد المجتمع أنفاسه اللاهثة ، مما أثر بالضرورة على ذلـــك الانتعاش التدريجي الذى أصاب النهضة الفكرية.

كذلك لم يكن النمو الثقافي محدوداً بحدود بلد واحد كما كان الحال فى نهضة القرنيـــن الرابع عشر والخامس عشر ، وعلى الرغم من أن الزعامة لفرنسا ، فقد ســـاهمت كـــل مـــن إنجلترا وإيطاليا وألمانيا – وإن كانت مساهمتها أقل – فى الإنجازات الفكرية التى جـــرت فـــى القرن الثاني عشر. على سبيل المثال، فقد ولد حنا السالزبورى الذى كان واحـــداً مـــن أبـــرز الشخصيات فى القرن الثاني عشر فى إنجلترا ، وتعلم فى فرنسا ، وعمل فى إيطاليا ، ثم عـــاد إلى إنجلترا مرة أخرى ، واختتم حياته العملية فى فرنسا حيث شغل منصب أســـقف شـــارتر . لقد كانت حركة الإبداع الثقافي فى القرن الثاني عشر حركة أوربية كما أن الشـــعور القومـــي فيها كان ضئيلاً ، فلم يكن هناك إحساس على الإطلاق بالتقســـيمات التـــى تصنعـــها الحـــدود السياسية على القادة الثقافيين مثلما حدث بعد ذلك من القرون.

وهذا وتتجلى آثار هذه النهضة الثقافية واضحة فى فرنسا على وجه الخصوص ، وهى التى تزعمت الثقافة الأوربية بدءاً من القرن الثاني عشر ، وما كان يصدر عنها كان ينعكـــس بالضرورة على بقية بلدان أوروبا . لقد ظهرت فى هذا القرن مجموعة عظيمة من قادة الفكـــر تلاقى كل منهم مع الآخر على ضفاف نهر السين ، وكانوا يمثلون كافة الجوانب الهامـــة فـــى التغير الثقافي فى تلك الفترة ، كما كانوا هم سادة هذا التغير. ومن الممكن أن نعتبر أن تـــاريخ الفكر فى العصور الوسطى فيما بعد كان نتاجاً لما خلفوه من تراث ثقافي واسع الثراء .

وعلى الرغم من المكانة الفائقة الأهمية التى كان يحتلها هؤلاء القادة ، فإنهم لم يكونـــوا شخصيات محورية فى حركة النمو الثقافي التى عاشتها أوروبا القرن الثاني عشر ، فقد احتـــل هذا المركز الفيلسوف الفرنسي "بيير أبيـــلار Abelard " (١٠٧٩ – ١١٤٢م) وهـــو أهـــم شخصية فلسفية فى القرن الثاني عشر ، نظراً لما امتاز به من كفاية نـــادرة ومواهـــب عقليـــة ممتازة وجرأة فى الابتكار والتجديد حتى أنه يمكننا وضعه بين أعلام فلاسفة العصور الوسـطى قاطبة .

لقد كان أبيلار أحد أولئك الرجال الذين ظلوا ما عاشوا ، يثيرون إما أعمق الإعجـــاب أو أعنف الكراهية ، فهو من أولئك النفر الذين لا يستطيع المرء أن يقف إزاءه جـــامداً غـير مبال. أتيح له أن يكون منبهاً ومثيراً للأذهان بفضل ما أوتى عقله من نصاعة ، ومـــا أوتـــى ذكاؤه من حدة ، وبفضل تعدد جوانبه ومزاياه وما اجتمع فى شخصيته من متباينات حادة .

لقد دعا هذا المفكر الى حرية الفكر ومناهضة الكنيسة وهيمنتها على التعليم والحركـــة التعليمية فى أوروبا ، وهو أيضا صاحب فلسفة الشك والتشكك الشهيرة فى كل شيء حتى فـــى طبيعة المسيح نفسه ، وقد عاش فى باريس مدينة الفكر والعلم ، وكان من أعظم أساتذتها ويعـد بحق زعيم نهضة تحرير الفكر فى القرن الثاني عشر الميلادي .

تتلمذ أبيلار على يد القديس أنسليم St. Anslem الذى كان من أعظم مفكري القـــرن الحادي عشر الميلادي ، وقد تلقى أبيلار علومه على يد هذا العالم وغيره من مشاهير المنطـــق فى مدرسة باريس وحذق ، كثيراً من مسائل المناظرة والجدل والتفوق على مناظريه ومجادليـه حيثما حل باعتباره أستاذاً للفلسفة وباعتباره صاحب مدرسة خرجت أجيالاً من الطلاب الذيـــن أثاروا حركة علمية بالغة وثورة جدلية وفكرية حرة كان أبيلار أول من أجج نارهـــا ، والـــذى مكن لباريس أن تصبح مركزاً للتفكير الحر والبحث العلمي المتقدم فى هذه الفترة من العصـــر الوسيط.

لقد أسس أبيلار مدرسة بباريس كانت محط أنظار الطلاب والدارسين حتى اكتظت بهم ، اهتم فيها بتلقين تلاميذه فلسفته الشهيرة فى الشك ، حيث اعتبر الشك الأساس الذى يقوم عليـه اليقين ، فقد دعا الى استخدام العقل وإعماله فى كل الأمور ، ونادى بتطبيق هذا المبـــدأ علـــى الدين نفسه . غير أن ظروفاً خاصة ألزمت أبيلار أن يعكف فى أحد الأديرة حيث ظـــل يتـــابع مناقشاته ومجادلاته العلمية التى أفزعت رجال الدين ، لاسيما وأنه دعا الى التقليل من ســـلطة الكنيسة ورجال الدين ، فاضطهدته الكنيسة، وعقد مجمع سواسون "Soison" الديني من أجلـه عام ١١٢٢م ، حيث حكم عليه بالإلحاد. وقد استعاد أبيلار سطوته بعد ذلك حيـــث اضطـرت السلطات الدينية إلى العفو عنه. وما لبث أن التقى فى هذه الآونـــة بـــالقديس برنـــار " St. Bernard" المتحفظ الداعي إلى التقليدية فى الشئون الدينية ، ولهذا جرى الجدل عنيفـــاً بيـــن الرجلين ، حتى اعتبر النقاش والجدل بينهما ملحمة فريدة أمام المؤرخين والكتاب ، وكل مـــن

اهتم بهذه القضية ، قضية الدفاع عن العقيدة أمام حرية الفكر المستمدة من الفلسفة والمؤيدة بالمنطق والجدل .

وما لبث أن استهوى أبيلار قلوب الناس بقوة بيانه وبراعة منطقه مما ضايق رجال الدين وأفزع البابا أنوسنت الثاني "Innocent II" الذى سارع بالحكم عليه من جديد بالإلحاد ، ففر أبيلار هذه المرة إلى دير كلوني "Cluny" وآثر الخلود إلى الوحدة والتعبد بقية حياته عاكفاً على الدراسة والتحصيل والتأليف إلى أن وافته المنية فى عام ١١٤٢م ، وذلك بعد أن دفعت فلسفته بعجلة التقدم إلى الأمام وحررت الفكر الإنساني من القيود البالية ومهدت لظهور عصر النهضة فيما بعد .

ويعد أهم جانبين فى فكر أبيلار هما اكتشافه المتجدد للشخصية الفردية ، وآراؤه فى مشكلة الكليات "Universals" . فالترجمة الذاتية التى كتبها أبيلار بعنوان " تاريخ مصائبي " "Historia Calaitatum" هى نقطة تحول حرجة فى اكتشاف القرن الثاني عشر للشخصية الفردية من جديد. فهذه الترجمة تقف على النقيض تماماً من النمطية التى ميزت العصور الباكرة . ذلك أن أبيلار يتلذذ بعرض خصاله ويبتهج وهو يكشف للعالم عن حقائق حياته ، حتى ما لم يكن يحظى برضاء المجتمع وقبوله من هذه الحقائق. وهكذا يعد كتابه هذا هجوماً على الأفلاطونية "Platonism" التى جعلت الكلي يبتلع الفردي ، وهو نفس الاتجاه أيضاً المعادي للأفلاطونية فيما يتعلق بمشكلة الكليات ، والتى جلبت على أبيلار العداء والبغضاء خاصة من رجال الدين .

لقد مرت شهرة أبيلار بكثير من التقلبات بين المؤرخين. ففى القرن التاسع عشر كان يُعد سابقة وتمهيداً للحركة البروتستانتية . وفى النصف الأول من القرن العشرين سرت موجة من التجاهل والتقليل من شأن أعماله. وفى الدراسات الجديدة للفكر الوسيط بدأت أهميته تتضح ، ولكن الحاجة مازالت قائمة إلى دراسة أعماله دراسة عميقة متأنية. على أية حال ، فإن الفكر الأوروبي توسع فى قبول مؤلفات أرسطو إبان السنوات الخمسين التى أعقبت وفاة أبيلار متأثراً بالحرية التى أججها هذا الفيلسوف ، بيد أن الفيلسوف أبيلار لم يوقفها أو يقلل من تأثيرها فيما بعد سوى الفلسفة العربية الإسلامية ، إلا أن هذه الحقيقة لا تقلل من أهمية مذهب أبيلار فى الثقافة الراقية فى العصر الوسيط بأوروبا.

element in the action, the intention of sinning, which is formal contempt of God. With regard to the relation between reason and revelation, between the sciences -- including philosophy -- and theology, Abelard incurred in his own day the censure of mystic theologians like St. Bernard, whose tendency was to disinherit reason in favour of contemplation and ecstatic vision. And it is true that if the principles "Reason aids Faith" and "Faith aids Reason" are to be taken as the inspiration of scholastic theology, Abelard was constitutionally inclined to emphasize the former, and not lay stress on the latter. Besides, he adopted a tone, and employed a phraseology, when speaking of sacred subjects, which gave offence, and rightly, to the more conservative of his contemporaries. Still, Abelard had good precedent for his use of dialectic in the elucidation of the mysteries of faith; he was by no means an innovator in this respect; and though the thirteenth century, the golden age of scholasticism, knew little of Abelard, it took up his method, and with fearlessness equal to his, though without any of his flippancy or irreverence, gave full scope to reason in the effort to expound and defend the mysteries of the Christian Faith. St. Bernard sums up the charges against Abelard when he writes) Ep. cxcii) "Cum de Trinitate loquitur, sapit Arium; cum do gratiâ, sapit Pelagium; cum de personâ Christi, sapit Nestorium", and there is no doubt that on these several heads Abelard wrote and said many things which were open to objection from the point of view of orthodoxy. That is to say, while combating the opposite errors, he fell inadvertently into mistakes which he himself did not recognize as Arianism, Pelagianism, and Nestonanism, and which even his enemies could characterize merely as savouring of Arianism, Pelagianism, and Nestorianism. Abelard's influence on his immediate successors was not very great, owing partly to his conflict with the ecclesiastical authorities, and partly to his personal defects, more especially his vanity and pride, which must have given the impression that he valued truth less than victory. His influence on the philosophers and theologians of the thirteenth century was, however, very great. It was exercised chiefly through Peter Lombard, his pupil, and other framers of the" Sentences." Indeed, while one must be careful to discount the exaggerated encomiums of Compayré, Cousin, and others, who represent Abelard as the first modern, the founder of the University of Paris, etc., one is justified in regarding him, in spite of his faults of character and mistakes of judgment, as an important contributor to scholastic method, an enlightened opponent of obscurantism, and a continuator of that revival of learning which occurred in the Carolingian age, and of which whatever there is of science, literature, and speculation in the early Middle Ages is the historical development.

from Rome a mitigation of the sentence reconciled him with St. Bernard, and gave him honorable and friendly hospitality at Cluny. There Abelard spent the last years of his life, and there at last he found the peace which he had elsewhere sought in vain. He donned the habit of the monks of Cluny and became a teacher in the school of the monastery. He died at Chalôn-sur-Saône in 1142, and was buried at the Paraclete. In 1817 his remains and those of Heloise were transferred to the cemetery of Père la Chaise, in Paris, where they now rest. For our knowledge of the life of Abelard we rely chiefly on the "Story of My Calamities", an autobiography written as a letter to a friend, and evidently intended for publication .To this may be added the letters of Abelard and Heloise, which were also intended for circulation among Abelard's friends. The "Story" was written about the year 1130, and the letters during the following five or six years. In both the personal element must of course, be taken into account. Besides these we have very scanty material; a letter from Roscelin to Abelard, a letter of Fulco of Deuil, the chronicle of Otto of Freising, the letters of St. Bernard, and a few allusions in the writings of John of Salisbury.

In philosophy Abelard deserves consideration primarily as a dialectician. For him, as for all the scholastic philosophers before the thirteenth century, philosophical inquiry meant almost exclusively the discussion and elucidation of the problems suggested by the logical treatises of Aristotle and the commentaries thereon, chiefly the commentaries of Porphyry and Boëtius. Perhaps his most important contribution to philosophy and theology is the method which he developed in his "Sic et Non" (Yea and Nay), a method germinally contained in the teaching of his predecessors, and afterwards brought to more definite form by Alexander of Hales and St. Thomas Aquinas. It consisted in placing before the student the reasons pro and contra, on the principle that truth is to be attained only by a dialectical discussion of apparently contradictory arguments and authorities. In the problem of Universals, which occupied so much of the attention of dialecticians in those days, Abelard took a position of uncompromising hostility to the crude nominalism of Roscelin on the one side ,and to the exaggerated realism of William of Champeaux on the other. What, precisely, was his own doctrine on the question is a matter which cannot with accuracy be determined. However, from the statements of his pupil, John of Salisbury, it is clear that Abelard's doctrine, while expressed in terms of a modified Nominalism, was very similar to the moderate Realism which began to be official in the schools about half a century after Abelard's death. In ethics Abelard laid such great stress on the morality of the intention as apparently to do away with the objective distinction between good and evil acts. It is not the physical action itself, he said, nor any imaginary injury to God, that constitutes sin, but rather the psychological

Abbey of St. Médard, at the instance apparently, of the monks of St. Denis, whose enmity, especially that of their Abbot Adam, was unrelenting. In his despair, he fled to a desert place in the neighborhood of Troyes. Thither pupils soon began to flock, huts and tents for their reception were built, and an oratory erected, under the title "The Paraclete", and there his former success as a teacher was renewed

After the death of Adam, Abbot of St. Denis, his successor, Suger, absolved Abelard from censure, and thus restored him to his rank as a monk. The Abbey of St. Gildas de Rhuys, near Vannes, on the coast of Brittany, having lost its Abbot in 1125, elected Abelard to fill his place. At the same time, the community of Argenteuil was dispersed, and Heloise gladly accepted the Oratory of the Paraclete, where she became Abbess. As Abbot of St. Gildas, Abelard had, according to his own account, a very troublesome time. The monks, considering him too strict, endeavored in various ways to rid themselves of his rule, and even attempted to poison him. They finally drove him from the monastery. Retaining the title of Abbot, he resided for some time in the neighborhood of Nantes and later (probably in 1136) resumed his career as teacher at Paris and revived, to some extent, the renown of the days when, twenty years earlier, he gathered "all Europe" to hear his lectures. Among his pupils at this time were Arnold of Brescia and John of Salisbury. Now begins the last act in the tragedy of Abelard's life, in which St. Bernard plays a conspicuous part. The monk of Clairvaux, the most powerful man in the Church in those days, was alarmed at the heterodoxy of Abelard's teaching ,and questioned the Trinitarian doctrine contained in Abelard's writings. There were admonitions on the one side and defiances on the other; St. Bernard, having first warned Abelard in private, proceeded to denounce him to the bishops of France; Abelard ,underestimating the ability and influence of his adversary, requested a meeting, or council, of bishops, before whom Bernard and he should discuss the points in dispute. Accordingly, a council was held at Sens (the metropolitan see to which Paris was then suffragan) in 1141. On the eve of the council a meeting of bishops was held, at which Bernard was present, but not Abelard, and in that meeting a number of propositions were selected from Abelard's writings, and condemned. When, on the following morning, these propositions were read in solemn council, Abelard, informed, so it seems, of the proceedings of the evening before, refused to defend himself, declaring that he appealed to Rome. Accordingly, the propositions were condemned, but Abelard was allowed his freedom. St. Bernard now wrote to the members of the Roman Curia, with the result that Abelard had proceeded only as far as Cluny on his way to Rome when the decree of Innocent II confirming the sentence of the Council of Sens reached him. The Venerable Peter of Cluny now took up his case, obtained

"theological studies" pursued by Abelard at Laon were what we would nowadays call the study of exegesis.

There can be no doubt that Abelard's career as a teacher at Paris, from 1108 to 1118, was an exceptionally brilliant one. In his "Story of My Calamities" (Historia Calamitatum) he tells us how pupils flocked to him from every country in Europe, a statement which is more than corroborated by the authority of his contemporaries. He was, In fact, the idol of Paris; eloquent, vivacious, handsome, possessed of an unusually rich voice, full of confidence in his own power to please, he had, as he tells us, the whole world at his feet. That Abelard was unduly conscious of these advantages is admitted by his most ardent admirers; indeed, in the "Story of My Calamities," he confesses that at that period of his life he was filled with vanity and pride. To these faults he attributes his downfall, which was as swift and tragic as was everything, seemingly, in his meteoric career. He tells us in graphic language the tale which has become part of the classic literature of the love-theme, how he fell in love with Heloise, niece of Canon Fulbert; he spares us none of the details of the story, recounts all the circumstances of its tragic ending, the brutal vengeance of the Canon, the flight of Heloise to Pallet, where their son, whom he named Astrolabius, was born, the secret wedding, the retirement of Heloise to the nunnery of Argenteuil, and his abandonment of his academic career. He was at the time a cleric in minor orders, and had naturally looked forward to a distinguished career as an ecclesiastical teacher. After his downfall, he retired to the Abbey of St. Denis, and, Heloise having taken the veil at Argenteuil, he assumed the habit of a Benedictine monk at the royal Abbey of St. Denis. He who had considered himself "the only surviving philosopher in the whole world" was willing to hide himself -- definitely, as he thought -- in monastic solitude. But whatever dreams he may have had of final peace in his monastic retreat were soon shattered. He quarreled with the monks of St. Denis, the occasion being his irreverent criticism of the legend of their patron saint, and was sent to a branch institution, a priory or cella, where, once more, he soon attracted unfavorable attention by the spirit of the teaching which he gave in philosophy and theology. "More subtle and more learned than ever", as a contemporary (Otto of Freising) describes him, he took up the former quarrel with Anselm's pupils. Through their influence, his orthodoxy, especially on the doctrine of the Holy Trinity, was impeached, and he was summoned to appear before a council at Soissons, in 1121, presided over by the papal legate, Kuno, Bishop of Praneste. While it is not easy to determine exactly what took place at the Council, it is clear that there was no formal condemnation of Abelard's doctrines, but that he was nevertheless condemned to recite the Athanasian Creed, and to burn his book on the Trinity. Besides, he was sentenced to imprisonment in the

Abstract

Abelard, Peter, dialectician, philosopher, and theologian, b. 1079; d. 1142. Peter Abelard (also spelled Abeillard, Abailard, Abaelardus) was born in the little village of Pallet, about ten miles east of Nantes in Brittany. His father, Berengar, was lord of the village, his mother's name was Lucia; both afterwards entered the monastic state. Peter, the oldest of their children, was intended for a military career, but, as he himself tells us, he abandoned Mars for Minerva, the profession of arms for that of learning. Accordingly, at an early age, he left his father's castle and sought instruction as a wandering scholar at the schools of the most renowned teachers of those days. Among these teachers was Roscelin the Nominalist, at whose school at Locmenach, near Vannes, Abelard certainly spent some time before he proceeded to Paris. Although the University of Paris did not exist as a corporate institution until more than half a century after Abelard's death, there flourished at Paris in his time the Cathedral School, the School of Ste. Geneviève, and that of St. Germain des Pré, the forerunners of the university schools of the following century. The Cathedral School was undoubtedly the most important of these, and thither the young Abelard directed his steps in order to study dialectic under the renowned master (scholasticus) William of Champeaux. Soon, however, the youth from the province, for whom the prestige of a great name was far from awe-inspiring, not only ventured to object to the teaching of the Parisian master, but attempted to set up as a rival teacher. Finding that this was not an easy matter in Paris, he established his school first at Melun and later at Corbeil. This was, probably, in the year 1101. The next couple of years Abelard spent in his native place "almost cut off from France", as he says. The reason of this enforced retreat from the dialectical fray was failing health. On returning to Paris, he became once more a pupil of William of Champeaux for the purpose of studying rhetoric. When William retired to the monastery of St. Victor, Abelard, who meantime had resumed his teaching at Melun, hastened to Paris to secure the chair of the Cathedral School. Having failed in this, he set up his school in Mt. Ste. Genevieve (1108). There and at the Cathedral School, in which in 1113 he finally succeeded in obtaining a chair, he enjoyed the greatest renown as a teacher of rhetoric and dialectic. Before taking up the duty of teaching theology at the Cathedral School, he went to Laon where he presented himself to the venerable Anselm of Laon as a student of theology. Soon, however, his petulant restiveness under restraint once more asserted itself, and he was not content until he had as completely discomfited the teacher of theology at Laon as he had successfully harassed the teacher of rhetoric and dialectic at Paris. Taking Abelard's own account of the incident, it is impossible not to blame him for the temerity which made him such enemies as Alberic and Lotulph, pupils of Anselm, who, later on, appeared against Abelard. The

Ain Shams University
Faculty of the Girls
Department of History

Abelard and His Position in The Medieval European Culture (1079 – 1142 A.D)

Ph.D. Thesis is Medieval History

By

Yasser Abdel Maboud Abdallah

Supervisors

Dr. Aliah Abd ElSameea AlGanzoury

Prof. Medieval History.
Faculty of the Girls,
Ain Shams University

Dr. Isaak Tawdrous Ebeid

Prof. Medieval History.
Faculty of Arts.
Ain Shams University

2007

Ain Shams University
Faculty of the Girls
Department of History

Abelard and His Position in The Medieval European Culture (1079 – 1142 A.D)

Ph.D. Thesis is Medieval History

By

Yasser Abdel Maboud Abdallah

Supervisors

Dr. Aliah Abd ElSameea AlGanzoury
Prof. Medieval History.
Faculty of the Girls,
Ain Shams University

Dr. Isaak Tawdrous Ebeid
Prof. Medieval History.
Faculty of Arts.
Ain Shams University

2007